موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

المجلد الرابع

الدكتور

محمد راتب النابلسي

مؤسسة

الفرسان

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

موسوعة

أسماء الله الحسنى

وصفاته الفضلى

من الكتاب والسنة

الطبعة الأولى
2014 م /1435 هـ

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الأردن – عمان – العبدلي
هاتف 00962 6 5607386
فاكس 00962 6 5653470
صندوق بريد 240664 عمان 11124 الأردن

Al Fursan Est.
Publishers & distributors
Jordan – Amman – Abdaly
Tel : 00962 6 5607386
Fax: 00962 6 5653470
P.O. Box 240664 Amman 11124 Jordan

E-mail: alfursan111@yahoo.com

الكتاب: موسوعة أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى
من الكتاب والسنة
4 مجلدات
المؤلف: الدكتور محمد راتب النابلسي
التخريج والتدقيق: بلال نور الدين
المراجعة النهائية: بلال نور الدين
الخطوط: الخطاط / يعقوب إبراهيم
الإشراف العام: م. حسن صالح

مؤسسة
الفرسان
للنشر والتوزيع

ISBN: 9789957570576 ردمك
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية: 3 / 1 / 2014

من صفاته وأفعاله

جل جلاله

الإرادة

من صفاته جل جلاله: الإرادة.

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء:٢٦].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٧].

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١].

من معاني الإرادة

الإرادة: من مادة الرَّوْد، والرَّوْد معناه الطلب، أراد، أي: طلب، والفِعْل راد يرود، والإرادة أيضاً هي المشيئة؛ شاء وأراد بمعنى واحد، والإرادة من معانيها الفرعية السعيُ في طلب الشيء.

قال بعض العلماء: «الإرادة في الأصل إرادةٌ مركبة من شهوة وحاجةٍ وأملٍ؛ هدفٌ أمامك وشهوة تحرِّكُكَ وحاجةٌ أنت محتاج إليها»، شهوةٌ وحاجةٌ وأملٌ؛ أو بتعريفٍ آخر، الإرادة: نزوع النفس إلى شيءٍ، فمثلاً أردتُ أن أذهب إلى حلب، وتاقت نفسي أو نزعَتْ أو مالت أو اتَّجهَتْ إلى أن تُسافِرَ إلى حلب، إذاً نُزوع النفس إلى شيء ما يعني إرادة.

والمعنى الثاني: الحكمُ على الشيء، والإرادة بمعنى النزوع إلى الشيء، هذا المعنى يليقُ بالإنسان، ولكن لا يليق بالواحد الديان؛ شيءٌ بعيدٌ عنك تتجهُ إليه، شيءٌ ليس بين يدَيْك تبحَثُ عنه، مكانٌ بعيد تسافر إليه، ومَنْصِبٌ رفيع تسعى إليه، ومكاسب كبيرة تمشي في طريقها، نزوع الإنسان إلى شيء هو معنىً أساسي من معاني الإرادة ولكن لا يليق إلا بالإنسان. أما الواحِد الديان فلا يمكن أن نقْبل هذا المعنى بالنسبة إليه عز وجل، إذ بالنسبة لله جل جلاله؛ إرادتُهُ، أي: حُكْمُهُ، فإذا أراد الله كذا حَكَمَ على هذا الشيء بكذا قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١].

إذاً: إذا قُلنا الإنسان أراد، أي: نزعَ إلى شيءٍ واتَّجَهَ إلى شيءٍ وأقْبل على الشيء، وأغْلَبُ الظن أنَّ هذا الشيء بعيد عنه، ولا بدَّ له من وسيلة؛ فالله عز وجل منزَّهٌ عن العلَّة الغائيَّة، أي: أن يتخذ إلى غاياته وسيلةً، أمَّا الإنسان فيُكمِّلُ ضعفَهُ بوسيلةٍ؛ فمثلاً من أجل أن يصل إلى بلدةٍ بعيدة يتَّخذ سيارة أو طائرة، ومن أجل أن يصل إلى الماء يجب

أن يحْفِر البئر، ومن أجل أن يأكل يجب أن يزرع، وهذه هي العلَّة الغائيَّة، أمَّا ربنا جل جلاله فهو منزَّهٌ عن العلة الغائية.

إذاً: من معاني الإرادة نُزوع النفس إلى شيء، وأن هذا الشيء بعيد ولا بدَّ لكي أصل إليه من وسيلة، والوسائل لا تُعَدّ ولا تُحصى، فإذا كان النزوع مكانياً فإنه يحتاج إلى مركبة، وإذا كان النزوع علمياً فهو يحتاج إلى دراسة، وإذا كان النزوع مالياً فهو يحتاج إلى عَمَل. فالإنسان حينما ينزِع إلى شيء يبحث عن وسيلةٍ يُكمِّل بها نقْصَهُ، أنا أريد أن أرى الخلية، فأنا عاجِز، فأستخدم الميكروسكوب لأرى الخلية، فهنا نَزَعَت نفسي إلى أن أرى الخلية فاحتجت إلى ميكروسكوب، فالنَّفْس التي نزعَتْ إلى شيء تتَّخِذ وسيلة، وهذا من ضعفِ الإنسان. أمَّا ربنا عز وجل فإنه إذا أراد شيئاً حَكَمَ عليه أنه هكذا، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾، فإرادة الله هي الحُكْم.

إنّ أُناساً كثيرين تختَلِط عليهم الأمور، الكون فيه أشياء مسخَّرة وأشياء مخيَّرة، والإنسان مُخيَّر، والجماد مسخَّر، والحيوان مسخَّر، وكذا النبات، فإرادة الله في المسخَّرات هي نفوذ حُكْمِه. أما إرادة الله في المُخيَّرات فهي تعني السماح، لأنَّ الله عز وجل حينما جاء بالإنسان إلى الدنيا حمَّلَهُ الأمانة، والأمانة من لوازِمها حرية الاختيار، والفِعل بيد الله عز وجل، فكيف نوفِّق بين أن الفعل بيد الله وأن الإنسان مخيَّر؟ نقول: إذا تعلَّقت إرادة الإنسان بشيءٍ بمعنى أنه اختار، تعلَّقت إرادة الله بتحقيق هذا الشيء فإرادتُهُ سماح، أيُعقلُ أن يسرق سارقٌ في الأرض خلافَ مشيئة الله؟ لا يمكن، وهل يُعقلُ أن الله أمرهُ أن يسرق؟ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف:٢٨].

كيف نوفِّقُ بين المعنيين؟ أيقع في مُلْكِه ما لا يريد؟ حاشا لله، هناك شر يقع، كيف يقع هذا الشر؟ إرادة الله مع المُخيَّر إرادة سماح، لكن مع المسيَّر إرادة أمر، فإذا اقترف

أحدٌ معصيةً معنى ذلك أن الله تعالى سَمَحَ له، ولماذا سمح له؟ لأنه مخيَّر، ولأنه جاء إلى الدنيا ليفعل أفعالاً اختيارية، والاختيار يُكمِّل عمله، إذاً يليق بالله عز وجل أن تكون إرادتُه في الكون إرادة حُكْم، إلا أن إرادتَهُ مع الكائن المخيَّر من الإنس والجن إرادة سماح.

وهذا شيء آخر، وهو معنى من معاني الإرادة، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة:١٨٥].

الله عز وجل يأمركم أن تكونوا ميسِّرين، أريد منك كذا يعني آمُرُك بكذا، فأول معنى عندنا هو: النزوع وهو متعلِّق بالإنسان، والمعنى الثاني: الحكم وهو متعلِّق بالله تعالى، والحكم مع المسخَّرات أمرٌ ومع المخيَّرات هو السماح، والآن هذا معنى فرعي من معاني الإرادة أراد الله كذا، أي: أمر بكذا.

وإليك معنىً آخر من معاني الإرادة وهو القصد، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣].

فالقصد والأمر والحُكْم والسماح والنزوع هذه هي معاني الإرادة. لكن هناك آياتٌ كثيرة في كتاب الله توضِّحُ تفاصيل هذا المعنى؛ يقول الله عز وجل: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

أنت إذا قرأت هذه الآية لعلك تظن أن الله شرح صدر إنسانٍ للإيمان فآمن، وضيَّق صدر إنسانٍ آخر فلم يؤمن، وكأنّ المعنى يوحِي بالجَبْر. والحقيقة خلاف ذلك كما قلنا قبل قليل، إذا أراد الإنسان شيئاً تعلقت إرادة الله بالسماح بأن يفعل هذا الشيء، إذا أراد الإنسان شيئاً، ولأنه مُنِح حريَّة الاختيار، ولأن الإرادة من صفات الإنسان، فإذا أراد الإنسان شيئاً تعلقت إرادة الله بالسماح بأن يفعل هذا الشيء، إلا أن هناك تحفُّظاً واحداً وهو أن الإنسان مخيَّرٌ أن يفعل ما يشاء، ولكنه لا يستطيع أن يصُبّ

اختياره على من يشاء، فله أن يسرق ولكن ليس له أن يسرق ممن يشاء، يسرق ممن يُسَيِّرُهُ الله تعالى لسرقتِهِ لحكمة بالغة، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٩].

وهناك معنىً فرعيٌّ آخر يجب أن أضيفَهُ لهذا المعنى؛ لو أنَّ إنساناً أراد شرّاً؛ أراد أن يعصي مثلاً أو أن يأخذ مالاً ليس له، أو أراد أن يفعل فاحشةً، فماذا يفعل معه ربنا سبحانه وتعالى؟ إن لم تكن هذه الشهوة مستحكِمةً، وإن لم تبلُغ هذه الشهوة درجة الحِجاب، فالشهوات تتنامى في نفس الإنسان، وهناك حدٌّ إذا وصلت إليه هذه الشهوة بَلَغَت حد الحجاب وحجبَتْهُ عن كلِّ شيءٍ؛ حُبُّكَ الشيءَ يُعْمي ويصمُّ، فإذا بلغ الإصرار على شهوةٍ منحرفة درجة عالية جداً تعلقتْ إرادة الله بهذا العبد بأن يسمح له بأن يفعل ما اختار، أما إذا كانت إرادتُهُ ضعيفةً، فالله سبحانه وتعالى لا يسمح له، بل يُنَبِّهُهُ ويُحذِّرُهُ فصار هناك قضيتان: القضية الأولى أن الله لا يطلق إنساناً وفقَ إرادَتِه إلا إذا كانت الحكمة المطلقة أن يفعل هذا الشيء، إذ السماح بيد الله عز وجل، فأنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

إذاً الإرادة التي يريدُها الإنسان إن كانت ليست في صالِحِهِ فربنا سبحانه وتعالى لا يسمحُ له أن يفعلَها، أما إذا بلغتْ إرادتُهُ درجةً عاليةً من الإصرار فعندئذٍ ربنا سبحانه وتعالى يسمح له أن يُنفِّذها، لا على من يشاء الإنسان ولكن على من يشاء الله عز وجل، فكن مطمئناً، ولو أن إنساناً شريراً يبدو لك أنه مخيَّر وأنه طليق اليدين وأنه يفعل ما يشاء، فالله جل جلاله لن يُسْلِمَكَ لأحدٍ، فهذا الشرير طليق اليدين لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا أراد الله عز وجل، والله يسوق ظالماً لظالم ومنحرفاً لمنحرف، أو يسوق إنساناً لا يعرفُهُ ليؤدِّب من يعرفُهُ؛ فالإنسان مخيّر والفعل فعل الله وإرادة الله مع غير المخيَّر إرادة أمر لأنه مسخَّر، أما إرادة الله مع الإنس والجن فهي إرادة سماح، لأن الإنسان مخيَّر؛ سماحٌ أن يفعل حينما تعلو الشهوة ويعلو الإصرار إلى درجة أن الحكمة المطلقة تنقلب إلى عملٍ، أما إذا لم يكن هناك إصرار، فربنا عز وجل يصرف عنه هذه الشهوة المنحرفة رحمةً به، أما إذا أصرّ عليها فإنه يطلقُهُ إليها.

والمعنى الثاني: أنه حينما يطلق الله هذا العبد لفعل شيءٍ ما يطلقه على من يستحق أو على من يكون التسليط عليه حكمةً في حقه فهذا هو فعل الله عز وجل.

في ضوء هذه المقدمة قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾.

الإنسان أراد الهدى ابتداءً؛ بحث عن الحقيقة وطلب معرفة الله عز وجل، وحيثما عُزِيَت إرادة الهداية أو إرادة الضلال إلى الله عز وجل فهي إرادة جزائية تأتي عقب طلب هدايةٍ شخصيٍّ، أو إضلال جزائي مبنيٌّ على ضلال اختياريٍّ.

إذا عُزيت إرادة الهداية أو إرادة الإضلال إلى الله عز وجل فهي الإرادة الجزائية المبنية على إرادة اختيارية وفي ضوء هذا التفسير: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾ الإنسان أراد الهدى فشاءت إرادة الله أن يهتدي؛ كيف يعينُهُ الله على هذا الطلب الرفيع؟ قال: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ لأن القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن فيشرح الله صدرهُ للإسلام، وماذا نسمي هذا الشرح؟ إنه معونةٌ من الله تعالى؛ مثلاً أبٌ عنده ولدان أحدهما طلب أن يدرس فأفرَدَه بغرفة خاصة وأعفاهُ من بعض المال وشجَّعه وكافأه فهذا تشجيعٌ من الوالد لولده. والإنسان حينما يريد الهداية ويصدُق في طلبها تتعلقُ إرادة الله في أن يهتدي، والله يشجِّعُ على ذلك ويشرح صدره للإسلام وهذا شيءٌ ثابت فبمجرد أن تبحث عن الخير وعن الهداية، وبمجرد أن تعمل عملاً صالحاً تشعر براحةٍ كبيرة جداً، وهذه الراحة تشجيعيّة من الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

طبعاً يضلُّهُ الضلالَ الجزائيَّ المبنيَّ على ضلال اختياريٍّ؛ أراد الضلال فسمح الله تعالى له به لأنه أصرَّ عليه، فيجعل صدره ضيقاً حرجاً، وهذا أيضاً تربية، لو أنه شرح صدره للضلال لكان الله تعالى معيناً لهذا العبد على الضلال، أمّا الأمر فهو عكس هذا، لو أراد الإنسان الضلال تضيق نفسُهُ وتتعسَّرُ أمورُهُ ويؤدَّب ويعاتَب ويوبَّخ، قال تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

عرفتم الآن ما حكمة الله في أنَّ قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن؟ الحكمة أن القلب إذا كان بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه لصالح عبده المؤمن كما يشاء، شاء الهدى فشرح الله صدره للهدى، وشاء الضلالة فضيَّق الله له صدره.

إذاً: شرح الصدر وتضييق الصدر لصالح العبد، فأنت مخيَّر إذا أصبتَ في اختيارك شجَّعناك ودعوناك إلى متابعة الخير، وأما إذا اخترتَ شيئاً سيئاً وبَّخْناك وضيَّقنا عليك من أجل أن تكُفَّ عن هذا الشيء، فهذه الآية أساسية: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

آيةٌ أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء:٢٦].

قد يبحث الإنسان عن موقف إنسانٍ آخر منه ويقول له: ماذا تريد أن تفعل بي؟ وماذا تريد مني؟ فربنا عز وجل يُطمئِن عبادهُ قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء:٢٧].

يعني إرادتُهُ متعلقة بهدايتكم، فقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ ولأنكم مخيَّرون فدورُ المربي مع المخيَّر التوضيح، فالداعية مثلاً بالنسبة للمدعوين؛ عليه أن يتركهم لاختيارهم فهم مخيَّرون؛ يستجيبون أو لا يستجيبون، يؤمنون أو لا يؤمنون، يستقيمون أو لا يستقيمون؛ فما دور الداعية في الدعوة إلى الله حيال إنسانٍ مخيَّر؟ عليه أن يُقنعهُ بالإيمان، فالإنسان مخيَّر ليس عليك هُداهم، وإنك لا تهدي من أحببت، ولستَ عليهم بمسيطر، وما أنت عليهم بوكيل، ولا يوجد إجبار، إلا أنَّ مهمَّة الأنبياء

والرسل ومهمَّة الذين ينوبون عن رسول الله ﷺ في تبليغ الحق؛ البيانُ والتوضيح لتحمل الإنسان على أن يقبل الحقَّ.

أحياناً البائع يعرض على المشتري بضائع كثيرة، ولو أنَّ البائع استحسن أن يبيعه نوعاً من البضاعة وهي جيدة جداً وسعرُها رخيص وهذا الذي يشتري يحبُّهُ، فإن البائع يعينه على أن يختار ويقول له: اختر ما شئت، هذه هي الأنواع وهذه هي الأسعار، وأنت مخيَّر، أما البائع الرحيم فيقول له: أنا سأنصحُكَ خُذْ هذه وهي جيدة جداً وسعرُها مناسب وعلى الاستعمال متينةٌ، فالبائع هنا تدخَّل، فربنا عز وجل أعطانا حرية الاختيار وأعطانا عقلاً في رؤوسنا، وكوْناً ينطق بوجود الله وعدْلِهِ ورحْمتِهِ وكمالاتِهِ، وأعطانا شرعاً وشهواتٍ نرقى بها، وحرية اختيار نثمِّن بها عملنا، فلو تركنا لضاع منا كلُّ شيء، وعلى الرغم من أنه أعطانا كلَّ شيءٍ فإذا اتَّخذنا قراراً صحيحاً شرح صدورنا وشجَّعنا وكافأنا وأكرمنا، وإن اتَّخذنا قراراً خاطئاً ضيَّقَ صدرنا وعسَّر أمرنا وعاقبنا ونبَّهنا، فالله هو رب العالمين يُربِّينا، ومن هنا كان القلب بيده من أجل أن يُربِّيَ عبْدَهُ، فإذا اتخذ قراراً صحيحاً شرح الله صدره، فإذا أردت أن تعرف ماذا يريد الله جل جلاله منك؟ فاسمع ما قاله الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

لذلك كن من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨].

هذا كلام رب العالمين، فالله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

ويطالعنا كذلك شيءٌ آخر؛ وهو أن الإنسان أحياناً يُحمِّل نفسَهُ ما لا تُطيق، ويحمِّل نفسَه من الأعباء والذنوب والخطايا ما لا يُطيق أن يواجِهَ بها الله يوم القيامة، فهو لا يدري، وهو غافِل، فجاءت الآية الكريمة: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء:٢٨].

قد يحمل الإنسان من الأوزار ما لا يطيق وهو غافل، لكنَّ الله يعلم، فلو أنك رأيت إنساناً يشتري من بلدٍ آخر بضاعةً ممنوعاً نقلُها إلى داخل البلاد ولن يستطيع إدخالَها وبقيتَ ساكتاً تكون من الذين خانوهُ، أمَّا إذا أردت أن تنصحه ونبَّهْتَهُ إلى أن هذه البضاعة غير مسموح أن تنقلها إلى بلدِك فقد خفَّفْتَ عنه، لأنه سيدفع ثمنها وسوف تصادر من قبل موظفي جمارك بلاده، فالله عز وجل إذا رأى عبداً يُحمِّلُ نفسه ما لا يطيق من المعاصي والانحراف فهو الآن غافل، أما حينما يأتيه ملكُ الموت فإنه يُصعَق قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

ثلاث آيات في سورة النساء ﴿ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾، و﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾، و﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ ﴾، يبين لكم كي تتوبوا، وإذا تُبْتُم خفَّف عنكم.

هناك آيةٌ أساسيةٌ في هذا الموضوع، يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس:١٠٧].

الشيء الذي يلفتُ النظر هو قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾، وقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾ فالخير مراد من قبل الله عز وجل أما الشر فليس مراداً، لذلك لم تأت كلمة يُردْك بشرٍ إنما قال: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ ﴾، مثلاً مدير مدرسة يمكنُهُ أن يعاقب طالباً ويمكن أن يفصِله، لكنَّ الأصل في المدرسة هو تعليم الطلاب وليس طرْدَهُم؛ أردنا من إنشاء هذه المدرسة

تعليم الطلاب، أما إذا شذَّ طالب فنفصِلُهُ، فالفَصْل غير مُرادٍ من قبل مدير المدرسة، لكن الفصل أحياناً علاجٌ طارئ نستخدمُهُ ولا نريدُهُ. وهذا الأب تجدُهُ يحبُّ ابنه حباً جماً فإذا أخطأ الولد خطأً كبيراً يحتاج إلى تأديب فيضربُهُ، لكنه يتمنى ألا يضربَهُ، يضربُهُ ليؤدِّبَهُ، وهو يتألم أشدَّ الألم حينما يضربُهُ، فالحكمة اقتضت أن يضربه وهذا هو معنى قوله الله عز وجل: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

يروى عنه ﷺ: «اطلُبوا الخير دهْرَكُم كله وتعرَّضُوا لنفحات رحمة الله تعالى» [رواه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أنس بن مالك]، يعني طول دهْرِكم وهذا من أنْدَرِ الشواهد؛ وهو أن ظرف الزمان قد يأتي له نائب، فدهركم تنوب عن ظرف الزمان والتقدير يعني: اطلُبوا الخير طوال دهرِكم، وتعرَّضوا لنفحات رحمة الله؛ إن طلبتم الخير تعرَّضتُم لنفحات رحمة الله عز وجل: «إن لربكم في أيام دهرِكم لنفحات ألا فتعرضوا لها» [رواه الطبراني في الأوسط عن محمد بن مسلمة]، فإن لله نفحاتٍ من رحمَتِهِ يصيب بها من يشاء من عبادِهِ، واسألوا الله أنْ يستُر عوراتِكم وأنْ يؤمِّن رَوْعاتِكم، والرَّوْعات جمع رَوْعة وهي الخوف، فنعمة الأمن لا تعدِلها نعمةٌ على الإطلاق، فإذا كان هناك خوفٌ وقلقٌ تنقلب معيشتُهُ إلى معيشةٍ ضنْك والله عز وجل قال: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش:٤].

ويقول الله عز وجل في سورة هود: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود:١٠٥].

الاستثناء هنا عائد إلى العصاة من المؤمنين، لأنَّ النَّار يدخُلُها العصاة منهم ولا خلود لهم فيها، أمَّا الخلود فهو للكفار، لكن من كان فيه ذرَّة من إيمان ففي النهاية يخرج من النار.

قال تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النجم:٥٩-٦١].

الإنسان في النهاية إمَّا إلى شقاءٍ أبدي وإمَّا إلى سعادةٍ أبدية، وهناك حالات خاصَّة؛ مؤمنٌ مقصِّر ومات عاصياً يدخل النار، ولكن إلى حين، وهذه الآية تؤكد هذا المعنى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

فمن كان في قلبِهِ مثقال ذرةٍ من خيرٍ يخرج في النهاية من النار وقد يبقى ملايين السنين وقد يبقى آلاف ملايين السنين، لكنه لا يخلد في النار إلا من شرد على الله شرود البعير.

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل:٤٠].

حتى العلماء قالوا: «كن هي حركة. فيكون حركتان. وهناك ثلاث حركات، إلا أن أمر الله تعالى أسرع من هذا وليس فيه زمن، فكلمة كن لمجرد أن تتعلق مشيئة الله في أن يكون شيءٌ هو كائن بلا تأخُّر»، ولكن الأمر تقريب لأذهاننا قال تعالى: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

نصيب المؤمن من معرفة صفة الإرادة

التطبيق العملي لهذه الصِّفة هو أنك إذا تعامَلْت مع الأشخاص فهم محْدُودُو القدرات، فقد يتمنَّوْن أن يُعْطوك شيئاً ولا يستطيعون، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فإذا كنت مع الفعال لما يُريد تحقَّق لك كلُّ شيء، واسمع قوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج:١٦].

وهناك شيءٌ آخر تطالعنا به الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء:١٦].

فالقرية حينما تفسُد يعاقب أهلها، وبعض معاني هذه الآية أن آخر علاج قبل أن يُهْلِك الله هذه القرية يُؤَمِّرُ مُتْرَفيها، فهو آخر علاجٍ وهو علاجٌ مُرٌّ؛ أن يتأمَّر المُتْرَف الغافل المُنْحَرِف.

روي عن رسول الله ﷺ: «إذا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ منْ بَطْنِهَا، وإذا كانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكَمْ، وَأُمُورُكُمْ إلى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِها» [رواه الترمذي من حديث أبي هريرة].

المعنى الأول: أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يُهْلِك قريةً لعِصْيانِها وانْحِرافِها واسْتِغْنائِها عن منهج الله، فهناك قراءةٌ بتشديد الميم (أَمَّرنا) وهي قراءة شاذة، وهي قراءة علي وأبي العالية وأبي عمرو وأبي عثمان النهدي وهي تُناسِب هذا المعنى وهي: (أَمَّرْنا مترفيها) جعلنا مُتْرَفيها أُمراء ففسقوا فيها، وبالتالي هؤلاء الذين أُمِّرَ عليهم المُتْرَفون وساموهُم سوء العذاب لم يتوبوا، وقد تعجَبُ أحياناً من مصيبةٍ طاحِنة حلَّتْ ببلدٍ ثم ترى أهلها بعد ذلك أشدَّ تفلُّتاً مما كانوا عليه من قبل، وقد قيل: من لم تُحْدِث المصيبةُ فيه موعظةً فمصيبتُهُ في نفسهِ أكبر، فقرية انحرفت واستحقَّت الهلاك وضلَّتْ عن سواء السبيل بحسب قوانين الله عز وجل، وآخر علاج: أَمَّرْنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها، ولم يتب الذين كانوا متلبسين بالفسق والفُجور، ولم يعودوا عن ضلالتهم، فحقَّ عليهم القول فدمَّرناها تدميراً.

والمعنى الثاني: وإذا أردنا أن نُهْلِك قريةً قبل أن نُهْلِكها ننذِرُها ونأمر مُتْرَفيها أن يستقيموا فلا يستقيمون، ولِمَ قال الله مترفيها؟ المترفون هم المُبَذِّرون الذين يعيشون لشهواتِهم والأغنياء الذين ينفقون أموالَهم على المعاصي والآثام والعلوِّ في الأرض، والترف في آياتٍ ثمانية اقترن بالكفر، والمُتْرَف هو إنسان يعيش للدنيا فقط، وهؤلاء المُتْرفون معقِدُ أنظار الناس، والناس تَبَعٌ للأقوياء والأغنياء؛ ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾، وهو المعنى الثاني فإذا أردنا أن نُهْلِك قريةً لا نُهْلِكها ابتداءً إنما نُنْذِرها قبل أن نُهْلِكها، والإنذار أمرْناهم أن يستقيموا من خلال كتابهِ وسُنَّةِ نبيه ونصيحة الناصحين ودعوة الداعين وخُطَب الخطباء وكتب المؤلِّفين أمرنا مُتْرَفيها ففسقوا فيها؛ أمرْناهم بالطاعة ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمَّرْناها تدميراً.

ثم إن الشيء الذي يمكن أن تستفيد منه كثيراً من خلال البحث أنْ تُنَزِّهَ الله عما لا يليقُ به، بمعنى: إذا خطر ببالِك معنىً أنّ الله أراد الضلال للناس، قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ هذه الآية تحتاج إلى شرحٍ؛ أراد الهلاك أو أراد الضلال يجب أن تعلَم أنَّ الإرادةَ إذا كانت مُنصَرِفةً إلى الإنسان فهي إرادة سماح أو تأديب، أما إذا عُزِيَ الإضْلال إلى الله عز وجل فهو الإضْلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري.

وهناك شيءٌ آخر في هذا الموضوع وهو أن كلَّ شيءٍ أرادَهُ الله تعالى وقع وهو الفعالُ لما يريد، أما نحن فنتمنى ونريد ولا يحققُ مما نريد إلا اليسير، لأننا ضعفاء ومحدودون، وكلُّ إنسانٍ له قدرةٌ محدودة، أمَّا ربُّنا عز وجل فهو فعالٌ لما يريد، المعنى الثاني أنّ كل شيءٍ أرادَهُ الله وقَع، وأنَّ كل شيءٍ وقع أرادَهُ الله فالأول واضِح، اقرأ قولَه تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١].

أما الثاني فأيُّ شيءٍ وقع أرادهُ الله، فالعبارة هذه تُعكَس أراد ووقع ووقع وأراد، فإن أراد وقع وإنْ وقع الشيء أرادهُ الله، فهذه الفكرة على إيجازها تملأ قلبَكَ رضا، إنسان ارتكب حماقة كبيرة وسافر بوقتٍ معين، فأُصيب بمشكلة لا نقول: لو لم يسافِر لم يُصَب، إنما نقول: ما دام هذا الشيء وقع في مُلْك الله إذاً أرادَهُ، فإذا كان مع الجماد أرادهُ فعلاً، ومع المخيَّر أرادَهُ سماحاً.

لذلك قالوا: لكلِّ واقعٍ حكمة، وقد يكون الإنسان غيرَ حكيم، لكن ربنا عز وجل لحكمةٍ بالغة يوظِّفُ شر الناس لخير مطلق، فالشر لا وجود له إلا في النفوس، أما في العالم الماديِّ فالشرُّ هو مداواة، والشرير يريد أن يفعل شيئاً مزعجاً ويريد أن يؤذي، لكنه لا يؤذي إلا من يستحقّ الأذى، أو لا يؤذي إلا من يستحقّ التأديب، أو لا يؤذي إلا من يكون إيذاؤُهُ حكمةً بالغةً، ففي الواقع المادي لا يوجد شرٌّ مطلق، والشرُّ يأتي من مخلوق مخيَّر مقطوع عن الله في نفسه فقط، أما الأفعال فهي أفعال الله عز وجل، وكلُّها توظِّف الشر في الخير المطلق.

لذلك: كلُّ شيءٍ وقع أراده الله، وهذه المقولة تُلغي كلمة لو، ولكلِّ شيءٍ حقيقة، وما بلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابَهُ لم يكن ليُخطِئهُ، وما أخْطأهُ لم يكن ليُصيبَهُ، وكلُّ شيءٍ وقع أرادَهُ الله وكلّ شيءٍ أرادهُ الله وقع، وإرادة الله متعلِّقةٌ بالحكمة المطلقة، والإنسان أحياناً يريد شيئاً لا حكمة فيه، والسبب إمَّا أنه وقع تحت إغراءٍ شديد فطاشَ صوابُهُ أو تحت ضغطٍ شديد فاختلَّت رؤيتُهُ، أو لأنه يجهل، والجهل والإغراء والضغط هذه تلغي حكمة الإنسان، لكنَّ هذه المعاني التي تقع من الإنسان لا تليق بالله عز وجل، لذلك يجب أن نقول إرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمتُهُ المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق. وإذا عقلْتَ هذا فالمقولة ستجدها في آخر البحث مريحة ومطمئنة لنفس المؤمن. فإذا نظرت إلى كلِّ ما يجري في العالم بادئ ذي بدء تشعر براحةٍ كبيرة، والسبب أنَّ كلَّ شيءٍ وقع أراده الله، ومعنى أن الله أرادهُ: أنه لو لم يقع على نحو ما وقع لكان الله تعالى ملوماً في ذلك، ولكان الذي وقع على نحوٍ آخر نقْصاً في حكمة الله عز وجل فالذي وقع أراده الله، والذي أرادَهُ الله وقع، والإرادة الإلهية متعلِّقةٌ بالخير المطلق، والحكمة المطلقة متعلِّقةٌ بالخير المطلق.

وآخر شيءٍ أشير إليه أنَّ لكل واقعٍ حكمةً قد تُكشف بعد حين، قد تنشأ مشكلة من سببٍ بسيط، والإنسان لضعف إيمانِهِ يقول: ليت هذا لم يقع؛ فالله عز وجل أراد شيئاً كثيراً مثلاً السيدة عائشة رضي الله عنها كانت في إحدى الغزوات مع رسول الله ﷺ، وكما ورد في «صحيح البخاري» كانت خفيفة الوزن، فلما قادوا جمَلَها ظنوها في الهَوْدَج وساروا وقد خلَّفوها وراءهم، فلما فاتَها الجيش التَفَتَ أحد الصحابة المتأخرين خلف الجيش وهو صفوان بن المعطِّل السّلميّ ثم الذكواني فرآها فعامَلَها كأُمِّهِ وغضَّ بصره عنها وسار بها حى أدرك الجيش، فأراد المنافقون أن يثيروا فتنة، وحديث الإفك معروفٌ وهو مذكور في سورة النور، قد يقول أحدكم لو أن الذي قاد الجمل تَفَقَّدَها، ولو أنَّها استيقظت ولو لم تغْفُ لما كان هناك حديث إفك؛ مشكلةٌ طويلة عريضة بقيت قرابة شهر وبعض أهل المدينة يُرْجِفون فيها، والمنافقون وجدوا مادة دسمة جداً، وتكلَّموا وأخذوا حُرِّيَتَهُم، والمؤمنون سكتوا وتألَّموا ووقعت مشكلة وفتنة، هذا

الحديث وهذه القضية الكبيرة سببُها غفلةٌ من السيدة عائشة رضي الله عنها، والذي قاد الجمل لَيْتَهُ تفقَّدها، ولما استيقظت وجدتْ نفسَها بعيدةً عن الجيش، صفوان ابن المعطل في أعلى درجات الأدب والحياء، فعل ما ينبغي أن يكون، فصارتْ هناك مشكلة، فماذا قال الله عز وجل؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النور:١١].

فالله تعالى امتحن الناس، وكانت عملية فرز وهذا هو الأمر الأول، فالمؤمن ظنّ بنفسِهِ خيراً والمنافق عبَّر عن حِقْدِهِ وضغينتِهِ وفرَحِهِ، والمؤمن سكت، والكافر تكلَّم. والأمر الثاني: لئلا نتوهَّم أن الوحي قضية متعلقة بالنبي ﷺ وأنه أمرٌ سهل، فلو أن النبي ﷺ يملِك أمر الوحي لحلَّ المسألة بدقيقة واحدة وبآية واحدة، فالوحي تأخَّر قرابة شهر، وليس مع النبي ﷺ أدلة إثبات وليس معه أدلة نفي، والمنافقون يمرحون ويتكلمون ما يشاؤون، والنبي ﷺ يتألَّم أشدَّ الألم، والسيدة عائشة أصابها مرضٌ شديد، وأُمُّها مرتبكة وأبوها مضطرب، وكذلك رسول الله ﷺ في حيرة؛ أيُعقلُ أنْ تفعل زوجتُه ما يقولون؟ وما شعور الزوج إن تحدث الناس عن زوجتِهِ أنها زانية؟ وما شعور والدة الفتاة ووالدُها؟ وما شعور المؤمنين؟ تقول: يا رب! لو أنها ما غفلت لما وقع حديث الإفك كلِّه؛ فما دام الشيء وقع نقول: قد أرادَهُ الله، وقد يبدو لك أنَّ شيئاً كبيراً وقع لسببٍ يسير وهذا السبب الصغير مقدَّر من الله عز وجل؛ فقد امتحن المؤمنين وفرزَهُم وارتقى بعضهم وسقط بعضُهُم وظهرت نُبُوَّة النبي ﷺ، وظهر أنَّ الوحي شيء مستقلٌ عن إرادة النبي ﷺ ولا يملك له جلْباً ولا دفعاً، وتأخُّرُ الوحي أربعين ليلةً فيه حكمةٌ بالغة وقِسْ على هذا كلَّ شيءٍ.

وفي صلح الحديبية أُمليتْ على النبي شروط غير معقولة، وافق عليها النبي ﷺ لكن الصحابة ما ارتاحوا لهذه الشروط، سيدنا عمر قال: أوَلَسْنا مؤمنين؟ قال النبي: بلى. قال: أوَلَيْسوا مشركين؟ قال النبي: بلى؛ قال عمر: فعلام نُعْطي الدَّنِيَّة في ديننا؟!

[رواه البخاري، عن المسور ومروان] ثم ظهر فيما بعد أن وثيقة صلح الحديبية كانت فيها حكمة ما بعدها حكمة، وكان فيها سياسة ما بعدها سياسة، وانعكس الأمر على كفار قريش.

أردت من هذا كلِّه أنَّ الشيء إذا لم يعجبْك فانتظر ولا تتعجَّل في إبداء رأيك، وما دام أنه وقع فقد أرادهُ الله، وقُلْ هذه المقولة: لكلِّ واقعٍ حكمة وقد يكون الذي أوْقع هذا الأمر من الناس ليس حكيماً وقد يكون أحْمَق ومنحرفاً فلأنه وقع فقد أراده الله، أمَّا عظمة الله عز وجل فتتبدَّى في أنه يوظِّف الأشياء غير الحكيمة في حكمةٍ لا تعلمُها أنت ولحكمةٍ مطلقة.

فإنسان يفحص صدر فتاة تطلب التوظيف ويُعطي الفتاة نتيجة فحص فتاة أخرى مصابة بالسل، فهذه الفتاة حينما تعلم أنها مصابةٌ بهذا المرض، وقد ابتعد عنها أهلُها بسبب ذلك، وعزلوها عنهم، واسودَّت الدنيا في وجهها، فهذا الذي أعطى النتيجة متسرِّعاً ألم يقع في خطأ كبير؟ بلى، لكن هذه الفتاة حينما علمت بهذه النتيجة انهارت أعصابها، ثم أرادت أن تتوب إلى الله عز وجل فتابَتْ وصلَّت وتحَجَّبَتْ ثم علمت بعد حين أنها صحيحة وليست مريضة، فربنا وظَّفَ خطأً هذا الموظف في الخير المطلق، فهذه نقطة مهمّة جداً، لكل واقعٍ حكمة وما دام أنه وقع فاطْمَئِن، الله عز وجل لا يريد إلا الخير، أما الشرُّ المطلقُ في الكون فهو غير موجود، ولا يمكن أن يكون مع الله شرٌّ مطلق، لكن يكون شرٌّ نسبي موظَّفٌ للخير المطلق.

العَدْل

من صفاته تعالى: العَدلُ.

قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف:٤٩].

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [فصلت:٤٩].

من معاني العدل

العدل صفة من صفات الله تعالى، وهي مصدر عَدَلَ يَعْدِل عدلاً فهو عادل، فالله تعالى هو الحَكَمُ العَدْلُ.

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى عدْل في خلقه، وعدْل في تشريعه، وعدْل في أمره التكويني، وفي أفعاله، أي: عدل في خلقه، وعدل في أمره، وعدل في فعله، خلق، وأمر، وفعل، فمن صفاته العدل.

هو عدْل في خلقه، فمكان اليد مناسب جداً، وفي موقع متوسِّط، والشيء المعتدل الذي هو بين الإفراط والتفريط، فمفتاح الكهرباء مثلاً إذا وضع في مكان يتناسب مع أهل البيت، فالأب يحرِّك يده إلى مستوى معين فيستخدمه، والأم والابن وجميع من في البيت يستعملونه براحة فهذا المكان معتدل، لو كان مرتفعاً لاحتاج الأمر إلى سُلَّم، ولو كان منخفضاً مع الأرض لاحتاج الأمر إلى أن ينبطح الإنسان ليتألَّق المصباح، أمَّا أن يكون هذا المفتاح في مكان معتدل بين الارتفاع والانخفاض فهذا المكان اسمه مكان معتدل، والاعتدال من العدل والاعتدال هو التوسّط، ودائماً التَّوسُّط هو الموقف الأكمل بين الإفراط والتفريط.

ولو أنَّ الإنسان رأى في كأس الماء كلَّ الكائنات الحية لما شرب الماء، فلو أنَّ العين بلغت من الدِّقَّة بحيث ترى كلَّ شيء لاستحالت حياتنا شقاءً، ولو أنَّ العين بلغت من ضَعْفِ الرؤية ألا ترى الشيء الخطِر لهلكنا، إذاً في الحالة الأولى إفراط وفي الثانية تفريط، فعتبة الرُّؤية لها حدٌّ معتدل، فالله سبحانه وتعالى عدُل في خلقه.

وأمَّا عن عتبة السمع، فهناك أصوات لا تسمعها، ولو سمعتها لما نمت الليل، فالموجات الصوتية تخمد، وليست كالأمواج الكهرطيسية التي لا تخمد، وقد أطلقت مركبة إلى كوكب المشتري وبقيت مركبة الفضاء تطير في الفضاء بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة، فقضت ست سنوات إلى أن وصلت، وأرسلت منه رسائل بالراديو، وكما يقولون: فإن الأمواج الكهرطيسية لا تخمد بل تبقى سَعَتُها هيَ هيَ، لذلك فهذه الأمواج الكهرطيسية هي سبب البث الإذاعي، فالأمواج الصوتية العادية تتخامد، ولو كانت كالأمواج الكهرطيسية، لسمعت في دمشق مثلاً كلَّ صوت في الأرض، كصوت أمواج البحار، ومعامل الفولاذ، وانفجارات البراكين، ولأصبحت الحياة مستحيلة، إذاً عتبة السمع وتخامُد الأصوات خلق معتدل.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر:٤٩].

إذاً فبصرك بقدر، وسمعك بقدر ورؤيتك بقدر، والإنسان أحياناً تُجرَح يده فلو أمسك باب الثلاجة عندئذٍ لأحسَّ بلسع الكهرباء الساكنة، ولو تناول طعاماً فيه حمض لتألم، فيقال لك: عرق ملح، ولو أنَّ الأعصاب الحسية نمت أكثر مما هي عليه لأصبحت الحياة مستحيلة، وكذلك أعصاب الضغط وأعصاب الحس والسمع والرؤية والحركة.

فمفصل المرفق في مكان معتدل بحيث يمكن أن تأكل، ولو لم يكن هذا المفصل أو كان في مكان آخر فلا بدَّ أن تضع الصحن على الأرض وتنبطح وتأكله بلسانك، ولا يوجد طريقة ثانية فمكان المفصل معتدل.

وضع اليد على الكتف، فلو كانت على الورك إلى الأسفل مع القدم لفسد كثير من أمرك، أو لو أنَّ العين في قِمَّة الرأس أو في الظهر أو في الكتف، لاختلَّ نظام حياتك وعملك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار:٦-٨].

أي: خلقك أيها الإنسان بحواسك وأعضائك وأجهزتك والغدد الصماء وجهاز الهضم والقلب والرئتين، وكل ذلك باعتدال، إذاً: فسوّاك فعدلك.

وكذلك تجد الاعتدال بخيوط النسيج، فلو أنَّ الثوب يهترئ من لبسة واحدة لشقَّ الحال على الناس، فليس معقولاً أن تتصوَّر إنساناً اشترى قطعة جوخ وفصّلَها، وأخذ قياسات، الحين بعد الحين، وبعد شهر تسلَّمها صاحبها، ثم لبسها لبسةً واحدةً واهترأت! فترى الخيط له متانة معتدلة تلبسها سنة أو سنتين وتهنأ بها، ثم تهترئ، إذاً فالخيوط تماسكها باعتدال.

وهذه الدجاجة تعطي كلَّ يوم بيضة، فلو أعطت كلَّ شهر بيضة لكان البيض غالي الثمن كثيراً، ولو كان ثمن العلف للبقر يفوق ثمن حليبها فلا يُربي أحد بقراً، إذاً كميَّة الحليب الذي تنتجه البقرة بالقياس إلى ثمن العلف معتدل.

ويمكن أن تتفكَّر في مخلوقات الله، فتشعر وتتحقق: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾، لا إفراط ولا تفريط ولا تهوَّر ولا تقصير، ولا مبالغة ولا إيجاز، بل كلُّ شيء خلقه الله باعتدال، فهو عدل في خلقه.

بُعد الأرض عن الشمس باعتدال، فلو أنَّ الشمس أقرب لأصبحت الأرض فرناً، ولو أنها أبعد لأصبحت قبراً جليدياً، إذاً الشمس والقمر بحسبان والمسافات بمنتهى الدراسة الدقيقة.

والطفل يبقى في بطن أمه تسعة أشهر، ولو بقي خمس سنوات فأمر لا يُحتمل، ولو كان الحمل أسبوعاً واحداً لأصبح عندك مئتا ولد، وهذا شيء لا يُحتمل أيضاً، ولو كان المبيض عند المرأة ينتج البويضات إلى ما لا نهاية كالرجل لكنت تراها في الخامسة والثمانين حاملاً يجيئها المخاض، وهي عجوز بلا أسنان، فعدد البويضات معتدل، وحينما تنفذ هذه البويضات في سن اليأس، أي: في الخامسة والأربعين إلى الخمسين فلا حمل من بعد، فهذه رحمة الله بالمرأة، فهو عدل في خلقه.

هذه أمثلة من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار، ولو كان النهار خمسين ساعة وطاقتك ثماني ساعات، تفتح المحل وتغلقه، وتذهب إلى البيت، وتنام في النهار وغيرك يعمل، تعود وتعمل مرة ثانية فحياة لا تحتمل، ولو جعل النهار خمسين ساعة والليل خمسين ساعة تنام وتستيقظ، وتعمل، وتنام، وتستيقظ، وتعمل، ولعمّ الخلل، وانعدم النظام، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧١-٧٢].

إذاً: يجب أن تؤمن بأنَّ طول الليل وطول النهار وبُعد الشمس والقمر عن الأرض، وحجم القمر والأرض كلُّه عدل وبقدر.

ولو أنَّ حجم الأرض خمسة أمثال حجمها الحالي، فوزنك يتضاعف خمسة أمثال، وتصبح حركتك أشغالاً شاقة لأنَّ وزن الإنسان متعلق بحجم الأرض، والدليل وزن الإنسان على سطح القمر سدس وزنه الحالي يهبط من ستين كيلو إلى عشرة.

إذاً: حجم الأرض وكثافتها وقوة جذبها وبُعدها عن الشمس وعن القمر وهي تجري وتدور، كل ذلك باعتدال، فسبحان من خلق فسوَّى.

وأمَّا المحاصيل، فلو أنَّ القمح ينضج تباعاً كالبطيخ، لاحتجنا إلى أن نمسك سنبلة سنبلة لنتبين هل نضجت فنقطعها أم لا فنتركها؟ لكنَّ السنابل تحتاج ثلاثة أشهر، ثم تُحصد كلُّها دفعة واحدة، وتجمع القمح في يوم واحد، أمَّا الفواكه فتنضج تباعاً.

إذاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [الانفطار:٦-٨].

فالله سبحانه وتعالى عَدْلٌ في خلقه، أي: خلقه في درجة مناسبة حكيمة معتدلة مدروسة كما يقولون.

إذا استيقظت صباحاً وصليت الفجر، وجلست كي تفكِّر في مخلوقات الله، فيمكن أن تمشي في هذا الباب الطيب الذي يزيدك معرفةً بالله إلى مسافات طويلة، فانظر كلَّ شيء تر أمره إلى الاعتدال!

تصوّر لو كان قِشرُ البندورةِ للبطيخ، فلن تأكل بطيخة في حياتك لأنها لا تنتقل معك من مكان إلى آخر، وتصور قشرَ البطيخ للبندورة، فتصير كلُّها قشراً.. القشر معتدل والحجم والقِوام والطعم معتدل والحلاوة معتدلة فخلق ربنا عجيب.

وقد يصنع الإنسان حلويات بعيارات غير مدروسة فتنبو على الذوق، أما ربنا عز وجل فقد خلق فقدر فتأكل التفاح والإجاص والكمثرى والعنب والتين والبلح، وكلُّه باعتدال.

إذاً: أول معنى من معاني العدل عدل في خلقه، يعني خَلَقَهُ بحِكمة بالغة، وهذه آية أخرى تعبر عن هذا المعنى نفسه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام:٧٣].

يعني بالحق بالدرجة الحكيمة، المعتدلة التي لا تزيد ولا تنقص، فتأمَّل خلقك، ثمَّ تأمَّل طعامك؛ وكذلك أجِل نظرك في خلق الإبل قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس:٢٤].

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الطارق:٥-٨].

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠].

هذا في خلقه فاعتبروا يا أولي الألباب.

والآن من صفاته جل جلاله أنَّه عدل في أمره: أمرك أن تصوم ثلاثين يوماً في العام فلو أمرك أن تصوم ستة أشهر، فشيء فوق طاقة البشر، فثلاثون يوماً هذا هو الحدُّ المعتدل، وأمرك أن تُصلي خمس مرات فلو كانت خمسين صلاة، وكلُّ صلاة خمسون ركعة لما أطقنا ذلك فالأمر معتدل، قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦].

فالصيام إذاً معتدل، والحجُّ في العمر مرة، والزكاة ربُع العشر، مقدار معتدل، الشريعة عدل إذاً، ولكن انظر في قوانين البشر إنَّ بعض الضرائب بالمئة ثمانون إلى ثلاث وتسعين، فكم يشعر الإنسان أنه مغبون؟ أمَّا الزكاة فربُع العشر، النسبة المعتدلة بالألف خمس وعشرون ليرة وبالمئة ليرتان ونصف، وفي مئة ألف ألفان وخمس مئة، وفي مليون

خمسة وعشرون ألفاً فالرقم مقبول، ومعه راحة نفسية، فالزكاة، والصيام، والحجُّ كلٌّ باعتدال، وحتى الأوامر فمثلاً غُضّ من بصرك، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠].

ولو قال: غضوا أبصاركم لَهَلَكنا جميعاً، ولكن جاء الأمر: «من أبصارهم» فإذا حصلت مفاجأة غير متوقعة وبأقل من عُشر الثانية غضضت بصرك فلا شيء عليك، فالأمر معتدل.

أمرُ غضِّ البصر معتدل، وأمر الزكاة معتدل، وأمر الصوم معتدل، فإن سافرت رخّص لك بألا تصوم: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤].

وإن كنت على سفر فصلِّ ركعتين فقط في الرباعية، اقصُر من الصلاة.

وأنت على موعد مع السيارة ومع الطائرة ومع المطار وفكرك مضطرب، فقال لك: صلِّ الظهر ركعتين، واجمع جمع تقديم وجمع تأخير، فالشرع معتدل، والله عَدْلٌ في خلقه، وعَدْلٌ في أمره.

وبعد، فلنا وقفة عند العدل في أفعاله، لقد تحدثنا عن العدل في خلقه وعن العدل في أمره، وبقي العدل في فعله، فيجب أن تعلم علم اليقين أنَّ في الكون عدالة مطلقة، لكن قد تُفاجأ بسؤال، إنَّ فلاناً مستقيم بعمله التجاري، فمحله التجاري كله منضبط، أسعاره مسجلة، ومعتدلة، ولديه مستندات كاملة، فجاءه موظف وافتعل مخالفة، وكتب ضبطاً، وزجّه في السجن، أليس هذا ظلماً صريحاً؟

الجواب: هذه الحادثة بحد ذاتها هي ظلم ظاهري، أما لو ربطت حياة هذا الإنسان في بيته، مع أهله وجيرانه، ومع من هم دونه ومع من هم فوقه، وجمعت الحسابات كلَّها بعضها إلى بعض، لرأيت في هذا البلاء منتهى العدل، وبالتعبير التجاري هناك حساب

جارٍ وهناك حساب السندات، في حساب السندات كل حساب على حدة، أما في الحساب الجاري فتضم الحسابات بعضها إلى بعض.

حادثة جرت من عشر سنوات، اثنان تشاجرا في سوق من أسواق دمشق، أحدهما معه سلاح فأطلق رصاصة، فأخطأت خصمه، وهناك من سمع الشجار فمدَّ رأسه من دكانه فجاءت الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري، فشُلَّ فوراً.

فاستوقفني رجل وقال: أنت تحدثنا عن عدالة الله، فما صنع هذا؟ إنه رجل صالح فتح دكانه ليسترزق ويسعى على عياله وهو يبيع أقمشة، ولا ذنب له، سمع شجاراً، فمدَّ رأسه فجاءت هذه الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري فأصبح مشلولاً، فأين عدالة الله؟ قلت: والله أنا أعرف أن الله عادل، ولكنك أطلعتني على فصل من فصول هذه الحادثة، ولعل لها فصولاً لا نعرفها، لا أنا ولا أنت، وأنا أسلم لعدالة الله.

فوالله الذي لا إله إلا هو؛ إنها من غرائب الموافقات: وهي أن صديقاً لي من حي الميدان حدثني بعد عشرين يوماً عن حادثة غريبة فقال: لنا جار كان وصياً على أموال أولاد أخيه الأيتام، وبقي لهم معه عشرون ألفاً -ثمن بيت- والحادثة قديمة، وكان البيت ثمنه عشرون ألفاً، فرفض أن يعطيهم هذا المبلغ فشكوه إلى أحد علماء الميدان، وهو الشيخ حسين خطاب رحمه الله تعالى، فاستدعاه واستدعى أولاد إخوته، فأصرَّ على عدم دفع المبلغ الذي عليه فقال الشيخ حسين رحمه الله بالحرف الواحد: «يا بنيَّ هذا عمكم، فإياكم أن تشتكوا عليه للقضاء، هذه الشكوى لا تليق بكم، ولكن اشكوه إلى الله» هذه الواقعة تمَّت الساعة الثامنة مساءً، في اليوم الثاني مدّ رأسه من الدكان فأصابته الرصاصة فشُلَّ جسمه.

وقال لي رجل: هل من المعقول أن يعاقبني الله على ذنب لم أفعله حتى الآن؟ قلت: هذا العقاب جزاء ذنب قديم، فيجب أن تؤمن بعدالة الله المطلقة.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]: عقوبة بذنبك يا ابن آدم. وقال ﷺ: والذي نفسي بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما. [أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد في «مسنده» من حديث أنس].

ويقول ﷺ: ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب وما يدع الله عنه أكثر [رواه الطبراني عن البراء].

ويقول ﷺ: لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر [الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري].

يجب أن تبلغ درجة من اليقين، لأن رسول الله ﷺ يقول: «اعمل ما شئت كما تدين تدان» وتمامه:

«البِرُّ لا يَبلَى والذنب لا يُنسى والديّان لا يموت، اعمل ما شئت، كما تدين تدان» [مصنف عبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلاً] تكون باراً بوالديك فالله عز وجل يلهم أبناءك أن يكونوا بررة بك وإن تخدِم تُخدم، «أنفق بلال! ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» [البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة]، «أَنفقْ أُنفقْ عليك» [رواه الشيخان وأحمد من حديث أبي هريرة >] ولا أعتقد إلا أن أكثر القراء لديهم من مثل هذه الوقائع والأحداث الكثيرة، والعبرة منها كلِّها: أنه كما تدين تدان، وكذلك اعمل ما شئت فإنك مجزي به.

طبعاً هذه حكايات لكن؟ نحن نقتنص ما بها من عبرة، وأنا متيقن أنه لا يقع شيء في الأرض إلا وفق عدالة مطلقة، فدائماً إذا سمعت حكاية أو حادثة فيها ظلم، فسأنصحك هذه النصيحة: قل لنفسك: لقد سمعت فصلاً أو عدة فصول من هذه الواقعة وبقي فصل لا أعرفه، ولو عرفته لرأيت العدالة المطلقة، فاعرف الفصل الأخير دائماً ولا تتسرع، وتمهل ولا تحكم وقل: الله أعلم، وكفى بربك بعباده خبيراً بصيراً، الله يعلم ونحن لا نعلم.

فاعلم علم اليقين أن الله عز وجل عدل في خلقه، وعدلٌ في أمره وعدلٌ في فعله، أفعاله كلُّها عادلة.

شيء آخر: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى:٣٠].

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ۝٥٩﴾ [الكهف:٥٩].

وتقرأ عن زلزال أصاب البلدة الفلانية، فلعلك تفهم الزلزال فهماً مادياً من أنه اضطراب القشرة الأرضية، هذا الزلزال قوته ثماني درجات بمقياس رختر، فأغادير في شمال إفريقيا كانت من أجمل مدن المغرب، تقع على البحر الأطلسي لكن فيها من الفسق والفجور ونوادي العُرْي، والملاهي الليلية، ودور البغاء والفنادق الغارقة في الإثم حتى قمتها مما لا سبيل إلى وصفه، فبمدة ثلاث ثوان أصبحت أغادير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، فاعتقدْ جازماً أن الزلزال بحكمة ولحكمة يريدها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النحل:١١٢].

نصيب المؤمن من صفة العدل

إذا أراد إنسان الزواج، فإنه يخطب عشر سنوات حتى يجد من يطمئن إليها، لأنه كما يبدو له أنه سيبقى معها العمر كلَّه، أربعين أو خمسين سنة، وقال أحدهم: لمّا بدأت والدته تخطب له بقيت تخطب خمسة عشر عاماً، ثم استقرَّ الرأيُ على فتاة كانت قد ولدت يوم خرجت والدته لأول مرة للخطبة؛ ويقولون: الزوجة رفيقة العُمر ولا بد من الأناة والتروّي لاختيارها، فأنت سوف تعيش في جوار الله ورحمته إلى الأبد، وهل هناك ذاتٌ تستحق أن تعرفها غير الله عز وجل؟ وهل هناك موضوع أخطر من أن تتعرَّف إلى الله تعالى، فلذلك ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] فإذا قلت: يا لطيف، يا رحيم، يا غني، يا قدير، ألا ينبغي أن تعرف ما معنى قدير؟

وهناك أشخاص كثيرون يصابون بمرض، فيقول الطبيب لأحدهم: ليس لك أمل في الشفاء، فتراه ينهار! لأنه لا يعرف أن الله قادر على شفائه مهما يكن المرض عضالاً، ومهما يكن كلام الأطباء قطعياً، يخلق من الضعف قوة، ومن الضيق فرجاً، ومن اليأس مخرجاً، وعندما يقول الإنسان: يا قدير وييأس فهو لا يعرف القدير، والذي نريد أن نقوله: هو أنك إذا عرفت القدير زالَ عنكَ اليأس، وأنا أؤكد أنك إذا أيقنت أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفيك من أخطر مرض وبِلا سبب فأنت ذو إيمانٍ حقاً، ولا يأس مع الإيمان، يقول العلماء: «يا رب لا كرب وأنت الرب»، هل يتألم الإنسان والله موجود؟ وهل يخاف والله موجود؟ فهو يطمئنه، ينصره ويقويه ويشفيه فاسمعوا كلام سيدنا إبراهيم في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء:٧٥-٨٥].

يخلق، ويهدي، ويرزق، ويشفي، ويحيي، ويميت، ويغفر؛ ذلكم الله رب العالمين لذلك أنت تقول: «يا رب لا كرب وأنت الرب»، وأكرر وأعيد هذا الكلام الدقيق؛ لا يحق لمؤمن بالله أن يحزن، فالله معك فأحسن الظن وثق بالله، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:١٢].

فمثلاً إذا كان هناك شخص قوي نسبياً في المجتمع وقال لآخر: أنا معك فلا تخف، وهذا رقم هاتفي، فقد يمنعه وقد لا يمنعه، وقد، وقد،... ومع ذلك يطمئنُّ قليلاً، لكن المؤمن إذا طمأنه الله فالأمن محقَّق وقال سبحانه: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ

مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة:١٢].

وبعد، فلماذا تتعلم أسماء الله وصفاته الفضلى؟ من أجل أن تسعَدَ بها، فتعرف أن الله رحيم، لتعلم أن الله يعلم، فهل تراقب نفسك؟ ولتعلم أن الله قدير وأنه غني...إلخ، إذاً حينما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على شفائك من مرضك وأنت مؤمن إذاً فلا تيأس.

ولماذا كانت نِسَب الانتحار في أعلى مستوياتها في بلاد الغرب، لأنهم لا يعرفون الله من خلال أسمائه، ولكنها في بلاد مظاهرها المدنيَّة متواضعة، والحياة فيها خشنة والأمور صعبة، ومع ذلك فالانتحار فيها نادر جداً!! والسبب هو الإيمان بالله عز وجل.

كان لنا أستاذ في الجامعة في علم النفس، فحضر مؤتمراً لأمراض النفس في أوروبا، وقال لنا: لقد قلت في المؤتمر: إنَّ نِسَبَ الأمراض النفسية في بلادنا قليلة جداً، والسبب أننا نؤمن بالله ونرضى بقضائه وقدره، والحقيقة أن المؤمن يسلم قياد نفسه لله ويقول: هكذا يريد الله، هذه مشيئة الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا ما يحول بينه وبين التوترات النفسية، وأجمل حديث:

عَنْ أُسامَةَ قالَ: كُنْتُ عِنْدَ النبيِّ ﷺ وسَلَّمَ إذْ جاءَهُ رَسُولُ إحْدَى بَناتِهِ وعِنْدَهُ سَعْدٌ وأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ومُعاذٌ أنَّ ابْنَها يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَبَعَثَ إليها «لله ما أخَذَ ولله ما أعْطَى، كُلٌّ بأجَلٍ فَلْتَصْبِرْ ولْتَحْتَسِبْ» [متفق عليه].

الذي أخذه له، والذي أعطاك تفضَّل به عليك، فإذا أيقنت أن لله ما أعطى وله ما أخذ فلا مشكلة إذاً.

موت طفل صغير في أسرة إيمانها ضعيف يسبب آلاماً لا تحتمل، بينما صحابي جليل له ابن مريض بمرض عُضال، فجاء من السفر وهو قلق عليه قال: كيف ابني؟ قالت: له: ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة وأرجو أن يكون قد استراح، ففهم منها أنه قد شُفي، فأعدت له الطعام، وفي بعض الروايات أنها تزينت له وفي الصباح قالت له: لو أنَّ قوماً أعاروا قوماً عارية لهم فسألوهم إياها أكان لهم أن يمنعوهم؟ قال: لا. قالت: فإن الله كان أعارك ابنك عارية ثم قبض إليه فاحتسب واصبر، لما قالت له: في أهدأ حال، يعني هو ميت، يقولون: إنه ذهب إلى النبي ﷺ وقصّ عليه الأمر الذي جرى كله، فقال ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما» [الطيالسي، البيهقي، ابن حبان، أحمد، والبخاري ومسلم مختصراً] وتروي الأخبار أنه أنجب غلاماً من ذريته عشرة كلهم صاروا حفظة للقرآن.

إذاً ذاك حادث وفاة الابن في أسرة مسلمة، ولكن حادث وفاة الابن بأسرة غير مؤمنة، كثيراً ما تُجَنُّ الأم فوراً، أو تكاد.

إذاً: معرفة أسماء الله من أجل أن نسعد بها، وأنت مع الله إلى أبد الآبدين فإذا عرفته في الدنيا فهذا عين العقل، ولك أن تعرفه قبل فوات الأوان، أن تعرفه وأنت في حياتك الدنيا معافى صحيح الجسم، مسرور.

فأما حظ العبد من صفة العدل فهو أن يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط، فلا إفراط ولا تفريط، ففي أفعال الشهوة يحترز عن الفجور الذي هو الإفراط وعن الجمود الذي هو التفريط.

وقد نجد إنساناً كما يقال: «زير نساء»، إنه غارق في الشهوة إلى قِمَّة رأسه، عدواني، ينتهك أعراض الناس، هذا فجور، وقد تجد إنساناً كما قالت المرأة: «يا أمير المؤمنين! إن زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، لم ينتبه سيدنا عمر ﷺ فقال: نِعْمَ الرجل زوجك، فقال له كعب بن سُور: إنها تشكو زوجها في أمر مباعدته إياها عن

فراشه، فجاء به ونصحه، وقال له كعب: إن لك ثلاثة أيام بلياليهن -يعني للعبادة- ولها يوم وليلة»(١) [رواه عبد الرزاق في المصنف عن الشعبي].

وعن أبي موسى الأشعري قال: دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها: ما لك؟ ما في قريش رجل أغنى من بعلك؟ قالت: ما لنا منه من شيء أما نهاره فصائم وأما ليله فقائم. فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له.

قال: فلقيه النبي ﷺ فقال: «يا عثمان أما لك فيَّ أسوة؟» قال: وما ذاك يا رسول الله! فداك أبي وأمي. فقال: «أما أنت فتقوم بالليل وتصوم بالنهار وإن لأهلك عليك حقاً، وإن لجسدك عليك حقاً، فصلِّ ونمْ وصم وأفطر» قال: فأتتهم المرأة بعد ذلك عطرة كأنها عروس فقلن لها: مه؟! قالت: أصابنا ما أصاب الناس [رواه أبو يعلى والطبراني بأسانيد بعض أسانيد الطبراني رجاله ثقات].

فإذاً: نحن حينما نعرف صفة العدل، نعرف كيف نتخلَّق بالأخلاق التي ترضي الله في ضوء هذه الصفة، قال العلماء: أن نحترز عن الإفراط وهو الفجور، والتفريط وهو الجمود، ونبقى في الوسط وهي العفَّة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧ ﴾ [المؤمنون:٥-٧].

هذا الموقف العدل في علاقتك بالزوجة.

أما مع الأولاد، فإياك أن تعطيهم عطاءً يفسدهم أو أن تحرمهم حرماناً يحقدون به عليك، فأعطِ الواحد منهم المبلغ الكافي، وأعطه حاجته، ولو أعطيته فوق حاجته

(١) ذلك أنه هجرها لانشغاله بالعبادة وقد كان قال له:

زهــــدني في فرشــــها وفي الحلـــــل — أني امــــرؤ أذهلنــــي مــــا قــــد نـــزل
في ســـورة النمــــل وفي الســـبع الطـــول — وفي كتـــــاب الله تخويــــف نــــزل

فقال ذلك القاضي: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع.. لك ثلاثة أيام... القصة!

فإنك قد أفرطت، ولو أعطيته أقلَّ من حاجته فإنك قد فرَّطت، وقال ﷺ لهند بنت عتبة وقد قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني من النفقة ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» [متفق عليه من حديث عائشة].

وفي أفعال الغضب يُحترز من التهوُّر الذي هو الإفراط والجُبن الذي هو التفريط، ويبقى في حدٍّ وسط وهو الشجاعة، وفي العقل يُحترز من الدهاء والخبث والمكر والخداع أو من البلاهة والغباء، ويبقى في حدٍّ كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه: «لست بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعني»، أي: لستُ من الغباء بحيث أُخدَع ولا من الخبث بحيث أخدع. حينما قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣] أي: في وضع معتدل بين الإفراط والتفريط.

وفي تربية الأولاد من السهل أن تكون عنيفاً، والعنف لا يحتاج إلى بطولة، ومن السهل أن تكون ليناً، واللين لا يحتاج إلى بطولة.وقد ورد: علموا، ولا تعنفوا، فإن المعلِّم خير من المعنِّف.

وأيضاً لا ترخِ له الحبل فيتجاوز حدَّه، فالاعتدال أن يبقى ابنك راغباً فيك خائفاً منك «رغباً ورهباً»، وهذا حد دقيق جداً فدائماً الحالات المتطرفة سهلة، فلا تكن ليناً فتُعصر، ولا تكن قاسياً فتُكسر «مثل المؤمن مثل السنبلة تستقيم مرة وتخرُّ مرة، ومثل الكافر مثل الأرزة لا تزل مستقيمة حتى تخر ولا تشعر...» [بنحوه أخرجه مسلم من حديث كعب ابن مالك]، والخير أن تكون بينك وبين الناس شعرة إن شدوها أرخيتها وإن أرخوها شددتها فهذه هي الحكمة، الحكمة أن يكون الذين حولك في حَيرة من أمرك، هم يرجونك ويخافونك في وقت واحد، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

إذاً: فالله سبحانه وتعالى عدل في خلقه، وعدل في أمره وعدل في فعله ونحن «المؤمنين» ينبغي أن نقف بين الإفراط والتفريط، وأن نكون معتدلين في كل أفعالنا.

البَقَاء

من صفاته جل جلاله: البقاء.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٣].

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

من معاني البقاء

البقاء ضدُّ الفناء، شأن الخلق الفناء، وشأن الله البقاء، شأن الخلق أنَّ كلَّ من عليها فان، وشأن الخالق أنه باقٍ على الدوام، إلا أنَّ كلمة (بقيَّة) قد تعني طاعة... قال تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود:٨٦].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾... أي: طاعته خيرٌ لكم.

الله جلَّ جلاله أودع في الإنسان الشهوات، وهذه الشهوات حياديّة يمكن أن نستخدمها وفق منهج الله وبخلاف منهج الله، إن مارستَ الشهوات وفق منهج الله

فأنت قد أخذت بقية الله، كسب المال أنواعٌ كثيرة محرمة، يكون اغتصاباً، سرقةً، تدليساً، كذباً، غشّاً، خداعاً، أمَّا التجارةُ الشرعيةُ عن قبولٍ ورضا وصدقٍ وأمانةٍ فهذه بقية الله وهي خيرٌ لكم، هذه المرأة الأجنبية محرَّمٌ أن تنظر إليها، وهذه وتلك، إلا أن الزوجة والمحارم بقية لك من النساء فلك أن تنظر إليهنَّ.

فالبقية هي الطاعة... وسرُّ تسمية البقية الطاعة أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان شهوات يمكن أن نتحرَّك من خلالها على نحو واسعٍ جداً، إلا أنَّ من هذا التحرُّك الواسع تحرُّكاً منهجيّاً، تحرُّكاً شرعيّاً، تحرُّكاً وفق ما أمر الله، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾... لذلك فالمؤمن لو عرض عليه مالٌ كثير إن لم يكن شرعياً يركله بقدمه يقول: الله هو الغني، ويسأل الله الغنيَّ أن يغنيه مالاً حلالاً من فضله.

أحياناً تدعو امرأةٌ ذات منصب وجمال شاباً طائعاً لله يقول: معاذ الله: إني أخاف الله ربَّ العالمين، بقية الله لهذا الشاب هي زوجته.

إذاً البقاء ضدُّ الفناء، وبقية الله طاعته وانتظار ثوابه... أحياناً الطاعة تكون مجهِدةٌ ومتعبة وفيها كُلفة، وما سُمِّيَ التكليف تكليفاً إلا لأنه ذو كُلفة، لكنَّ هذه الكلفة تمضي ويبقى الثواب، أمَّا المعصية فممتعة، والمتعة تمضي ويبقى العقاب، فهذا كلُّه شيء عابر، متاعب الطاعة عابرة، ولذائذ المعاصي عابرة... ما الذي يبقى إلى أبد الآبدين؟ ثواب الطاعة، وجزاء المعصية. فالمؤمن يفكر فيما سيبقى، لا فيما سيفنى.

وقد قيل: ألا يا رُبَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً، أحياناً شهوة ساعةٍ تسبِّب مرضاً جلدياً مزمناً إن لم يكن قاتلاً فيصيب قلبَ هذا الإنسان المنحرف: الآلامُ والحزن والغمّ والضيق والقلق والخوف، وما لا سبيل إلى وصفه. اللذة انتهت في ربُع ساعة، وبقيت الآلام إلى عشرين عاماً.

لذلك فالعاقل هو الذي يتحرَّك وفق منهج الله، فلدينا آيةٌ في هذا المعنى وهي قول الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [القصص:٥٠].

هناك معنى مخالف لهذا المعنى؛ أي أنك إذا انطلقت وفق هدى الله عز وجل فلا شيء عليك، وفق منهج الله لا حرج عليك ولا إثم.

تتوق نفسك إلى النساء فتزوَّج، لا شيء عليك، يمكن أن يلتقي بأهله، وأن يصلي قيام الليل، وأن يبكي في قيام الليل، لأنه لم يفعل شيئاً خلاف منهج الله، يمكن أن تكسب مالاً حلالاً تشتري به طعاماً وشراباً وثياباً لنفسك ولأهلك ولأولادك ولزوجتك، ويمكن أن تستمتع بجمال الطبيعة وأنت تصلي وتُقبلُ لأنك وفق منهج الله، إنك تتبع الهوى وفق ما أمر الله عز وجل... ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾... المشكلة أن تتبع الهوى دون منهج الله، أن تتحرَّك حركةً عشوائية، أن تنطلق إلى حيث تريد دون أن تنظر إلى قواعد الشرع.

وهناك معنى ثالث للباقيات وهي الباقيات الصالحات، وهي نتاج الاستقامة مع الله... البقاء ضدُّ الفناء وهذا ورد في اللغة، وقد عرفت أيضاً أن بقية الله طاعته أو انتظار ثوابه، أما الباقيات الصالحات: فالإنسان يجتهد ويجتهد ويؤدي امتحاناً وينتظر النتائج... ينتظر التكريم، ينتظر احتفالاً تكريمياً له، ينتظر أن يدخل إلى الجامعة، ينتظر أن يصبح ذا مرتبة علمية عالية، ينتظر أن يكون مرموقاً في المجتمع، هذا الذي ينتظره... لذلك قال ﷺ في كلام عميق ولطيف جداً: «أوصيكم بالأنصار، فإنه كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم» [رواه البخاري من حديث أنس بن مالك].

الأنصار أدَّوا الذي عليهم وبقي الذي لهم... والشاب التائب قد أدى ما عليه من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وطاعةٍ لله وتلاوةٍ وذكرٍ وغَضٍّ للبصر وصدقٍ في الحديث، وعفةٍ عن المحارم وتحريرٍ في الدخل، وإنفاقٍ شرعي... أدى الذي عليه... والذي بقي له؟ كلُّ خير.

وأنت -أيُّها المؤمن- تعيش في زمنٍ صعبٍ، في زمن الفتن، في زمن النساء الكاسيات العاريات، في زمن الشهوات المستعِرة، في زمنٍ القابض فيه على دينه

كالقابض على جمر، في زمن ترى أنَّ كلَّ ما حولك يدعوك إلى المعصية، في زمن ترى أنَّ استقامة الإنسان على أمر الله مجهِدة.

أنت إذا فعلت هذا وضبطت نفسك، وحملت نفسك على طاعة الله ماذا بقي لك؟ بقي لك ثواب الطاعة، بقي لك الإقبال على الله، بقي لك التوفيق.

ولنعلم جميعاً أن هناك خيراتٍ لا يعلمها إلا الله تنتظر المؤمن... لذلك قال ﷺ:

«اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، واعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةَ، وَلا يُحافِظُ عَلَى الوُضُوءِ إلا مُؤْمِنٌ» [سنن ابن ماجه من حديث ثوبان].

أي لن تستطيعوا أن تُحصوا الخيرات التي سوف تأتيكم من طاعتكم لله.

أنا أخصُّ بكلامي هذا؛ الإخوة الشباب... شاب في ريعان شبابه، لا أحد في الأرض يمنعه من أن يطلق بصره في الحرام، وأذكر في هذه النقطة أنَّ هناك في منهج الله عز وجل محرَّمات، وفي القوانين الوضعية لكلِّ مجتمعٍ محرَّمات، أحياناً تنطبق بنود المحرَّمات في منهج الله على بنود المحرَّمات في قوانين العباد.

فالسرقة حرَّمها الشرع والقوانين الوضعية تحرِّمها، والرشوة حرَّمها الشرع والقوانين تحرِّمها، وهناك كثير من البنود تتفق فيها القوانين مع الشرع، فترك السرقة قد يكون خوفاً من الله وحده، وقد يكون ترك السرقة خوفاً من العقاب الأليم الذي ينتظر السارق بحسب القوانين، إلا أنَّ الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يبقي في الدين بنوداً لا تتفق مع القوانين أبداً، منها غضُّ البصر... فليس في الأرض كلِّها قانونٌ يمنعك أن تنظر إلى امرأة لا تحلُّ لك... فإذا غضضتَ بصرك عن محارم الله فالدافع إلى هذا خوف الله وحده.

فهناك حالات... كأن تكون في البيت والنافذة مفتوحة، وامرأة الجار خرجت إلى الشرفة بثيابٍ متبذِّلة، ليس في الأرض كلِّها جهةٌ يمكن أن تحاسبك إذا نظرت إليها، لا

هي تعلم ولا أحد يعلم، لكنك إذا قلت كما قال سيدنا يوسف... قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

لو قلت: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾... وغضضتَ البصر، فأنت بهذا تخاف ممن؟ من الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ثق -ولا أتألّى على الله- وفي هذا الزمن الصعب أنَّ كلَّ غضٍّ بصرٍ يرقى بك إلى الله.

أما الباقيات الصالحات فهي الأعمال الصالحة التي تبقى، وما سواها يفنى.

... بيتك مهما كان فخماً عند الموت تتركه، زوجتك مهما أحسنت اختيارها عند الموت تتركها، الإنسان في الدنيا له ثلاثة أشياء: ماله، وأهله، وعمله... ماله يبقى في البيت، وأهله يشيّعونه إلى شفير القبر ثم يرجعون، أما الذي يدخل معه فعمله.

ورد في الأثر: يا قيس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي، ويدفن معك وأنت ميِّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك [الأربعين الودعانية لابن ودعان، عن قيس بن عاصم المنقري].

قالوا: «القبر صندوق العمل، إن كان العمل كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك».

الآية الكريمة: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾... تقام وليمة فيقول لك: كلَّفتني مئات الألوف شيء نفيس، يدعو الناس ويفتخر بماله وبأذواقه، يشتري مركبةً فخمة جداً؛ يتيه بها على الناس، يسكن في بيت فخم ويعرضه على كلِّ زائر ويتكلَّم على مساحته وأبهائه، وغرفه، وأثاثه... المال والبنون، أولاد يرتدون أجمل الثياب متألِّقون، وهو

يقول لك: هذا ابني، وهذه ابنتي... ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾... فقد عرَّف الله المال والبنين أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ فهي محط الرجاء... وفي القرآن ما يسمى بمفهوم المخالفة... فقد قال لك: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ لم يقل لك تبقى أو لا تبقى، فالفناء ضمني، لأنها ليست باقيات ولكن قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ أي الذي يبقى الأعمال الصالحة.

بعد أن تعرف الله حقاً، وبعد أن تستقيم عقيدتك، وبعد أن تستقرَّ قناعاتك فليس أمامك إلا العمل الصالح، ويتفاوت الناس عند الله بأعمالهم الصالحة والدليل قول الله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٣٢].

أنت لك عند الله درجة بقدر عملك الصالح... أي أن حجمك عند الله بحجم عملك، وكلما كنت صادقاً في خدمة الخلق أجرى الله على يديك الأعمال الصالحة.

أقول مرةً ثانيةً وثالثة... كلُّنا ضعفاء، كلُّنا فقراء، كلُّنا عاجزون، إلا أن الله سبحانه وتعالى يمنحنا من الأعمال الصالحة بقدر سلامة توجهنا نحوه، وبقدر صدقنا، فقد قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب:٢٣].

إنَّ الدنيا لها سقف، فمهما كان حجمك المالي كبيراً، لا تستطيع أن تأكل إلا ما تملأ به معدتك، لا تستطيع أن ترتدي إلا ثوباً واحداً، لا تستطيع أن تنام إلا على فراشٍ واحد، لا تستطيع إلا أن تكون في مكانٍ واحد في وقتٍ واحد، ففي الدنيا سقف، إلا أن العمل للآخرة بلا سقف، يمكن أن يهدي الله بك رجلاً، أو رجلين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، ولكل أجر فأنت في مزيد.

نبيّنا محمد ﷺ كان رحمةً للعالمين، سيدنا الصديق كان المؤسس الثاني للدولة الإسلامية، حينما ظهرت حروب الردة وقف الموقف الحازم فكان بحقٍّ المؤسس الثاني،

سيدنا عمر فتحت أكثر هذه البلاد في عهده، وكلُّ هؤلاء المسلمين في شتى أقطار البلاد في صحيفته، فأنت كن طموحاً فبإمكانك أن تصل إلى مراتب عالية، فإلهم إلهنا، وإلهنا إلههم، والمنهج واحد... الكتاب واحد، والنبي ﷺ واحد، وما عليك إلا أن تسير في طريق الإيمان... ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾.

وهناك تفسير آخر ولكنه مركَّب... الباقيات الصالحات هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أي إذا سبَّحته، وحمدته، ووحدَّته، وكبَّرته، معنى ذلك أنك عرفته، وإن عرفته أطعته، إن أطعته سعدت بقربه.

أما الباقي حقيقة فهو الله عز وجل... فسبحان من له البقاء، أما نحن فلنا الفناء.

فهل هناك أعظم من سيدنا رسول الله ﷺ فقد مات... ماذا فعل الصديق؟ وأنا لا أعتقد أنَّ في الأرض إنسانين أحب أحدهما الآخر كما أحب الصديق رسول الله ﷺ، وكما أحبَّ النبي الكريم الصديق، أحبَّه حباً لا حدود له، إلا أنَّ هذا الحب ما حمله على أن يشرك، حينما كشف عن وجهه الشريف وقبَّله، وقال: طِبت حياً وميِّتاً يا رسول الله، ثم خرج وقال: من كان يعبد محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌّ لا يموت [البخاري، عن عائشة].

أرأيت إلى التوحيد!! فأعلى درجات الحب لم تنقل هذا الصديق إلى الشرك، فالتوحيد هو الأصل...

فالله سبحانه وتعالى له البقاء، والبقاء صفةٌ من صفات ذاته... فنحن نعرف صفات الذات وصفات الأفعال... البقاء صفةٌ من صفات ذاته.

فأنا وأنت وأي شخص غيرنا باقٍ ولكن بإمداد الله له، فإذا قطع الله الإمداد حصلت الوفاة، فوازن بين إنسان حيّ ينظر ويتحرَّك، عيناه تتألَّقان، وينطلق لسانه، ويحرِّك يديه، ويمشي، وكلُّه آذان، وشعور وإحساس، يفكِّر، يلقي محاضرة، فإذا مات يصبح جثَّة هامدة، لا شيء، مسافةٌ كبيرة جداً بين إنسان يتحرَّك أمامك وجثة هامدة، إن لم تدفنها في أقرب وقت فإنَّها تتفسَّخ.

أحياناً يدفع الإنسان مليون ليرة لإصلاح شريان بقلبه، أما إذا مات فقد انتهى كلُّ شيء، وبعد أيام تتفسخ هذه الأجهزة.

فمن شأن الله عز وجل البقاء، ومن شأن الإنسان الفناء، أما الباقي فهو الله، أما نحن فممكنو الوجود، فإذا كنا موجدين فوجودنا لا بذواتنا بل بإمداد الله لنا، أوضح من ذلك أن وجودنا متوقفٌ على تناول الطعام والشراب.

سمعتُ أن بعض المساجين في تركيا أضربوا عن الطعام ثمانية أسابيع، مات منهم أكثر من عشرة أشخاص، فمن دون طعام تموت فهل يعدُّ الوجود ذاتياً؟ إنَّ وجودك متعلِّق بكأس الماء، وباللقيمات اللاتي تأكلها واللاتي يقمن صلبك، فمن كان وجوده متعلِّقاً بالطعام والشراب فليس وجوده ذاتياً، فحركتك متعلِّقةٌ بسيولة دمك، فلو تجلَّط الدم لانتهت الحركة، يقولون: جاءته خثرةً في دماغه، أو احتشاء في الدماغ، أو جلطة في الدماغ، أو نقطة في الدماغ، أصبح جثةً هامدةً.

وجودك متوقفٌ على إمداد الله لك، وفي أية لحظةٍ يقطع الله عنك الإمداد.

مثلاً: إذا كانت آلة تعمل على الكهرباء وعندك المفتاح الذي به تعمل أو تتوقف فإذا تبجَّحت الآلة مثلاً، وقالت: انظروا إلى حركتي. فإنك تضغط يدك على الزر فتتوقف، فهذا شأن الآلة الكهربائية، وهناك ألعاب للأطفال منها سيارات كهربائية لها حركة طائشة، فتجد صاحب الملعب يضغط ضغطة قليلة على مفتاح الكهرباء، يقطع الكهرباء عن هذه السيارات، فتثبت كل واحدة في مكانها وانتهى أمرها إلى السكون.

هذا تعريف... وهناك تعريف ثان... الدائم الوجود، الموصوف بالبقاء الأبدي والأزلي، أزلاً وأبداً، هو الأول بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، هو الموجود أزلاً والموجود أبداً.

وقال بعضهم: «هو الموجود من أزل الأزل إلى أبد الآبدين». فكما أنه لا بداية فهو بلا نهاية كذلك، أما نحن فلنا بداية ولنا نهاية.

لكن البشارة أن المؤمن أثير عند ربِّه، فإذا حسن عمله في الدنيا وتوفَّاه الله عز وجل فهو في جنَّة الخلد إلى أبد الآبدين، في داخل الإنسان رغبة جامحة لأن يعيش طويلاً، فلا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يعيش مئة عام، أو مئة وعشرين، ولا يرغب أن ينتهي أجله، فلدينا شيء فطري... نحبُّ وجودنا، ونحبُّ سلامة وجودنا، ونحبُّ استمرار وجودنا، ونُحبُّ كمال وجودنا.

فإذا آمن الإنسان واستقام على أمر الله وجاءته منيَّته وهو مؤمنٌ فقد حقَّق استمرار وجوده، هو في جنات الله إلى أبد الآبدين، والمشكلة الخطيرة أنَّ الذي لا يستقيم على أمر الله يستحقُّ النار قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف:٧٧].

أصعب شيء أن تكون في حالة لا حرب ولا سلم، لا يموت فيها ولا يحيا، فالموت مريح، لا يحيا حياةً مريحة، ولا يموت فيستريح، هذه هي المشكلة، فهذه المعاني الخطيرة التي جاء بها القرآن كيف نغفل عنها؟ كيف نتحرَّك في الحياة دون أن نحسب حساباً لهذه الحقائق؟ شيء خطير، فالله هو الذي خلق ويقول لك: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

ويقول لك أيضاً: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٢].

هذا كلام خالق الكون، والله الذي لا إله إلا هو لو قيل لك: تعالَ إلينا يوم الخميس للتحقيق معك لا تنام ليلتين، وهو إنسان سيسألك لكنَّه قوي فلا تنام الليل، فكيف إذا قال الله عز وجل: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٢].

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٧].

أحد العلماء يقول: «الباقي هو الموجود»... ولكنَّ إذا أضيف إلى المستقبل فهو الباقي... وإذا أضيف إلى الماضي سُمِّيَ قديماً.

من زاوية الماضي قديم، ومن زاوية المستقبل باقٍ، هذا معنى أن الله قديم وباقٍ.

فالسيارة تحتاج إلى وقود، فإذا قطع عنها الوقود تتوقف عن الحركة، فهل حركتها ذاتية؟ لا... حركتها متوقِّفة على إمداد خارجي.

الباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر، يعبَّر عن أنه أبديٌّ، والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي، تمادى وجوده في الماضي إلى الآن، وسيستمر ويعبر عنه أنه أزلي... غير قابل للعدم، ففي المنطق هناك شيء واجب الوجود، وممكن الوجود، ومستحيل الوجود، إذاً مستحيل، وواجب، وممكن... كلُّ ما سوى الله ممكن، ومعنى ممكن أي: ممكنٌ أن يكون وممكنٌ ألا يكون.

ومستحيل الوجود يستحيل عقلاً أن يكون... والله سبحانه وتعالى غير قابل للعدم بوجه من الوجوه.

فكلُّ ما كان ذاتيَّ الوجود في الأزل والأبد فدوامه في الأزل هو القدم ودوامه في الأبد هو البقاء، فالله قديمٌ وباقٍ، أزليٌّ وأبديٌّ.

وقيل: «الباقي هو الذي لا ابتداء لوجوده، ولا نهاية لوجوده». فكلُّ شيء من الخلق له بداية وله نهاية، فأنت لك بداية، فقد قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ [الإنسان:١].

تمسك كتاباً طُبِع قديماً، وأنت مولود في سنة الأربعين والكتاب قد انتهى طبعه عام ثمانية وثلاثين مثلاً، معنى ذلك أنهم حينما انتهوا من طبعه، أنت لم تكن في الأصل موجوداً، ليس لك وجود... ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾... وبعد أن يموت الإنسان تُقام له التعازي ثلاثة أيام، وتُلقى كلمة تأبين يتحدَّث فيها المتحدثون عن أعماله، وبعد فترة من الزمن يطويه النسيان وكأنَّه ما كان، فأنت بين عدمين، بين عدمٍ يسبق وجودك، وعدمٍ ينتهي به وجودك... إذاً الإنسان فانٍ.

الإنسان بضعة أيام، فقد تجد من يعيش ثلاثين سنة أو أربعين، أو خمسين أو ستين سنة، فلو عاش ستين سنة وضربنا هذه السنين في عدد أيام السنة، وكذلك نستطيع حسابها بالساعات، ويمكننا أن نعدَّ وجبات طعامه التي تناولها، وكم نزهة ذهب إليها، وكم احتفالاً حضره، وكم تعزية حضرها، وقد أنجب أربعة أولاد وزوَّجهم، كلُّه محدود ويعدُّ عدَّاً، فالإنسان بضعة أيام كلَّما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

فالتعريف العميق للإنسان أنه زمن، ومشكلة الزمن أنه يمضي، وتحرُّك الزمن يستهلك الإنسان، كائن يتحرَّك نحو هدف ثابت، كلَّ ثانية يقترب من هدفه، فمعنى ذلك أنك زمن، أنت فانٍ.

الباقي الذي لا ابتداء لوجوده ولا نهاية لوجوده، الباقي هو الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، والحقُّ باقٍ ببقائه، والخلق باق ببقائه.

فأنت موجود لا لأنك ذكيٌّ، ولا لأنك تعتني بصحَّتك، ولا لأنَّ أجهزة جسمك تعمل، أنت موجودٌ لأن الله يمدُّك بالوجود، فإذا أوقف إمداده بالوجود كنت لا شيء... كن فيكون، زُل فيزول...

ففي الحديث القدسي يقول رب العزة:

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَن

أطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أكْسُكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بالليلِ والنَّهَارِ وَأَنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أغْفِرْ لَكمْ، يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبلغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يا عِبادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مَا نَقصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فسَألُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْألَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إنَّمَا هِيَ أعْمَالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ» [صحيح مسلم، من حديث أبي ذرٍّ].

قال العلماء: «الباقي هو الموجود الدائم الذي لا يقبل الفناء، ومنه استمداد البقاء، والذي لا ابتداء لوجوده، هو الذي يكون في الأبد على ما هو عليه في الأزل».

يكون الإنسان طفلاً صغيراً ثم يكبر، فما دام يتطوَّر فليس باقياً، ثم يصبح هرماً... ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾... فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج:٥].

منذ سنوات كان الناس يعرفون إنساناً رياضياً لو أمسك بمركبة -مهما كانت قوية- لوقفت في مكانها ولم تتحرك، ولكن عندما أصبح في أرذل العمر صار ضعيف البُنية هزيلاً يئنُّ ويشكو... كلُّ حالٍ يزول، فما دام هناك تطوُّر فلا بقاء معه.

وهذا معنى جديد... الباقي: هو الذي يكون في الأبد على ما هو عليه في الأزل... فأنت كلَّ يوم تتطوّر، يضاف إلى معلوماتك معلومات، ينمو جسمك وتزداد خطوط وجهك، ويشيب شعرك، وينحني ظهرك، ويضعف بصرك، أي: تتطور، أما ربنا عز وجل فهو باقٍ لأنه كما هو في الأزل هو في الأبد.

الآيات التي وردت فيها صفة البقاء

قال تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه:٧١-٧٣].

تعال معي إلى مثل أضربه لعله يقرب الفكرة، فلو خُيِّرت أن تركب سيارة لمدة ربع ساعة، وبين دراجةٍ تتملَّكها، فماذا تختار؟ لا شك أنك تختار الدراجة لأنها أبقى، ولو خيِّرت بين مركبتين الأولى تركبها ربع ساعة، والثانية تتملكَّها، فماذا تختار؟ تختار المركبة الثانية التي يبقى ملكها لك... فكذلك الآخرة... ﴿ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ إذا اخترت ما عند الله خير إلى درجة غير معقولة وأبقى، الدنيا دار ابتلاء وإنها فانية، لذلك فكل إنسان يختار الدنيا على الآخرة متهم في عقله... والآية الثانية تقول: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

مَن العاقل؟ أهو الذي يتعلَّق بالفاني أم بالباقي؟ إن تَعَلَّقْتَ بإنسانٍ فهو فانٍ، إن تعلَّقت بمتاع الدنيا فهو فان، إن تعلَّقت بالغرائز والشهوات فهي فانية، أما إذا تعلقت بالواحد الديان فهو أبديٌّ باقٍ، وما لك عند الله فهو خير وأبقى.

وفي سورة طه قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه:١٣١].

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾... ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾... فعطاء الله عز وجل للمؤمن خيرٌ وأبقى.

وفي سورة الشورى قال تعالى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الشورى:٣٦].

والمؤمن تقوده رجاحة عقله إلى أن يختار الآخرة فيعمل لها، وعندئذٍ ربنا عز وجل يكرمه في الدنيا والآخرة.

وفي سورة مريم قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم:٧٦].

نصيب المؤمن من معرفة الله الباقي

أما التطبيق العملي لصفة البقاء فقد قال العلماء: حظُّ العبد من ذكر الله الباقي أنك إذا أكثرت من ذكر بقاء الله كاشفك الله بالحقائق الباقية وأشهدك الآثار الفانية.

فمعنى ذلك أنَّ في هذه الحياة شيئين: شيئاً باقياً، وشيئاً فانياً، فهناك شيء مهما كان الإنجاز عظيماً ينتهي عند الموت، وهناك شيء يبدأ عند الموت، العاقل هو الذي يتعلَّق بالذي يبدأ بعد الموت: (الباقي)، ولا يعبأ بالذي ينتهي عند الموت.

فمثلاً يمكنك تزيين بيتك تزييناً عالياً، مهما كنت ذا ذوقٍ رفيع في تزيين البيت، فهذا التزيين حينما يموت الإنسان ينتهي مفعوله، يمكن أن تأكل أطيب الطعام، وأن تجلس في أجمل مكان وهذا كلُّه ينتهي عند الموت.

أما إذا دعوت إلى الله، إذا أسهمت في نشر الحق، إذا أسهمت في ترسيخ الفضيلة، إذا أسهمت في إصلاح ذات البين، إذا أسهمت في تعليم العلم، إذا أمرت بالمعروف، إذا

نهيت عن المنكر، إذا كنت سبب سعادة الأُسر، إذا بثت الحق بين الناس، إذا كنت موفِّقاً بينهم، تجمع ولا تفرِّق، تحببهم بالله ولا تنفِّرهم، هذا كلُّه باقٍ بعد الموت ويكبر حجمه ومردوده، أحدكم يضع لقمةً في فم زوجته يراها يوم القيامة كجبل أُحد، فإذا هديت إنساناً فكلُّ الخير الذي يأتي من هذا الإنسان إلى يوم القيامة في صحيفتك، قد تتفاجأ في أن آلاف النَّاس مثلاً من ذرية هذا الذي هديته إلى الله كلُّهم في صحيفتك.

فلذلك لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، لا يليق به أن يعمل لغير الله، لا يليق به أن يتوجه لغير الله، لا يليق به أن يكون محسوباً على غير الله... لا يليق بك أن تكون تابعاً لغير الله، لأنه هو الباقي وسواه فانٍ.

إذاً إذا توجَّهت إلى الله صادقاً أشهدك الله الباقيات والفانيات، فتعلَّقت بالباقيات وتركت الفانيات.

فلو كان عندنا فقاعة من الصابون وألماسة، فالفقاعة بحركة واحدة تتلاشى وتفنى، أما الألماسة فثمنها ثمانية ملايين ويزداد سعرها يوماً بعد يوم وعلى الدوام غالية... فكل إنسان يتعلَّق بالفانيات كمن يتعلق بفقَّاعة الصابون ويدع قطعة ألماس.

أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً... فالقصد من هذا الشرح أن تتعلق بالباقي، وألا تهتم بالفاني، أما إذا نظرت إلى عامة الناس فسوف تجد العجب العجاب، كلُّهم متعلِّقون بالفاني، معرضون عن الباقي... شهوات، أجهزة لهو، تفاخر، انهماك في الملذَّات، هذه كلُّها فانيات، أما الباقيات فقد أداروا لها ظهورهم، وأشاحوا بوجوههم فدفعوا ثمن جهلهم فاللهمَّ أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنَّا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا، وصلى الله على سيدنا محمدٍ النبيِّ الأميّ وعلى آلهِ وصحبه وسلَّم.

عالم الغيب والشهادة

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنعام:٧٣].

وفي سورة الرعد قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد:٩].

وفي سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٢].

وفي سورة السجدة قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [السجدة:٦].

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الزمر:٤٦].

وفي سورة الحشر قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر:٢٢].

وفي سورة الجمعة قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة:٨].

وفي سورة التغابن قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [التغابن:١٨].

من معاني عالم الغيب والشهادة

العالم من مادة العِلْم، والعِلْمُ إدراك الشيء على ما هو عليه مع الدليل، أو هو مقولةٌ مقطوعٌ بصحتِها تطابِق الواقع عليها دليل، فلو لم يكن عليها دليل لكانت هذه المقولة تقليداً، ولو لم تُطابِق الواقع لكانت هذه المقولة جهْلاً، ولو لم يكن مقطوعاً بصحتِها لعُدَّت هذه المقولَةُ وهْماً أو شَكاً أو ظناً، فالعِلْم ليس شكاً ولا ظناً ولا وهْماً ولكنَّه قطْعي.

وإنني لا أُبالِغ إذا قُلت: إنَّ من أَخَصِّ ما يختصّ به الإنسان العلم، وأكثر صفات الإنسان مشتركةٌ بينه وبين بقية المخلوقات، إلا أنه يتميز بقوةٍ إدراكيّة، وكرَّمَهُ الله بالعلم، وفي أثناء الحديث عن الكرامات يعدّ العلم أعظم كرامة ينالُها الإنسان من الله عز وجل، مع أنَّ هذه الكرامة ليس فيها خرْقٌ للعادات.

وبعد، فإن الله عالِم يُحِبّ كلّ عالِم، والناس رجلان: عالِمٌ ومُتَعَلِّم ولا خير فيمن سِواهُما، كن عالِماً أو متعلِّماً أو مسْتَمِعاً أو مُحِباً ولا تكن الخامسة فتهْلك. فالعلم إدراك الشيء على ما هو عليه بدليل، لو أنَّ الناس أدْركوا الحقائق على ما هي عليها، لما اختلفوا ولما تحاربوا ولما تخاصَموا ولما عاشوا في شقاءٍ ما بعْده شقاء.

فالقضية قضية علم بل إن الإنسان الكافر وهو في النار يتلوّى من الحريق ينادي ويقول: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك:١٠].

فالذي بينك وبين أهل الدنيا هو العِلم، لذلك إذا أَرَدْت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردْتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يُعطيك بعضَهُ إلا إذا أعطيتَهُ كُلَّك، فإذا أعطيتَهُ بعضك لم يُعْطِك شيئاً، ويظلُّ المرء عالِماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنه قد علِم فقد جهِل.

قال العلماء: العلم عِلمان: إدراك ذات الشيء، والحكم على الشيء، تقول هذه الطاولة؛ فأنت تُدْرِك ذات الطاولة. أو تقول: هذه الطاولة متقنةٌ فأنت بهذه العبارة أطلقت حكمك عليها، إذاً: فإما أنْ تُدْرِك حقيقة الشيء وكُنْهَ الشيء وهويته، وإما أن تحكُم على هذا الشيء فالعلم عِلمان: إدراك الذات، وإدراك الصفات.

والعلم عِلمان أيضاً: علم نظريٌّ، وعلم عمليٌّ؛ علم تقتبسُهُ بإلقاء السمع أو إعمال الفكر أو قراءة الكتاب أو سماع المحاضرة. وعلم تستنبطه من الحركة والعمل، فالعلم الذي تستنبطه من الحركة والواقع العملي هو العلم العملي، والعلم الذي تستقيه من الدروس والكتب وإلقاء المحاضرات هو العلم النظري.

والعلم علمان مرة أخرى: عقليٌّ وسمعي؛ إمَّا أن تصل إليه بذاتِك وعن طريق التأمل، وإما أن تُصيخ السمع إلى غيرِك عن طريق التلقّي، فإما أن تفكِّر وإما أن تُصْغي، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾.

تفكِّر، وتتأمل، وتتدبَّر، أو تصغي؛ تأخُذُهُ جاهزاً عن طريق السمع وتصْنَعُهُ عن طريق العقل، فعلمٌ يؤخذ عن طريق العقل، وعلمٌ يؤخذ عن طريق السمع، وعلمٌ تتلقّاه نظرياً، وعلمٌ تستنبطُهُ عملياً، وعلم أساسُهُ إدراك ذات الشيء، وعلمٌ أساسُهُ إدراك صفات الشيء.

وبالمناسبة أقول: هنا قيمٌ كثيرة يتفاضل بها الناس؛ فالمال قيمةٌ تفاضلية بين البشر، والوسامة والذكاء والقوة والوجاهة والنَّسَب فهذه كلُّها قيمٌ تفاضلية ولكنَّ الله تعالى لم يعتمِدها في تنزيل الناس المنازل، بل إن الله جلّ جلاله اعتمدَ قيمة العِلم، وهي

التي رفع شأنها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة:١١].

وقيل: رتبةُ العلم أعْلى الرُّتَب، والدليل أنَّ أقْوى إنسان فيما يبدو لك في الأرض لا يستطيع أن يتَّخذ قراراً إلا إذا سأل الخبراء؛ يؤلِّف لجنة من كبار العلماء في موضوعٍ ما، ويطرح عليهم سؤالاً فيُعطونَهُ خياراتٍ فيختار من بين هذه الخيارات، فمن الذي يحكم العالم إذاً؟ هم العلماء؛ فالذي بيده إصدار القرار يحتاج إلى خبرة العالم.

وقد قال العلماء: «هناك فرقٌ بين أن تُعْلِم وأنْ تُعَلِّم»، فالإعْلام إلقاء الفكرة بسرعة. ولكن علَّمْتُهُ: إلقاء الفكرة مع التكرار ومع الإتقان ومع التعليم والتحفيظ.

وقال بعضهم: التعليم تنبيهُ النفوس لتصوُّر المعاني، أما التعلُّم فتنبُّهُ النفس لتلك المعاني، فالتَّنَبُّه الذاتي تعلّم، والتنبيه القسريُّ تعليم، وقد حلَّت نظريات التعلُّم مكان نظريات التعليم، فالإنسان لا يتعلَّم إلا إذا أراد أن يتعلَّم. وعنصر الاختيار أساسيٌّ جداً في التعلم، لذلك بعض الجامعات الآن تعلِّم الحقائق لا عن طريق التلقين، بل عن طريق البحث الذاتيّ، والبحثُ العلميُّ ينمو في الجامعات المتقدمة.

قال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرحمن:١-٢].

أيُعْقَل أنْ يُعلَّم الإنسانُ القرآن قبل أن يُخلق؟ قال بعضهم: قُدِّم تعليم القرآن على خلق الإنسان تقديماً رُتَبياً لا تقديماً زمنياً بمعنى أنّ الإنسان لا معنى لوجوده دون منهجٍ يسير عليه. فالإنسان الشارِد الضائِع الذي لا يعْلم هو دابَّةٌ مُتفَلِّتة، وقيمة الإنسانِ بالعلم. دخل على مجلس عمر بن عبد العزيز وفودُ المهنَّئين، وتقدَّمَهُم وفد الحجازيين، وتقدَّم هذا الوفدَ غلام يافع لا تزيد سِنُّهُ على اثنتي عشرة سنة، فانْزعَجَ الخليفة من هذا

الغلام الذي يتقدَّم هذا الوفْد فقال: أيها الغلام اجْلِس أنت وليتقدَّم من هو أكبرُ منك سِنّاً، فقال هذا الغلام: أصْلَح الله الأمير؛ المرءُ بأصْغَرَيْهِ: قلبِهِ ولِسانِه، فإذا وهب الله العبْدَ لساناً لافِظاً، وقلْباً حافِظاً، فقد استحقَّ الكلام، ولو أنَّ الأمر كما تقول لكانَ في الأمة من هو أحقُّ منك بهذا المجلس، فدُهِشَ الخليفة.

درواس بن حبيب وهو ابن ست عشرة سنة دخل على هشام بن عبد الملك فانْزَعَج الخليفة وقال لحاجِبِه، ما شاء أحدٌ أن يدْخل عليَّ إلا دخل، حتى الصِّبْيان؟! فقال هذا الصبيُّ الناشئ: أيها الأمير إنَّ دخولِي عليك لم يُنْقِص من قدْرِك شيئاً ولكنه شرَّفني، أصابتنا ثلاث سنين: سَنَةٌ أذابت الشَّحْم، وسَنَةٌ أكلت اللحم، وسَنَةٌ دقَّت العظم، ومعكم فضول مالٍ، فإن كانت لكم فتَصَدّقوا بها علينا فإنَّ الله يجزي المتصدقين، وإن كانت لنا فعلام تحبسوها عنا ونحن أولى بها؟ وإنْ كانت لله فنحن عِبادُه، فقال هشام بن عبد المِلك: والله ما ترك هذا الغلام لنا في واحدةٍ عُذْراً.

لذلك قالوا: جمال الرجل فصاحَتُهُ، وسيدنا عمر بن الخطاب عملاق الإسلام والخليفة العظيم، كان إذا مشى في الطريق من شدة هيْبَتِهِ تفرَّق الناس أمامهُ، بل إنَّ الصِّغار إذا رأوْهُ تفرَّقوا ودخلوا إلى بيوتهم، وذات مرةً مشى في سكك المدينة ورأى غِلْماناً صغاراً، فلما رأوْهُ هربوا إلا عبدالله بن الزبير بقيَ رابط الجأش، فلما وصل إليه قال: يا غلام لِمَ لم تهرب مع من هرب؟ فقال: يا أمير المؤمنين لستَ ظالماً فأخشى ظُلْمَك، ولستُ مذْنِباً فأخشى عِقابَك، والطريق يَسَعُني ويَسَعُك، فأعجب الخليفة بجرأته وحسن كلامه، ثم إن الله عز وجل يقول: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق:١-٥].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠] ولكرامة الإنسان على الله علَّمَهُ البيان (اللغة)، والشيء الذي يأْلَفُهُ الناس لا يثير اهتمامهم لألفته لديهم، ولا يوقظ فيهم حسَّ تعظيم الله الذي تكرَّم به عليهم. فأنت باللغة تتصل مع كلِّ الناس، فأنت صباحاً

تستمع لنشرة الأخبار فتعرف ما يجري في العالم فيتجمّع لديك الكثير من المعلومات، فمثلاً: هنا سقطت طائرة وهنا مذبحة وهنا قامت حربٌ أهلية وهنا خُطِفت طائرة وهنا عُقد مؤتمر وهنا... أليس كذلك؟ بهذه الأُذُن وبهذا النُّطْق بدقائق معدودات أحطت بالمعلومات كغيرك وفي بلاد متعددة، فاللغة أداة اتصال بين أفراد النوع، ويمكن أن تُعبِّر عن مشاعِرِك وعن أفكارك باللغة قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام:٩١].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة:٣١].

فهذه كلُّها أفعال العِلم التي وردت في القرآن الكريم، وسيدنا موسى لما التقى بالعبد الصالح استأذنه في مصاحبته ليتعلَّم منه مع نبوته وفضله، قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف:٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة:١١].

ومن الجدير أن أذكر هذه الفكرة: وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى من أسمائه العليم، ولكرامة الإنسان على الله أعطاهُ قوةً إدراكية يصبح بها عالِماً، ولقد بلغت كُشوفات الإنسان العلمية حدّاً يفوق الخيال.

فآينشتاين هذا العالِم الفيزيائي الذي اكتشف ما يسمى بالنظرية النسبية، وهي أن الخطوط في الفراغ ليست مستقيمة لكنها منحنية، وأنَّ كلَّ جسم يسير بسرعة الضوء يصبح ضوءاً، والضوء كتلتُهُ صفر وحجمُهُ لا نهائي، فأيُّ جسمٍ سار بسرعة الضوء صار ضوءاً، بل إنه إنْ سبق الضوء تراجع الزمن؛ وإن سار الجسم بسرعة الضوء صار ضوءاً وتوقَّفَ الزمن، فإن قصّر عن الضوء تراخى الزمن، فلو أمْكَنَكَ أن تنطلق من موقِع معركة اليرموك مثلاً وأن تصْعَدَ إلى الفضاء الخارجي بسرعة أعلى من سرعة الضوء بعد حين ترى المعركة وهي تقع، لأنها حينها وقعت صدر عنها موجات ضوئية إلى الفضاء الخارجي قبل ألف وأربعمئة عام تقريباً، فلو أنك سبقتَ الضوء لرأيت هذه المعركة كما هي وكأنها تقع الآن أمامك، ولو سِرْتَ مع هذه المعركة لصارت هذه المعركة أبديةً وتوقَّف الزمن، ولو قصَّرْت عنها لكانت رحلةٌ في الفضاء ساعة كالفِ سنةٍ على الأرض، وهو بعض معاني قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج:٤٧].

فإذا ركِبْتَ مركبةً فضائية وسِرتَ بسرعة أقل من الضوء قليلاً عندئذ تساوي الساعة في الفضاء الخارجي مئة عام في الأرض، فالله عز وجل سمَح لهذا الإنسان أن يعْلم، وإنَّ الله عالِمٌ يُحِبُّ العالِم ورتبةُ العِلْم أعْلى الرُّتَب، فلذلك حينما يُغْفِل الإنسان قيمة العلم في حياته أو حين لا يعتني بإدراكِهِ ولا يعتني بالعلم ولا يطلُبُهُ يهْبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به، يقول تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦].

وأحياناً يكون الإنسان في مجلس لا يستطيع أحدٌ أنْ يرُدّ عليه فيتكلّم بما يشاء، فإذا اكتشف أنّ في المجلس من هو أعْلم منه يسكُت ولسان حاله يقول: سكَتُّ إجْلالاً لعِلْمِك، والإنسان من حِكْمَتِهِ البالغة أنه إنْ كان في المجلس من هو أعلم منه عليه أن يلزم الصمت، فإذا تكلَّم في حضرة من هو أعلم منه فقد أساء الأدب، ولكن الذي يعلم قد زانه أدب العلم، فتراهُ يُصغي للحديث بسمْعِهِ وبقلبِهِ ولعله أدرى بِهِ.

والله تعالى عالم الغيب، والغيب مصدر غاب، أي: استتر عن العين، غابت الشمس، أي: استترت وراء الأفق... بل إنَّ الغيب يعني كلَّ غائبة تغيب عن الحواس، وكلُّ شيء غاب عن علم الإنسان فهو غيب... لكنَّ هذه الكلمات، وتلك التعريفات بالنسبة إلى الإنسان ليس غير.

لو أنَّ إنساناً وقف خلف حاجز، فهذا الحاجز يُغيِّبُ عنه ما وراءه، أمَّا الذي يقف أمام الحاجز فإنه يرى كلَّ ما غيَّبه ذلك الحاجز، نقول: هذا المكان غيبٌ بالنسبة لمن يقف وراء هذا الحاجز، أمَّا الذي وقف أمامه فليس غيباً بالنسبة إليه، هذا كلام سوف ينفعنا كثيراً بعد قليل.

عالم الغيب، بالنسبة إلينا مُغَيَّب عنا، فلا أحد من بني البشر يعلم الغيب، والغيب أنواع... نوعٌ من الغيب استأثر الله به، لا يُعْلِمهُ أحداً من خلقه كائناً من كان... من هذا الغيب أن الله عنده علم الساعة، ومن هذا الغيب قيامة الإنسان الصغرى: الموت، ولحكمةٍ بالغةٍ جداً أنَّ الإنسان لا يعلم متى يموت، وهذا لصالحه، فلو علم لتباطأ بالتوبة وخسر الآخرة... فكلُّ شيءٍ يغيب عن علم الإنسان غيب، لكنَّ ربنا جل جلاله عالم الغيب والشهادة.

مثلٌ بسيطٌ جداً من يقف في غرفة ما لا يعلم ما يجري في الغرفة التي تليها، أمَّا ربُّنا جل جلالهِ فكلُّ شيء أمامه مكشوف ولا تخفى عليه خافية، فهو عالم الشهادة التي تشهدها، وعالم الغيب الذي يغيب عنك.

في بلدٍ مجاور وقعت حرب أهلية سببت مآسٍ كثيرة، استمرت هذه الحروب أكثر من ستة عشر عاماً، أكلت الأخضر واليابس، أعرف واحداً من أبناء دمشق يسكن في ذاك البلد المجاور وله معمل، وله تجارة، وقبل أن يقع أي حادث ضاقت عليه نفسه، وضاق به ذلك البلد أشدَّ الضيق، وتعثرت أموره، إلى أن انتقل إلى الشام هو وتجارته ومعمله، وبعد أن انتقل، بدأت المشكلات واحترقت المعامل وأُتْلِفَ المال، وانتهى كلُّ شيء إلى دمار وخراب.

مَن الذي علم ما سيكون؟ الله جل جلاله، فإذا كنت معه ألهمك رشدك، ألهمك تصرفاً يحفظك به، أو ألهمك تصرفاً ترضى بنتائجه، لأنَّ الغيب معلوم لديه، فأنت لا تعلم الغيب، قد تشعر بحاجة إلى أن تغادر هذا المكان، فتغادره، وبعد أن تغادره تنشأ مشكلة أنت عاجز عن مواجهتها، كذلك قد تشعر بانقباض في أن تسافر على هذه الطائرة، فتُحْجِم عن السفر عليها، فتسقط الطائرة، من الذي يعلم الغيب؟ الله وحده، إذا كنت مع الله فهو الذي يعلم الغيب ويحفظك بهذا العلم، يعلم الغيب ويوفِّقُكَ، يعلم الغيب ويلهمك رشدك، يعلم الغيب ويكيد لك، يعلم الغيب ويدبِّر أمراً يحفظك به... الغيب عند الله كالشهادة، عَلِمَ ما كان وعَلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما سيكون، وعَلِمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

إذاً لا يَعْزُبُ عن الله جلَّ جلاله مثقال ذرةٍ في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر... إذا كنت معه وهو الذي لا يغيب شيءٌ عن علمه فإنَّه يوجِّهك إلى الخير ويدفع عنك الشَّرَّ قبل أن يقع.

شيء لا يصدق أحياناً، أحداث خطيرة تقع، أنت قبل أن تقع يحفظك الله منها، يلهمك أن تغادر، يلهمك أن تنقل مالك من مكان إلى آخر، من جهةٍ إلى جهة، من عُملةٍ إلى عُملة، وأنت لا تدري، لأن الله يعلم الغيب، فإذا كنت معه وتؤدي حقوق العباد، وتقيم منهج الله يحفظك، وعلمه للغيب تنتفع به إذ ربنا جلَّ جلاله يصرِّف الأحوال ويقلِّبها لصالح عباده المؤمنين.

أما الشهود والشهادة، أي: الحضور مع المشاهدة، عالِم الغيب والشهادة، أي أنت حاضر وتشهد أو غائب وتجهل، عالِم الغيب، أي: غاب عنك، عالِم الشهادة حضرت وشهِدت، إما بالبصر أو بالبصيرة، البصر رؤية العين، والبصيرة رؤية القلب، وعالم الغيب: حُجبت فجهلت .

الحضور والشهود هو الأصل، أما العلم والشهود فهو فرع، قد تحضر وتشاهد بأمِّ عينك، وقد تعلم وكأنك تشاهد.

لكن من اللطائف في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل:١].

مع أن هذا الحادث لم نره نحن، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾... قال بعض العلماء: «يجب أن يقع إخبار الله لك موقع الرؤية لمصداقية الله عز وجل».

شهدت فعلمت وغبت فجهلت، شهدت الحفل فعلمت وقائعه أو غبت عنه فجهلت وقائعه فهناك عالم الغيب، وعالم الشهادة، والله جل جلاله عالم الغيب والشهادة.

ويقول تعالى: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة:١-٣].

أي أن الله جل جلاله لا تدركه الأبصار، غابت عنا ذاته وبقيت آثاره، نحن من آثاره نتعرَّف إليه وهذه مهمَّة العقل... أدواتٌ ثلاث للمعرفة، إمَّا أن ترى بحواسك، وإمَّا أن تدرك بعقلك، وإمَّا أن تتلقى خبراً بأذنك، هذه هي أدوات المعرفة وليس هناك أداةٌ أخرى.. إن كان هناك أداةً أخرى كالرؤيا الصالحة فيجب أن تكون مقيدةً بالشرع ولا نقبل رؤيا ولا إلهاماً، يخالف الشرع قيد أنملة... ديننا دينٌ كاملٌ تام... قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

لو أنَّ رجلاً رأى النبي ﷺ -طبعاً في المنام- هكذا قال العلماء، وأمره بما يخالف الشرع، تردُّ الرؤيا، ويثبت الشرع... بل لو أنَّ قاضياً رأى في الرؤيا أنَّ هذا الشاهد كاذب لا تقبل شهادته، وهو عنده في اليقظةِ صادقٌ فيجب ألا يأخذ بالرؤيا.

الرؤيا يستأنس بها ولا يعتمد عليها إطلاقاً، لا في حكم شرعي، ولا في إثبات قضية، ولا في تصحيح حديث، ولا في تقييم إنسان... الرؤيا والإلهام مصادر فرعية للمعرفة، إلا أنها يجب أن تنضبط بالشّرع.

من معاني الغيب أيضاً، يؤمنون بالغيب، يؤمنون بشيءٍ غاب عنهم، ذات الله لا نراها لكن نرى خلق الله، مصير الإنسان لا نراه، لكنَّ الله أخبرنا عن مصير الإنسان إمَّا في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

الخلاصة أنَّ الغيب بالمعنى الثاني هو ما لا يقع تحت الحواس أبداً، الشيء الذي يقع تحت الحواس عالم الشهادة، والشيء الذي لا يقع تحت الحواس عالم الغيب، لكنَّ الله عالم الغيب والشهادة.

فإذا لم يؤمن الإنسان بالغيب أصبح كافراً له، ومن لوازم المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، أي: عقلك يعطيك دليلاً قطعياً، على أنه لا دخان بلا نار، النار لا تراها، لكنك رأيت الدخان، وعقلك يعطيك دليلاً قطعياً على أنَّ في المسجد كهرباء وأنت لا ترى الكهرباء ترى آثارها، ترى حركة المراوح وتسمع تكبير الصوت، وترى تألُّقَ المصابيح فقط، تحكم على سريان تيار الكهرباء من آثاره.

بعضهم قال: إنَّ الغيب هو القرآن الكريم أو إنه القدر، لكن الغيب -حقيقة- كلُّ شيء غاب عن حواسِّك، أو كلُّ شيء غاب عن علمك، وعالم الشهادة كلُّ شيء شهدته فعلمته.

لقد ذكرت في بداية البحث أن الغيب أنواع، نوع من الغيب استأثر الله به، ونوعٌ أطْلَع بعض أنبيائه عليه.

قال الله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

لذلك فإن النبي ﷺ، في أحاديث كثيرة، حدثنا عن أشراط الساعة، الكبرى والصغرى، وحدثنا عن آخر الزمان، كيف أن الأَمَةَ تلد ربَّتها، وكيف أن الحفاة العراة، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان، وكيف يوسَّد الأمر إلى غير أهله، وكيف -كما روي عنه- يكون المطر قيظاً والولد غيظاً ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً. وكيف

يُؤمَر بالمنكر، ويُنهى عن المعروف، وكيف يُصدَّق الكاذب، ويُكذَّب الصادق، ويُخَوَّنُ الأمين، ويُؤتمن الخائن.

هناك أحاديث كثيرة جداً عن أشراط الساعة، من أين جاء بها النبي ﷺ؟ هو لا يعلم الغيب بذاته إلا أن يعلمه الله به، وأكبر دليل على ذلك أنه لما جاءه وفدٌ من رعل وذكوان وعصية وبني لحيان فزعموا أنهم قد أسلموا، أعطاهم النبي ﷺ سبعين قارئاً ثم غدروا بهم في الطريق عند بئر معونة وقتلوهم [البخاري (٣٠٦٤) عن أنس]، ولم يعلم النبي ﷺ بهذه الواقعة، التي لها دلالة كبيرة جداً، أي أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب بذاته إلا أن يُطلعه الله عليه... بل إنه حينما اختار موقع بدر، جاء صحابي جليل اسمه الحُباب ابن المنذر، قال: يا رسول الله، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال هذا الصحابي الجليل انطلاقاً من غيرته على الإسلام والمسلمين: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل [السيرة النبوية، لابن هشام].

الله عز وجل أطلع النبي ﷺ على آلاف القضايا التي هي أقلُّ من هذا الموضوع، ولكن شاءت حكمته أن يعلِّمنا النبي ﷺ أدب الإصغاء إلى النصيحة، يعملنا النبي ﷺ وهو قدوتنا وأسوتنا أدب الإصغاء إلى النصيحة فلما سأله أين الموقع الذي اخترته؟ قال: هناك يا رسول الله، وأشار إليه، وأعطى الرسول ﷺ أمراً بالانتقال إليه.

إذاً: الغيب لا يعلمه إلا الله، الشهادة يعملها الإنسان في حدود إمكانه... فالغيب الذي يمكن أن يُطلع الله نبيه ﷺ عليه، أنواعٌ ثلاثة: غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل... غيب الماضي قبل الوقت الذي تعيش فيه، وغيب المستقبل بعد الوقت الذي تعيش فيه، وغيب الحاضر غير المكان الذي تكون فيه.

مثلاً: أنا في دمشق لا أدري ماذا يجري في حلب، حلب بالنسبة إليّ غيب حاضر، أما دمشق قبل مئة عام فغيبُ ماضٍ، وبعد مئة عام غيبُ مستقبلٍ، والله سبحانه وتعالى، يعلم غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل.

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤٤].

هذا غيب الماضي... أما غيب الحاضر... فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٠].

أما غيب المستقبل... فقد قال الله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الروم:٢-٤].

أريد أن أركِّز على هذه الحقيقة وأوضِّحها؛ فأنت إذا كنت مع الله، والله يعلم الغيب، يعلم غيب الحاضر، فالطرف الآخر وهم خصومك؛ يعلم ماذا سيفعلون بك، كما يعلم ماذا سيخططون لك، وهو يعلمهم، ويلْهمك شيئاً يقيك تخطيطهم، يلهمك تدبيراً يحميك من غدرهم، يلهمك خطّةً تنجو بها من مكرهم، فأنت إذا كنت مع الله فأنت مع عالم الغيب والشهادة الذي يفسد على الآخرين مكرهم، وما أحداث ليلة الهجرة بمجهولة لديكم... لذلك قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [التوبة:٥١].

لكن قد توجد مفاجآت، فهناك آلاف الوقائع والأحداث يفاجأ بها الإنسان، والإنسان البعيد عن الله قد يفقد كلَّ ماله في بضع دقائق، وأحياناً في دقائق قد يفقد أهله أيضاً، أما الإنسان المتوجه إلى ربّه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم ما كان، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما هو كائن في أي مكانٍ آخر، فقد ينجيه من كلِّ كرب.

ذكر لي أخ أن دماراً كبيراً جداً وقع في مكان ما، وكان هو في المكان نفسه، قال لي: والله الذي لا إله غيره قبل خمس دقائق من وقوع الانفجار، أُلهمت أن أخرج من المكان

لكي أشتري الخبز، وما إن ابتعدت مئات الأمتار، حتى سمعت صوت انفجار أصمَّ الآذان، شيء مدمِّر، فإذا كنت مع الله كان الله معك، والله عز وجل إذا قال: إن الله مع المؤمنين، أو مع المتقين، أو مع الصابرين... فهذا يعني أنه معهم حفظاً، وتأييداً، ونصراً، وتوفيقاً.

لذلك فعلى الإنسان إذا همَّ بعمل شيء أن يصلِّي صلاة الاستخارة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللهمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللهمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي» قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ» [البخاري].

هو يعلم أنَّ هذه المرأة لا تُسعدك فيصرفها عنك ويصرفُك عنها، هو يعلم أنَّ هذه التجارة لا تُغنيك بل تفقرك، هو يعلم أنَّ هذا السفر ليس في صالح إيمانك... هو يعلم الغيب وأنت لا تعلم، فإذا فوَّضت، فقد فوَّض الذي لا يعلم لَمَنْ يعلم... وهذا ذكاء وتوفيق.

قد تقف عند بائع تثق به وتقول له: أنت اختر لي، فقد سلَّمت أمري إليك، واختر لي ما يُعجبك، فيختار لك أحسن ما عنده... هذا مع إنسان تثق به تفوِّضه فكيف مع الواحد الديان؟!

بالمناسبة... كلما ارتقى الإنسان في سُلَّم الإنسانية يخاف بالغيب، وكلما هبط إلى مستوى البَهيمية يخاف بالشهود، كلما ارتقى انسان في سُلَّم الإنسانية يخاف بعقله، وكلّما

هبط إلى مستوى البهيمية يخاف بعينه، أي إلى أن يرى الخطر ماثلاً عندها يخاف، علماً بأنَّ الخطر يُدرك مسبقاً بالعقل.

فمثلاً يقول الأطباء: إنَّ الدخان يسبب سرطان الرئة، وهذا النيكوتين الموجود فيه يسرِّع القلب، ويزيد من خفقان الرئتين، ويضيِّق الأوعية، فيرفع نسبة السكر في الدم، ويرفع نسبة هرمون التجلُّط، فاحتمال التجلُّط في دم المدخِّن كبيرٌ جداً، الأمراض القلبية عند المدخنين عشرة أمثالها عند غير المدخنين، هذا كلُّه بالعقل يُدرك، أمَّا المدخِّن الذي يخاف بعينه فإنه لا يقلع عن التدخين إلا بعد أن يُصاب بمرض عضال، كلما ارتقى مستواك الإنساني خفت بعقلك، وكلما تدنّى مستوى المرء الإنساني خاف بعينه.

قد تجد الدابة إن رأت حفرة في الأرض تقف، لقد رأت بعينها...، وقد يجد إنسان طريقاً واسعاً وممهَّداً ومعبَّداً ويجد لوحة كتب عليها: انتبه! الطريق مغلق، فالإنسان العاقل لا يتابع السير، فالطريق تراه بعينيك مفتوحاً أمامك، ولكن قراءتك للوحة صغيرة تفيدك أن الطريق بعد قليل مغلقٌ فلا تتابع المسير، فأنت الآن لم ترَ الإغلاق ولكن رأيت فكرة الإغلاق، فكلما ارتقى الإنسان يتعامل مع الأفكار، أما إذا هبط إلى مستوى لا يليق به فإنه يتعامل مع الصور.

قد ترى دُوراً للهو ذات فخامة كبيرة، فيها أجمل أنواع الثريات والتزيينات والأناقة لكن المعاصي كلّها تُرتكب فيها، فالمؤمن يكرهها بعقله، على حين أن ضعيف التفكير يقدِّرها ويُعظِّمها بعينيه فيمدح فخامتها... فكلما ارتقى الإنسان تَعامل مع الأفكار بعقله، وكلما هبط مستواه تَعامل مع الصور بعينيه.

إذاً فأخطر شيء على الصغار أن تريهم قصة ممثَّلة... فلو أريناهم إنساناً متديِّناً أحمقَ أو امرأة متديِّنة حمقاءَ مهملة أولادها، فهذا الصغير يكره الدين بلا سبب، فهو في كلِّ الأحوال لا يتعامل مع الأفكار، فليس عنده إدراك أو عمق أنَّ هذه تمثيلية والذي كتب هذه التمثيلية أراد تشويه صورة الدين، فهو قد رأى أنَّ الإنسان الذي يمثِّل الدين غير جيد، على حين أنَّ الإنسان الجيد هو الذي أسبغ عليه الكاتب كلَّ صفات الرجولة

فهو إنسان شجاع ووفيٌّ إلا أنه يشرب الخمر، فخطورة أجهزة اللهو مع الصغار مدمِّرة جداً، لأنَّ الصغير لا يتعامل مع الأفكار بل يتعامل مع الصور، فيكفي أن تريه امرأةً سيئةً جداً بزيٍّ إسلامي، فيكره الإسلام كلَّه، ويكفي أن تريه امرأةً تحبُّ أولادها حبّاً جمّاً، لكنَّها متفلِّتة من الدين فيحبُّ الصغير التفلُّت من الدين، هنا الخطورة أن نسمح لأطفالنا أن يشاهدوا كلَّ ما هبَّ ودبَّ، فالطفل الصغير يتعامل مع الصور، وقد نستطيع أن نفسد عقيدته بالصور، وأن نشوِّه له كلَّ شيءٍ يعرض عليه بالصور.

لدينا غيب وكذلك شهادة... وهناك أمثلة كثيرة جداً... إنسان ينتظر إلى أن تأتي موجة من البرد القارس فيهيِّئ المدافئ ويشتري الوقود السائل للتدفئة، وإنسان آخر تجده وهو في أشهر الصيف يهيئ المدافئ ويشتري الوقود السائل اللازم، ويجهِّز كلَّ شيء لفصل الشتاء دون مشقَّة ودون ازدحام على الوقود، أمَّا حينما تأتي الموجة القارسة فجأةً فلسوف تجد صعوبة بالغة عند شراء الوقود السائل، فالذي يتعامل مع الأشياء بإحساساته فهو ذو إدراك ضعيف، أمَّا الذي يتعامل معها بإدراكه فهو ذو عقل راجح.

كتاب الله -جلَّ جلاله- أشار إلى كلمة عالم الغيب والشهادة في آياتٍ كثيرة... فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

ذكرت في أبحاث سابقة حكمة... ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، لو قال الله تعالى: ومفاتح الغيب عنده، أي هي عنده وقد تكون عند غيره، أما حينما يقول الله عز وجل: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، فمعنى ذلك أن مفاتح الغيب عنده حصراً.

وفي سورة الفاتحة ورد قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة:٥].

فلو قال: نعبد إياك يا رب، فهذا يعني أننا قد نعبد غيرك أيضاً، أما قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فمعناه أننا نعبدك وحدك يا رب، هذا هو القصر، فالتَّقديم يفيد القصر والحصر.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ ﴾. إن كان لديك مجلَّة قديمة صدرت قبل عشرين سنة، فاقرأها فستجد أنَّ الأحداث التي وقعت بعد إصدار هذه المجلة لو عشت في تاريخ صدورها لا يمكن أن تتصوَّر أن الذي وقع يمكن أن يقع، كان غيباً، حينما تُهدُّ عروش، وحينما تدكُّ معسكرات عملاقة، فاقرأ في هذه المجلة القديمة وتصوَّر أن الذي وقع، لو تنبّأت به قبل أن يقع لأودعوك في مشفىً للمختلّين عقلياً لكنه وقع فعلاً... فمن يعلم الغيب؟ الله جل جلاله هو وحده يعلم الغيب.

فقد يقول لك أكثر الناس: قد عُرض عليّ شراء أرض مساحتها مئتا دونم وسعر الدونم ليرتان فقط ولكنني لم أشترها، والآن ثمن الدونم الواحد مليونان... لو أنك تعلم الغيب لكنت الآن من أغنى أغنياء العصر... أراضٍ شاسعة وواسعة ومئات الدونمات بثمن بخس، فقد ذكر لي شخص أنه قد باع خمسين دونماً بدابة صغيرة كان بحاجة إليها وهذه الأرض ماذا يفعل بها فهي عبء عليه، أما الآن فسعر الدونم الواحد مليونان... هذا كان في علم الغيب.

التُّجَّار يقولون كلمة لطيفة: تاجر ومنجِّم لا يجتمعان... لا أحد يعلم ما سيكون، أحياناً تجد الأمور تسير في طريق مسدودة إلى أن ييأس من لا ثقة له بالله، فقد كان في بلادنا جفاف مخيف كاد حوض دمشق يجفُّ، وكادت دمشق تعاني من العطش ولكنَّ الله جل جلاله أنزل أمطاراً غزيرةً في الأعوام التالية، وهذا كان غيباً... فموضوع الغيب مهمٌّ جداً.

فأحياناً يُقال لك: إنهم تمكّنوا من معرفة الجنين ذكراً أو أنثى، فأين قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان:٣٤].

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ ﴾ فلم يقل الله: يعلم من في الأرحام ذكراً كان أو أنثى. قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ فالحوين المنويُّ يوجد على النُّويَّة فيه ملايين المعلومات المبرمجة، هذا الجنين

هل سيكون عالماً كبيراً، أو أستاذاً في الجامعة، أو مؤلِّفاً خطيراً، أو بائعاً متجوِّلاً، أو مجرماً، أو سجيناً، أو مصلِحاً، أو مفسِداً مثلاً، وهل يا ترى سيكون صاحب ملهى أم صاحب دار للنَّشر، مَن سيكون؟ من سيتزوَّج؟ من سينجب؟ ما دوره في الحياة؟ هل يكون دوراً هامشيّاً أو دوراً قصيراً فمن يعلم هذا؟ إذا وُجد على النويَّة هذه المعلومات المبرمجة لا يعلمها إلا الله، فما نسبة معرفة ذكورته أو أنوثته إلا واحد لخمسة آلاف مليون.

أحياناً تجد أباً لديه خمسة أولاد، لا يعلم من هو المتفوِّق، وبعد ثلاثين سنة تجد ولداً منهم قد تألق تألُّقاً كبيراً جداً، وولداً آخر أصبح في الدرجة الدنيا من المجتمع، مَن الذي يعلم الغيب؟ الله وحده يعلم الغيب... علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾.

هل أنت مرتاح إلى أنَّ الله الذي تعبده يعلم كلَّ شيء، وعلمه لصالحك فقد قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد:١١].

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾.

فأحياناً يقول لك أحد الأشخاص أثناء قيادة مركبةٍ: لو تقدَّمت سنتيمتراً واحداً لكان وقع لي حادث أليم، فمن يعلم الغيب؟!

الله عز وجل يصرفك أحياناً عن شيء مدمِّر، فيلهمك رشدك... إنسان له تجارة معيَّنة، والبضاعة موجودة، والطلب عليها شديد، والتصدير ميسَّر ولكنه قال لي بالحرف الواحد: والله! شعرت بضيق وانقباض بصورة غير معقولة، وبلا سببٍ أو تعليل، واشتدَّ الضيق عليَّ إلى درجة أنني أحجمت عن تصدير هذه البضاعة، ثم كان

الذي كان، فُرِض على الذي قاموا بالتصدير في ذلك العام ضرائب أكلت أخضرهم ويابسهم، ونجَّاه الله من هذه الضرائب التي لم تكن في الحسبان، والسبب أنه أنفق مالاً وفيراً في خدمة بيوت الله عز وجل... ولأنَّ الله عز وجل يعلم الغيب صرفه عن هذا العمل، وهناك آلاف الشواهد المشابهة، فأنت حينما تعبد الذي يعلم الغيب، فعلمه للغيب كلُّه لصالحك وأنت لا تدري... من هنا قال الله عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:٢١٦].

سألني أخ ذات مرة عن قضية، فأخبرته بأن فيها شبهة، فقال لي: ليس لي دخل إلا منها. فقلت له: هذا شأنك لا شأني وقد سألتني فأجبتك. ولكن يبدو أن خوفه من الله غلب عليه فامتنع عن هذه الطريقة في التعامل وكان امتناعه لله، في حين أنها كانت رائجة جداً وتدرُّ عليه دخلاً كبيراً جداً، فلمَّا امتنع عن هذه الطريقة المشبوهة في التجارة التزاماً بشرع الله سبحانه، ومضى عليه أكثر من ثلاثة أشهر ودخله قليل جداً ثم مُنِعت هذه الطريقة من أصلها قسراً، فجاءني وقال: الحمد لله الذي تركتها لله، بعد حين كنت سأتركها مقهوراً ومجبوراً مع الإثم والوزر، أما الآن وقد تركتها رجاء مرضاة الله وأنا في الأوج، ثم كافأني الله بأن فتح لي باب رزقٍ وفير لم يكن بالحسبان.

موضوع أنَّك تعبد الذي يعلم الغيب موضوع مهمٌّ، فأنت في راحة لأنَّ كلَّ ما سيكون هو في علم الله، لذلك يوجِّهك الله توجيهاً لصالحك، فالمؤمن يُلهِمُه المَلَك، والمنافق يدفعه الشيطان، يدفعه إلى أن يبخل، يدفعه إلى أن يحقد، يدفعه إلى أن يخاصم زوجته، يدفعه إلى كلِّ المشكلات.

آيةٌ ثانية قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام:٧٣].

﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الحكيم كما تعلمون يضع الشيء بالقدر المناسب، وفي المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، و كلُّ شيءٍ وقع أراده الله.

و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: الخبرة هي العلم الذي يتعلَّق بالمستقبل... فأحياناً تقوم ببناء آلة بمعرفة وعلم عالٍ جداً، لكن مع الاستعمال تكشف أنَّ فيها أخطاء لم تكن في الحسبان، فالعلم مع المستقبل يصبح خبرة.

وفي سورة التوبة قال تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [التوبة:٩٤].

وفي السورة نفسها قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة:١٠٥].

نصيب المؤمن من معرفته بعالم الغيب والشهادة

يمكن أن نُلخِّص المواقف العملية للمؤمن من خلال هذا الاسم: إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة فلن تفاجأ بغيبٍ مدمِّر، أنت إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة كان علم الله للغيب لصالحك، يحميك من كلِّ سوء، يقيك شرَّ أعدائك، يُلهمك رشدك، يُلهمك الخير وأنت في حرزٍ حريز.

حينما تعلم أنَّ الله يعلم... وهذه الحقيقة وردت في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

أي إنك إذا علمت أن الله يعلم استسلمتَ وارتحت، لذلك يقول المؤمن أحياناً: اللهمَّ خِر لي واختر لي... أي يا رب! أنت اختر لي.

روي أن من أدعية النبي ﷺ ما رواه عبدُ الله بْن يَزيدَ الخَطْمِيُّ الأنْصَارِيُّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعائِهِ: «اللهمَّ ارْزُقْنِي حبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللهُمَّ ما رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فاجعَلْهُ قُوَّةً لي فيما تُحِبُّ، اللهمَّ وَمَا زَوَيْتَ عنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَراغاً لِي فِيمَا تُحِبُّ» [رواه الترمذي].

قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة:٢١٦].

وأقول مرة أخيرة... أنت تقف هنا، لا تعلم هناك ما سيكون، فقد يكون لك عدو كبير خطير مخيف يدبِّر لك أمراً ما، لكن الله يعلم ما أنت فيه ومن خصمك فيه، فإذا كنت مع الله عز وجل ألهمك رُشدك، ألهمك الخلاص من هذا العدو، أو ألهمك تدبيراً مضاداً لتدبيره، أو ألهمك سلوكاً يُعطِّل عليه مَكْرَهُ لأنه يعلم الغيب، وهذه هي أهمُّ فكرة في هذا البحث، أنت إذا كنت مع الله فأنت مع عالِم الغيب والشهادة، الغيب لصالحك فلا توجد لديك مفاجأة، فتجد المؤمن الصالح كلُّ شيء يسيِّره الله به لصالحه والغيب يكشف له الحقيقة.

وتجد الإنسان غير المستقيم يخطِّط... فذات مرة فكَّر إنسانٌ وأكثرَ من التفكير الجادِّ ثم باع كلَّ ما يملك واشترى به عملة لبنانية، فمن يعلم أنَّ هذه العملة سوف تصبح متدنية وسيصل سعر كل دولارٍ واحدٍ إلى ثلاثة آلاف وثمانمئة ليرة لبنانية؟ باع كلَّ أملاكه وتاجر في العملة الصعبة فكانت خسارته دماراً ووبالاً، فمن يعلم الغيب؟ الله عز وجل وحده هو الذي يعلم.

فحينما يكون الإنسان مع الشيطان ومنحرفاً عن المنهج الإسلامي الصحيح فالغيب ليس في صالحه، فيفكِّر ثم يفكِّر حتى يجهد نفسه تقليباً للأمور واستكشافاً لخفاياها، ثمَّ يجعل الله تدميره في تدبيره لأنَّه لا يعلم الغيب، وتخلَّى عمن بيده الخير.

أحياناً تجده يضع كلَّ أمواله في مشروع غير ناجح، لو علم الغيب لما أقدم على هذا المشروع، أمَّا المؤمن فهو لا يعلم الغيب ولكنَّ الله يدافع عنه، لكن الله يسيِّره، لكن

الله يحفظه، لكن الله يلهمه، لكن الله يصرفه عن هذا الشيء، وقد قال تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ [الحج:٣٨].

فأهمُّ ما في بحثنا هذا النقطة الآتية: إذا كنتَ مع الله فهو يعلم الغيب، ويعلم ما سيكون فلذلك يلهمك رُشدك حيال ما سيكون، فاللهم اجعلنا من هؤلاء الذين يستسلمون لك يا رب، ويفوِّضون إليك كلَّ أمورهم.

اللهم! أعطنا ولا تحرمنا، أكرمنا ولا تهنا، آثرنا ولا تؤثر علينا، أرضنا وارضَ عنا اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، ومتِّعنا اللهمَّ بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تُسلِّط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا، وصلَّى الله على سيدنا محمدٍ النبي الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم.

نور السموات والأرض

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور:٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر:٦٩].

وفي سورة الصف: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف:٨].

من معاني النور

النُّور في اللغة هو الضوء أياً كان، أو شعاعه، موجاته أو سطوعه، تألُّقه، هناك موجات لا تُرى بالعين، النور هو الضياء والسناء الذي يُعين على الإبصار، أنتم موجودون، ولكم أعين ولكن هذه الأعين لا قيمة لها دون هذه الضوء الذي يُعَدّ وسيطاً بينكم وبين المرئيات، النور والضياء والسناء الذي يعين على الإبصار.

النُّور نوعان: دنيوي وأخروي.

الدنيوي نوعان:

١- معقول بعين البصيرة.
٢- محسوس بعين البصر.

معقول بعين البصيرة: أحياناً تكون الفكرة الواضحة أو الأسلوب الذي تعلَّمه الإنسان في حلِّ المشكلات، يُعدّ نوراً مجازياً، أحياناً يعاني إنسان من مشكلة في آلة وعنده خبرة، يجعل هذا الشيء مكان هذا الشيء، ويصل هذا الشيء بهذا الشيء فتعمل هذه الآلة، هذه الخبرة التي يملكها، أو هذا الأسلوب الجاهز في حل هذه المشكلة يمكن أن نسميه نوراً.

فالنور نوعان: نوع معقول بعين البصيرة، قد يواجه الإنسان مشكلة لا يستطيع أن يفعل شيئاً إزاءها كأنه في ظلام، ثم تلمع في ذهنه فكرة فتحلُّ تلك المشكلة بهذه الفكرة، فإذا شبَّهناها بالنور فالتشبيه صحيح، فالنور معقول بعين البصيرة، ومحسوس بعين البصر، من هنا قالوا: العلم نور، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق.

العقل نور، القرآن الكريم نور، أوضح مَثَلٍ قارورة تحوي مادة كيميائية أنت لا تعرف هذه المادة، يا ترى أهي مادة تلتهب؟! تنفجر! سامة! مادة مؤذية! نافعة! مخدّرة! مسرطنة! مادة في قارورة إذا كُتب على هذه القارورة لُصاقة كلور الصوديوم، هذه

الكلمة كأنها نور كأن شيئاً لا تراه سلّطت عليه ضوءاً فعرفته، كذلك هذه اللُّصاقة نور، فالنور مادي: محسوس، ومعنوي: معقول.

المحسوس كنور القمر وضوء الشمس، ومن النور المعقول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ ﴾ [المائدة:١٥].

﴿ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ ﴾، الإنسان خُلق في الأرض، لماذا خُلق؟ ماذا يجب أن يفعل؟ أيأكل ويشرب وينام وانتهى الأمر؟! أم عليه مهمة لا يعرفها؟ متى يموت؟ لماذا يموت؟ لماذا يعيش؟ يُحسن، يسيء، يصدق يكذب، يؤتَمن، يخون، ماذا يفعل؟ يأتيه كتاب من الله يقول له: أنت خُلقت لجنة عرضها السموات والأرض، أنت خُلقت في الدنيا لتعمل عملاً صالحاً يدخلك الجنة، أنت لا يُسعدك إلا أن تتصل بالله عز وجل، لا تَسلم إلا إذا أطعت الله، لا تسعد إلا بالتقرب إلى الله، الله الذي خلق السموات والأرض هو إلهٌ عظيم، ربٌّ كريم، سميعٌ بصير، عليم قوي، مُجيب، هذا القرآن عرّفك الله، عرّفك الكون، عرّفك حقيقة الحياة، عرّفك حقيقة الإنسان، قال لك: افعل ولا تفعل، بيّنَ لك الحلال والحرام، الخير والشر، الحق والباطل، ما ينبغي وما لا ينبغي، نشأة العالَم ومصير العالَم، قصص الأنبياء، مشاهد يوم القيامة.

إن النور للمؤمن يورثه راحة لا يعرفها غيره أبداً، كلُّ الأمور واضحة عنده وجليّة، كلُّ شيء واضح، يعرف أنَّ لهذا الكون خالقاً، ويعرف أنَّ لهذا الكون مربِّياً، وأنَّ لهذا الكون مسيِّراً، وأن الله موجود وواحد وكامل، وأنَّ أسماءَه كلَّها حُسنى، وأنَّ صفاتِه كلَّها فُضلى، وأنَّ الله عز وجل سميعٌ قريب، مجيبٌ رحيم، ودود، الدنيا مزرعة الآخرة، الإنسان يسعد بطاعة الله، ويشقى بمعصية الله، هذا الكتاب الذي بين أيدينا يقدِّم لنا راحة لا تُوصف، راحةَ التوازن، أحياناً يعتري الإنسانَ غموضٌ فيبقى في قلق

منه، فإذا اتضح تبدَّد القلق، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة:١٥].

هذا الكتاب هو النور، أحياناً تشتري آلة ولها تعليمات، مثلاً: اضغط على المفتاح يحدث كذا، ثم الثاني، ثم الثالث، فتظهر على الشاشة هذه الكلمة، افعل كذا، افعل كذا، كأنك تمشي على طريق واضحة مستقيمة، فذلك القرآن الكريم نور، ومن النور المحسوس قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس:٥].

﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، والإنسان قد يقف عند الشمس قليلاً، يُقدر علماء الفلك أن عمر الشمس لا يقل عن خمسة آلاف مليون عام، وأنها لن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون عام، وأنها تُصدر من الطاقة الحرارية والضوئية ما لا سبيل إلى وصفه، فبيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلومتراً، ومع ذلك لا تستطيع أن تتعرَّض لأشعة الشمس طويلاً في الصيف، فكيف أشعتها هناك؟ لسان اللهب لا يقل عن مليون كيلومتر، الحرارة ستة آلاف درجة على سطحها، في حين أنّها في مركزها تصل إلى عشرين مليون درجة، وتتسع الشمس لمليون وثلاثمئة ألف أرض، وكنت أذكر دائماً أنَّ في برج العقرب نجماً أحمر اللون اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥].

من أبدع أصل النور؟ الله عز وجل.

إنَّ النور تفاعُل يجري في مادة في بُنيتها النووية، هذا التفاعل يُنتج موجات، هذا النور ينتشر، هل له وزن؟ ليس له وزن، حجمه لا نهائي، كتلته صفر، بل إنَّ بعض علماء الفيزياء يقولون: إن أي جسم لو سار بسرعة الضوء، -الضوء سرعته ثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية- أيُّ جسم، لو أتينا بكتلة حديد استطعنا أن نقذفها بسرعة

الضوء فتصبح نوراً، وكتلتها صفر، وحجمها لا نهائي، موضوع النور يحتاج إلى جلسات علمية خاصة.

على كلٍّ النور المحسوس كضوء الشمس والقمر، فنورهما نور محسوس، والقرآن الذي فيه تعليمات الصانع نور معقول، التعليمات النظرية نور، البيان نور، الدليل نور، التفصيل نور، التوجيهات نور، النور شيءٌ ظاهر، أحياناً ضوءٌ ضئيل جداً في الظلام الدامس يكون ظاهراً جداً، فالنور الشيء الظاهر. أيُّ شيء ليس له إشعاع ليس ظاهراً، أحياناً يقود الإنسان سيارته في الليل يصدر ضوءاً عالياً، يرى نُقاطاً مضيئة في بعضٍ الحيوانات هي عيونها، فالنور الشيء الظاهر، لذلك قيل: «هو الظاهر الذي به كلّ ظهور، ظاهر مُظهِر»، لعل النور الخافت جداً ظاهر لكنه ليس مُظهِراً، أحياناً قطعة فحم متأججة واضحة لكن هذه القطعة المتأججة لا تنير غرفة، أما المصباح الكهربائي فينير غرفة.

وقيل أيضاً: النور هو الشيء الظاهر الذي به كل ظهور، فالنور هو الشيء الظاهر في نفسه المُظهِر لغيره، مصباح تُسلِّطه على مكانٍ فترى السّجاد والكرسي والقلم والوردة والمِحبرة والمُسجّلة، فهذا المصباح أظهر غيْرَهُ.

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ظاهر بذاته مُظهِرٌ لغيره، ظاهر بذاته، مُنزَّه عن العدم، بل عن إمكان العدم، مُظهِرٌ غيرَه من ظلمة العدم إلى نور الوجود، إنَّ الذات الظاهرة المُظهِرة هي النور وهي الله عز وجل، والوجود نورٌ فائض على الأشياء كلها من نورِ ذاته، إذاً هو نور السموات والأرض.

النور الهادي الرشيد الذي يُرشد بهدايته من يشاء فيُبين له الحق، ويُلهمه اتباعه، هناك أشياء عويصة جداً، يأتي مخترع فيُعمِل ذهنه سنوات طويلة، وفجأة تلمع أمامه فكرة جديدة، هذه الفكرة التي لمعت أمامه في رأي أهل الدين من إلهام الله عز وجل، لأن الله قذف في قلبه وذهنه هذه الحقيقة فالتَمَعتْ، فسُمِّي عند الناس مُكتشفاً أو مخترعاً، وفي الحقيقة لقد تلقّى هذه الومضة من الله عز وجل. فالاختراع إذاً بارقة.

حدثني صديق عما يسمى زَرْعَ الأسنان، جسم الإنسان كما تعلمون يرفض الأجسام الغريبة، مرةً وضع عالم مِلقطاً من معدن معيّن على قطعة عظم ونسيه في المخبر، بعد حين التأم العظم حول المعدن فانتبه هذا العالم إلى أن هذا المعدن يمكن أن يدخل في فك الإنسان ويلتئم النسيج العظمي حوله، هذه بارقة، فلقد أمكن الآن زراعة الأسنان بأن نضع وَتَداً ضمن الفكّ فنبني عليه سِنّاً، فهذه إذاً بارقة، نظر هذا العالم إلى هذا المِلقط وقد وُضع على قطعة عظم، بعدَ حين نما العظم عليه، لذا يقولون: إن الاختراع أو الإبداع قفزة في المجهول، لمعة في الذهن، إلهام من الله عز وجل

معنى ذلك أن كُلَّ اختراع، وكُلَّ اكتشاف هو في الحقيقة إلقاء من الله عز وجل في ذهن هذا العالم كبارقة أو ومضة، إلا أن هذا الإلقاء يحتاج إلى ثمن، الثمن هو الصدق في البحث، لذلك قال بعض العلماء: العبقرية تسعة وتسعون بالمئة منها جهد وعرق وواحد بالمئة إلهام، فثمن هذه البارقة، ثمن هذه الومضة، ثمن هذه الفكرة الرائعة، ثمن هذا الاكتشاف هو البحث الدؤوب، فالبحث الدؤوب هو ثمن هذا الاختراع.

وهذا ينتهي بنا إلى معنى آخر، هو معنى الصدق، الله عز وجل لا يتعامل مع الناس بتمنياتهم، ولكن يتعامل بصدقهم وإخلاصهم، لو أن إنساناً أضاع إبرة في الليل ولا يوجد ضوء فلن يراها في الليل، أما في النهار فسوف يراها لأنه اهتدى بنور الشمس، إذا اهتديت إلى حقيقة الإنسان وإلى سرِّ وجوده، وإلى غاية وجوده، فمن الذي هداك؟ هو الله، إذاً الله نور السماوات والأرض، ولا يعلَم العباد إلا ما علَّمهم الله عز وجل ولا يُدرِكون إلا ما يسَّر الله لهم إدراكه.

قال بعض العلماء: «الله نور السموات والأرض هو الذي نوَّر المعالم فأوجدها من العدم»، فَنَقْلُ الشيء من العدم إلى الوجود نور، فالشيء له خصائص، كُلُّ نبات، كُلُّ حيوان، كُلُّ جماد، كلُّ المعادن؛ لها خصائص، الله عز وجل الذي أبدعها من عدم وأظهرها إلى حيِّز الوجود وأعطاها خصائصها: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

الذهب مثلاً لا يتأثر بكل العوامل المحيطة به لا بماء ولا بملوحة ولا برطوبة، ولا يتأكسد، ولا يتأثر.

قرأت مقالة عن سفينة غَرِقَتْ قبل مئة وعشرين عاماً، وعليها خمسة أطنان من الذهب استطاعوا أن يصلوا إليها الآن، وأن يستخرجوا تلك السبائك، ولما استخرجت هذه السبائك نظرت إلى صور السبائك فكأنها صُبَّت الآن، مئة وعشرون سنة في قاع البحر والذهب هو هو لم يتأثر، الله عز وجل أعطى الذهب خصائص، أعطى الماس خصائص، أعطى الفضة خصائص، أعطى الرصاص خصائص، أعطى الحديد خصائص، هناك شيء جديد، بالنور أظهَر وخصَّص. الحديد لا يُصهر إلا في ألف وخمسمئة درجة، لكنَّ الرصاص يُصهر في مئة درجة، على موقد عادي ينصهر معدن الرصاص، فكل معدن ظهر وخُصِّص، نُقِلَ من العدم إلى الوجود فأُعطيَ خصائصه، والله تعالى نوَّر الموجود الظاهر بالشمس والكواكب، ونوَّر عالم الأرواح برسول الله ﷺ، أحياناً تجد إنساناً موصولاً بالله عز وجل تشعر بأنسٍ معه وبسرور كأنه يُنعِشُك، هذا نور الله عز وجل، الله عز وجل خلق نوراً محسوساً نور الشمس والقمر، وفي الليل عندنا إضاءة اصطناعية، لكنه إذا تجلّى على قلب الإنسان تألّق هذا القلب، طبعاً هناك آيات، وأدعوك ألا تقبل مني شيئاً ما دون دليل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد:٢٨].

فإذا طلبت مني أن أوجز الدين كله في كلمة قلت: المؤمن ذو نور، والكافر أعمى، قال الله: ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم:٨].

أما هؤلاء الكفار فهم في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فالكافر في ظلام: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه:١٢٤].

ما كان أعمى العينين في الدنيا؛ فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، نوَّر القلوب برسول الله ﷺ لذلك: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [التوبة:١٠٣].

الذي شعر به أصحابُ رسول الله ﷺ شيءٌ لا يوصف، كانوا إذا جلسوا معه ارتاحت قلوبهم، واطمأنت نفوسهم، وكأنهم في جنة.

عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِي قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَّرْنا الجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَقُمْتُ إلى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ أَهْلِي وَوَلَدِي، فَذَكَرْتُ ما كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَخَرَجْتُ، فَلَقِيتُ أبا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: يا أَبَا بَكْرٍ، نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَّرْنا الجَنَّةَ وَالنَّارَ حتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَذَهَبْتُ إلى أَهْلِي، فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ وَلَدِي وَأَهْلِي، فَقَالَ: إنَّا لَنَفْعَلُ ذَاكَ، قالَ: فَذَهَبْتُ إلى النبيِّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «يا حَنْظَلَةُ لَوْ كُنْتُمْ تَكُونونَ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا تَكُونونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ وَأَنْتُمْ عَلَى فُرُشِكُمْ وَبِالطُّرُقِ.. يا حَنْظَلَةُ ساعةً وساعةً» [رواه أحمد في مسنده وأصله في صحيح مسلم].

فالله نور السموات والأرض، إن اتصلت به أخذت من نوره المعنوي، وشعرت براحة، لك رؤية صحيحة، الأمر كلُّه؛ أنَّ إنساناً مؤمناً يرى رؤية صحيحة وإنساناً كافراً أعمى، فالأعمى في متاهة، والذي يرى رؤية صحيحة يتحرك على هدى من ربه، قال العلماء: نوَّر الله عالم الأرواح برسول الله ﷺ ونوَّر القلوب بأنوار العلوم، ونوَّر قلوب الصادقين بتوحيدهم، ونوَّر أسرار المحبين بتأييده، وقيل: هو الذي حسَّن الأبشار بالتصوير -فأعطاك شكلاً جميلاً- وقيل: هو الذي

أحيا قلوب العارفين بنور معرفته وأحيا نفوس العابدين بنور عبادته، وقيل: هو الذي يَهدي القلوب إلى إيثار الحق واصطفائه، ويهدي الأسرار إلى مناجاته واجتبائه قال الله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور:٣٥].

المشكاة: كُوَّةٌ في الجدار، فيها مصباح، المشكاة هي الصبر والمصباح هو القلب؛ لا قلب الجسد بل قلب النفس: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينوِّر قلوبنا بنوره، المؤمن رؤيته واضحة تماماً مرتاح من أيِّ مشكلة، يُحسن التصرف، يملِك زِمام الأمر، ينظر بنورٍ ساطع يكشف دقائق الأمور وملابسات الحوادث، يقف الموقف السليم، ينطق بالكلمة المناسبة، يفعل الفعل المناسب، مرتاح ويُريح الآخرين، الإنسان إذا كان في عمىً أساء التصرف، أساء الكلام وأساء الحركة وأساء الموقف، يتخبط خَبْطَ عَشْواءَ، وهذا كله واضح.

لقد وصلنا إلى موضوع أَعُدُّهُ من أخطر الموضوعات، فأنت لك عين ترى بها الأشياء، ولك عقلٌ تدرك به الحقائق، فإذا قلت لك: المعادن تتمدَّد بالحرارة، فأنت ترى ميزان الزئبق، ضَعْ يدك عليه فالخط يرتفع، وترى بعينيك أنَّ هذا المعدن الرجراج الزئبقي يتمدد بالحرارة، لكن تقول: رأيت العلم نافعاً فكيف ترى العلم؟ لا يُرى بالعين لكن تَرى إنساناً متعلماً مُتَّزناً يحسن التصرف، حكيماً سعيداً في بيته، يحسن معاملة زوجته، يُحسن كسب المال، يُحسن معاملة الناس، مورده المالي حلال، تراه صادقاً أميناً محبوباً معززاً مبجلاً، لأنه مُتعلِّم، لأنه حَصَّل علماً دينياً، لأنه عَرَفَ الله عز وجل فهو في

سعادة، فتقول إذاً: رأيت العلم نافعاً، أما إنْ رأيت معدن الزئبق يتمدد فهذه رؤية حسية، أما رأيت العلم نافعاً فهذه رؤية قلبية.

لذلك رأى نوعان: القلبية تتعدى إلى مفعولين، والحسية تتعدى إلى مفعول واحد، رأيت الشمس ساطعةً، ماذا تُعرب كلمة ساطعةً؟ حال، رأيت العلم نافعاً، ماذا تُعرِب نافعاً؟ مفعول به ثانٍ، لأن رأى القلبية تنصب مفعولين، لكن رأى البصرية تنصب مفعولاً به واحداً، والاسم المنصوب الثاني يُعدُّ حالاً، فالرؤية الحسية أساسُها ضوء الشمس أو القمر أو الكهرباء، والرؤية العقلية المعنوية أساسُها نور الله عز وجل.

شكَوْت إلى وكِيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبأني بأن العلم نور ونور الله لا يُهدى لعاصي

إذاً أنت بحاجة إلى نور الشمس، لترى عَينك الأشياء، وأنت بحاجة إلى نور الله ليعرف عقلك حقائق الأشياء، ماذا نستنبط من هذا؟ أنَّ الإنسان مهما كان ذكياً، مهما كان عبقرياً، مهما كان ألمعياً، إن لم يستعن بنور الله، فهو في عمى، لذلك تجد بعض الناس وهُم في أعلى درجات الذكاء يرتكبون حماقات لا تُوصف.

سبحان الله! فإذا اتصل الإنسانُ بالله عز وجل وجدت على وجهه نوراً وقد يكون ملوناً، لكن يوجد نور في وجهه، فالنور الذي في وجه الإنسان ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩] بعضهم يفهم أن في جبهته أثراً، لا، ثم لا، كان النبي ﷺ له وجه كالشمس، وتصف بعض الأحاديث الشريفة: «لو أن امرأة من أهل الجنة لو اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءَت ما بينهما -أي: ما بين السماء والأرض-، ولملأته ريحاً -أي: عطراً- ولنصيفها -أي: خمارها- على رأسها خير من الدنيا وما فيها» [البخاري عن أنس بن مالك].

وفي «مسند أبي حنيفة» عن أم هانئ، قال رسول الله ﷺ: «لو أن واحدة من الحور العين أشرفت، لأضاءت ما بين المشرق والمغرب، ولملأت ما بين السماء والأرض

من طيبها» وقد روى الطبراني والضياء عن سعيد بن عامر مرفوعاً: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت إلى الأرض لملأت الأرض من ريح المسك، ولأذهبت ضوء الشمس والقمر».

ثم ها نحن قد انتهينا إلى معنى ثالث، و أن العبادة تُكسب الوجه نوراً، لذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس:٣٨-٤٢].

إذاً العبادات تنوِّر الوجه. قالوا: الطاعة هي زينة النفوس والأشباح، والمعارف زينة القلوب والأرواح، والله عز وجل يزيد قلب المؤمن نوراً على نور، يؤيده بنور البرهان، ثم يؤيده بنور العرفان، قال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور:٣٥].

﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ﴾ [النور:٣٥].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الله هادي السماوات والأرض»، مَثَلُ هُداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء، فيزداد نوراً على نور، في سورة التوبة قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة:٣٢].

إذا أراد إنسان أن يقاوم الحق فكأنه أراد أن يطفئ نور الله عز وجل، وفي سورة الزُّمر قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾ [الزمر:٢٢].

وفي السورة نفسها: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩)﴾ [الزمر:٦٩].

وفي سورة الصف: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف:٨].

عَنْ داوُدَ بْنِ عَلِيٍّ ابْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ أبيهِ، عَنْ جَدِّهِ ابْنِ عَبَّاسٍ قالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّ الله ﷺ يقولُ لَيْلَةً حينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ: «اللهمَّ اجْعَلْ لي نُوراً في قَلْبِي، ونُوراً في قَبْرِي، ونوراً من بَيْنِ يَدَيَّ، ونوراً مِنْ خَلْفِي، ونوراً عَنْ يَميني، ونوراً عَنْ شِمالي ونُوراً من فَوْقِي، ونوراً مِنْ تَحْتِي، ونوراً في سَمْعِي، ونوراً في بَصَرِي، ونُوراً في شَعْرِي، ونوراً في بَشَرِي، ونوراً في لَحْمِي، ونوراً في دَمِي، ونوراً في عِظَامِي، اللهمَّ أَعْظِمْ لِي نوراً، وأَعْطِنِي نوراً، واجْعَلْ لي نوراً» [رواه الترمذي].

إقبالُكَ على الله، اتصالُكَ به، دعاؤكَ له، طاعتك إياه، يُكسبك هذا النور، وهذا النور من أثمن عطاءات الله عز وجل، إنسان منوَّرٌ يرى الحقيقة، أي: أن قلبه مُنير، كذلك شخص سمعه منوّر، فإذا استمع إلى كلام ما، فكأن عنده ميزاناً فيقول لك: هذا الكلام غلط، وهذا صواب، بصره منوَّرٌ إذا نظر إلى الجبل يرى عظمة الله عز وجل على حين أن الكافر ينظر إلى أعلى جبل يرى مناسيبه جميلة جداً كي يتزحلق على الثلج، لا يتعامل مع الأشياء إلا بالنفع، أما المؤمن فإنه يتأمل معها بالمعرفة، فإذا رأى نوراً إذ في نظره عِبرة، إذا استمع قيَّم تقييماً صحيحاً، فما كلُّ شيء يسمعه يقبله، إذا تحرك فإلى الخير، في يده نور إذا أعطى يعطي بالعدل، في رجله نور إذا مشى مشى إلى طاعة الله عز وجل، فمعنى النور أن يهدَيك إلى ما يُرضي الله، وثانياً: ويكون عندك ميزان، فالنور ميزان وهدىً.

ذو الجلال والإكرام

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧].

وعن عائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ، إلا مِقْدَارَ ما يَقُولُ: «اللهمَّ! أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ» وَفِي رِوايَةِ ابْنِ نُمَيْرٍ: «يا ذَا الجَلالِ والإِكْرَامِ» [رواه مسلم].

ذو الجلال

في اللغة: جَلَّ يَجِلُّ، أي: عظم قدره؛ والجليل من له الجلالة والعزُّ والغنى والنزاهة، والجليل: هو العظيم الذي يتنزَّه عما لا يليق به. وذو الجلال: كاشف للقلوب عن أوصاف جلاله، فقد يكشف قلب المؤمن بإذن الله عن بعض أوصاف جلال الله، فهو سبحانه يكشف للقلوب المنيبة بعض أوصاف جلاله، ويكشف للأسرار بعض نعوت جماله. وكل ما في العالم من جلال وكمال وحسنٍ وبهاء؛ فهو من أنوار ذاته، وآثار صفاته. وكلمة: جلّ جلاله، أي: عظُم قدره وتنزّه عما لا يليق به.

وقال بعض العلماء: «ذو الجلال: هو المستَحِقُّ للأمر والنهي، فهو وحده الذي يأمر وينهى، هو الذي يُشرِّع. وهو الذي يصغُر دونه كلُّ جليل، ويتّضِعُ معه كلُّ رفيع».

وقيل: هو الذي جلّ قدره في قلب المؤمن بالله، فلو شققتَ عن قلب المؤمن لرأيت فيه تعظيماً لله لا حدود له وخشيةً لله لا حدود لها، ولقد عظم خطره في قلوب المحبين.

لـو قـال تِيهـاً قـف عـلى جمـر الغضـا لوقفــتُ ممتَــثِلاً ولم أتوقــفِ
أو كـان مـن يـرضى بِخَـدِّيَ مَوطِئـاً لَوَضَــعْتهُ أرضــاً ولم أسْــتنكف

هذا إذا كان إنسانٌ يحبُّ مخلوقاً، فكيف إذا كان المؤمن محبّاً لله عز وجل؟ قال العلماء: هو الذي جلّ قدره في قلوب العارفين، وعظم خطره في نفوس المحبين، وهو المستحِقُّ للأمر والنهي الذي يصغر دونه كلُّ جليل، ويتَّضع معه كلُّ رفيع.

وهو الذي جلَّ في علوّ صفاته، وتعذّر بكِبريائه أن يُعرَف كمال جلاله؛ فعَظَمته أعظم من أن تُعرف، أو أن يحاط بها. أحياناً تلتَقي بإنسان عدة لقاءات فتكشف بها كلَّ جوانبه، وتسْتَوعِب كلَّ إمكاناته، لكن لا يمكن لمخلوقٍ أن يحيط بقدْر الله عز وجل، ولقد تحدّث بعض الأئمة عن الفرق بين الجليل، والكبير، والعظيم.

فذَكر العلماء «أن الجليل: هو الموصوف بنعوت الجلال، وهي: الغِنى، والمُلك، والتقديس، والعلم، والقدرة»، فهناك بعض الصفات تُحدِث في النفس تعظيماً. الجليل: هو الموصوف بنعوت الجلال، والجامع لصفاتها جميعها، وهو الجليل المطلق، والجليل المطلق هو الله تعالى. والكبير: هو الذي يرجع في صفاته إلى كمال الذات. فهناك كمال للذات وكمال للصفات، مجموع الصفات التي ترتبط بكمال الذات: الكبير. ومجموع الصفات التي تتعلق بكمال الصفات: الجليل. وأما العظيم: فهو الذي جمع صفات كمال الذات، وصفات كمال الأفعال.

إنّ الإنسان حينما يذكر الله سبحانه وتعالى يحبُّ أن يُعبِّر عن تعظيمه له، فيقول: جل جلاله حيث ما ذُكِر اسم الله العَلَم على الذات، يُذكر بعد اسم الذات، أي: يقول المؤمن بعد اسم العَلم على الذات كلمة جلّ جلاله.

حينما يُدرِكُ الإنسان الصفات الظاهرة بعَيْنِه فهذا هو البصر؛ ببصرك تدرك الجمال الظاهر، وببصيرتك تُدرك الجمال الباطن. أحياناً تستمتع بفعلٍ كامل؛ هو في حدِّ ذاته جميل، والجمال ليس متعلِّقاً بالنواحي المادية فحسب، بل قد يمتدُّ إلى النواحي المعنوية، فالموقف الكامل، هو من زاوية موقفٌ كاملٌ ومن زاوية أخرى هو موقفٌ جميل. تقول: فلان يتمتع بجمال الخُلق. لذلك قال بعض العلماء: إن صفات الحق أقسام؛ صفات الجلال وهي العظمة والعِزّة والكبرياء والتقديس، وكلُّها ترجع إلى معنى الجليل، وصفات الجمال؛ وهي صفات اللُّطف والكرم والحنان والعفو والإحسان؛ وهذه هي صفات الجمال.

إذا اجتمعت ببعض من ذهبوا لأداء فريضة الحج يقولون لك: كنت وأنا في مكة المكرَّمة أشعُر بالجلال، فإذا ذهبت إلى المدينة المنوَّرة أشعر بالجمال، فهناك صفات الجلال، وصفات الكمال. صفات الجلال؛ صفات العظمة والعزة والكبرياء والتقديس، وكلُّها ترجع إلى معنى الجليل. وصفات الجمال؛ هي صفات اللُّطف، والكرم والحنان، والعفو، والإحسان، وكلُّها ترجع إلى معنى الجميل.

يقول بعض العلماء: صفات الكمال هي الأوصاف الذاتية التي دونها جميع العقول والأرواح، مثل اسمه القدوس، وصفات ظاهرها جمال وباطنها جلال مثل اسم المعطي، وصفات ظاهرها جلال وباطِنها جمال مثل النافع والضار، سأُوَضّح هذا بالتفصيل:

إن الإنسان إذا أخذ من عطاء الله ولم يَستَقِم على أمر الله، ولم يوَظِّف هذا العطاء في الحق فوراء هذا جلال، أي: قد يكون هناك عقاب، أو شيء يدعو إلى الخوف. وهناك صفات ظاهرها جلال، وباطِنها جمال؛ أحياناً يوقع ربنا الضَّرر بإنسان لكن هذا الضرر ينتهي به إلى التوبة، والإقبال على الله. فالله سبحانه وتعالى له صفات جلال، وله صفات جمال، وله صفات ظاهرها جلال وباطنها جمال، فإذا أعطاك فهذا شيء جميل، لكن إذا لم يكن مع هذا العطاء استقامة، سيكون بعد هذا العطاء تأديب. فيأتي الجمال أولاً

والجلال ثانياً. أما إذا جاء التأديب فالإنسان يخاف، ويشعر بالرهبة، وأن الله تعالى كبير، وأنه ينبغي أن يُرْهَب جانِبه، وبعد هذه الرهبة يأتي الجمال.

كان الإمام الثوري يقول: «إن هذه الدنيا دار التِواء لا دار استِواء، ومنزل تَرَحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها دار بلوى، وجعل الآخرةَ دارَ عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بَلْوى الدنيا عِوَضاً فيأخذ ليُعطي، ويبتَلي لِيَجزي».

يجب أن تعتقد كما ورد في القرآن الكريم أن أسماء الله تعالى كلها حسنى، حتى اسم الجبار، القهار هي أسماء لله حسنى، لو عرفْت حقيقتها لذابت نفسك محبَّة لله عز وجل، لكن هناك أسماء متعلقة بالجلال وأخرى بالجمال، وهناك أسماء ظاهرها جلال وباطنها جمال وله أسماء ظاهرها جمال وباطنها جلال.

يقول بعض العلماء: «ذو الجلال: هو المستحق لأوصاف العُلُوِّ والرِّفعة». ويقول بعض العلماء: «واعْلَم أنه تعالى يُكاشِف القلوب مرَّةً بوصف جلاله» فأحياناً يشعر الإنسان بحالٍ طيبة وسرور وانطلاق وفرحة؛ فالله جل جلاله يتجلَّى عليه باسم الجميل. وأحياناً يشعر بالخوف والقلق على مصيره هل له عند الله المكانة التي يتمناها؟ وهل عملُه كما يرضي الله عز وجل؟ وهل نياته على النحو الذي يرضى الله عنه؟

أحياناً يقع الإنسان في موقف أقرب إلى الخشية منه إلى الطمأنينة، فإذا تجلى الله على الإنسان باسم الجليل امتلأ القلب خشيةً. وإذا تجلى الله على عبده باسم الجميل امتلأ القلب فرحةً، وربنا عز وجل يُقلِّب هذا القلب البشري بين الخشية والطمأنينة، إن ازدادت طمأنينته يخيفُه، وإن ازداد خوفه يُطَمْئنه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور:٢١].

هناك منهج؛ كتاب مبارك وسنّة، وهناك آيات تدل على عظمة الله، كل هذا شيء طبيعي، ولكن لولا أن الله يتولى معالجة القلب باستمرار لما زكا من عباده من أحدٍ أبداً،

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

كل إنسان قريب من الله يدرك أنه إذا بدرت منه كلمة تدلُّ على اعتداد بالنفس فبعدها تأديب الله تعالى، وإذا بدرت منه كلمة تدلُّ على افتقار إلى الله فبعدها عطاء، فالمُفتَقِر إلى الله يَنْعُم باسم الجميل. وبعض الصحابة قالوا: لن نُغلب من قلَّة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥].

فعلى الإنسان أن يراقب قلبه، فليس الإنسان عقْلاً وحده، ولا قلباً وحده، فالعقل غذاؤه العلم، والقلب غذاؤه الذِّكر والحب، فالإنسان إذا شعر أنَّ قناعاته قويَّة، واطمئنانه بالله زاد على الحدِّ المعقول فإن الله جل جلاله يتجلَّى عليه بصفة الجلال فيَخاف، وحينما يزداد خوفه إلى درجة قد يُقْعِده الخوف عن متابعة الطريق، يتجلى الله عليه باسم الجميل، وما سُمِّيَ الحال حالاً إلا لأنه يحول ويزول، والإنسان يتقلَّب في الحال الواحدة، كما قال بعضهم: المنافق يثبت على حالٍ واحدة أربعين عاماً، على حين أن المؤمن من شدَّة خشيته، وشدة حِرصه، على طاعة ربه، وقَلَقِه على مصيره عند ربه، يتقلب في اليوم الواحد أربعين حالاً.

مُلَخَّص هذا الكلام؛ أن هناك صفات لله عز وجل ترجع إلى العظمة والقوة والقداسة والغِنى؛ هذه الصفات تجمعها صفة الجلال. وهناك صفات كالرحمة والإحسان واللُّطف والعفوِ والكَرَم؛ فهذه الصفات يجمعها اسم الجميل. والإنسان بين جمال الله وجلاله. بين الخوف والترقب، وبين الطمأنينة والقَلق، وعلى الإنسان أن يتأدب مع الله عز وجل، لا يحمله حاله مع الله على أن يتساهل لا بأقواله ولا بأفعاله، وينبغي ألا يحمله الجلال الذي يرهبُه على أن يتراجع أو ينكمش ويقنط، فالحكمة أن تجمع بين الخوف والرجاء.

قال بعض العلماء: «الجليل يُحتَمَل أن يكون بمعنى المُفْعِل؛ الجليل: الذي يجل المؤمنين ويكرِّمهم. فالمؤمن مُكَرَّم، أحياناً تجد إنساناً مهاناً معذّباً خنوعاً ذليلاً يُحْوِجه الله إلى أتعسِ خلقه وأشقاهم»، ألم يقل سيدنا عليّ ﵁: «والله والله مرتين لحَفْرُ بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصفٍ بريشَتين، ونقل بحرين زاخِرين بمُنخُلين، وغسْل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليَّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دَيْن».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

لقلعُ ضِرسٍ وَضَربُ حَبسٍ ... ونَزعُ نَفسٍ وَرَدُّ أمسِ
وَقَرُّ بَرْدٍ وَقَوْدُ فَردٍ ... وَدَبغُ جِلدٍ بغَيرِ شَمسِ
وأكلُ ضَبٍّ وَصَيدُ دُبٍّ ... وَصَرْفُ حَبٍّ بأرضِ خِرسِ
وَنَفخُ نارٍ وَحَملُ عارٍ ... وَبَيعُ دارٍ برُبعِ فِلسِ
وَبَيعُ خُفٍّ وَعَدْمُ إلفٍ ... وَضَربُ ألفٍ بحَبلِ قَلسِ
أهونُ مِن وَقفَةِ الحُرِّ ... يَرجو نَوالاً بِبابِ نَحسِ

فالله عز وجل قد يُحْوِج الإنسان أحياناً لعبد لئيم فيردّه ويقنطه هذا اللئيم ليعرف إحسان ربّه إليه. «سُئِل سيدنا عليّ ﵁: ما الذلّ؟ قال: أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردّه» فالله ذو الجلال يُجِلُّ المؤمن عن أن يُحْوِجه إلى لئيم، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النساء:١٤١].

هؤلاء الأشخاص الشريرون، هؤلاء عِصيٌّ بيد الله عز وجل يسلِّطهم على من يشاء من عباده، والآية الكريمة: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

لذلك قلت مرة: هؤلاء الذي يُذَلون ويُسْحَقون، ويسوق الله لهم من الشدائد ما لا يطيقون، هم في الغالب هان أمر الله عليهم، فهانوا على الله. وإذا أردت أن تعرف ما لك عند الله، فانظر ما لله عندك، هل أمر الله عندك عظيم؟

حدثني أخ كان في بلدٍ من البلدان الأوربية الشرقية، وخرج من الفندق ليَلْتَحق بالمطار الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان الفصل شتاءً قارساً، والثلج يزيد على مترين، الشيء الذي لا يصدَّق أنه رأى رتْلاً من الأشخاص يزيد طوله على خمسمئة متر وكان هؤلاء واقفين ينتظرون أن يوزّع عليهم اللحم غداً الساعة الثامنة؛ من الساعة الثانية ليلاً إلى الساعة الثامنة صباحاً، وكلُّ هذا من أجل أن يأخذوا قطعة لحم صغيرة يأكلونها مع أسَرِهم، فأحياناً تجد إنساناً مقهوراً ومعذّباً ومهاناً وذليلاً ومصيره بيد عدوٍّ له ويتفنَّن بإيقاع الأذى به. فماذا نقول؟ نقول: الله يجلُّ المؤمن من أن يُذيقه هذا العذاب، ومن أن يحوِجه إلى لئيم؛ ومن دعاء عليٍّ رضي الله عنه في هذا المقام:

«اللهم صُن وجوهنا باليسار ولا تبذِلها بالإقتار، فنسأل شر خلقِك، ونُبْتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من فوقهم وليّ العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء».

وإذا كنت مع الله فَلَك العِزّ، ولك الكرامة؛ لأنه يُجِلّ المؤمنين ويعظمهم ويكرمهم، وأرجو الله أن أوضِّح للقراء الكرام هذه الحقيقة، المؤمن غالٍ على الله وليس بهيِّن، وحياته مقدسة، وعمله مقدّس، وحركاته وسكناته في حفظ الله، ويكفينا قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأنفال:١٩].

﴿ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة:١٢٣].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [البقرة:١٥٣].

وهذه المعيّة الخاصة التي تعني: النصر والتأييد والحفظ والتوفيق. بصراحة: فللمؤمن خصوصية من الله عز وجل؛ ومِن كمال تربيته أن يجعل للمؤمن خصوصية؛ وهي خصوصية النصر والتأييد والحفظ والطمأنينة، قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢].

النبي ﷺ في مرضِه أُعْطِيَ دواء ذات الجنب فقال: «كنتم ترون أن الله كان يسلط عليَّ ذات الجنب؟ ما كان الله ليجعل لها عليَّ سلطاناً» [أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عائشة]، وهذا من إحسان الظنّ بربه، فالمؤمن لا يتألى على الله ولكنه يُحسن الظنَّ بالله. والتألي على الله موضوع آخر. مثلاً: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله [البخاري من حديث خارجة بن زيد]، فهذا تألٍ على الله. أن تقول فلان مصيره إلى الجنة من غير العشرة المبشِّرين هذا تألٍ على الله. نحن نرجو له الجنة. فأكبر إنسان ليس ممن شهد لهم النبي ﷺ بالجنة. نقول: نرجو له الجنة. فالرجاء هو الأدب. أما أن تقول: هو في الجنة، أو هو في النار، فمن أنت؟ أنت عبد، والتألي على الله ليس من خلق المؤمن، ولكن من أخلاق المؤمن أن يدعُوَ لإخوانه بالمغفرة والجنة. ألم يقل الله عز وجل: ﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح:٤].

فالله يرفع اسم المؤمن عالياً. المؤمن متألِّق. وكلُّ حظوظ النفس حيادية، فلَك أن ترتفع بالباطل، والقهر، وبالقوة، والاستعلاء، والغِنى، ولك أن ترتفع بالكمال، كلاهما رِفْعَة، ولكنَّ رِفعة الدنيا آيلة إلى زوال، ولكنَّ رِفعة الكمال إلى استمرار. فالقويُّ مرهوب الجانب، ويخافه الناس لكنهم يخافونه ما دام حياً، أما إذا مات فإنَّ اللعنات تأتيه من كلِّ جانب إذا كان يؤذي العِباد. مثلاً تجد معلِّماً قاسياً جداً. طلاب الصَّفِّ كلُّهم يخافونه طوال السنة الدراسية، أما حينما ينتهي العام الدراسي، وينصرف الطلاب فإنهم يسخرون منه. قال الحكماء: الأقوياء ملكوا الرِّقاب، والأنبياء ملكوا القلوب. وأنت بقوتك تملك رِقاب الناس، ولكن بكمالك تملك قلوبهم. مُلك الرِّقاب يزول، ولكنَّ ملك القلوبِ لا يزول. أوضح مثل أن تذهب إلى المدينة المنورة، وانظر هؤلاء الناس الذين جاؤوا من كل حدب وصوب، يقفون أمام رسول الله ﷺ بكل أدبٍ وحُبٍّ وبكاء وما عرفوه وما رأوه.

فلذلك الأنبياء ملكوا القلوب، وملكوها مُلْكاً مستمِراً. والأقوياء ملكوا الرِّقاب وملكوها زمناً مؤقتاً، فبهذا يشعر الإنسان بالطمأنينة قال تعالى: ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا

نَنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

قال العلماء: وذو الجلال ينبغي أن يعترَف العاقل بجلاله، وكِبريائه، وعظمته وقدسيَّته، وتنزّهه عن كلِّ ما لا يليق به، فالعاقل يجب أن يقول: جلَّ جلاله، وعزَّ نواله، بمعنى المفعول، أي: المُجَلُّ المُعَزُّ.

وهناك معنى ثالث في اللغة: أي: هو الموصوف بالجلال، فإما أنه موصوف بالجلال فهو فاعل، أو يجب أن يُجَل فهو المفعول، أو بمعنى مُفْعِل يُجِلّ المؤمنين، ويرفع قدرهم، والله عز وجل إذا أحبَّ عبداً ألقى محبَّته في قلوب الخلق.

يُنادى له في الكون أنَّا نحِبُّه فيَسْمع من في الكون هذا الأمر، ويُلْقَى حبُّه على أهل الأرض فيُحَبُّ. ولتعلمْ يقيناً أنه إذا أحبَّك الله جل جلاله، سخَّر عدوَّك اللدود لخدمتِك. وإذا غضِب الله على إنسان، الهَم أقرب الناس إليه بالتَّنكُّرِ له. زوجته تتنكَّر له، وابنه الذي من صُلْبِه قد يضربه. إذا أحب الله عبداً، ألقى حبَّه في قلوب الخلق. والإنسان لا يُعلِّق أمله لا بزوجتِه ولا بوَلَده ولا بمخلوق، يقول ﷺ: «لو كنت متخِّذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ، ولكن أخي وصاحبي» [البخاري عن ابن عباس]. وهذا هو التوحيد، أحياناً تجد أباً يُعلِّق كلَّ آماله بابنه، ثم لا يكون من هذا الابن إلا أن يذهب إلى بلدٍ أجنبي وينال جنسيَّة ذلك البلد، ويتزوج بأجنبية، ويقطع علاقته بوالدِهِ، وقد يُغيِّر دينه، وقد لا يستقبل أباه إن زاره، لذلك على الإنسان أن يعلِّق كامل ثقته بالله.

وهل يقال لفلان: جليل القَدْر؟ نعم لا يمنع أن نقول هذا، وتقول: فلان له قدر جليل وفلان جليل القدر، قال العلماء: يقال هذا لمن حسُنت صفاته الباطنة التي تستَلِذها القلوب أما الصفات الظاهرة فهي أقلُّ قدراً، فمن حسنت صفاته الباطنة؛ تجد هناك أدباً، وحِلماً، ورحمةً، وإنصافاً، وتواضعاً، وغيرةً، ومؤاثرةً، يمكن أن نصفه بأنَّه جليل القدر.

فالله عز وجل ذو الجلال، فإذا كنت مستقيماً وترفَّعت عن النقائص، وعن اللغو، وعن كثرة المزاح، وعن سَفْسَاف الأمور صِرت في نظر الناس جليلاً، يقولون: الأستاذ الجليل كما يقال، وكذلك الأخ الكريم. فالإنسان حينما يترفع عن السَّفْساف وصغائر الأمور وعن الدنيا الدنيَّة وعن حظوظه الدنيوية، وعن القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن الجزئيات. وعن إضاعة الوقت؛ مثل هذا الإنسان له قدر عند الناس جليل.

الإمام الرازي يقول: «الجليل من العباد من خلا من العقائد الزائغة والأخلاق الذميمة» فعقائده صحيحة، وأخلاقه كاملة. فإذا أُصيب بخلل بعقيدته لم يصبح جليلاً، وإذا كان هناك انحراف بسلوكه لم يصبح جليلاً كذلك، فاستقامة العقيدة مع استقامة السلوك، تجعل الإنسان جليل القدر. الحقيقة عندما يكون الإنسان سخيفاً وخفيفاً وثرثاراً ويَحْشُر أنفه في موضوعات لا تعنيه ليس له قدر عند الناس إطلاقاً. أما إذا كان هناك وقار، واستقامة، وضبط للسان، والجوارح، واعتِناء بمظهره، وانضباط بعَمَلِه، هذه الصفات الكاملة ترفع قدره، وتجعله جليلاً في نظر الناس. إذاً براءة الإنسان من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة تجعله جليلاً. واتِّصافه بالمعارف الحقّة، الأخلاق الفاضلة تجعله جليلاً.

ومن بعْدُ فها نحن أمام أدب المؤمن مع ذي الجلال: فعليه أن يتحلى بالكمال لأن الله عز وجل كامل ويحبّ الكامل، وهو عُفوّ ويحب العفو، وكريم يحب الكريم، فإذا أردت أن تقترب من الله عز وجل، فاقترِب من صفاته وأسمائه وتذكر أنه هو الذي أفاض عليك الجمال، سواء أكان جمال صورة، أم جمال حِسّ، أم جمال نفس. والإنسان إذا حدّثته نفسه بما لا يليق بالله عز وجل، وَوَسْوَس له الشيطان شيئاً، فليَذْكُر ذا الجلال. ويجب أن تستحيي من الله حق الحياء، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء» قال: قلنا: يا نبي الله! إنا نستحيي والحمد لله، قال: «ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما

وعى، وتحفظ البطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» [الترمذي].

فإذا كان الإنسان يستحي من الضيف، ويضبط كلامه، وصوته معتدل، ويرتدي لباساً جميلاً، وبيته مُرَتّب، فعليه ألا يجعل الله عز وجل أهْوَن الناظرين إليه، فإذا كان الإنسان بخَلْوة فلا يتكلم بكلام غير لائق ولا يتبذل إلى درجة غير معقولة بثيابه، ولا يعمل أعمالاً لا تُرضي الله! فَمِن أدب المؤمن مع ذي الجلال؛ أن يوَقِّر الجليل في خلوته، والمؤمن الصادق يشعر دائماً أن الله معه، وقد جاء في الحديث:

ما الإحْسانُ قالَ: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ..» [متفق عليه من حديث أبي هريرة].

ذو الجلال والإكرام

صار معلوماً عند القارئ الكريم أن أسماء الله الحسنى كلَّها تدل على صفاته، لكنَّ اسماً واحداً هو (الله) عَلَم على الذات، ويدلُّ على كلِّ أسمائه، فإذا قلت: يا الله، معناه؛ يا رحيم، يا رحمن، يا غني، يا ودود، يا قوي، يا متعال، يا قدير، يا حسيب، يا لطيف... إلخ؛ فاسم (الله) اسم علَم على الذات، ويشير إلى كلِّ أسمائه الحسنى؛ لكنَّ أسماءه الأخرى تدلُّ على صفاته، أو على كمال صفاته، الغني القوي الحسيب المجيد المعطي، تروي السيدة عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»، هناك نقطة مهمّة وهي؛ أن أسماء الله الحسنى يمكن أن تقسم إلى قسمين: قسم يشير إلى قوته، وقسم يشير إلى كماله. أنت المؤمن تُؤخَذ بالقوي، وتؤخذ بالرحيم. فالكمالات بكل أنواعها تجمعها صفة (الإكرام)، والقوَّة بكلِّ مظاهرها تؤكِّدها صفة (ذو الجلال). مثال ذلك: قد تحترم أشخاصاً احتراماً كبيراً وأنت لا تحبُّهم، ينتزعون إعجابك بقوَّتهم، أو بذكائهم، أو بخبراتهم، أو بتحصيلهم، أو بفطنتهم، وبالمقابل فإنَّ هناك أشخاصاً آخرين يملؤون قلبك حبّاً، وقد لا ينتزعون إعجابك. الإنسان يميل قلبه لأمه، وقد تكون أُمِّيَّة. يمتلئ

قلبه حباً لها، لكنَّ علمها وثقافتها وخبرتها وفطنتها وذكاءها لا ينتزع إعجابه. وقد يحب أستاذاً في الجامعة على علم وفهم وثقافة؛ ولكن حينما يتعامل معه لا يميل قلبه إليه. إذاً هناك صفات تُعجب بها، وهناك صفات تحبها. الصفات التي تُعجب بها، مجموعة في صفة (الجلال). والصفات التي تحبها، مجموعة في صفة (الإكرام). فإذا قلت: «تبارك ذو الجلال والإكرام» فهذا يعني؛ أنَّ كلَّ صفات القوة والعظمة والجبروت، يتَّصف الله بها. وكلَّ صفات الإكرام والرأفة والرحمة يتَّصف الله بها. فكأنَّ هذه العبارة جمعت الأسماء الحسنى كلَّها من زاويتين: زاوية القوة وزاوية الإكرام.

يقول أحد الأئمة الكبار: إن معنى (ذو الجلال والإكرام) هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، لا جلال ولا كمال ولا كرامة ولا مكرمة؛ إلا وهي صادرة منه؛ فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه، كلُّ أفعاله تجاه خلقه إكرام ظاهر جليٌّ، أو باطن خفي. وهذا معنى قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠].

النِّعم الظاهرة هي الإيجابية، والنعم الباطنة هي ما يدفع الله عنه من المصائب. وفنون إكرامه لخلقه لا تكاد تنحصر أو تتناهى. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد:٨].

عينان صغيرتان ترى بهما الأشياء على حجمها الحقيقي بألوانها الدقيقة؛ الرؤية فَوْرية، شبكية العين تحوي مئة وثلاثين مليون عصية ومخروط، من أجل نقل أدق الصور، وبالعينين ترى جمال الكون، بالعينين ترى جمال الأشخاص، بالعينين ترى المظاهر التي تأخذ بالألباب ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ فالعينان هما إكرام من الله عز وجل. هذه القناة الدمعية التي هي من أدق القنوات في الإنسان؛ لو أنها سُدت وصار فائض الدمع يسيل على الخدين -على صغر هذه المشكلة فهي ليست خطراً -إلا أنها تجعل حياة الإنسان جحيماً، وسيحتاج دائماً إلى مسح خديه، مما سيؤدي إلى تخريش الخد. فهذا إكرام من الله. العينان إكرام، والأجفان إكرام، والمحجر إكرام، والعضلات التي تحرك العينين يميناً وشمالاً إكرام من الله عز وجل.

كذلك جعل الله لهذا الإنسان أُذنين يستمع بهما إلى أدق الأصوات وأدق النبرات. يستمع بهما إلى الصوت، وإلى جهة الصوت، وإلى هوية الصوت؛ هذا إكرام. مفصل يدك إذا أُلغيَ كيف تأكل؟ إلغاؤه سيؤدي إلى وضع الطعام على الأرض، والانبطاح من أجل أن تأكل الطعام كالهرَّة تماماً. وهذا الرسغ، وهذه الأصابع، وهذا الأنف، وهذه الأسنان، واللسان، ولسان المزمار، والحنجرة، والأمعاء، كلُّ هذا إكرام من الله. قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

وردت هذه العبارة مرتين في كتاب الله، المرة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن:٢٧].

والمرة الثانية: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

نقف عند هذه المفارقة الدقيقة: ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام: ذو من الأسماء الخمسة مرفوع بالواو. لماذا جاءت الآية الأولى بالرفع، والثانية بالجر؟ الآية الثانية ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ الاسم عَرَض وليس جوهراً فجاءت ﴿ذِى﴾ تابعة لربك؛ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ أما الوجه فهو من الذات. ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ هذه من دقائق اللغة العربية. قال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء:١٩٥].

لأنَّ الاسم ليس جوهراً في الإنسان بل عَرَض، إذ بإمكانه تغيير اسمه، لكنَّ وجهه جزء من ذاته ولا يمكن تغييره، فإذا قال الله عز وجل: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾. أما إذا قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ فالوجه من الذات، لذلك قال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

هذه الآية توحي لنا بأن أسماء الله صنفان: صنفٌ يشير إلى قدرته، وكمال قدرته، وقهره، وجبروته، وقوته، وصنف يشير إلى كمالاته؛ فكلُّ الأسماء المتعلقة بالقوَّة يمثِّلها

الجلال. وكلُّ أسمائه المتعلِّقة بكمالاته، وإكرامه، وإحسانه، ورحمته، ولطفه، ورأفته، يمثلها الإكرام. فإذا قلت: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ فقد جمعت أسماء الله الحسنى كلَّها.

لذلك يقول الغزالي رحمه الله: لا جلال ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه؛ فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه؛ فلو كان شخص ذو هيبة أمام الخلق؛ فهي من الله. ولو أراد الله نزعها، لصار حقيراً أمام الخلق جميعاً. فرعون قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤] فلما أغرقه الله عز وجل، أنجاه ببدنه، وقذف ببَدَنِهِ إلى الشاطئ، ليكون آية للعالمين ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ ﴾ [يونس:٩٢]. ولو أنه غرق لما صدق الناس أنه غرق ولكن شاءت حكمة الله أن يبقى بدنه بعد غرقه كما هو، وأن تقذفه الأمواج إلى الساحل.

فنونُ إكرامه لخلقه كثيرة لا تكاد تنحصر ولا تتناهى:

﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠].

﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ﴾ [التين:٤].

بدْءاً من جهازه العظمي هناك مفصل نحو الداخل. الركبة مفصل نحو الخارج، والرأس يدور. والعمود الفقري يَتَمَفصل تَمَفْصُلاً محدوداً. الجمجمة مفاصلها ثابتة، وعندما يصاب الشخص بضربة على رأسه فإن تداخُلَ هذه الأجزاء يقي كسر الجمجمة؛ فكل هذا من إكرام الله له. وأتمنى لو يتفكَّر كل واحد منا بإكرام الله له.

النوم إكرام، تنام بعض ساعات وبعدها تشعر بالقوة والنشاط، هضم الطعام إكرام تأكل وتتلذذ وانتهى الأمر؛ لكن لو أنَّ الله أوْكل إليك هضم الطعام فإذا تناولت وجبةً امتنعت عن مقابلة أي شخص كان ثلاث ساعات أو أربع ساعات، لماذا؟ لأنَّك مشغول بهضم الطعام. فيضيع وقتك.

فوجبة الإفطار تحتاج إلى أربع ساعات لهضمها، ووجبة الغداء تحتاج إلى خمس ساعات، ووجبة العشاء تحتاج إلى أربع ساعات. فأنت تقضي خمسَ عشرة ساعة للهضم. نقلت اللقمة إلى المريء ثم إلى المعدة. أُمرت الغدد بالإفراز. أُمرت البنكرياس بصب الأنسولين في الدم. أمرت الصفراء بأن تفرز. نقلت اللقمة والطعام إلى الاثني عشري. إلى الأمعاء. ولكن كأنه قال لك: كُلْ ولا تَهْتَمَّ بالباقي. كلُّ ما يجري من تفاعلات الهضم والانحلالات لا دخل لك فيها. هَب أن الله أوكل إليك التنفس، لن تستطيع أن تنام الليل أبداً، فالنوم يعني الموت. ولكن أنت نائمٌ والقلبُ يعملُ، والرئتان تعملان ولسان المزمار يعمل بلا كلل ولا ملل؛ كل هذا وأنت نائم. وزن جسمك الجهاز العظمي والعضلات التي فوقه، تضغط على ما تحت الجهاز العظمي؛ فتضيق لمعات الأوعية وجعل الله عز وجل في الجسد أماكن للإحساس بالضغط؛ وهذه الأماكن والمجسات تعطي إشارة للدماغ، فالدماغ يأمر الجسم بالتقلب وأنت نائم، فالإنسان يتقلب أربعين مرة في الليلة تقريباً، حتى لا يشعر الإنسان بتخدُّر جسمه، ذلك أنَّ ضيق لمعات الأوعية تسبب ضعف التروية، وضعف التروية يشعرك بالخدر، أمَّا التقليب فهو من آيات الله.

إفراغ المثانة إكرام؛ لها عضلات، ولولا العضلات لاحتاج الأمر إلى تنفيس هواء. أمَّا بالعضلات فأنت تُفرغها بثوانٍ. فالمثانة هي من إكرام الله؛ إذ إنَّه في كل عشرين ثانية تقطر قطرة بول من كلِّ كلية، وتُجمع في المثانة، خلال ساعتين، أو ثلاث، أو أربع، ثم تفرَّغ تلك الكمية في بضع ثوانٍ، ولولا وجود المثانة لاحتاج الإنسان إلى قماش يلفُّ به نفسه كالأطفال. فإكرامات كثيرة من الله عز وجل؛ الزوجة إكرام، والابن إكرام، والطعام والشراب إكرام... أنواع متنوعة لا تعدُّ ولا تحصى قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد:٨-١٥].

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء:٧٠].

الإمام الرازي من كبار علماء المسلمين المفسرين يفرق بين لفظ الجليل، ولفظ الكريم، لفظ الكريم يكفي فيه الإكرام، والإكرام قريب من الإنعام ولكنه أخصُّ منه، فكلُّ إكرام إنعام، وليس كلُّ إنعام إكراماً، كيف ذلك؟ قد تجد أنَّ فلاناً من الناس، له كذا من الأولاد يأكلون جميعاً على مائدته ولكن أحد هؤلاء الأولاد بارٌّ ومطيع، فأنت تجد أنهم إذا صاروا على مائدة الطعام، فهذا الولد البار له معاملة خاصة من أبيه، فالأب يقدم له شيئاً استثنائياً ويبتسم في وجهه، ويرضى عنه ويدعو له؛ فالطعام وحده إنعام، أما الإطعام مع التكريم اللفظي والعملي فهو إكرام.

فالإمام الرازي يقول: ليس كل إنعام إكراماً، ولكنَّ كلَّ إكرام إنعام، قال: وفي تقديم لفظ الجلال على لفظ الإكرام سِرّ، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الرحمن:٧٨].

فلماذا قدم الله لفظ الجلال على لفظ الإكرام؟ لأنَّ الجلال يعني التنزيه، تقول: جَلَّ جلاله؛ أي: تنزهت ذاته عن كلِّ نقص، وإن الإكرام الصادر من الله عز وجل إكرام منزَّه عن كلِّ غرض. قد تُدعى لطعام الغداء من قبل أحد الأشخاص، وبعد أن تنتهي، قد يطلب منك حاجة؛ فهذه الدعوة إذاً ليست خالصة، وإنما دعوة هادفة، وهي مشوبة بمكسب، وغرض وتأمين حاجة؛ لذلك قدم الله صفة الجلال على صفة الإكرام؛ لأن إكرامه منزَّه عن كل غرض.

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» [أخرجه مسلم من حديث أبي ذرّ].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ ﴾ [الزمر:٧].

ويذكر بعض العلماء: أن جلال الله منزَّه عن الأنصار والأعوان. أحياناً يستمدُّ الإنسان هيبته ممن حوله، ومن أنصاره، وأعوانه، وجماعته، ومن القوَّة التي بيده، ومن الأشخاص الذين حوله؛ لكنَّ الله عز وجل منزَّه في جلاله عن الأعوان والأنصار. أما الإنسان؛ فجلالته قد تكون من ماله، أو مكانته من علمه، أو مكانته من سلطته. هذه المكانة مشوبة ومفتقرة إلى شيء، قالوا: من أحبك لشيء، كرهك لفقده. فجلال الله عز وجل منزَّه عن الأسباب؛ لأنَّه ذو جلال بذاته دون سبب منفصل عنه. جلاله يعني الرِّفعة والعزّة والعلوَّ. والإكرام كما قال الإمام الرازي: قريب من الإنعام، إلا أنه أخص منه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد ينعم جل جلاله على من لا يكرِّم؛ فهو سبحانه لا يحبُّ الكافرين لكن يمنحهم المال والصحة، والأولاد والبيوت، والمتع والسيارات والمباهج؛ فكلُّ هذا إنعام وليس إكراماً. لكنه جل جلاله يكرم المؤمنين. فكل إكرام إنعام، ولكن ليس كلُّ إنعام إكراماً ذلك لأنه ينعم على من لا يُكْرِم، ولا يُكْرم إلا من يُنعم عليه. وقالوا: إكرام الله عز وجل نوعان: نوع معجَّل في الدنيا، ونوع مؤجل إلى الآخرة. فالإنسان إذا لم يكن له في الدنيا ما يريد، بل كانت دنياه مدبرة لا مقبلة، فهو ينتظر إكرام ربه بعد الموت.

وقال بعض العلماء: ذو الجلال والإكرام؛ هو صاحب الجلالة، لأنه لا شرف، ولا مجد، ولا عزَّة، ولا قوة، إلا وهي له، فهي له وبه ومنه، أحياناً يهب الله تعالى لبعض الأشخاص هيبة، جلالة، مكانة، وأحياناً يسلبها منهم فجأة. هو الأصل. فلا شرف، ولا مجد، ولا عزة، ولا قوة إلا وهي له وبه ومنه ولا كرامة ولا فضل ولا نعمة ولا إحسان، إلا وهي من مَدَدِهِ جل جلاله؛ هذا معنى ذو الجلال والإكرام.

وقال بعضهم: هذه العبارة جامعة للجلال والجمال؛ فإن الله تعالى له جلال رهيب، وجمال عجيب.

وبالمناسبة أقول: إن المؤمن المتصل بالله جل جلاله له هيبة.

عَن ابن مَسْعُودٍ قالَ: أَتى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّما أَنا ابْنُ امْرَأَةٍ تأْكُلُ القَديدَ» [رواه ابن ماجه].

كان ﷺ من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه. فالنبي ﷺ وأصحابه والمؤمنون الصالحون الصادقون المخلصون؛ هؤلاء يأخذون من الجلال نصيباً وهو الهيبةُ؛ فمن اتَّقى الله هابه كلُّ شيء. وأيُّ إنسان اتصل بالله عز وجل كانت له هيبة.

روي أن الحجاج بنى داراً بواسط، وأحضر الحسن البصري ليراها، فلما دخلها قال: الحمد لله إنَّ الملوك ليرون لأنفسهم عزّاً، وإنا لنرى فيهم كلَّ يوم عبراً، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحفُّ به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين؟ أما أهل السموات فقد مقتوك! وأما أهل الأرض فقد لعنوك! بنيت دارَ الفناءِ وخربت دارَ البقاءِ وغُرِرْتَ في دار الغرور لتذلَّ في دار الحبور، ثم خرج وهو يقول: إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه، وبلغ الحجاج ما قال فاشتدَّ غضبه، وجمع أهل الشام فقال: يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون؟ ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج، فقال: يا أبا سعيد! أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت: فقال: يرحمك الله أيها الأمير! إن من خوَّفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحبُّ فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف، وما أردت الذي سبق إلى وهمك، والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعلِ الأَوْلى بك، وعلى الله فتوكل، وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل، فاستحيا منه واعتذر إليه وأكرمه وحباه.

وفي رواية أخرى فلما دخل قال له الحجاج: ها هنا، فأجلسه قريباً منه، وقال: ما تقول في علي وعثمان، قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شرٌّ منك، قال فرعون لموسى ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥١-٥٢] علم علي وعثمان عند الله، قال: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد!

ودعا بغالية وغلف بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه؟ قال: قلت: يا عُدَّتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي! ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب! ارزقني مودته، واصرف عني أذاه، ففعل ربي عز وجل.

صدقوني أيها القراء الكرام: هذا لكلِّ مؤمن، وفي كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، للمؤمن هيبة. لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدَّهم عندك إن كنت مؤمناً مستقيماً، فمن اتقى الله، هابه كلُّ شيء، ومن لم يتق الله، هاب كلَّ شيء.

أَخْبَرَنا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وطَهُوراً، فأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لِيَ المَغانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ، وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً» [رواه البخاري ومسلم].

فالنبي ﷺ نُصر بالرعب وحينما تركت أمته سنته؛ هُزِمَت بالرعب؛ من اتقى الله هابه كلُّ شيء، ومن لم يتقِ الله هاب كلَّ شيء.

وقال العلماء: ذو الجلال والإكرام؛ هو المنفرد بالجلال والإكرام والعظمة، المختص بالإكرام والكرامة؛ فكلُّ جلال له، وكلُّ كرامة منه سبحانه، له الجلال في ذاته، والإكرام فيضٌ منه على خلقه؛ فما من نعمة تأتيك إلا وهي من الله؛ حتى لو أن عينيك رأتا أن هذا الإنسان -فلان الفلاني- هو الذي أكرمك؛ إذا كنت موحداً ترى أن الله ألهمه، وسمح له، وأن الله مكّنه، وألقى حبّك في قلبه فأكرمك. لذلك -المؤمن الصادق- إذا أصابه خيرٌ، بادئ ذي بدء يشكر الله عز وجل، إنّ السيدة عائشة حينما خاض الناس في أمرها وقال لها أهل الإفك ما قالوا، واتهموها زوراً وافتراءً، وبقي الوحي منقطعاً قرابة شهر، والنبي ﷺ في أشد حالات الضيق والحزن، ثم جاءت براءة الله عز وجل للسيدة عائشة -رضي الله عنها- فقالت لها أُمُّها: قومي لرسول الله فاشْكُرِيهِ فقالت: «لا والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله» [متفق عليه من حديث عائشة].

ما دامت كلُّ كرامة من الله، وأيُّ إكرام مهما بدا لك أنه من فلان، فهو من الله، لذلك أنت يجب ألا تشكر على الحقيقة إلا الله. فالمؤمن الصادق يُعَوِّدُ نَفسَهُ سجود الشكر، فأحياناً يُسمَح له، وقد كان ممنوعاً، يُمنح، ينال درجة أو شهادة أو مالاً، ويرى كلَّ نعمة من زوجة وولد ومال وعطاء، ونجاح، هي منه سبحانه وتعالى، وهو المنفرد بصفات الكمال والعظمة والجلال، المختصُّ بالإكرام والكرامة؛ فكلُّ جلال له، وكلُّ كرامة منه سبحانه، له الجلال في ذاته، والإكرام فيض منه على خلقه. عندي مثل أحب أن أطرحه على مسامع القراء الكرام:

في معامل الحديد الضخمة، هناك رافعات كهربائية، مساحة كبيرة من الحديد؛ مربعة أو دائرية محاطة بوشيعة كهربائية، فإذا سرت الكهرباء في هذه الرافعة، تصبح ممغنطة. وهذه الرافعة ربما حملت خمسة أطنان. والآن وهي ترفع هذا الثقل؛ لو ضغط العامل مفتاحاً بمقدار ربع ميلمتر بحيث قطع تيار الكهرباء، فكل هذه الأوزان تسقط، أردت بهذا المثال أنه مهما كنتَ ذا هيبة، أو كنتَ ذا شخصية متألقة، ومحظوظاً ومحبوباً؛ فهذا من الله عز وجل، بدليل أنه أحياناً يُفقدك هيبتك، ويأتي أحقر الناس فيتطاول عليك، ويسيء إليك. فإذا شعرت بالمكانة والهيبة وأنك محبوب فهي من الله، والنبي ﷺ علَّمنا أن الله كلما زاد في إكرام عبده؛ فالعبد الكامل يزيد في تواضعه لله عز وجل. لذة النصر لا توصف، فكفار مكة المكرمة بالغوا في الإساءة إليه ﷺ وإيذائه، وحاربوه ثلاث مرات في بدر وأُحد والخندق، وحاولوا قتله وأخرجوه، ونكَّلوا بأصحابه وعذبوهم وقتَّلوهم، حتى إن سهيل بن عَمْرٍو لم يرض أن يكتب: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله قال: امحُ رسول الله -غطرسةً وكِبْراً- [انظر البخاري: (٢٦٩٩، ٣١٨٤، ٢٧٣١-٢٧٣٢، ٤٢٥١)] ثم فتحت مكة، عشرة آلاف سيف متوهجة تأْتمر بأمر النبي وقد دخلها منتصراً، كيف دخلها؟ دخلها مطأطئاً رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن لحيته لتكاد تمسُّ واسطة الرحل [سيرة ابن هشام، ٤/ ٣٨].

وعن أنس، قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وذقنه على رحله متخشِّعاً [أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»].

نصيب المؤمن من معرفته بذي الجلال والإكرام

الله ذو الجلال والإكرام، وكلُّ الجلال منه، وله، وبه، وكلُّ الإكرام منه وله وبه. فإذا تمتعت بهيبةٍ فاذكر؛ أنَّ الله هو الذي رفع لك ذكرك، وإذا تمتعت بإكرام فاعتقد أنه منه.

وها نحن بصدد معنى جديد؛ فكوْنه ذا الجلال فيجب أنْ تُجلَّه. ولأنه ذو إكرام فيجب أن تحبه، وأن تكرم عباده؛ فَرَدُّ الفعل عندك أن تجله، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج:٣٢] بعض الأحيان يتأدب الإنسان مع كتاب الله، ويضعه في مكان عالٍ، ولا يجعل رجليه باتجاهه، وإذا قرأه قرأه جالساً، ويضعه على وسادة، فكل تعظيم لشعائر الله وكتابه وبيوته وأوليائه، هو من إجلال الله.

عَنْ أبي موسَى الأشْعَرِيِّ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنْ إجْلالِ الله إكْرامَ ذي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وحامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغالي فيهِ وَالجافِي عَنْهُ، وإكْرامَ ذي السُّلْطانِ المُقْسِطِ» [رواه أبو داود].

«إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشيبة المسلم» رجل متقدم بالسن، نشأ في عبادة ربه، ذو شيبة؛ إكرام هذا الشيخ هو من إكرام الله، إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم. وإكرام العالم العامل، والإمام العادل، كل ذلك من إكرام الله وإجلاله، فالمعنى الجديد الذي مرّ معنا هو: ما دام الله ذا الجلال والإكرام؛ فينبغي أن تجله، وأن تكرمه بإكرام خلقه، وهو ردّ الفعل.

وبعد فقد ورد أنَّ النبي ﷺ، كان ماراً في طريقه فسمع أعرابياً يقول: اللهم إني أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان المنان، مالك الملك، ذي الجلال والإكرام، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يقولُ: اللهمَّ إِّني أسْأَلُكَ بأنَّ لَكَ الحَمْدَ، لا إلَهَ إلا أنْتَ وَحْدَكَ لا شريكَ لَكَ، المَنَّانُ، بَديعُ السَّمَواتِ والأرْضِ، ذُو الجَلالِ والإكْرامِ، فقالَ: «لَقَدْ سَأَلَ اللهَ باسْمِهِ الأعْظَمِ الذي إذا سُئِلَ بِهِ أعْطَى وَإذا دُعِيَ بِهِ أجابَ» [رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذي، والنسائي].

وعن عَبْدِ الله بْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ حَسَّانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً حَسَنَ الفَهْمِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عامِرٍ، قالَ: سَمِعْتُ رَسُولِ الله ﷺ يقولُ: «أَلِظُّوا بِيَا ذا الجَلالِ والإِكْرَامِ» [رواه أحمد].

وعن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: «يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيث». وبإسناده قال: قال رسول الله ﷺ: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» [الترمذي، وقال: هذا حديث غريب].

أَلِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام؛ أيْ التجئُوا، فإذا حلت بالمؤمن مشكلة، أو ألمت به ملمة، أو دهمه خطب، أو حلَّت به محنة، دعا وقال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث. أَلِظّوا: أيْ التجئوا وادعوا، قال ابن الأثير أيْ: الزَموه واثْبتوا عليه، وأكثروا من قَوْل ذلك في دعائكم.

التطبيق الثاني: من عرف جلال الله تواضع له، لذلك لا يجتمع كِبْرٌ ومعرفة الله عز وجل. تقول: أنا؛ فمن أنت؟ أنت لا شيء. لا تقل: أنا. متى أكثر العبد من ذكره، ولاح نوره على سره، صار جليل القدر بين العوالم. ومن عرف جلال الله، تواضع له وتذلل، فالإكرام أن تكرم الناس، وأن تجعل أساس حياتك العطاء، وأمَّا الجلال فأن تترفَّع عن سفساف الأمور. فمن كثر مزاحه، قلَّت هيبته، لا تتعلق بالجزئيات والتفاصيل. لا تكن سخيفاً. إن الله يحب معاليَ الأمور، ويكره سفسافها ودَنِيَّها. فاعتدالُك في الأمور وتوازنك واهتمامك بالقضايا الكبرى، وتعلقك بالآخرة، وترفعك عن السفساف والدَّنايا، وترفعك عن السَّفاهات، وعن كثرة القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال، وتعلقك بالآخرة، يجعلك ممن تخلق بأخلاق الله، وصار لك هيبة أساسها الاعتدال والسلوك الحسن، والترفع عن الدنيا والسفساف والسقطات والزلات والثرثرة والتعليقات والتدخلات الجانبية، وأن تحشر نفسك فيما لا يعنيك. هذا كله يضعف مكانتك. والإنسان الناضج له إحساس دقيق جداً؛ فيشعر أن هذه الكلمة تصغِّر شأنه، وهذه النظرة تقلل قدره، وأن هذا السؤال يجعله دنيئاً، وأنَّ هذا التذلُّل

يجعله خنوعاً، وأنَّ هذا التصرف يجعله طامعاً. فكلُّ عملٍ يجعلك أمام الناس صغيراً، عليك أن تترفَّع عنه. والنبي ﷺ قال: «إياك وما يُعتذر منه» [أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر].

أيُّ تصرفٍ يدفعُك إلى الاعتذار وتقول: لا تؤاخذوني، فلا تفعلْه، إذا فعلت هذا صارت لك هيبة، والهيبة نوعان: نوع كسبي، ونوع وهْبي.

النوع الكسبي: التزامك بالأدب وضبط اللسان؛ فمَن كثر كلامه كثر غلطه، اضبط لسانك وجوارحك وكن معتدلاً، لا تتكلَّم كلاماً لست متأكداً منه، ولا تتَّهم أحداً قبل أن تتحقق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٦].

فعدم التسرّع وعدم الثرثرة، وفهم الأمر بتريُّث، وترك الدنايا، يجعلك ذا جلال. وإذا جعلت أساس حياتك العطاء والسخاء والدعْم، صرت ذا إكرام. إذاً ومرة ثانية أذكر أن نصيبك من ذي الجلال والإكرام: كسْبي ووهْبي، إن أقبلت على الله واتصلت به، وهَبك الجلال. وإن اعتدلت في سلوكك، وترفعت عن الدنايا والسفساف وأقللت من المزاح ومن الثرثرة، والتدخل فيما لا يعني، كنت كبيراً في نظر الناس. فكلمةٌ ترفعك، وكلمةٌ تجعلُك أسفل السافلين. إن الرجل يقول الكلمة في سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها سبعين خريفاً في جهنم. فما دام الله عز وجل ذا الجلال والإكرام، يجب أن نجِلهُ وأن نحبَّهُ، ومن جهة ثانية؛ فباستقامتنا واعتدالنا وترفعنا عن السفاسف، نكتسب هيبة. وباتصالنا بالله عز وجل.

أجل نكتسب هيبة. الأولى كسبية، والثانية وهبية. والله عز وجل أكرمنا فيجب أن نحبه، وأن نكرم عباده. إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي.

جاء في بعض الأدعية: أنت ذو الجلال والإكرام، صاحب الطَّوْل والإنعام، لك جلالٌ يَدُكّ الجبال، ولك جمالٌ يفتح باب القبول والوِصال.

أيها القارئ الكريم: كلُّ صفات القوة والعظمة منطوية في يا ذا الجلال، وكل صفات الكمال والإكرام منطوِية في الإكرام؛ فإذا قلت: يا ذا الجلال والإكرام، فكأنك جمعت بهذا أسماء الله الحسنى كلَّها، ولكن من زاويتين؛ زاوية القوة، وزاوية الكمال، والنبي ﷺ ما كان يجلس بعد الصلاة إلا بمقدار قوله: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [رواه مسلم من حديث عائشة]، ومعنى يا ذا الجلال والإكرام ينبغي؛ أن تعظِّمه بالقدْر الذي تحبه؛ فإذا كان في حياتنا كما قلت في مطلع هذا البحث أناس نحبهم كثيراً ولا نقدرهم كثيراً، وأُناس نقدرهم كثيراً، ولا نحبهم كثيراً، فالله عز وجل ذو الجلال والإكرام بقَدْر ما هو عظيم في قلبك، بقَدْر ما هو كريم في تعامله معك.

الاصطفاء

من أفعاله: الاصطفاء.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢].

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج:٧٥].

من معاني الاصطفاء

الاصطفاء في اللغة: تناول صفو الشيء، كما أنَّ الاختيار: تناول خيرِه، فأنْ تأخذ أصفى ما في الشيء فهذا اصطفاء، وأن تأخذ أَخْيَرَ ما في الشيء فهذا اختيار، وصفوة الشَّيء: ما صفا وخلص، والنبي ﷺ صفوة الله من خلقِه؛ من الذي اصطفاه؟ المصطفي الله جل جلاله هو الذي اصطفى النبي ﷺ وجعله صفوة خلقِه، وتقول: صفا الجو، أي: ليس فيه لطْخَة غيْمٍ، سماءٌ صافيةٌ زرقاء، واصطفاه أخذ منه صفوه، أي: خيارَه.

ولو اصطفيت الفاكهة فقد أخذت أطيبَها وأكبرها، إن كان الحجم فيها له ميزة، أو أصغرها إن كان الصغر له فيها ميزة، أو أشدها زُهُوّاً إن كان اللون أجمل ما فيها، والصّفيُّ هو الحبيب المصافي، وصافاه مصافاةً صدَقَه في الإخاء والمودة، والعسل المصفَّى: الذي أزيل عنه الشمع والقذى، واصطفيت كذا على كذا، أي: اخترتَ كذا على كذا، هذه بعض معاني الاصطفاء في اللغة.

اصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده صافياً وقد يكون باختياره من بين عباده المتفوقين، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ [آل عمران:٣٣].

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الصَّفوة والخيرة عن غير قصد من الإنسان، وعن غير إرادةٍ واختيار، لما كان لكلمة الاصطفاء معنىً، لكن لأنَّ الله خلق الأنفس واحدة بخصائص واحدة، ومن جِبِلَّةٍ واحدة، ومن فطرةٍ واحدة، ولأنَّ الله عز وجل خلق البشر جميعاً من طبيعة واحدة، وخصائص واحدة وانطلقوا بحَسَب اختيارهم وأهدافهم، فإن الله تعالى بعد ذلك اصطفى منهم خيارَهم قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾.

إذاً هناك في الاصطفاء شيء كسْبي وشيء وهْبي، وأوضح مثلٍ على ذلك: لو أردنا أن نعيِّن إنساناً في وظيفة مرموقةٍ جداً، وهذه الوظيفة تحتاج إلى لغةٍ وإلى قدراتٍ وقوة شخصية وإلى ثقافة عامة وإلمام بالعلوم والحقوق، وأجرينا مسابقة واشترطنا فيها

إجازة في اللغة الإنكليزية وإجازة في العلوم والحقوق وهيئات معينة ومَلَكات معينة وخصائص، فمِن كلِّ هذا الحشد نختار من بين المئة شخصاً واحداً، وهذا كلُّه كسْبي كسبه المتسابقون، أما حينما نختار أحدهم ونُعْطيه مهمة ومركبة وراتباً ضخماً وصلاحيات كبيرة فهذا وهْبي.

في الاصطفاء هناك جانب كسبيٌّ وجانب وهبيٌّ، ولو أنَّ الاصطفاء كلَّه وهبيٌّ لفَقَد معناه، فمثلاً لو أعطينا الأسئلة لطالبٍ ثم طرحنا السؤال على كلِّ الطلاب، فإذا بهذا الطالب ينال الدرجات الكاملة ثم عندئذٍ نقول: هذا نصطفيه! فهذا الاصطفاء لا معنى له، إذ ليس هناك تكافؤ فرص وليس هناك تساوٍ بين الطلاب، أمَّا حينما يتساوى الطلاب جميعاً في عدد الأسئلة ونوعيتها ويفوز أحدهم بالدرجة الأولى عن جدارة وأهلية فعندها نقول: فلان اصطفيناه ليتابع تعليمه في جامعات مرموقة.

فهذا الاصطفاء له معنى، إذاً عندما ينعدم تكافؤ الفرص ولا يتحقَّق التساوي بين الأفراد، ولا تتوفَّر خصائص مشتركة فالاصطفاء لا معنى له، أكرر: الاصطفاء فيه جانب كسبي وآخر وهبي، فالجانب الكسبيُّ أنَّ الله سبحانه وتعالى عَلِم من بين خلقه أكثرَهم معرفةً، وأكثرَهم استقامة وتضحيةً وإيثاراً، وأكثرهم قرباً وأكثرهم إقبالاً فاصطفاه وجعله نبياً؛ لذلك روي عنه ﷺ:

«إن الله اختارني واختار لي أصحاباً، واختار لي منهم أصهاراً وأنصاراً، فمن حفظني فيهم حفظه الله، ومن آذاني فيهم آذاه الله» [رواه الخطيب البغدادي في تاريخه، عن أنس].

الاصطفاء فيه جانب كسبي وآخر وهبي، فإذا الغَيْنا الكسبي أبْطَلْنا معنى الاصطفاء، وإذا الغَيْنا الوهبي أبْطَلْنا ميزات الاصطفاء.

الآيات التي ورد فيها الاصطفاء

يقول الله عز وجل: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة:١٣٢].

فما معنى هذه الآية؟ معنى ذلك أن الدين صافٍ من كلِّ شائبة ومن كلِّ ريبٍ وشكٍّ وتطرفٍ وغُلُوّ ومن كلِّ بعدٍ عن الحقيقة، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة:٢].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣].

كلُّ من يعتقد أنَّ هذا الدين يحتاج إلى تبديل، إلى إضافة أو تعديل، أو حذف أو تغيير؛ هو إنسان يَرُدُّ كلام الله عز وجل؛ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أي إنَّ القضايا التي عالجها الدين قضايا تامة وطريقة المعالجة طريقة كاملة.

وفي آل عمران قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أَيَّةُ قصة تنال من الأنبياء وتجعلهم كبقية البشر ينحرفون ويرتكبون المعاصي والآثام كما ورد في الكتب القديمة المقدسة التي حُرِّفَت وأُضيف عليها وحُذف منها، فهذه قصصٌ باطلة لا تقوم على أساس لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

اختارهم على علم، أيضاً اصطفى النبي ﷺ ليكون سيد البشر وخاتم الأنبياء وليكون صفوة البشر، لذلك فالنبي حبيب الله وخليل الله وصفيُّ الله وخيرة الله من خلقه.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:٤٢].

فأول اصطفاءٍ صار واضحاً جلياً، ولكن هناك اصطفاء ثانٍ فما معنى الاصطفاء الثاني؟ إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين.

قال بعض المفسرين: «الاصطفاء الأول هو اصطفاء القرب من الله، والاصطفاء الثاني أن هذه السيدة اختصها الله بأن تُنجب ابنها دون زواج»، أنى لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله.

وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٤].

لو أردنا أن نوسِّع الدائرة؛ فأنت حينما تُخْلِص لله عز وجل، وحينما تطلب العلم حثيثاً، وحينما تعمل بما علمت وتتقي الشبهات وتنطلق إلى الله بهمَّة عالية، فلعل الله يصطفيك ويسمح لك أن تُعرِّف به وتدعو إليه، وهذا شرفٌ عظيم، فالإنسان الصادق إذا دعا إلى الله لا يرى إلا أن الله تعالى تفضّل عليه وسَمَح له أن يدعُوَ إلى الله، وأن يتحدَّث عن الله وإلا كان في وضعٍ آخر.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

هذه آية عميقة في مفهومها ودلالاتها، أي إنَّ مهمَّة العبد تنتهي حينما يطيع الله عز وجل ثم يتلقَّى الخير بالشكر والامتنان؛ تنتهي مهمتُك عند الطاعة والشكر وما سوى ذلك فهو من شأن الله لا من شأنك.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

طبِّق ما أمَرْتُك به، ويؤيِّد هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر:٦٦].

﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح:١٠].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج:٢٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف:٨٤].

وقد يقول أحدكم: ما علاقتنا نحن بهذا البحث، إذ الاصطفاء للأنبياء ونحن لسنا أنبياء ولا صديقين؟ فاستمِع وأبشِر بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

لا تجد إنساناً دعا إلى الله إلا وسمح الله له؛ فإن كانت دعوتُه صادقة يوفِّقه ويصرف قلوب الناس إليه، ومن ثم تهفو إليه القلوب وتستفيد منه، وتنعَقِد صِلتُها بالله عن طريق توجيهه، فهذا نوعٌ من الاصطفاء، قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

أي أذِن الله تعالى أن تُرْفَع وأذِن لمن فيها أن يذكروا اسمه، بعض الأشياء التي تخصّ الأنبياء يمكن أن توسَّع الدائرة لتشمل كلَّ صادقٍ ليعمل مثل عملهم، ولعل الله سبحانه وتعالى يُطلِق لسانك ويُلْهِمك الصواب والكلام السديد والحكمة وقلباً متأجّجاً بالمشاعر الصادقة وتهفو إليه القلوب، كل هذا نوعٌ من الاصطفاء وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

آيات الاصطفاء فِعْلها بصيغة الماضي إلا هذه الآية الله (يصطفي) ففعلها بصيغة الحاضِر، وهو فعل مضارع يدلُّ على الاستمرار، فالله دائماً يصطفي، فإذا كنت من عباد

الله الذين اصطفاهم الله عز وجل، وسَمَح لهم أن ينطقوا باسمِه، وأن ينقُلوا للناس الحقائق وأن يكونوا دعاة هداية لا دعاة ضلالة، ومفاتيح خير لا مفاتيح شر، فهذا من أعظم العطاءات.

سمعت عن الذين اختَرعوا برامج الحاسوب وتفوَّقوا جداً في مجالها، كان أحدهم شاباً في مُقْتَبَلِ العمر يمْلِكُ ما يقارب التسعين مليار دولارٍ، أما حينما يصطفيك الله عز وجل لتنطِق بالحق وليكون عمَلُك في خدمة الخَلق، فإن هذا الاصطفاء هو العطاء الكبير الذي يربو على كلِّ المليارات قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح:١-٨].

وقال تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١-١١].

هذا اصطفاء، وقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر:٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة:٦٧].

ولم يقل يا محمد! بل خاطبه وناداه يا أيها الرسول! كلُّ هذا اصطفاء، ولقد أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس وعُرِج به إلى السماء، وعَلِم وهو في السماء أنه سيد الخلق وحبيب الحق، هذا كلُّه من الاصطفاء، بل قل: غاية الاصطفاء.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِ بْنِ العاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «إذا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ ما يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً، ثُمَّ

سَلُوا اللهَ لِي الوسيلَة فإنَّها مَنْزِلَةٌ في الجَنَةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبادِ الله، وأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أنا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الوَسيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ» [رواه مسلم].

أما البشارة، أليس بعد النبي ﷺ علماء أجِلّاء، أليس هناك دعاة مخلصون وفقهاء ومحدِّثون، أليسَ هناك من دعوا إلى الله، كلُّ هؤلاء بالمعنى الواسِع اصطفاهم الله وأجرى على أيديهم الخير وأنْطَق لِسانهم بالحق، وجعل قلوب الناس تهفو إليهم؛ هذا نوعٌ من الاصطفاء.

لعلَّ من أعظم طموحات المؤمن أن يصطفيَهُ الله عز وجل ليكون داعيةً إليه؛ فليقل كلُّ داعية: يا رب! لقد شرَّفْتني بمعرفَتِك والدعوة إليك، فإن علمْتَ صِدْق نيَّتي فاحفظْها لي واحفظني لها، وإن علمتَ خِلاف ذلك فعالِجْني قبل أن أموت، فعلى الإنسان أن يطْمَح؛ ما دوْرُكَ في الحياة؟ هل هو الأكل والشرب والنوم والراحة واللهوُ واللعب؟ أم هو معرفة الله؟ فلنُشَمِّرُ من أجل أن نُطيعَهُ ونتقرَّب إليه؛ هذه بشارة: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٧٥ ﴾.

هؤلاء الذين عكفوا على العِلْم وتَركوا مؤلَّفاتٍ قيِّمة تجدها في كلِّ بيتٍ، الإمام النووي رحمه الله تعالى ألَّفَ كتاباً في الفقه يُعَدُّ فريداً في بابه وهو المجموع، وألّف مُغْني المحتاج وألَّفَ كِتاب الأذكار ورياض الصالحين، وهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه أول من ألَّف في أصول الفقه وله كتاب الأم، فهؤلاء الذين اصطفاهم الله ومكَّنهم من العلم وجعل لهم بَصَماتٍ واضحة في الحياة، فهؤلاء أيضاً بالمعنى الموسَّع ممن اصطفاهم الله عز وجل.

إذا كنت ممن اصطفاه الله عز وجل فلقد علم فيك الإخلاص والصدق والحب والطاعة والوَرَع فكنت ممن اصطفاهم الله عز وجل، ماذا ينتظرك في الدنيا والآخرة؟ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ ﴾ [النمل:٥٩].

فإذا كنت ممن اصطفاه الله عز وجل فأنت في سلامٍ؛ في سلامٍ مع نفسِك، وفي سلامٍ مع مَن هم حولَك، وفي سلامٍ مع ربك، وحياتك سلامٌ، وتنتقل بعدها إلى دار السلامِ، وتتصل نِعَمُ الدنيا بنِعَم الآخرة.

ومن تكْرِمَة الله للنبي ﷺ أن الله اصطفاه واصطفى له أصحابَه، فإذا كنت تعيش ببلد وحولك مؤمنون أطهار طيبون وأتقياء مخلصون ومحبون، فهذه حياةٌ متميزة وهذه الحياة قدَّرها الله لك، وليس هناك إنسان أسْعَد مِن مَنْ يعيش مع أناس يتفاهمون فيما بينهم تحدوهم في علاقاتهم مرضاة الله. ومع من يكون على شاكلَتِه ومع الذي يقدِّر ما يُقدِّر ويُبْغِض ما يبغض، لا تصاحب من لا ينهِضك حاله، ولا يدُلُّك على الله مقالُهُ، ولا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له.

فمن نِعَم الله الكبرى على المؤمن أنه يعيش بين المؤمنين؛ هو طاهرٌ بين الأطهار، وهو صادق بين الصادقين، وهو محبٌّ لله ورسوله ﷺ وهو بين المحبين، فأجمل ما في الحياة أن تعيش مع إنسانٍ على شاكلتك؛ يفهمك وتفهمه، هذه هي الحياة الحقيقية، لذلك حينما اختار النبي ﷺ سيدنا الصديق لصحبته في الهجرة بكى من شدة الفرح [السيرة النبوية، لابن هشام]، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وإذا كانت مودتُك وحبُّك وطاعتُك لله عز وجل فهذا خيرٌ لك، أما أن تكون مودتك لإنسانٍ لئيمٍ قويٍّ لا يعرف حجم تضحيتك من أجلِه فالفرقُ كبير؛ ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؟ هذا استفهام إنكارٍ، ولسي هناك شيءٌ يجمع بين متضادين، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [القصص:٦١].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم:٣٥].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [الزمر:٩].

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢].

فإذا أكرمك الله بالكتاب تلاوةً وفَهْماً وتطبيقاً؛ فقد أُوتيت خيراً كثيراً، ومن أوتي القرآن وظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقَّر ما عظَّمَهُ الله فالقرآن غنىً لا فقر بعْده.

من العباد حِيال الكتاب مَن هو ظالمٌ لنفسه، ومنهم مَن هو مقتصد في فعل الخيرات، ومنهم مَن هو سابقٌ بالخيرات بإذن الله، أتُلاحظون الاصطفاء؟

مثلاً لدينا مئة طالبٍ على وشك أن يتخرَّجوا من الجامعة، ونريد أن نصطفي واحداً منهم ليكون في منصبٍ رفيع ليكون عميد كلية مثلاً، أو أستاذاً في الجامعة، أو رئيس المجمَع العلمي العربي، فحينما يُصطفى من بين المتفوقين فهذه هي الجهة الكسْبِيَّة، ويُمنح اختصاصات ومكافآت وميزات وهذه الجهة الوهبية، وقد ذكرت وأعود وأذكر: ففي الاصطفاء جانبٌ كسبي وإلا لا معنى للاصطفاء، وفي الاصطفاء جانب وهبي وإلا لا ميزة له عندئذٍ.

وفي القرآن الكريم يتحدث الله عن الأنبياء الكرام في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص:٤٧].

الأنبياء مُصْطَفَوْنَ فهم قممٌ في الكمال ونخبةُ البشرية وأعلام المجتمع البشري وملوك البشر، وهؤلاء الصحابة الكرام، إنهم ملوكُ المسلمين بالمعنى الروحي، الأنبياء والمرسلون صفوة الله من خلقه، قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص:٤٥].

رؤيتهم عميقة وأعمالُهم طيبة؛ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، فهم بقدر ما هم متفوِّقون في رؤيتهم بقدر ما هم طيبون في أعمالهم.

عُلُوّ الهمة من الإيمان، حينما يسمح الله لك أن يصطفيك أو أن يقرِّبك أو أن يُلهمك أو أن يجعلك تنطق بالحق أو أن يجعل هداية الناس على يديك، أو أن تهفو قلوب المؤمنين إليك فهذا نوعٌ من الاصطفاء، وما عند الله لا يُنال بمعصية الله، ألا إنّ سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، وينبغي أن تتيقنوا أيها المؤمنون من أنه لا بد من الابتلاء، والإنسان كما تعلمون يمر بمراحل ثلاث:

- مرحلة يؤدّب فيها.
- مرحلة يُبْتلى فيها.
- مرحلة يُكَرَّم فيها.

ففي مرحلةٍ يؤدّب، وفي مرحلةٍ يُبْتلى، وفي مرحلةٍ يُكرَّم، وهذه المراحل قد تتداخل وقد تتمايز، لكن لا بد من التأديب ولا بد من الابتلاء ولا بد من الإكرام والعطاء، لأن هذه سُنّة الله في خلقِه وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦]:

جنة في الدنيا وجنة في الآخرة.

نصيب المؤمن من اصطفاء الله

موقف المؤمن أنه يطمح في اصطفاء الله له لخدمة خلقِه، ومن هنا قال الله عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة:١١١].

حينما اصطفى الله عبده المؤمن، فهذا المؤمن باع نفْسَه لله، أريد أن أُوسِّع الموضوع؛ الأنبياء مُصطَفَون والرسل مصطفون وهم قِمَم البشر وصفوة البشر، ولكن المؤمنين لهم قَدْرٌ يسير على قدْر إخلاصِهم وعلى قدْرِ طاعتِهم لله، فالله يُكلِّف الإنسان أعمالاً يُجْريها على يديه ويرْفَعُهُ بها، فهذا نوعٌ من الاصطفاء.

أعرف شخصاً قرأ القرآن في الخامسة والخمسين من عمره وحفِظَه وكان طموحُهُ أن يكون إماماً في مسجد، وسبحان الله فلما قرأ القرآن وحفظه وعُيِّن إماماً لمسجد جيِّد موقعه ورواده كثيرون، صار يصلي بالمصلين الصلوات الخمس، ثم أكرمه الله بأن صار يلقي بعد الصلوات كلمةً على الناس تعظهم، هذا طموحُهُ فاصطفاه الله عز وجل، فالمعايير دقيقة عند الله تعالى، وبحسب صدق الإنسان وطاعته لله يصطفيه، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة:٢٤].

فالصبر إذاً طريق الاصطفاء هذا أولاً، وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة:١٢٤].

فتطبيق الأمر والطاعة مع الإخلاص؛ سبيلٌ إلى الاصطفاء هذا ثانياً، وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) ﴾ [يس:٢٠-٢١].

فالترفُّع عن حُطام الدنيا وعن متاعِها ومالِها وعن مكتسباتها سبيلٌ إلى الاصطفاء؛ هذا ثالثاً، وقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران:١٨].

فطلبُ العلم طريق إلى الاصطفاء، تصوَّر إنساناً درس التعليم الأساسي والثانوي ونال درجاتٍ عالية جداً ثم دخل كلية الطب وتخرَّجَ بها، ثم تابع دراستَهُ العليا، وعاد

بأكبر شهادة، ماذا ينبغي أن يفعل هذا الإنسان بعد أن تخرَّجَ ونال الدرجة العليا؟ ينبغي أن يُطَبِّب الناس ويفتح عيادة وإلا فلا معنى لهذه الدراسة.

أمعن النظر وتأمل: أنت حينما تطلب العلم فإنك تؤهِّل نفسَك لماذا؟ للدعوة إلى الله ومن الذي سوف يسمح لك أن تدعُوَ إليه؟ هو الله، فالله عز وجل بطريقةٍ أو بأخرى، على نحوٍ معروفٍ أو غير معروف يُيَسِّر لك طريق الدعوة إليه؛ لأنك تعلَّمْت العلم فصِرْتَ مؤهَّلاً أن تدْعُوَ إلى الله، فكلُّ إنسان يطلب العلم بإخلاص، ويسعى لطاعته تعالى بإخلاص، ويحرِص على رضوان الله وعلى القُرْبِ منه يصطفيه الله عز وجل، ويُجري على يديه الخير.

عندما يتعلَّم الإنسان علماً صحيحاً، ويلزَم مجالِس العلم، ويجلس على رُكْبَتَيْه، ويطلُب العلم، فلا بد من أن يصطفيه الله عز وجل بالمعنى الواسع، فيجعله بطريقة ما باباً للخير، لذلك روي أن من أدعية النبي ﷺ: «اللهم! ارزقْني طيباً، واستعْمِلني صالحاً» [ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، من حديث حنظلة].

ما معنى: واستعملني صالحاً؟ أي: الله يصطفيك لعملٍ صالح، وما معنى الحكمة القائلة: إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيمَ استعْملك؟ يعني أن الله اصطفاك، قد تجد شخصاً آتاه الله حكمة يتصرَّف في ضوئها، وفهماً دقيقاً وخبرات معيَّنة وعلماً ودعوة وجاهاً وقوةً وطلاقة، فكلُّ إنسان يهيئ نفسه لفعل الخير، فالله جل جلاله لا بد من أن يجْبِر كسْرَه ويُجري على يديه فعل الخير، قد تقول: أنا من أنا حتى أُصطفَى؟ أنت إنسان ومؤهَّل أن تكون من المُصْطَفَيْن، هذا بالمعنى الواسع؛ إن قلت بالمعنى الواسع هذا للمؤمنين، وإن قلت بالمعنى الضيق فهم الأنبياء والمرسلون لأن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فلِمَ يطلق الله تعالى لسانك ويجعل قلوب الناس تهفو إليك؟ فهذا هو معنى الاصطفاء وهو المعنى الموسَّع، فإذا مكَّنَكَ الله من بناء مسجد فهذا نوع من الاصطفاء، وأن تُطْعِم الناس من مالك الحلال فهذا نوع من الاصطفاء كذلك، وإذا سَمَحَ لك أن تُعْطي وقدَّر لك مَن يأخذ وسَمَح لك، فهذا

كذلك نوع من الاصطفاء، تكون في بيتٍ من بيوت الله وليس في ملهى من ملاهي الشياطين، فهذا تكريم واصطفاء.

أنا لا أنسى أني كنت مدْعُواً ذات مرة لافتتاح مسجد، وجلس بجانبي مدير الأوقاف الذي سيفتتح هذا المسجد، فقلت له: اشكُر الله عز وجل على أنه قد قدَّر على يديك أن تفْتَتح هذا المسجد، إذ هناك من يفتتح الملاهي ودور القِمار، قد تسعى وتهنأ فيكون عملُك مع العلماء، فهناك من يعمل مع الساقطين ومع طبقات أخرى من الناس لهم انحرافاتهم فيشقى بهم ومعهم، وهناك من يرعى شؤون المساجد فليحمد الله، وهناك من يرعى شؤون الملاهي، وآخر يُفكِّر كيف يدعو إلى الله، وذاك يفكِّر كيف يدعو إلى الشيطان وإلى المعاصي والآثام، فحين يجنِّد الإنسان نفسه لطاعة الله يصطفيه الله تعالى، فالله إذا أعطى أدْهَش.

هل تجد إنساناً في الأرض أعزَّه الله كالنبي ﷺ؟ شيءٌ غير معقول، ملايين الناس يذهبون إلى العمرة والحج كلَّ عام ويزورون النبي ﷺ، ويقفون أمام مقامِه يبكون ولم يلتقوا به ولا سمِعوا من كلامه مباشرة ولا نالوا من ماله، وبينه وبينهم آلاف الكيلومترات، فما الذي هداهم إلى أن يأتوا إلى مسجده الشريف؟

وطلب العلم وتبليغه طريق الاصطفاء، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٩].

فعليك ألا تخشى إلا الله، فهذا طريق الاصطفاء؛ لا أريد أن يكون كلامي هذا نظرياً وإنما أريده عملياً؛ كن طموحاً، لقد قلت مرة كلمة مفادها: أحياناً يتوهَّم الإنسان أنَّ الدعاة هم خطباء المساجد دون غيرهم! لا... أنت لديك أقرباء وأصدقاء وجيران وزملاء وأولاد وإخوة وأخوات... ألا تستطيع أن تنصَحهم وأن تجلس معهم وأن تُعلِّمهم، وبهديةٍ تكسب ودَّهم وقلوبهم وإصغاءهم لحديثك، ولك أن تكون من المصطفين الأخيار إذا كنت مخلصاً لله الكبير؛ إذاً طريق الاصطفاء يقوم أولاً على طاعة

الله ثم على طلب وصدق نية وإخلاص، ويحتاج هذا إلى حبٍّ وإلى شجاعةٍ وإلى جُرأة فلعلَّ الله تعالى يصطفيك قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [السجدة:١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القلم:٣٥].

إنسان همُّه الوحيد أن يرسِّخ الحق في المجتمع، ويُدخل السعادة على المؤمنين، وآخرُ هدفُه أن يبني مجْدَه على أنقاض الآخرين، وغِناه على فقْرِهم، وحياته على موتِهم، وأمْنَه على خوفهم، شتانَ بين هذا وهؤلاء! فلذلك ضَعْ نفسَك موضعاً يصطفيك الله. وليس الوليُّ الذي يطير في الهواء، ولا الذي يمشي على وَجْه الماء، ولكن الوليَّ كلَّ الوليِّ أن يجدك الله حيث أمرك ويفْقِدُك حيث نهاك، فإذا كنت في مجلسٍ وكانت هناك غيبة قُمْت وفارقت أهل المجلس، فأنت الآن تتوسَّل أن يصطفيك الله عز وجل والله تعالى، فهو إذا يصطَفي، وإذا اصطَفَى مؤمناً فهو في سلامٍ معه، والمؤمن في سلام إذا كان الله عز وجل قد اصطفاه لكن الله قال: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت:٢].

لا بد من الابتلاء.

الله تعالى يصطفي من يشاء، وهذا مرتبط أشدّ الارتباط بالمؤمنين، وكلما جهدوا بطاعته والفوز برضاه اصطفاهم وكرَّمهم وأجرى على أيديهم الخير، والغِنَى الحقيقي أن يجعلك الله مفتاحاً للخير مِغْلاقاً للشر.

التسخير

من أفعاله: التَّسخير.

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النحل:١٢].

من معاني التسخير

التسخير هو سِياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهراً، والمسخِّر هو المقيِّد للفعل، والتَّسخير هو التذليل، وكلُّ ما ذلَّ وانقاد وتهيَّأ فهو مسخَّرٌ، وسخَّرَه، أي: ذلَّلَهُ وكلَّفَه،

وكلُّ مقهورٍ مدبَّرٍ لا يملِك نفسَه يُعَدّ مُسَخَّراً، وقبل أن نتابع الحديث عن موضوع التسخير لا بد من حقائق أضعُها بين أيديكم تُلْقي ضوءاً على سِرّ التسخير.

أولاً: جعل الله الإنسانَ المخلوق الأول، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

فالإنسان قَبِل حمَلَ الأمانة، لذلك كرّمه الله، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠].

لأنه قَبِل حمْل الأمانة كرَّمَهُ الله أعظم تكريم وقد كلَّفَهُ أن يعْبُدَهُ، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات:٥٦].

فأوَّلُ مقوِّمات العبادة أنه سخَّر له الكون، فالمسخِّرُ هو الله والمُسَخَّر هو الكوْن، والمسخَّر له هو الإنسان، والشيء البديهي أن المسخَّر له وهو الإنسان أكرمُ من المسخَّر، فالكونُ مسخَّر أما الإنسان فمسخَّر له، فالإنسان مسخَّرٌ له الكون، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣].

فالله عز وجل ذلَّلَ؛ فالجَمَلُ مُسَخَّرٌ لنا ووزنُهُ خمسة أطنان، والفيل والحوت الأزرق والبقرة وحيواناتٌ أخرى ضخمة، فلو أنها كانت متوحشةً فهل نستطيع أن نتعامل معها؟ ومن المعروف أن مرضاً أصاب بعض البقر في بعض البلاد، وهو عبارة عن اعتلالٍ دماغي إسفنجي، وبنتيجته صار سلوك البقرة عدوانياً، إذ أصبح عندها اهتياج عضليٌّ، فهذه البقرة حينما جُنَّت فمن المستحيل أن تنتفِع بها، أحد إخواننا حدثني عن بقرةٍ جُنَّت في غوطة دمشق قتلت رجلين وعطبت الثالث، فاضطُرّ صاحبها إلى أن

يقتلها بالرصاص، فحين يقول ربنا عز وجل: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ وحين يقول سبحانه: ﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يس:٧٢].

فإنما يشير إلى نعمة كبرى أنعم بها على الإنسان، فمثلاً عقربٌ صغير من شدة خوفِك منه تكاد تخرج من جلدك، وهذه الأفعى ترتعد ساعاتٍ طويلة من رؤيتها، أما الجمل فإنك لا تخاف منه، وكذلك البقرة، فالتسخير نعمة، وهذه الحيوانات سخَّرها الله لنا نألَفُها وتألَفُنا. أما الحيوانات غير المسخرة فإنها تُعرِّفنا بقيمة التسخير.

لو أنَّ الله سبحانه وتعالى ركَّبَ في الغَنَمِ أخلاق الضبع، فهل نستطيع أن نذبَحها وأن نأكل من لحمها وأن نسخِّرَها لنا؟ إذاً فالله عز وجل تكريماً لهذا الإنسان الذي قَبِل حمْل الأمانة سخَّرَ له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، والله عز وجل سخَّر لنا الحديد، فكيف سخَّرَهُ لنا؟ جعَلَهُ فِلزاتٍ، فلو جعله حديداً صِرْفاً لكان من المستحيل الاستفادةُ منه، لكنه جعله مع التراب، تُعَبِّىء التراب وتنقُلُه إلى الفرن العالي وهذا الفُرْن يصهر الحديد وينقِّيه من الشوائب، فالحديد مسخَّر، والبحر مسخَّر، فكيف سخَّرَهُ الله لنا؟ إنَّ في هذا الماء قوةً تدفع نحو الأعلى، ولولا هذه القوة لما أمكننا أن نركب البحر، قال الله عز وجل: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الرحمن:٢٤-٢٥].

فهذه السُّفن كالأعلام فلولا قوة الدفع إلى الأعلى لما كان البحر مسخَّراً لنا، ومن جعله مالِحاً؟ ملوحتُهُ تسخيرٌ لنا، والسمك كذلك، كيف تصطاد السمك؟ توضَعُ الشبكة على شكل جدار والسمك لا يرجع إلى الوراء فإذا جذب الصياد الشبكة التي كانت باتجاهه، جُمِّعَ كل هذا السمك وكان صيده وفيراً، ولو أنَّ السمكة ترجع القهقرى لما أمكنك أن تصطادها فكيف سُخِّرت لك؟ سخرت بهذه الواسِطة؛ إذ ليس في

استطاعتها الرجوع، ولو تدبَّرت كلَّ شيءٍ سخَّره الله لك لوجدت أمراً عجباً وتكريماً خصّك الله به.

تجد كلَّ الأشياء أحجامها معتدلة، فالثمار دانية فلو كانت الأشجار عملاقة لما أمْكنك أن تجنِيَ ثمارها، ولو كانت هذه الفواكه تحوي كلَّ المواد المغذِّية؛ وكان طعمُها مُرّاً، لكانت بهذه الحال غيرَ مسخَّرة؛ لكنَّ الله تعالى جعل طَعْمَها طيباً وشكْلها جميلاً ورائحتها عَطِرةً ومذاقَها حُلْواً، وفيها معادن وفيتامينات وسكريات، وغيرها من الفوائد، فموضوع التسخير أمر جليٌّ واضح، والكونُ كلُّهُ مسخَّرٌ لنا، وكذلك المياه مسخَّرة لنا، ومن جعل الماء الأُجاج عذباً ومستساغاً؟ عن طريق التبخُّر والأمطار والأنهار والينابيع، إنك لو فكرت في خلق السموات والأرض لوجدتَ الهواء مسخَّراً لك، فالله جعل نِسَب الهواء حكيمةً جداً.

لو رُفعتْ نسبة الأكسجين أكثر لأحرق الهواء كلَّ شيء، ولو كان للهواء حركةٌ عنيفة لدمَّرت كلَّ شيء، لكنَّ الله تعالى جعل الهواء يتحرَّك أحياناً حركةً عنيفة ليريك حكمته أثناء سكونه! فالهواء مسخَّر والماء مسخَّر والنبات مسخَّر والمحاصيل مسخَّرة لك، والفواكه تنضج تباعاً، أمَّا المحاصيل فإنها تنضج في يومٍ واحد، ولو أنَّ المحاصيل تنضج تباعاً لكانَ من المستحيل أن تجْنِيَ المحاصيل، ولو أنَّ الفواكه تنضج في يومٍ واحد لكان من المستحيل أن تنتفِع بها؛ يوجد إلهٌ عظيم يُبدع كلَّ شيء، وهذا هو معنى سخَّر لك النبات والماء والهواء وهذه الحيوانات.

إذاً: التسخير هو التذليل، والإنسان أحياناً يمرُّ على الأشياء مرور الكرام، ولا يَنْتَبِهُ لِحِكْمَتِها البالِغة، فهذا عُنْقود العِنَب لو أردْتَ أن تَقْطِفَهُ وجذبته نحوَ الأسْفل لعُصِرَ في يَدِك ولما انْقَطع، ولكن لو جذبته عند قطفه نحوَ الأعلى أصْبَحَ بيَدِك بيسر وسهولة، فمن سخَّرَهُ؟ وهذا البطيخ كلُّه ماء من جعل له هذه القِشْرة السميكة ليمكن نقله من مكان لآخر، ومن جعلَهُ بهذه القشرة الكروية القاسية فلا يسيل ماؤه؟ الله عز وجل، فالتسخير قضية واسعة جداً.

آيات ورد فيها التسخير

وردت مادة (سخر) في مواضِع كثيرة من كتاب الله تعالى، ففي سورة الرعد قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

هل نستطيع أن نحْمِل هذا السقفَ بغير أعمدة؟ وهل هناك هندسةٌ تتيح لنا أن نبنيَ سقفاً بغير أعمدة؟! وإذا كان الأمر كذلك لكلّفنا هذا الكثير؛ سقفٌ بلا أعمدةٍ ولا جدران يعتمد عليها هذا فوق طاقة البشر، والله تعالى يقول: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ هذه قوى التجاذب، فالأرض مربوطةٌ بالشمس بقوة جذبٍ تساوي مليوني طن ضرب مليون مليون طن، أي رقم اثنين أمامه ثمانية عشر صفراً، وهذه القوة تمثل مليون مليون حبل فولاذي، وقُطْر الحبل خمسةُ أمتار، وكلُّ حبل يقاوِم من قوى الشّدّ مليوني طن، وكلُّ هذه القوة لا نراها، فهل تستطيع أن تسير داخل هذه الدِّعامة؟ أعوذ بالله، وهل بإمكانك أن تصنع دعامةً لا تُرى وتسير في داخِلها؟ دعامةٌ لا تُرى! هكذا قال الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

يعني بعَمَدٍ لا ترونها، وأنَّ الكون كلَّه مترابطٌ بقوى التجاذب، ولولا هذه القوى لأصبح الكون كلُّهُ كتلةً واحدة؛ قوى تجاذب وقوى نَبْذ، حركةٌ شكّلَتْ قِوى نبْذٍ، والجاذبية هي التجاذب بين الكتل التي في السماء بحسب حجومها ومسافاتها وأبعادِها وحركاتِها وسكناتِها ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أرضُنا مسخرةٌ لنا فلو أنَّها تفلَّتَتْ من جاذبية الشمس لانتهت الحياة عليها، لو أنها تفلَّتَتْ من جاذبية الشمس لأصبحت حرارتُها مئتين وسبعين تحت الصفر، وهو يعني الموت المطلق لكلِّ الكائنات الحية.

ما معنى مسخَّرة لنا؟ أي: مربوطةٌ بالشمس، فبسبب هذا الجذب تنحرف الأرض في كلِّ ثانية ثلاثة ميليمترات باتجاه الشمس حتى يكون مسار الأرض مغلقاً

حول الشمس، ولولا أنَّ مسارها مغلقٌ حول الشمس لما سُخِّرت لنا، حسناً، لو أنها دارتْ بسرعةٍ كبيرة وصار الليل ساعةً والنهار ساعةً لكانت غير مسخَّرة، ولو أنَّ الدورة خمسُ سنواتٍ لصار الزمنُ خمسَ سنواتٍ نهاراً وخمس سنواتٍ ليلاً ولكانت غير مسخَّرة، الحرُّ الذي بجهة الشمس ثلاثمئة درجة فوق الصفر وفي الجهة الأخرى مئتان وسبعون تحت الصفر، لانتهتِ الحياة عندئذٍ، فمعنى مسخرة أنها تدور، ومعنى مسخرة أنها تدور باعتدال، ومعنى مسخرة أنها تدور بمحور مائل، ومعنى مسخرة أنَّ خصائصها ثابتة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

العلماء يقولون: الشمس مُتَّقِدة منذ خمسة آلاف مليون عام، وقالوا: سوف تستمر -بحسب دراستهم- إلى خمسة آلاف مليون سنة أخرى، ولسان اللهب من الشمس طوله مليون كيلومتراً، هذه الطاقة من أين؟ هل توجد مدفأة تعمل بلا وقود؟ وهل هناك مركبة تسير بلا وقود؟ وهل يوجد شيءٌ يشتعل بلا وقود؟ خمسة آلاف مليون سنة مضت ولخمسة آلاف مليون سنة قادمة، وحرارتُها في باطنها عشرون مليون درجة وعلى سطحها ستةُ آلاف! فمن أين هذه الحرارة؟ ومن سخَّرها لنا؟ ضوء الشمس فيه دفءٌ وثانياً نور وثالثاً تعقيم؛ إذ يتعقم بشعاع الشمس كلُّ ما يحتاج إلى تعقيم في محيطنا.

وذكر الله سبحانه الشمس والقمر لأنهما أظهرُ الكواكب السيارة، والتي هي أشرف وأعظم من الكواكب الثوابت، فالشمس أمامنا مشاهدة، والقمر أمامنا نراه، والليل مسخَّر، والنهار مسخَّر، الله تعالى سخَّر لنا الليل، فهو سكينةٌ لنا وظلام وهدوء وراحة ونومٌ وسِترٌ، والنهار معاش، ولولا دورة الأرض حول الشمس لما كان ليلٌ ولما كان نهار.

وفي سورة إبراهيم قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٢].

أرأيتم إلى التسخير؟ جَمَعَ المسخِّر، والمسخَّر، والمسخَّر له بآيةٍ واحدة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

كلمة ﴿لَّكُمْ﴾ بحثتُ عنها في القرآن الكريم فوجدتُ أنها وردت في أكثر من مئتين وثمانين آية؛ أنت أحياناً تقيم مأدبة على شَرَفِ إنسان، فهذا الإنسان يجلس على هذه المأدبة ويأكل، فإذا طُرق الباب وكان القادم ضيفاً تقول له: هلُمّ وكُل معنا فيأكل، لكن هذه المأدبة أُقيمت خصيصى لضيف الشرف، أما الثاني فقد أكل عَرَضاً، فكلمة ﴿ لَّكُمْ ﴾ تعني أن هذا الكون مسخَّرٌ خِصِّيصَى لكم، وليس المعنى أنك عشتَ على هذه الأرض فاستفدْت مما فيها! بل كلُّ ما في الأرض من شيءٍ مسخَّرٌ للإنسان خصيصاً، وكلمة ﴿لَّكُمْ﴾ تفيد هذا المعنى؛ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

طبعاً الفُلْكُ مسخَّرة حسب قانون أرخميدس، والأنهار مسخَّرة من خلال هذه الجبال التي جعلها الله مستودعاتٍ للمياه، قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

فالله هو المسخِّر وأنت دائماً مسخَّرٌ لك؛ والمسخَّر له أشرف وأعظم من الشيء المسخَّر.

وورد التسخير أيضاً في آيات كثيرة والنبي ﷺ يقول فيما روى أبو أُمامَةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إذا رَفَعَ مائِدَتَهُ قالَ: «الحَمْدُ لله كَثيراً طَيِّباً مُبارَكاً فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ، وَلا مُوَدَّعٍ، وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنا» [رواه البخاري].

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣].

طبعاً؛ العباد جمعُ عَبْدٍ، والعبيد جمعُ عَبْدٍ، أما العباد فجمعُ عبدِ الشكر، وأما العبيد فجمعُ عَبْدِ القَهْر، ونحن كلُّنا عبيدٌ لله، بمعنى أننا مقهورون، وبمعنى أن حياتنا متوقِّفَةٌ على إمداد الله، وكذلك وجودنا، وأن حياتنا وأرزاقنا لا تقوم إلا بالله، وأننا بحاجةٍ إلى الهواء، ونحن مفتقرون إلى الله.

إذاً نحن عبيدٌ له، أما العباد فهم الذين عرفوه وأتوْهُ طائعين وأحبُّوهُ وأقبلوا عليه وتقرَّبوا إليه، وهذه العبودية لله عز وجل لها معنىً آخر، فالنبي ﷺ يُخبِرنا أنه لا يستغني عن ربِّه أبداً.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) ﴾ [الليل:٥-١٣].

بعض الناس يظنُّ أنه يستغني عن الله فهو بحُمْقِهِ أو بغبائِه أو بكُفْرِهِ أو بجَهْلِه يرى أنَّه قويٌّ وغَنِيٌّ عن الله، لكن الله سبحانه وتعالى يؤدِّبُه ويُحجِّمه، أمَّا المؤمن فمفتقرٌ دائماً إلى الله عز وجل، ولا تنسوا أنّ الإنسان حينما يستغني عن الله بحسب ظنِّه يلقَ أشدّ أنواع التأديب وليكن كائناً من كان، ففي بدْرٍ أعلن الصحابة الكرام فقرَهُم إلى الله قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمران:١٢٣].

ومعنى الذُّلّ هنا الضعفُ والقلَّةُ مع الافتقار إلى الله تعالى، أما في حُنَيْن فبدا لهم وكأنهم كثرةٌ لا تُهزم، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ [التوبة:٢٥].

فأنت حينما تستغني ولو كان استغناءً خفياً، ولو كان اعتداداً بالصحة أو المال أو القوة أو الذكاء، فهذا كلُّهُ في ظاهره نوعٌ من الاستغناء، والاستغناء من لوازِمِه التخلِّي، فالله عز وجل يتولاكَ أو يتخلَّى عنك، يتولاكَ إذا افتقرتَ إليه، ويتخلَّى عنك إذا

استغنيتَ عنه، وليس شرطاً أن تقول: أنا مستغنٍ عن الله، فحينما تعتمد على شيءٍ من قدراتك الخاصة وتنسى أن الله تعالى سخَّرَها لك وأكْرَمَك بها فهذا أحد أنواع الاستغناء، وتأديبُهُ سريع ولا سيما المؤمن، فالله عز وجل لا يسمحُ للمؤمن أن يغفُلَ عنه لأنه يحبُّهُ ولا يسمحُ له أن يشرِكَ به، فالله تعالى يخبر أنه أغنى الأغنياء عن الشرك والقلب المُشْتَرَكُ لا يُقبِلُ الله عليه والعمل المُشْتَرَكُ لا يقبلُهُ الله.

لذلك أخطر شيء في الإيمان قضيةُ الشرك الخفيِّ، فالإنسان أحياناً يشعرُ أنه يملك شيئاً، قد يشعر أنه يملك المال أو القوة أو الذكاء أو طلاقةَ اللسان، فهذا الذي تشعرُ أنك تملكُهُ هو أحد أسباب الاستغناء عن الله وأحد أسباب الشرك الخفيِّ، فبمجردِ أن تشعر أنك قادر على شيءٍ وأنك تملِك قدرةً ذاتية إما علمية أو مالية، وقوةً تستعلي بها على الناس، فالله عز وجل سريعاً ما يؤدِّبُك ويتخلَّى عنك، فهذا التخلي هو التربية، فكلما كنت أكثر تبحُّراً في الدين وأكثر توحيداً لله وإخلاصاً له تجعل من نفسِك أكثر افتقاراً دائماً، وهذا الافتقار الدائم يجعلُ الله منه سبباً لمعونَتِك.

ورد في الأثر أن النبي داود قال يا رب: كيف أشكُرُك وشكري لك نعمةٌ منك عليَّ؟ وسؤال داود يذكرنا بهذه الحكمة أيضاً: «إذا أراد ربك إظهار فضلِه عليك، خَلَقَ الفضل ونَسَبَهُ إليك»، بعد حين يشعُر الإنسان أنه لا شيء، وكلما ازددت افتقاراً إلى الله زادك الله إمداداً وقوةً وعلماً وصحةً ويقيناً وقدرة على التمييز، وكلما اعتدَدْت بقدراتِك الذاتية تخلَّى الله عنك؛ كيف أشكُرُك وشكري لك نعمةٌ منك عليَّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، لأنَّ العَجْزَ عن الإدراك إدراك، وحين يقول الإنسان: سبحانك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسِك. فهذا شُكْر، فحينما تعجزُ عن الشكر فأنت شاكِر، وحينما تعجزُ أن تُعبِّر عن شكرِك لله عز وجل فأنت عندئذٍ تشكُرُهُ، أما الغافِل فهو الكافر.

والتسخير كذلك ورد في سورة النحل قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾ [النحل:١٢].

فلو أنَّ الله تعالى جعل لكم النهار سَرْمَداً إلى يوم القيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكُنون فيه؟ ولو أنه جعل لكم الليل سرْمَداً إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بنهارٍ تنتَشِرون فيه؟ إنه الله، فالليل مسخَّر والنهار مسخَّر، وهذه دَوْرة الشمس والأرض آية صارخة، وكذلك فَلَو دارت الأرض على محْوَر مُوازٍ لمستوى دورانها لما كان هناك ليلٌ ولا نهار فالدِّقة التي جعلها الله بينهما تدلّ على حكمةٍ بالغة وخلقٍ دقيق، ولو أن المحور عمودي على مستوى الدوران لما كان هناك فصول، ولكنه مائل وهذا الميَلان يُسبِّب الفصول وهذا هو التسخير قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فالله جعل القمر نوراً والشمس جعلها سِراجاً وهاجاً، قرأت أن القمر يُعطي ثمانية عشر بالمئة مما تعطيه الشمس فيُمكِن للقمر أن يؤدي وظيفة إضاءة تساوي ثمانية عشر جزءاً بالمئة من الشمس، وذات مرةً كنت مسافراً بالطائرة فرأيت في ليلةٍ مُقْمِرة من علٍ بلاداً، قرىً ومدناً وسهولاً، واستطعت أن أتبين كثيراً من مناظرها على ضوء القمر، فالقمرُ مسخَّر وجعله الله تقْويماً للإنسان فالآية الكريمة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

قد تكونُ نجمةٌ متألِّقةٌ حجمُها يزيد مئة مليون مرة على حجم الشمس وهناك نجوم تتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وهناك نجوم تبعُد عنا ثلاثمئة مليون سنة ضوئية ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: وما خلق ﴿لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا﴾ في الفواكِه تجد لوناً أصفر مع خدٍّ أحمر، أو أحمر داكِن وأخضر غامِق أو فاتح، فالفاكهة ألوانُها من آيات الله الدالة على عظمتِهِ وألوان الخُضَر والأشجار والجبال وزرقة البحار، فهذا كلُّه من فضل

الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) ﴾ [النحل:١٣].

فالبحر أربعة أخماس الكرة الأرضية، وعمقه في أخفض نقطة اثنا عشر كيلو متراً، فالكَمُّ المائي كبير جداً، فإذا كان أربعة أخماس الكرة الأرضية على عُمْق متوسِّط خمسة كيلومترات، فكم هي كتلة الماء في البحار؟ فالبحر الأبيض المتوسط يعدّ بُحَيْرة إذا ما قيس بالمحيطات. أما المحيط الهادي والأطلسي وغيرهما فهي محيطات كبيرة جداً قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ [النحل:١٤].

فالسمك مخلوق خِصِّيصَى للإنسان، وهناك مليون نوعٍ من السمك في البحار، ولولا أن الأسماك الكبيرة تأكل الصغيرة لصار البحر كلُّه أسماكاً، وقال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ هذا اللؤلؤ شيء دقيق الصنع والتكوين؛ هناك حيوانٌ إذا شعر أن في محارِهِ جسماً غريباً مهما كان دقيقاً أفْرز عليه مادةً فوسفورية كلْسِية يُدافِع بها عن نفسِه ويُحجِّم هذا الجسم الغريب، وهذه المادة الفوسفورية الكلسية هي اللؤلؤ، واللؤلؤ غالٍ جداً قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾.

أغلب البضائع هذه الأيام استيراد وتصدير، تُنقل عبر السُّفُن وهناك الآن بواخر وناقلات نفط تحمِل مليون طن؛ مدن تسير في البحار، وهناك الآن معامِل لصنع الستانلس هي بواخر تأخذ المواد الأولية من استراليا وفي طريقها إلى الشرق الأوسط تُصَنِّعُها وتبيعُها مصنَّعةً خالصةً، فالبواخر مدنٌ تمشي في الماء قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي

سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أذْكُر مرةً أننا كنا في سَفَرٍ وكان الطريق طويلاً وساحلياً ومن الممكن أن نقْطَعَهُ في البحر، كانت تقف على مرأى منا بواخر تُستعمل ناقِلات للسيارات فيها سيارات كبيرة وشاحنات، تحمل عدداً كبيراً من السيارات؛ كيف تتحرك هذه الباخرة بهذا العدد؟ وكيف يحْمِلها الماء؟ إذا قلتَ: البترول؛ قلنا لك: من خلق البترول؟ الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وقال: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [النحل:١٥].

فالجبال يبدو أنها موزَّعة توزيعاً دقيقاً جداً، حيث إن الأرض تدور دورةً مستقرة؛ تجد بناءً عمره سبعمئة سنة ليس به بأس، ولو كانت هناك حركة تلامسه لانْهَدم، فالأرض متحرّكة وكأنّها ساكنة، وهذا من آيات الله الدالة على عظَمَتِه، استقرارٌ مطلق مع حركة عجيبة قال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل:٦١].

من جعلها مستقرة؟ ومن جعل الأشياء تستقرُّ عليها؟ الله جل جلاله قال: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل:١٥-١٦].

كلُّ شيء له علامة تميّزه، وتعلن عن حقيقة بواطنه، إذا كان هناك جرثوم في جسم الإنسان، فإنه ترتفع حرارته، فارتفاع الحرارة علامة، وإذا نضجت الفاكهة يصْفَرُّ لونُها، وهذا اللون الأصفر علامة، وأحياناً الزيتون يسودّ، والحبُّ يشتدُّ،والعنب

يصْفَرّ، وكلُّ شيءٍ خلقه الله عز وجل جعل له علامةً تدلُّ على باطنِهِ، حتى الأمراض كلُّها لها علامات، ولولا هذه العلامات لما عرف الأطباء الأمراض، وكلُّ شيء باطن له علامةٌ ظاهرة، قال تعالى: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل:١٦].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل:١٨].

أي أنتم عاجزون عن إحصاء النِّعم، فلأن تكونوا عاجزين عن شُكْرِها من باب أولى، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٩].

أيضاً هذه الآية وما بعدها تبيِّن تسخير الله تعالى لهذا النبي الكريم.

وفي سورة الحج قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج:٣٦].

فهذه الناقة؛ قرأت عنها بعض المقالات في مجلاتٍ علمية أنها تستطيع أن تستغني عن الماء ثلاثة أشهر، فهي تستطيع أن تستهلك ماء خلاياها، وتستطيع أن تستغني عن الطعام أكثر من ستة أشهر لأن سنامها مُدَّخَرٌ غذائيٌّ لها، فهذا الحيوان مسخَّرٌ للإنسان ولا سيما في الصحراء، أخْفافُها آية، ولها رُموش تمنع دخول الغُبار إلى عينيها، وعينُها آية تُريها البعيد قريباً والصغير كبيراً، فعين الناقة كالميكروسكوب تماماً، فعينُها آية، وشفتاها آية، وأعضاؤها آية، وتجلس جلسةً نظاميةً وترتاح، ولها ثفنة في بطنِها وعلى يديها ورجليها، جلستُها النظامية تتيح لك أن تُحمِّل عليها، وهي دانية من الأرض.

وربنا عز وجل يقول: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ [الغاشية:١٧].

إن بحثنا يتناول كل حركةٍ من حركاتِك؛ ويريك كلَّ ما سخره الله لك من خلال ذلك، لبِسْتَ حذاءك من جلد الأنعام فهذا الجلد مسخَّرٌ لنا، ركبتَ مركبةً تتحرك بالبترول فالبترول مسخّر لنا، دخلت إلى البيت وشربت كأساً من ماء فالماء مسخَّرٌ لك، ومن جعلهُ عذباً فُراتاً؟ وكان من قبل مِلْحاً أُجاجاً فالماء مسخَّرٌ لنا، رأيتَ زوجتَك فمن سخَّرها زوجةً مطيعةً لك، ورأيتَ أولادك واستلقيت على فراشٍ وثير فمن خلق الصوف؟ فكيفما تحركت وجدت الأشياء مسخَّرة لك أعظم تسخير، ألا تستحيي من الله؟

إلى متـــى أنـــت باللّـــذات مشـــغول وأنـــت عـــن كـــلِّ مـــا قـــدَّمتَ مســـؤول

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١].

وفي سورة لقمان قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [لقمان:٢٠].

أذكُر مرةً أنني كنت في الخليج، وكان هناك سباق للهُجْن يعْتنون به كثيراً، ولكن الذي لَفَت نظري أنَّ الذي يركَب على هذه الناقة طفلٌ صغير، وهذا الطفل من شدة الاهتزاز يَنْعَطِب عمودُهُ الفقري ورأيت العكس في هذا الموقف، فالإنسان هنا مسخَّرٌ لهذه الناقة، والأصل أن الناقة هي المسخّرة للإنسان، فالإنسان حينما يسخّر لمخلوق أدنى منه ما عرف قيمة نفسه وإنسانيته لذلك الله عز وجل قال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [البقرة:١٣٠].

هناك أشياء كثيرة قد ترفُضُها لأنها لا تُعْجِبُك ولأنك تحتقرها، إلا أنك إذا رفضت الدين فإنك تحتقر نفسَك قال: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

حينما يحتقر الإنسان نفسَه يُعْرِض عن الدين، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وفي سورة الزمر قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ ﴾ [الزمر:٥].

وفي سورة الزخرف قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزخرف:١٢].

وهذه لفتة ألفت نظرك إليها فيما سخر الله أيها الإنسان، لتعتبر وتشكر:

فمِن أجل أن تعرف قيمة البترول؛ سيارة فيها خمسة رُكاب وتحمِل أغراضاً وأمتعة، وتسير في طريق صاعِدة، فلو أنها وقَفَت وأُطفِئ مُحرِّكُها وكلَّفْناك أن تدفعَها في مسارها إلى الأعلى مع رُكابِها فهل تستطيع؟ فلو كان هناك خمسة رجال أقوياء لما استطاعوا تحريك هذه السيارة بطريقٍ صاعدة، لكن هذا البترول كيف ينفجر، وكيف يدفع هذا الوزن الثقيل من المركبة مع ما فيها من ركاب بطريقٍ صاعدةٍ على نحو ما تعرف وتشاهد؟ فسبحان الذي سخَّر لنا هذا، وإذا ركِبت باخرة من الذي جعل الماء يحمِلها؟ الله عز وجل، وكذلك الطائرة في الهواء، وهناك دعاء قرآني كلما ركِبْت مركبةً أو دابةً أو سيارةً تقول:

كما روى عليٌّ الأزديُّ أنَّ ابنَ عُمَرَ علَّمَهُمْ أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفرٍ كبَّر ثلاثاً ثم قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [رواه مسلم].

فكُلُّ شيء تراه أمامك مسخَّرٌ لك، وكل ما تراهُ أمامك هو من نِعَم الله عز وجل، وقد سخَّره لك، ولولا أنك ذو شأنٍ عند الله عز وجل لما سَخَّر الكون من أجلِك قال تعالى: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ ﴾ [النحل:٥].

نصيب المؤمن من التسخير

الكون مسخَّرٌ تسخيرَيْن:

- تسخير تعريف.
- وتسخير تكريم.

ورَدُّ فِعْلِ التعريف أن تؤمن به، وردُّ فعل التكريم أن تشكُرَهُ، فإذا آمنْتَ به وشَكَرْتَهُ حققتَ الهَدَفَ من وُجودِك، لذلك يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ۝١٤٧ ﴾ [النساء:١٤٧].

وبالمناسبة بمجرَّدِ أن تعرِف هذه النعمة أنها من الله فهذا نوعٌ من الشُّكْر فأهلُ الدنيا تجد أحدهم يستمع إلى نشرة الأخبار الجوية مثلاً أنّ منخفضاً جوياً في طريقِهِ إلى الشرق الأوسط، فإذا لم يخطُر ببالِهِ أنَّ الله تعالى رحمةً منه بالبَشَر ساق هذه المنخفضات لتكون في النهاية أمطاراً تروي الزرع ويشرب منها الإنسان ويسقي بهائمهُ، فهذا التصور بأن هذا منخفضٌ يسير بسرعة كذا إلى المكان الفُلاني ولا يذْكُر الله معه فذلك نوعٌ من الشرك، لذلك فلا بد من أن تعترف بأنَّ كلَّ شيءٍ يحيط بك نِعْمَةٌ عُظْمى ينبغي أن تحمَدَ الله تعالى عليها.

استنشاق الهواء نعمة، وكم من جهازٍ في الإنسان يعملُ بانتظام، فمثلاً هذه العينُ تعملُ بانتظام، وهي من أكبر النِّعَمِ التي أنْعَمَ الله بها علينا، ترى الألوان كلَّها والأشياء بحَجْمِها، وتُفَرِّق بين درجتين من بين ثمانمئة ألف درجة من تدرّجات اللون الواحد، فهي حساسةٌ جداً، فالعين نعمة والشمُّ نعمة والسمع والنطق نعمة والقلب والرئتان

والأوعية والأمعاء كلُّها نعم كذلك، فالإنسان مغمورٌ بالنعم، وكلما فكَّر في هذه النعم أحبَّ الله عز وجل. والنبي ﷺ يروى عنه:

«أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ الله، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي»

[رواه الترمذي من حديث ابن عباس].

«أحِبوا الله لِما يغْذوكم من نِعَمِهِ»، وحالةُ المؤمن دائماً الشُّكْر لأنّ الله عز وجل سخّر له جِسْمَهُ وأنت شيء غير جِسْمِك، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

[فصلت:٢١].

فَجِلْدُكَ خلايا، والخلايا نفْسٌ لها مسؤولية وتنطِق يوم القيامة وتشْهد، فجِسْمُكَ مُسَخَّرٌ لك، وعظْمُ عُنُقِ الفخذ يتحمَّل مئتين وخمسين كيلو حُمولَة، فالعظْمان يتحملان نصف طن، وهذا الحُوَيْن المَنَوي الذي هو كالماء من أين جاء بهذه القساوة في العِظام؟ هذا يعني أن هناك في العِظام كِلْس قاس فَمَن أعطاه هذه القساوة؟ فالمواد الكِلْسِيَّة تترسَّب في العِظام وبطريقةٍ لا يعْلَمُها إلا الله تعالى، يصبِح هذا العظم قاسياً، بل إن ميناء الأسنان يأتي بعد الماس في قساوَتِه، والعِظام لها متانَةٌ كبيرة.

انْظر إلى القصاب يرْفَع الساطور إلى أعلى ويَهْوي به بكُلِّ قُوَّتِه ليَكْسِرَ عظْماً من عِظام الخروف ما معنى ذلك؟ أي أنّ الله عز وجل أعْطاك هَيْكَلاً عظمياً قوياً وعضلاتٍ تتحرَّكُ بها، ولولا العضلات لما كانت هناك حركة ولا مشْي ولا تَكَلُّم ولا نُطْق ولا تَنَفُّس ولا نَبْض قلب ولتوقف كلُّه، فالله تعالى أعْطاك عضلاتٍ تتحرك وهيْكَلاً عظمياً هو قِوامُ جِسْمِك، وأعْطاك الله عز وجل أجْهِزةً حسّاسة جداً.

ولقد ذكرت مرةً أنَّ في الدِّماغ خاصة تكشف تفاضُل وصول الصوت إلى الأذُنَيْنِ، فإذا دخل صوتٌ من جهة اليمين قبل جهة الشمال مثلاً بقدْر واحد على ألف وستمئة جزء بالمئة حينها يعلَم الإنسان أنَّ الصوت جاء من اليمين، فإذا كان يقود

سيارة مثلاً فإنه ينْحَرِف نحو اليسار استجابة لذلك الصوت، وهناك جهاز توازن السوائل، وجهاز ضبط، فالإنسان ينطوي على آلاف الأجهزة؛ الغُدَّة النُّخامية وزنها نصف غرام تُفْرِز اثني عشر هرموناً.

هل علمت أنَّ التسخير يعني أنَّ جِسْمَكَ مسخَّرٌ لك، والطعامَ مسخَّر، والشرابَ مسخَّر، والأنعامَ مسخَّرة، والبحارَ مسخَّرة، والأمطارَ مسخَّرة، والرياحَ مسخَّرة، ولولا الرياح اللواقح ما أنتجت النباتات، ولا أثمَرت الأشجار، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر:٢٢].

لذلك فمُلخص البحث: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نِعَمِه، وأحبوني بحب الله، وأحبوا آل بيتي بحبي» [رواه الترمذي من حديث ابن عباس]، فإن فعلت كنت عبداً شكوراً.

المنع

من أفعاله تعالى: المنع.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧].

وفي الحديث: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ» [البخاري عن المغيرة بن شعبة]

من معاني المنع

المنعُ في اللغة ضدُّ الإعطاء... في البلاغة ما يسمى بالطباق... كأعطى ومنع، ضرَّ ونفع، خفض وأعلى، قبض وبسط، هذا طباق في الأفعال، أما في الأسماء: حرٌّ وقر، عدلٌ وجور، صالحٌ وطالح، كريمٌ وبخيل... إلى آخره... إذا جاءت الكلمات متعاكسة في معانيها فهذا ما يسمى بالطباق، فإذا جاءت مجموعة كلمات تعاكس مجموعة كلمات في جملة واحدة فهذا ما يسمَّى بالمقابلة.

فالمنع ضدُّ الإعطاء، ومنع ضدُّه أعطى، والمنع ضدُّ العطية، يعطي أو يمنع، والمعنى الذي قد لا يخطر في البال: هو المانع بمعنى الحماية... يمنعك من خصومك، يمنعك من أعدائك، يمنعك من أن ينزل بك شر، يمنعك من الأشرار، يحميك،

يحفظك، أنت في حمايته، أنت في مَنَعة، لا أحد يصل إليك، لا أحد يستطيع أن ينال منك، فهذا معنى آخر من معاني المنع.

المانع: هو الذي يمنعك من كلِّ ما يؤذيك، يمنعك من العطب في دينك ودنياك، الله عز وجل مانع للمؤمنين، يدافع عنهم ويحفظهم ويوفِّقهم، ويؤيِّدهم.

المانع مطلقاً... هو الذي يجعل الحيلولة بين شيئين، إنسان هجم على إنسان لينال منه، فاحتمى بإنسان قوي، فهذا القوي منع الأول من أن يعتدي على الثاني، فهو مانع، أي: جعله في منعة وحماية، وهذا غير معنى المانع ضدُّ المعطي، فالمانع بهذا المعنى هو الحافظ.

وقولهم: حصنٌ منيع، أي: لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه، فلانٌ في عز ومنَعة، أي هو عزيز ممتنِع على من يرومُه، الشعور بالمَنَعة شعور رائع جداً، تشعر أنك في حماية الله، أنَّ الله معك، أنَّ الله يحفظك، أنَّ الله يؤيِّدك، أنَّ أحداً لا يستطيع أن يصل إليك، هذا الشعور يقابل الطمأنينة، يقابل الشُّعور بالأمن.

الإنسان أحياناً يركب مركبة حديثة جداً فيتأكد من عدم وجود مشكلة فيها وأنَّها لن تتعطَّل في الطريق، وأحياناً يركب مركبةً قديمة جداً وقد يصل بسلامة لكنَّه قلِق طوال الطريق، فالمنعة شعور بالأمن والاطمئنان، وعدم توقُّع المصيبة... وقد قيل: توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها.

وقالوا: أنت من خوف الفقر في فقر، وأنت من خوف المرض في مرض. لذلك فالله -عز وجل- إذا أراد أن يعاقب المعرِضين ينزِع من أحدهم شعور الأمن، هم أغنياء وأقوياء وأذكياء ومع ذلك خائفون، يقذِف الله في قلوب المشركين الرُّعب بسبب شركهم، وعلامة الإيمان الطمأنينة لأنك مع الله، والله معك، ومن كان مع الله لا يخشى أحداً إلا الله، وللأنبياء مواقف في هذا المعنى فهذا سيدنا هود يخاطب قومه قائلاً لهم: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٥-٥٦].

أنت -في المحصِّلة- لك مشاعرُ نفسيَّة، هذه المشاعر النفسيَّة مهمَّةٌ جداً في حياتك، وفي معادك إلى الله، لأنَّ هذه المشاعر الراقية تقودك إلى أن تعمل عملاً صحيحاً، والعمل الصحيح سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، والمشاعر السوداويَّة تثبِّط عزائمك، الإنسان أحياناً يُصاب بمرض نفسيٍّ، هذا المرض يُقعده في البيت، ويمنعه من العمل، فيلجأ إلى التدخين، إلى المخدرات أحياناً، وبهذا المرض النفسي يتوهَّم أنَّ الناس كلَّهم أعداؤه، فالحالة النفسية مهمة جداً، أهم شيء تعيشه حالتك النفسية، فالمؤمن له حالة شعوريَّة عالية جداً، وأساسها أنه ممنوع، أي: أنَّ الله منع خصومه أن يصلوا إليه، ومعنى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]. أي: بحفظنا وتوفيقنا ورعايتنا.

والله جلَّ ذكره هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع، فما كلُّ واحدٍ من الناس يستحقُّ المنع، فهناك إنسان لا يستحقُّ المنع، بل يستحقُّ أن يتورَّط، يستحقُّ أن يكون مكشوفاً، يستحقُّ أن يصل أعداؤه إليه، فقد قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة:٥].

إذا لم يستقم الإنسان فإنَّه قد يُفتَن بالكفار، قد ينالون منه، بل لهم عليه ألف سبيلٍ وسبيل، لأنَّ الله لم يمنعه، لأنَّه لم يستحقَّ المنع، استحقَّ أن يصلوا إليه، استحقَّ أن ينالوا منه، استحقَّ أن يتحكَّموا فيه، استحقَّ أن يقهروه، أما إذا كنتَ مطبِّقاً لمنهج الله، إذا كنت مع الله عز وجل فأنت ممَّن يستحقُّ المنع، عندئذٍ يمنعك الله عز وجل.

وبعد، فالعوامل المُمْرِضة موجودة في الدنيا، إنسان يُصاب، إنسان آخر لا يُصاب، الذي لم يُصب ممنوع من قبل الله عز وجل، والذي أُصيب سمح الله لهذا الجرثوم ولهذا المرض أن يفعل فعله، كلمة (ممنوع) شيء عميق الدلالة جداً، يعني أنت تحوطك رعاية الله، لا يسمح الله لأحدٍ أن يصل إليك، إنك معه، وهو يحميك... فقد قال تعالى: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾ [يوسف:٦٤].

سبق أن ذكرت كيف أن النبي ﷺ اتَّجه إلى بني النّضير مع ثُلَّة من كبار أصحابه ليطالبهم بما عليهم من عهدٍ وقَّعه معهم، فجلس في مكانٍ في حيِّهم وأسند ظهره إلى جدار بيت فائتمروا به بأن يصعد أحدهم إلى السطح ويلقي عليه صخرةً يقتله، فجاءه

الوحي بالخبر فنهض النبي ﷺ من مجلسه وتبعه أصحابه، وفوّت الله على العدو تدبيرهم [السيرة النبوية لابن هشام]، وأنت - أيُّها المؤمن - لن يأتيك الوحي ولكن يأتيك من الله إلهام.

امرأة صالحة تطهو طعامها في قِدْر تعمل بالبخار المضغوط يبدو أن فيها خللاً وصارت على وشك الانفجار، وإذا انفجرت شيء مخيف جداً، وقبيل أن تنفجر بدقيقة واحدة قُرِع الجرس، ذهبت لتفتح فلم تجد أحداً، كان طفل صغير يلهو فقرع الجرس وهرب، في أثناء فتحها للباب انفجرت القِدر، فالله مانع، منع المرأة أن تُصاب بأذى.

إخوةٌ كُثُر... حدَّثوني كانوا في طريقهم في سفر، وبعد أن قطع أحدهم ألفاً وخمسمئة كيلومترٍ من الطريق وأوقف السيارة أمام البيت، تفككت بعض قطع السيارة وتساقطت علىٰ الأرض لو أنها أصابها الخلل أثناء السير لهلكوا كلُّهم، من الذي منع وقوع الحادث؟ الله جل جلاله... الله يمنعك من الحوادث.

قال لي أحد الطلاب الذين يدرسون الطب... ركب سيارة عازماً على السفر إلى محافظة إدلب... فجاء إنسان فظٌّ غليظ وشأنه غير معقول، هو كالوحش، فتح الباب وبدلاً من أن يقول لهذا الطالب اسمح لي بهذا المقعد، وهذا الطالب حجمه صغير، فحمله ووضعه على الأرض وركب بدلاً منه وأخذ مكانه، فقال لي هذا الطالب: امتلأت غيظاً إلى حد كبير وغير معقول، ومضت ساعة ونصف حتى تمكَّن من ركوب سيارة أخرى، وعند قرية تفتناز -وهي إحدى قرى محافظات الشمال- وجد السيارة الأولى قد تدهورت وفيها أربعة قتلى من ركابها الخمسة، والناس متجمِّعون حولها... كان أحد ركاب تلك السيارة المنكوبة لكنَّه أُرغِم على النزول... من الذي منعه وأنزله منها؟ الله جل جلاله، إما عن طريق إلهام، أو عن طريق سبب آخر.

ولقد وقع قديماً حادثٌ بمكان سمعت أنَّ كل من كان في هذا المكان قُتلوا، ولي صديق موظَّف في المكان نفسه، وتوقَّعْت أنَّه في عِداد القتلى، ثم فُوجئت به في الطريق بعد أيام فسألته عن أحواله فقال لي: قبل خمس دقائق من الحادث خطر لي أن أشتري الخبز من مكان قريب فخرجت، وأثناء غيابي وقع الحادث.

قد يحدث حريق أو انفجار لأسطوانة الغاز، أو يكون الشخص بمطعم فتنفجر أسطوانة الغاز ويكون مقدَّراً لها أن تقتل عشرة أشخاص وفيهم شخص ممنوع فيخطر في باله الخروج لشراء شيء ما وأثناء خروجه تنفجر، فليس هناك شيء يقع مصادفةً في الكون كلِّه أبداً، فالله عز وجل يمنع الخطر.

لذلك فالمؤمن يشعر بطمأنينة لا يعلمها إلا الله، لأنه لم يؤذِ أحداً، ولم يكن سبباً في ألم إنسان أو ترويعه، ولم يكن سبباً في ابتزاز إنسان، أو سبباً في إدخال الرعب على قلب أحد، لم يبنِ مجده على أنقاض الآخرين، ولم يبنِ غناه على فقرهم، بل هو محسن في كلِّ عمل فالله عز وجل يمنعه، وفي هذا المجال توجد أكثر من ألف واقعة وحادثة... فأحياناً يكون سنتيمتر أو مليمتر أو دقائق بينه وبين الخطر... فالله يمنعه وينجيه، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

قال العلماء: «هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع»، فكن أنت مستحِقّاً للمنع، ما رأيت دعاءً يقطر أدباً كدعاء النبي ﷺ:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى الأَسْلَمِيِّ قالَ: خَرَجَ عَلَيْنا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى الله أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ سُبْحَانَ الله رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ، الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ، اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْباً إِلا غَفَرْتَهُ، وَلا هَمّاً إِلا فَرَّجْتَهُ، وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إِلا قَضَيْتَهَا لِي، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ» [سنن الترمذي].

أي كنْ أهلاً للمنع فيمنعك الله من خصومك، لن يسمح بك، فسيدنا سُراقة بن مالك قبل أن يُسلم أراد قتل النبي ﷺ ليأخذ مئة ناقة، وُضعت مكافأةً لمن يأتي به حيّاً أو ميّتاً، هل استطاع أن يصل إليه؟ اقترب منه... غارت قوائم فرسه في الرمال، مرة أولى، وثانية، وثالثة... فعرف أنه ممنوع من الله تعالى [انظر السيرة النبوية، لابن هشام].

فإذا كان الله مع أحد فهنيئاً له، فلا يخشى أحداً، ولكن بأدب وليس بوقاحة كأن يقول: أنا لا أخاف من أحد... فهذا من سوء الأدب، اجعلها بينك وبين ربِّك.

فإذا كنت مع الله كان الله معك، إذا كنت مع الله أشعرك بالأمن وأشعرك بالمودة... إذاً هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع.

قال العلماء: هو يمنع أهل دينه... هل تجد إنساناً ينتمي إلى جماعة متنفِّذة وليس له ميزات؟ مستحيل... فكيف إذا انتميت إلى أهل الله؟ أو إلى الدين، ليكن انتماؤك إلى الله فهو الرُّكن الرَّكين.

أحد العلماء المشاهير في إحدى الدول العربية، أراد أن يجري عملية في بريطانيا، فوُضعت أربع طائرات في خدمته ليختار إحداها، وصل إلى بريطانيا وأُجريت له العملية، ولم يلبث أن وصلت إليه هواتف كثيرة ورسائل بأعداد غير معقولة، وبالآلاف مما لفت إليه أنظار المسؤولين وأجرى معه مذيع من إذاعة لندن مقابلة، قائلاً له: ما هذه المكانة التي تتمتع بها، الأمر غير معقول كأنك أسمى مكانة من الملوك، بماذا أجاب؟ هل سيقول: لأنني مخلص أحظى بهذه المكانة، أو لأنني عالم، أو لأنني محبوب؟... هذا افتخار وادعاء... ولكنه قال: لأنني محسوبٌ على الله.

كلمة فيها أدب بالغ جداً، فهو قد قال: أنا لست أهلاً لذلك، ولكنني محسوبٌ لا على أهل الأرض ولكن على رب السماء، أنا محسوبٌ على الله.

المؤمن ربَّاني... فقد تجد شخصاً ينتمي إلى فلان أو فلان أو فلان، أي ينتمي إلى شيء مآله إلى الزوال... انتهى أمره فهو مجيَّر لصالح فلان، معروف كم هو ثمنك، أما أن تكون محسوباً على الله؛ فمكانتك مكانة عَلِيَّة. لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، ولكن كونوا ربَّانيين، لا تكن لمصلحة زيد أو عبيد، لمصلحة فلان أو علاَّن، لا تكن محسوباً على أهل الأرض، ولا على جهات الأرض، ولا على قوى الأرض، ولا على تجمُّعات الأرض، كن محسوباً على الله... لكن الذي يحسب على الله يجب أن يكون مطيعاً لله.

إذاً هو الذي يمنع أهل دينه... أي: يحوطهم وينصرهم...

وقيل: هو الذي يردُّ أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان... كما كان يدعو النبي ﷺ: «اللهمَّ! أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي

التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كلِّ خير، واجعل الموت راحةً لي من كلِّ شرّ» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة].

قد يكون الإنسان مستقيماً ويمشي ببطء إلى الله... والله عز وجل سيمنعه من التقصير... وهذا معنى جديد... فالمعنى الأول... يمنع، أي: لا يُعطي، والمعنى الثاني: يمنع، أي: يحفظ من الشر.

وإليك المعنى الثالث: يمنعك من التقصير... فقد يكون أب حريص على أن ينال ابنه الدرجة الأولى، ليس حريصاً على أن ينجح ابنه فحسب... لا... حريص على أن ينال الدرجة الأولى، أكثر معالجات المؤمن أن يمنعه من التقصير، فكلما قصَّر يأتي الله له بمشكلة، كلما قصَّر يلوح له شبح مصيبة، كلَّما قصَّر يحبط الله بعض عمله فيفرُّ المؤمن إلى الله عندئذٍ يتوب ويضرع.

وقيل: «هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعنايةً، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً وحمايةً».

لا يُعطي لأنه يعلم، كما أن الأب الطبيب الماهر الذي يعلم أنَّ ابنه مصابٌ بالتهابٍ في معدته، وأنَّ هذه الأكلة تؤذيه، يمنعه من هذا الطعام بحزمٍ وقسوةٍ، والطعامُ شهيٌّ وطيِّبٌ، وإخوته يأكلون في حضوره، لكنَّ الأب مُصِرٌّ على منع هذا الابن من هذه الأكلة الشهيَّة الطَّيِّبة لأنها تؤذي معدته، فهو يمنعه... فهذا المنع كان لحكمةٍ بالغة.

يقول ابن عطاء الله: «متى فتح الله لك باب الفهم في المنع، عاد المنع عينَ العطاء».

أحياناً قد يُبعِدك الله عز وجل عن مجال معين، لأنَّ هذا المجال فيه دنيا، كأن يعمل شاب في محلٍّ تجاريٍّ فخم، والراتب مُغرٍ جداً، والبيع للنساء، وهو شاب في أول نشأته، ومقاومته هشَّة ضعيفة، فلسببٍ أو لآخر يصرفه صاحب العمل، ما وافق وضعه صاحب المحل فوضع دونه شرطاً تعجيزياً، أو لعدم التزامه صرفه، فيبدو آنياً أنه قد مُنِعَ من هذا المرتب الضخمْ، ولكن هذا المكان مكانٌ موبوء وهذا الشاب طاهر ومقاومته هشَّة لا تحتمل هؤلاء الغاديات والرائحات، فالله عز وجل صرفه عن هذا

العمل، وهو في ظاهر الأمر وباطنه منعه... والأمثلة في هذا المجال كثيرة لا حصر لها، كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى صرف عن أحبابه ما يبدو لهم أنه منعٌ وهو في الحقيقة عطاء... صَرفُه عنهم عين العطاء.

قد تجد ابناً نشأ بالنعيم، والأب غنيٌّ ومتساهل مَرِن فيعطي ابنه ما يشتهي، وأحياناً ينشأ ابن يتيم في حرمان وفقر وله أم حازمة مربية، ودخلُهم قليلٌ جداً، فتحضُّه على الدراسة، لا تنيمه الليل، تحثُّه، ليس في البيت مغريات أو ملهيات ولا ماديات، فبحسب الظاهر أنَّ الأول مدلل وابن أسرة غنيَّة، يأكل ما يشتهي ويذهب إلى حيث يشتهي ويريد، والثاني طفلٌ يتيمٌ ومحرومٌ، ولكن بعد حين ترى أنه شتَّان بين الاثنين، اليتيم في تألُّق كبير ورفعة، والآخر في شقاءٍ وتراجع، فاليتم والحرمان مع أمٍّ حازمةٍ مربيَّةٍ، دفعته إلى أن يبني نفسه بناءً صحيحاً، إذ غَرست فيه القيم الأخلاقية فأصبح إنساناً عظيماً بهذه النشأة المتقشِّفة، وذاك الطفل الذي نشأ برخاء منقطع النظير، ينام في غرفة خاصّة فيها كلُّ ما يشتهي، كما حوت غرفته كلَّ الألعاب، وقد يشحن أبوه سيارته من الخليج إلى الشام ليستمتع بها في المصايف والمنتزهات، دون أن يكلِّف نفسه عناء قيادتها ومتاعب السفر.

فهناك شاب يعيش حياةً خيالية، يحمل أجهزة نادرة ثمنها مئات الآلاف، وله هاتفان أو ثلاثة، وسيارتان أو ثلاث، وشاب نشأ في أسرة فقيرة، ولكنَّ فيها الكثير من القيم، تجده إنساناً عظيماً... لذلك لو كُشف الغطاء لاخترتم الواقع.

يقول سيدنا علي رضي الله عنه: «والله لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً»، يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء.

وكذلك يقول سيدنا علي رضي الله عنه: «والله لو علمت أنَّ غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي»... لشدة مسارعته إلى الله.

إذاً العطاء قد يكون منعاً، ولكن هذه تحتاج إلى ثقة بالله، وإلى إيمان، وإلى يقين بحكمة الله، وبمحبة الله.

فالإنسان يخطئ في تصوّره... فإذا اجتمع للإنسان مال، وكانت صحّته سليمة وهو بعافية، وفي حال مبسوط النفس، وبيته ممتاز، فإنه يظنُّ أن الله يحبُّه، وإذا كان بيته دون المستوى، ودخله قليلاً وصحَّته معلولة ظنَّ أنَّ الله لا يحبُّه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر:١٥-١٧].

﴿كَلَّا﴾... كلا، كلامكم غير صحيح، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنَّ عطائي ابتلاء، وحرماني دواء.

لا بد من أن تعلموا علم اليقين أنَّ الفقير المؤمن أفضل عند الله ألف مرة من الغني العاصي... لأن الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البرُّ والفاجر، وعندنا أدلة قوية جداً... منها قارون، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

أعطى الله سبحانه وتعالى المال لقارون وهو لا يحبُّه، وأعطى فرعون الملك وهو لا يحبُّه... الدنيا لا قيمة لها.

إذاً... هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعنايةً، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً أو حماية... ويعطي الدنيا لمن يحبُّ ولمن لا يحب، ولا يعطي نعيم الآخرة إلا لمن يحب.

أجل يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب... فقد قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة:١٢٦].

تجد بعض الناس يقع في غلط فاحش فيقول: لأن الله يحبني أعطاني هذا البيت، فيجعل عطاء الدنيا مقياساً لمحبة الله، فالله أعطى شخصاً كافراً منزلاً أكبر من منزلك بمئة مرة، يوجد ملوك الحديد والصُّلب، وملوك المعامل الضخمة في أوروبا وأمريكا، معهم أموال خيالية، وبيوتهم مدن بأكملها، قصره في غابة، فهل معنى ذلك أنه يحبه؟!

لا تجعل الدنيا مقياساً للمنع والعطاء، فالدنيا لحقارتها عند الله، لم يشأ أن يجعلها علامة رضوانه، ولا علامة بغضه، إن الدنيا لصغر شأنها عند الله أبى أن يجعلها علامة رضوانه، وأبى أن يجعلها علامة سخطه، فلا علاقة لها برضوانه ولا بسخطه، لكن لها علاقةٌ بحكمةٍ يريدها الله عز وجل.

وهو جل جلاله الذي يدفع عن أهل طاعته المصائب، يدفع عنهم البلايا، ويحوطهم وينصرهم، يمنع ما يريد من خلقه مما يريد.

فمثلاً في اليابان منطقة صناعية فيها أضخم المعامل والشركات، وقد قاموا بتركيب أجهزة للإنذار المبكر للزلازل مربوطة بحاسوب، فالله سبحانه أنزل بها أضخم زلزال وتعطل الحاسوب عن أداء وظيفته، فهل من مُدّكر؟

يمنع من يريد ما يريد، لا مانع إلا الله، من الذي يمنعك من المرض؟ من الذي يمنعك من حادث في الطريق؟ من الذي يمنعك من شرير؟ من الذي يمنعك من الخوف؟ إنَّه الله، يمنع من يريد ما يريد، ولا مانع إلا الله.

ولا تنسَ أن الله جعل نواميس وأسباباً... أي: يمنعك ولكن لا يمنعك بلا سبب، بل إن هناك للكون نظاماً، فالكون فيه نظام، وكلُّ ما يقع له أسباب، فقد قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف:٨٣-٨٥].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ فإذا أراد الله -عز وجل- أن يمنع إنساناً وأن يكون نظامه سائداً في المجتمع وفي الحياة، يلهم هذا الممنوع من هذا الشرِّ أن يأخذ بالأسباب... فكذلك منعُ الله بحكمةٍ وليس منعاً عشوائياً، وفي بعض الحالات يمنع بلا سبب كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾... أما الأصل فهو أنه إذا أراد أن يمنعك يلهمك أسباب المنع.

فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المنع، المانع هو الحافظ... قد يتبادر للمرء أن المانع هو الذي لا يُعطي، فهذا معنى، وكذلك المانع هو الحافظ، أنت في حصنٍ منيع، أنت في حرز حريز، لا أحد ينالُك.

قال بعض العلماء: «المنع يضاف إلى السبب المهلِك، والحفظ يضاف إلى المحروس عن الهلاك»، أي لو وجدت إنساناً محروساً من أن يهلك فهذا محفوظ، وإنسان يمكن أن يهلِك فهذا ممنوع... فقد قال تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف:٦٤].

وقد قالوا: «كلُّ حافظٍ مانع، وما كلُّ مانع حافظ».

كلُّ حافظٍ مانع... ما دام أنَّ الله حفظك فهو يمنعك من خصومك، وليس كلُّ منع حفظاً... أحياناً يكون المنع عقوبة، فقد يُحرم المرءُ بعض الرزق بالذنب يصيبه، قد يُحرم المرءُ بعض العلم بالذنب يصيبه، الذنب يمنعك من العلم ويمنعك من الرزق.

يقول بعض العلماء: «المانع يعني أنَّ الممكنات بالنسبة إلى تأثير قدرته على السوية... فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو ترجيحه»، كل شيء بيد الله عز وجل، والله دائماً قادر على أن يمنعك من أعدائك.

فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو ترجيحه... كلُّ المؤثرات بيد الله عز وجل، فإذا أطلق واحدة ومنع واحدة فهناك ترجيح عند الله لحكمة، فلو أن شخصاً في جسمه ثلاثة أنواع من الجراثيم حرَّك الله واحدة منها والاثنتان لم يحرِّكهما، أجل ثلاثة أنواع من جراثيم، فربما واحدة فعلت فعلها، فكلُّ الممكِنات بيد الله عز وجل، وكلُّ الأسباب بيد الله، أطلق جرثوماً ومنع جرثومين.

وبعد، فالمانع في وصفه سبحانه وتعالى منع البلاء عن أوليائه، أو منع العطاء عمن شاء مطلقاً، فإما أن يمنع العطاء تأديباً، أو تحصيناً، أو وقايةً، بحسب الممنوع منه، أو يمنع البلاء عن أوليائه.

الأولياء يُمنعون من البلاء فهو مانعهم، وهو المانع، أي: الحافظ، أما المخطئون فيُمنعون من العطاء تأديباً لهم، والمؤمنون يُمنعون من بعض حظوظ الدنيا وقايةً لهم،

تأديباً للعصاة ووقايةً للمؤمنين، هذا المنع الثاني، وقد عرفنا من قبل أن المنع الأول: الحفظ.

قال العلماء: «إذا منع البلاء عن بعض أوليائه كان ذلك لطفاً جميلاً، وإن منع العطاء عنهم كان ذلك فضلاً جزيلاً»، منع البلاء لطف، ومنع العطاء فضل.

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ: «أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: «عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ» [مسند الإمام أحمد].

بعض العلماء قال: «الله -جلَّ جلاله- يعطي كلَّ شيءٍ ما هو في مصلحته، بمعنى أن حكمة الله مطلقة، يمنع ما هو سبب فساده، يغني من يشاء بالعطاء ويمنع من يشاء بالابتلاء، سبحانه يغني ويفقر، يسعد ويشقي، يعطي ويحرم، يمنح ويمنع فهو المعطي المانع».

إنسان عقيم لا يترك طبيباً إلاَّ قصده للمعالجة، ولكن لا جدوى فالمنع إلهي، إنسان آخر رزقه الله ذكوراً فقط، وإنسان آخر نسله إناث فقط، وهناك إنسان رابع نسله ذكور وإناث.

وقد قال لي أحد الإخوة الكرام يوماً وقد أقسم بالله: إن مات ابنه فلسوف يقيم احتفالاً بمناسبة موت ابنه لشدة عقوقه، فابن يكون بلاءً ونقمة، وابن يكون عطاءً ونعمة قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام:٨٤].

والله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولكنه لا يحمي قلب عبدٍ عن المخالفات إلا وهو من خواصِّ أوليائه.

قد تكون غالياً على الله وقريباً منه، وفي ساعة غفلة تفكِّر بعملٍ لا يرضي الله، تجد أن الله عز وجل وضع أمامك العراقيل، منعك، ولم يوافق المسؤولون لك على السفر مثلاً، فهناك منع قاسٍ وظاهره من البشر لكن حقيقته من ربِّ البشر، فالمؤمن محفوظٌ

من المخالفات، فلعله بهذا السفر تضعف مقاومته، أو عنده هشاشة في مقاومته، فالله عز وجل يعلم سرَّه وعلانيته.

قال بعض العلماء: «المانع هو الذي يدفع أسباب الهلاك والنقص في الدين والدنيا، وذلك بخلق الأسباب التي تحفظ من الهلاك والنقصان».

يمنع الهلاك بأسباب النجاة من الهلاك، ويمنع النقصان بأسباب النجاة من النقصان، المنع بأسباب... الله عز وجل يخلق بعض الممكنات، ويمنع وجود بعض الممكنات، يعطي الله لشخص مؤهِّلات ليتفوَّق، وقد لا يعطيها لآخر، فيعطي لحكمة ويمنع لحكمة، مرة أخرى: يعطي كلَّ شيءٍ ما هو في مصلحته ويمنع ما فيه فسادٌ لدينه فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى:٢٧].

أريد في هذا البحث أن أبيّن أنَّ المؤمن المتَّصل بربه يتلقى المنع برضا، والمؤمن المتفتح يرى يد الله فوق أيديهم، يرى يد الله تعمل في الخفاء، يتلو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال:١٧].

المؤمن البصير يذكر الحديث الشريف وهو قوله ﷺ:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ» [مسند الإمام أحمد].

لا يندم ولا يحقد ولا يتألَّم ولا يتذلَّل ولا يتضعضع، ولا يستخزي ولا يُلحّ، اطلبوا الحوائج بعزَّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير.

وما كان لمؤمنٍ أن يهون، بل لا ينبغي للمؤمن أن يُذِّلَ نفسه، هذا بسبب إيمانه أنَّ العطاء من الله والمنع من الله، فقد قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

الشيء المهمُّ في هذا الموضوع... ما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْماً فَقَالَ: «يَا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سَألتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [سنن الترمذي].

هذا هو التوحيد...

وقال بعضهم: «المانع، هو الذي يمنع من شاء ما يشاء، وقد يكون باطن المنع عطاء» قد يمنع العبد كثرةَ الأموال ويعطيه الكمال والجمال، وقد يمنع العبد صحّة الأجسام ويعطيه الرضا عن الأحكام... المانع هو المعطي فقد يكون باطن المنع عطاءً وقد يكون في ظاهر العطاء بلاء.

كثيراً ما يطغى الإنسان في حال الغنى قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق:٦-٧].

النبي ﷺ عدَّ الغنى بلاء فقد روي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بالأعْمَالِ سَبْعاً، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْراً مُنْسِياً، أوْ غِنىً مُطْغِياً، أوْ مَرَضاً مُفْسِداً، أوْ هَرَماً مُفَنِّداً، أوْ مَوْتاً مُجْهِزاً، أوِ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أدْهَى وَأَمَرُّ» [سنن الترمذي].

نصيب المؤمن من هذا الفعل

وبعد... فينبغي لمن فهم هذا الفعل الإلهي ألا يسأل غير الله، لأنه هو وحده المعطي المانع، لا أحد يمنعك، ولا أحد يعطيك إلا الله، فالتخلُّق بهذا الاسم يعني أن تعقد الأمل على الله، وألاّ ترجو غير الله، وألاّ تغترَّ بإعطاء الإنسان، لأن عطاء الإنسان من عطاء الله.

لذلك فالنبي الكريم ﷺ كان يدعو: «اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة أكافئه بها في الدنيا والآخرة» [أخرجه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، من حديث معاذ بن جبل]، لأنَّ العطاء

من الله عز وجل، وفي ساعة غفلة ترى أن العطاء أتى من زيد أو عبيد، والمؤمن إذا مُنِع شيئاً لا يرى هذا المنع إلا من الله، ولو رآه من زيد أو عبيد لوقع في حرجٍ شديد، اللهم لا معطيَ لما منعت، ولا مانعَ لما أعطيت.

ويجب ألا تحقد على الناس لأنهم منعوا عنك شيئاً، فالله هو الذي منعه، العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله، والمنع من المانع الحقيقي وهو الله، هذا ملخَّص الملخص للبحث.

العطاء... مطلق العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله، والمنع مطلق المنع من المانع الحقيقي وهو الله، علاقتك مع الله فلا تحقد على أحد... لا تحْمَدنَّ إنساناً على فضل الله، ولا تذمنَّه على ما لم يؤتك الله، إذا منعك إنسان لا تحقد عليه هو مانع صوري، أما المانع الحقيقي فهو الله، الله هو المعطي وهو المانع الحقيقي، وأحياناً يعطي مباشرةً ويمنع مباشرةً، وأحياناً يعطي من خلال عباده، ويمنع من خلال عباده، إن وافق لك المسؤول على السفر أو لم يوافق لك فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، ولكن كُنْ على يقين أن المانع والمعطي هو الله سبحانه، ولا يقع شيء إلا بإذن الله، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور:٣٦].

ملخص البحث أنَّ المعطي الحقيقي هو الله، والمانع الحقيقي هو الله، قد يعطي مباشرةً، أو عن طريق خلقه، وقد يمنع مباشرةً، أو عن طريق خلقه، المؤمن موحِّد إن أُعطي مباشرة يحمد الله، وإن أُعطي عن طريق خلقه يحمد الله، إن مُنِع يرضى بقضاء الله، إن مُنِع عن طريق خلقه يرضى بقضاء الله، والمؤمن لا يحقد أبداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد.

حين أرسل أبو سفيان رجلاً ليقتل النبي ﷺ... لما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا الرجل ليريد غدراً وإن الله مانعي... وحين انكشف أمر الرجل قال: والله! يا محمد! ما كنت أخاف الرجال فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ثم إنك اطلعت على ما هممتُ به مما لم يعلمه أحد فعلمت أنك ممنوع. وذلك سبب سرية عمرو ابن أمية الضمري إلى أبي سفيان [سبيل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي].

وروى سعيد بن منصور في «سننه» عن عمران بن سُلَيْم، أن رجلاً انقعر -أي: مات عن مال له- فأتت ابنةُ أخته رسول الله ﷺ تسأله الميراث فقال: «اللهم من منعت ممنوع» أي: من حرمت فهو محروم لا يستطيع أحد أن يعطيه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

سبحانك فإنه لا يذِلُّ من واليت ولا يعِزُّ من عاديت... أي أنْ ليس لنا إلا الله عز وجل، فلا تبذل ماء وجهك أمام أحد، كن عزيزاً، لا تبذل ماء وجهك إلا أمام ربِّك، لا تبذل دموعك إلا لله، إلا في السجود لله عز وجل، لا تبكِ أمام الناس لن يعطوك ولن يمنعوك، المانع هو الله، والمعطي هو الله، صُنْ ماء وجهك، احفظ ماء وجهك، لا تتضعضع لغني، تضعضع لله عز وجل، تذلل له، مرِّغ جبهتك في أعتابه، أما أمام الناس فكن عزيز النفس.

هذا هو ملخص البحث، واعلم علم اليقين أن الله عز وجل مانع بمعنى يمنعك من كلِّ ما يؤذيك، يحفظك، ويمنعك من كل ما يطغيك، ويمنعك تأديباً لك، فهو مانع بالمعاني كلِّها، وإذا أراد أن يمنعك مما يؤذيك ألهمك أسباب الحفظ والمنع، ووجهك وجهة الخير وقذف في قلبك الرضا.

النفع والضر

يقول تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل:٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم:٣٣].

الله تعالى يضرُّ لينفع، ويذلُّ ليعز، ويمنع ليعطي، ويخفض ليرفع، ويقبض ليبسط، ولو كُشف الغطاء لهذا الإنسان الذي ساق الله له من الشدائد ما ساق -والله الذي لا إله إلا هو-، لَذاب كما تذوب الشمعة إذا أُشعِل فتيلها، حُبّاً لله عز وجل. ولو عُرفت حكمة الشدائد التي يسوقها الله لعباده، لذاب الإنسان حباً واستحياءً من الله عز وجل، كما تذوب الشمعة إذا أُشعل فتيلها.

يقول التابعي الربيع بن خثيم: والله لو كُشِف الغطاء، ما ازددت يقيناً. وهذا الإيمان وهذا الشعور هو أحد أكبر الأسباب في سعادة الإنسان.

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا ... فليس لي معدِلٌ عنهم وإن عَدَلُوا
وإن فتَّتوا في حبهم كبدي ... باقٍ على عهدهم راضٍ بما فعلوا

شعور الرضا أيها القارئ الكريم لا يوصَف؛ أي أن ترضى عن الله.

عن بعض السلف: إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحبَّ من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه، وقال أبو الدرداء: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر، وقال عمر رضي الله عنه: ما أبالي على أيِّ حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء، وكان الفُضيل يقول: إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى.

لا تُصدِّق أن يكون الامتحان في الرخاء؛ إنما الامتحان في الشدة. ولا يظهر إيمانك إلا في الشدة، ولا ترقى عند الله إلا في الشدة، لذلك فالمؤمن يُوطِّن نفسه على أن يُمتحَن. وقد سُئل الإمام الشافعي: أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تُمكَّن قبل أن تُبتَلى، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

في سورة القلم قصَّة أصحاب الجنَّة، قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [القلم:١٧-٣٣].

فأصبحت كالصريم، أي: تلفت وانتهت. نتيجة ما أصابها من الصقيع ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾، القصة طويلة ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ ليس هذا بستاننا، فلما تأكّدوا من الأمر قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فلضَعف إيمانكم بالله بَخِلتم؛ فلمّا بَخِلتم عوقِبْتُم ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ انتهت القصة، والآن إلى التعقيب: قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾؛ أي إنه؛ أي عذاب أسوقه للعباد؛ فمن أجل هذا، ومن أجل أن أردَّهم إليّ، ومن أجل أن أحملهم على الصواب، ومن أجل أن أحملهم على التوبة، ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾، والمؤمن الصادق يعتقِد اعتقاداً راسخاً أنَّ كُلَّ شِدَّة وراءها شَدَّة إلى الله، وأن كل مِحنة، وراءها مِنحة، وأن كُلَّ شيء وقع أراده الله، وأنَّ كلَّ ما أراده الله وقع، وأنَّ إرادة الله متعلِّقة بالحكمة المطلقة، وأنَّ حكمته المطلقة متعلِّقة بالخير المطلق. ومعنى الحكمة المطلقة؛ أنَّ الذي وقع لو لم يقع، لكان الله ملوماً؛ ولكان عدم وقوع الذي وقع نَقْصاً في حكمة الله عز وجل، وحاشا لله جل جلاله.

لذلك يقولون: لكلِّ واقعٍ حكمة، فطالما أنَّ هذا الشيء وقع؛ فمِن ورائه حكمة ما بعدها حكمة، ولو أنَّ الذي أوقعه كان أحمقَ أو مجرماً، ولو أنَّ الذي أوقعَه لم يكن حكيماً، ولو أنَّ الذي أوقعه كان شريراً، ولو أنَّ الذي أوقعه كان جاهلاً؛ لكان الأمر مختلفاً ولكن لكلِّ واقعٍ حكمة، لأنه لا يمكن أن يقع في كون الله إلا ما أراده الله، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، هذه الفكرة وحدها، يمكن أن تنفِيَ عن الإنسان كلَّ أمراضه النفسية. يعني إذا كان هناك صحّة نفسيّة ففي عالم الإيمان كلُّ السلامة النفسيَّة في علاقتك مع الرحمن الرحيم، مع الحكيم، ومع العليم، علاقتك مع ربٍّ كريم، بيده كلُّ شيء، ويعلم كلَّ شيء، ولا تخفى عليه خافية.

لنمعن النظر معاً؛ فمتى يُنافق الإنسان؟ متى يرائي؟ ومتى يخاف؟ ومتى ينهار؟ ومتى يَخْنع؟ ومتى يقبل الضيم؟ إذا شعر أن إنساناً يمكن أن ينفعه، أو يمكن أن يضرَّه،

أمّا إذا أيقن أنه لا ينفع إلا الله، ولا يضرُّ إلا الله، عندها يرفع رأسه ويقول: لا، بملء فمِه، واعتقدْ أنَّ الله لن يُسلمه، ولن يتخلّى عنه، وأنَّ كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرِّب أجلاً. فكلُّ أسباب القوّة والمنَعة، وكلُّ أسباب العزَّة والجُرأة، تتأتّى من إيمانك أنه لا ينفع ولا يضرُّ إلا الله، ألا يكفيك قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر:٢].

ألا يكفيك حديث رسول الله الذي روي عن ابن عَبَّاسٍ قالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسولِ الله ﷺ يوماً فقالَ: «يا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سَالتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله، واعْلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بشيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه الترمذي].

يقول علماء اللغة: «إن الضُّر ضد النفع»، واللهُ جل جلاله يضرّ؛ لكن ينبغي ألا يغيب عن ذهنك كيف يكون ذلك، فمثلاً إنَّ الأب الطبيب الجراح يُمسك بالمِبْضَع، ويفتح البطن، ويخرج الدم، ويربط الأوعية، ويأتي إلى هذه الزائدة -التي جعلته يكاد يخرج من جلده من شدة الألم- ويستأصلها، ثم يُضَمِّد الجِراح. أب طبيب جراح مُفعم قلبه بالرحمة، وممتلئ عقله بالعلم، أصيب ابنه بالتهاب الزائدة، ماذا يفعل معه؟ يستأصلها؛ استئصالها مؤلم، فهناك فتح بطنٍ وتخدير، وبعد انتهاء المخدِّر هناك آلام، لكنَّ هذا الأب يفعل كلَّ ذلك لصالح ابنه. لا يمكن أن نفهم الضّرَّ من الله إلا هكذا، وأيُّ فهمٍ آخر قد يؤدي إلى الكفر.

إنَّ المؤمن مستسلم وصابر لحكم الله. وحينما يصبر المؤمن لحكم الله عز وجل فإن الله جل جلاله يتجلَّى على قلبه بالسكينة. فالله سبحانه وتعالى يُفقر؛ وقد يكون الإفقار هو عَيْن العطاء. والله سبحانه وتعالى يُمرض؛ وقد يكون في المرض الصحة النفسية التامة. والله سبحنه وتعالى يخيف؛ وقد يكون في الخوف الالتجاء إلى الله عز

وجل. والله حكيم يعلم كيف يداوي، ويعلم أسباب الألم، ويعلم ما الذي يحمل عبده على التوبة.

أنا أعرف رجلاً مُتَفلِّتاً تفلتاً كاملاً من منهج الله، وعقيدتُه فاسدة، ويستهزئ بالدين، ولا يُطبق شيئاً من أوامر الله عز وجل. وزوجته كذلك. أصيبت ابنته بمرض عُضال وخبيث في دَمها، فقام ولم يقعد، وأنفق كلَّ ما يملك، واضُطرَّ إلى بيع بيته، وأخذها إلى بلاد غربية ليعالجها لأنه متعلق بها تعلُّقاً شديداً، ثم جاءه خاطر، أنْ يا فلان لو أنك تُبت إلى الله أنت وزوجتك، لشفاها الله، فهذا الخاطر حمله على أن يتوب؛ فحَجَّب زوجته، وبدأ يصلي، وحضر مجالس العلم فشفا الله ابنته. وبعد سنوات عدة -هو زميل لي في العمل- زارني في مركز عملي ودعاني لحضور عقد قران، فقلت له مداعباً: أهي هي؟ فقال: هي هي، هي التي مَرِضت وردَّت أباها وأمها إلى الله، هذا المرض كالضيف؛ جاء فحَمل أباها وأُمها على التوبة، ثم انسحب.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾ لا يمكن أن نفهم عذاب الله إلا بهذه الطريقة، العذاب ضيف، ولكنه ضيف مؤلم، يدخل ويخرج وقد حَمَلَ الإنسانَ على التوبة. لكن المصائب أنواع، فهناك مصيبة قَصم، وهناك مصيبة ردْع، وهناك مصيبة دفع، وهناك مصيبة رفع، وهناك مصيبة كشف. فالأنبياء إذا ساق الله لهم المصائب، فهي لكَشف حقائقهم التي تفوَّهوا بها. والمؤمنون إذا ساق الله لهم المصائب، فلِدفْعهم إلى بابه، أو لرفعهم إلى جنابه. أمَّا الكفار إذا ساق الله لهم المصائب، فإما قصماً إنهاءً لحياتهم، وإما ردْعاً إذا كان فيهم بقية خير؛ فالقصم والردع للكفار، والدفع والرفع للمؤمنين، والكشف للأنبياء، ولكلِّ مصيبة حكمة ما بعدها حكمة.

لو أمعنت النظر في أب أهمل ابنه، يأكل كما يريد، وينام إلى أي وقت يريد، ولا يدرس ولا يذاكر، ويصاحب رفقاء السوء، هذا الابن سيكون في مؤخِّرة الرَّكب. أمّا الأب المربي الذي حمل ابنه على الدراسة، وضبط سلوكه، وقسا عليه أحياناً؛ فقد يكون

هذا الابن شخصية لامعة في المجتمع. هذا الابن عندما رأى نفسه في أعلى مقام، وذا مكانة اجتماعية، ويحمل شهادة عليا، وله بيت وزوجة، معززٌ ومكرّم، ألا يدعو لأبيه طوال حياته؟ ألا يقول: جزى الله عني أبي كلّ خير؟ لولا شِدَّتُه لما كنت فيما أنا فيه. لذلك أيّ إنسان على الإطلاق، يُلخص علاقته بالله كلّها يوم القيامة بكلمة: الحمد لله رب العالمين. قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس:١٠].

يُروى أن سيدنا العباس كان مقيماً في مكة، وكان قد أسلم سراً، وبقي عين النبي ﷺ. تروي بعض كتب السيرة أن النبي ﷺ أمر أصحابه ألا يقتلوا عمَّه العباس، ثم إن الحقيقة انكشفت، فبعضهم ظن أن النبي مِن باب التعصب ينهى أن يُقْتَلَ عمُّه؛ لكن النبي ﷺ يعلم أن عمه قد أسلم، ويعلم أيضاً أنه إذا ذكره كُشف أمرُه، وإذا لم يُشارك عمه في المعارك كشف أمرُه.

قال ابن إسحاق: وحدثنا العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ: إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً ولا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباسَ بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرَهاً. قال: فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس؟! والله! لئن لقيته لألحمنه السيف - قال ابن هشام: ويقال لألجمنه السيف - قال: فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص -قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص- أيُضرب وجه عمِّ رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفِّرها عني الشهادة فقُتل يوم اليمامة شهيداً [أخرجه الحاكم في «المستدرك وابن هشام في السيرة النبوية»].

فالإنسان إذا توهَّم أن الله يسوق الشدائد تَشَفِّياً فقد تنكَّب سبيل الإيمان وساء ظنه بالله؛ فالله سبحانه أسماؤه حسنى، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ ﴾ [إبراهيم:٨].

ولكن يقول الله عز وجل: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧ ﴾ [النساء:١٤٧].

دعا بعضهم فقال: يا رب امنحني عيون التوحيد، حتى لا أطلب دفع الضر إلا من جنابك.

وبعض الأدعية تقول: اللهم صُنْ وجوهنا باليسار -بالغنى- ولا تبذلها بالإقتار؛ فنسأل شر خلقك، ونُبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت مِن فوقهم ولي العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء؛ فامنحنا اللهم عيون التوحيد حتى لا نطلب دفع الضرِّ إلا من جنابك، ولا نقف إلا عند أعتابك، أنت على كلِّ شيء قدير.

الإنسان عندما يتضعضع أمام إنسان ليتلافى الضّرّ، فقد أشرك. وحينما يمتلئ قلبه حباً لفلان لأنَّ خيراً أصابه منه، فقد أشرك. والحكمة أن تعتقد أنَّ أحداً في الكون ليس بإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك.

ونفع الله لعبده لا يقتصر على الدنيا وإنما على الدنيا والآخرة؛ فالذي يمنحك الصحة ينفعك، والذي يمنحك الغنى والسعادة والحياة والهداية والتقوى ينفعك، وهو الذي أوصل كل هذه النِّعَم إلى خلقه، ووصل نِعَمَ الدنيا بنعَمِ الآخرة؛ فالنفع يشمل منافع الدنيا، ومنافع الآخرة. ألم يقل النبي ﷺ: «اللهم! أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي» [رواه مسلم من حديث أبي هريرة]، معنى ذلك أن الدنيا تُكمل الآخرة، والآخرة تكمل الدنيا. والمؤمن يطلب حسنة الدنيا والآخرة، ومن أكثر الأدعية التي دعا بها النبي ﷺ.

عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَبِيُّ ﷺ يقولُ: «اللهمَّ رَبَّنا آتِنَا في الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [رواه البخاري ومسلم].

ما الذي يمنع أن تسأل الله حسنة الدنيا وحسنة الآخرة؟

والإنسان عندما يستقيم على منهج الله، يهديه الله سُبُلَ السلام. فسبحانه لا يُرضيه أن يُعذِّبك. تصوّر حالة أبٍ، له ابن يحبُّه حباً لا يُوصف، ووجد معه خمساً وعشرين ليرة، فيقول له: من أين لك هذه؟ فيقول: أخذتها من رفيقي وهو لا يدري (يعني سرقها)، هذا الأب العاقل ألا يجد نفسه مضطراً إلى أن يؤدِّب ابنه؟ أنا والله أعتقد أن الأب الرحيم حينما يؤدب ابنه، يتألم عشرة أضعاف آلام ابنه، ومع ذلك فلا بد من إيقاع العقوبة، أو التجربة المؤلمة. فالإنسان الرحيم يرى من الضرورة أن يوقع في الذي يحبُّه ألَماً رادعاً، لا أدري مَن مِنَ القراء الكرام ذاق هذه التجربة، وهو أن يؤدِّب ابنه ويتألَّم أشدَّ من أَلَمِ ابنه لرحمته. فالله عز وجل لا يُرضيه أن يُذِلَّك، ولا يرضيه أن يُفقِرك، ولا يَرضيه أنَ يحبِس حرِّيتك، ولا يُرضيه أن يُمرضك، وأن تكون في مؤخِّرة الركب. الإذلال، والإفقار، وحبْس الحرية، والخوف، والهم، والحزن؛ هذه لا تُرضي الله عز وجل؛ لأن الله «حيي كريم يستحيي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين» [رواه أبو داود والترمذي واللفظ له من حديث سلمان الفارسي، والحاكم] وفي رواية للحاكم عن أنس ابن مالك: «ثم لا يضع فيهما خيراً»

لكنَّ الله سبحانه وتعالى لحكمته البالغة، لا بدّ من أن يسوق لعَبده العاصي بعض الشدائد. مثلاً زارني رجل عَقِب خروجي من المسجد ذات يوم وقال لي بالحرف الواحد: أنا يا أستاذ لقد تربيت عند رجل مُلحد، وذلك أنه كان يشتغل عنده. فكان يقول له: ليس هناك إله، وليس هناك آخرة، وافعل ما تشاء. وبناءً على كلامه؛ ما من معصية تعرفها إلا فعلتها، عدا القتل فلم أقتل، أما ما سوى ذلك فقد قارفت يداي كلَّ شيء! والأموال بين يديَّ كثيرة، واللذائذ وفيرة، والمباهج متلاحقة، وأنا منغمس في كلِّ المعاصي والآثام إلى قِمَّة رأسي؛ قصة طويلة جداً، ولكني أسوقها ملخَّصة للقارئ الكريم، ثم قال:

وفجأة سُحب البساط من تحت قدميّ، خُتم المحل من قِبَل السلطات، أودع شريكي في السجن بتهمة كبيرة جداً. وانقطع دخْلي فجأةً، وعليّ ديون كنت أسددها من دخْل المحل، وكُشف أمري، فاضطررت إلى أن أعمل عملاً دون مكانتي بكثير، كي أُؤمن طعامَ يومي، وساق الله لي الأمراض والشدائد، وقد وصف لي حالته وكأن مطرقة على رأسه، وقال أخيراً: والله لا أملك ثمن الدواء، ولا ثمن الطعام، وأذلني الله ذُلاً شديداً، ودخلت المسجد أول مرة بحياتي كي أُصلي، وتُبت إلى الله، واصطلحت معه. والله بعدما خرج دمعت عيناي، وقلت: يا رب ما أحكمك وما أرحمك، لو تركت هذا الإنسان مكباً على وجهه إلى نهاية عمره ضائعاً تائهاً، لاستحقَّ النار؛ ولكن من رحمتك به أنك سُقت له هذه الشدائد، حتى حملْته على التوبة فأنت الرحمن الرحيم سبحانك.

وكلَّما كان الانحراف أشدَّ كانت الضربة قاسية. فتجد أحياناً إنساناً بنظرة قاسية يرتجع، والآخر بالكلام الناصح، والآخر بضرب العصا، وهناك من لا ينفع معه إلا الضرب المبرّح، والآخر بالتعذيب، فكلما كانت لديه حساسية ورِقَّة كان العقاب أخفَّ، قال أحدهم: يا رب عصيتك فلم تعاقِبني! فوقع في نفسه أن قد عاقبتك ولم تدرِ؛ ألم أحرِمك لذة مناجاتي؟ فهناك من إذا وجد نفسه في صلاته غير خاشع، يشعر وكأنه عوقب عقاباً أليماً. وهناك من لا يهتزُّ حتى تأتيه المصيبة الكبيرة لعله يتَّعظ.

قد يركن الإنسان إلى الأغنياء والأقوياء، وقد يركن إلى من يظن أنه ينفعه، وينسى ربه. أما من كان في قلبه بصيص إيمان فلا يَرْكن إلا إلى الله، لأنه لا يرى إلا الله عز وجل وحده ينفعه، ومن بعض العقاب الإلهي، أن يسوق الله لك بعض الخير، عن طريق بعض عباده، فتَركن إليهم، وتُحبهم وهم مُسَخرون لك فاحذر الزيغ، وقل: واجعلني نافعاً لجميع عبادك، راضياً عنك في جميع مُرادك، إنك على كل شيء قدير.

قال بعض العلماء: «لا ضرَّ ولا نفعَ ولا شرَّ ولا خيرَ إلا بإرادة الله»، هذا الكلام لو نعقِله حقَّ العقل، ونصدِّقه حقَّ التصديق، لأُزيلت من أنفسنا كل المتاعب، وكلُّ الهموم، ولذلك يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨].

النّفع من الله، والضّرّ من الله. وها نحن في الأسطر الآتية نلج عتبة موضوع جديد من خلال سؤال ملح علينا، لكن سبب الضر مِمَّن؟ فقد علمنا أن الفاعل هو الله. مثلاً لو أصدر الأستاذ قراراً بترسيب طالب، فالذي أصدر هذا القرار هو المدرِّس أو المدير، لكن لماذا رسَّبه؟ السبب من الطالب. لذلك ينبغي أن تُراعَى الحقيقة في هذا الموضوع، فيجب أن تنسُب الضر لنفسك من حيث السبب، ويجب أن تنسب النفع إلى الله عز وجل وحده، والدليل وله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

قال: ﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ ﴾ ولم يقل: وإذا أمرضني؛ لأن أصل المرض خروج عن منهج الله، والآية الكريمة: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء:٧٩].

فالحسنة من الله فعلاً، ومن الله تفضلاً. والسيئة من الله فعلاً، ومن العبد سبباً. لذلك عُزيت السيئات للإنسان.

والنقطة عميقة الدلالة أنّ كلَّ عملٍ منسوب إلى الله، حتى فاعلية الأشياء منسوبة إلى الله، فالله تعالى لو لم يشأ للسكين أن تقطع لما قطعت، لذلك فالنار التي وُضع بها إبراهيم لم تحرِقه. ويجب أن نعتقد أن فاعلية الأشياء بيد الله، لذلك فإن علماء التوحيد لخَّصوا هذه الحقيقة بكلمة: «أن الأسباب هو ما يحصل الشيء عندها لا بها»، أي الأشياء تفعل فعلتها بمشيئة الله لا بقوة فيها، حتى الدواء لا يفعل فِعله حتى يشاء الله، لكلِّ داءٍ دواء فإذا أصاب الدواء الداء، بَرَأ بإذن الله، أجل، حتى الدواء لا يفعل فِعله إلا بمشيئة الله. وقس عليه كلَّ الأشياء.

يقول الإمام الرازي: إن الضار النافع وصفان: إما أن يُعتبرا في أحوال الدنيا، أو في أحوال الدين. أما الأول فهو أن الله تعالى مُغنٍ هذا، ومُفقر ذاك، ومعطٍ الصحة لهذا

والمرض لذاك. وأما في أحوال الدين فهو يهدي هذا إذا شاء الهداية، ويُضِل ذاك إذا أصر على الضلال، تطلب الهدى فيَهديك، وتطلب الضلال فيُضلك.

يقول أحد العلماء: «لا يصيب عبداً ضرٌّ ولا نفع ولا خيرٌ ولا شرٌّ إلا بمشيئة الله، وقضائه وقدرته؛ فمن استسلم لحكمة الله، عاش في راحة، ومن أبى وقع في كل آفة»

نصيب المؤمن من معرفته بمن بيده النفع والضر

وختاماً فمن علم أنَّ النَّفع والضّرّ بيد الله وحده فيجب أن يكون نافعاً لعباد الله، وينبغي ألا يتماسَّ بالمنحرفين لئلا يصيبه منهم الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

إنَّ المؤمن ينبغي ألا يرجو أحداً، وألا يخشى أحداً، وأن يكون اعتماده على الله كلياً. ومَنْ عَرَفَ أنَّ الله مولاه، وقد تفرَّد سبحانه بالإيجاد، وتوحَّد في الإنعام، فوَّض أموره إليه، فعاش في راحة، وبذل النصح لكلِّ أحدٍ، ولم يجد في قلبه غِشاً، ولا خيانةً لغيره.

ومن علم أن الله وحده يضرّ وينفع فوَّض أمره كلَّه إلى الله، واستسلم لله عز وجل، فكانت المشاعر المُسعِدة التي هي ثمرة الإيمان بالله عز وجل.

فالله خير حافظاً

قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

من معاني الحفظ

الحافظ في اللُّغة هو: الحارس، وحفِظَه حفظاً، أي: حرسه حراسةً، وحَفِظَ المال: رعاه، وحَفِظَ القرآن: استظهره، وهذا حافظٌ من قومٍ حُفَّاظ، أي: من الذين رُزِقوا حفظ ما سمعوا.

والحقيقة أنَّه من نِعَم الله الكبرى على الإنسان أن تكون له حافظةٌ قويَّة أو ذاكرةٌ قويَّة، لأنَّ الإنسان إذا استمع كثيراً ونسي، فماذا يستفيد ممَّا سمع؟! حينما تجلس في مجلس، أو حينما تُلقي كلمة، أو حينما تتحدث إلى صديق، فإذا خانتك ذاكرتك فلم تحفظ النصوص ولا القصص، ولا الوقائع، ولا الأفكار، ولا التحليلات، ولا

التعليقات كيف تستطيع أن تصول وتجول؟ إنَّ نعمة الذاكرة القويَّة من أعظم النعم على الإنسان، إلا أنَّ العلماء يرون أنَّ الذاكرة متعلِّقةٌ بالاهتمام، وهذا تعلُّقٌ عادل فالشيء الذي تهتمُّ به تحفظه.

ادخل إلى محلٍّ تجاري فيه خمسون ألف قطعة، وكلُّ قطعة لها اسم ولها قياس ولها سعر، ولها وضع معين، ولها مصدر، ولها منشأ، فتجد صاحب المحل -لأنَّ رزقه متعلِّقٌ بهذه البضاعة- يحفظها جميعاً، يحفظ حالاتها وأنواعَها، وقياساتها، ومصدرها، ومنشأها، وأسعارها، كلُّ ذلك في ذاكرته، بل قد يقول أحياناً لغلام في المحل: اصعد تجد قطعةً واحدةً بقيت من هذا الصنف فائتني بها... معنى ذلك أن المحل كلَّه في ذاكرته.

فقل لي: ما الذي تهتمُّ له؟ أقُل لك: إنك تحفظه، ففي ذلك عدل، فقد قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى:٦-٧].

كان ﷺ إذا أنزل الله عليه سورةً من كتاب الله حفظها من أولِّ مرة، والذي يحفظ فهذا دليل على أنَّه مهتمٌّ بما يحفظ، فالأشياء التي لا تعنيك لا تحفظها بل إنك تنساها، بل إن الذاكرة أمرها عجيب، فالذاكرة كما قال لي بعضُ الإخوة العلماءِ المختصين في علم التشريح والفيزيولوجيا -علم وظائف الأعضاء-: «إنَّ مكان الذاكرة في الدماغ يتسع لسبعين مليار صورة، وهذه الصور مبوَّبة ومصنَّفة، والذَّواكر أنواع كثيرة لا حصر لها منها الذاكرة السمعية، والذاكرة الشمية، والذاكرة البصرية، وذاكرةٌ للألوان، وذاكرة للوجوه، وذاكرة للأسماء، وذاكرة للأرقام، وإنَّ هذه الصور مرتَّبة ترتيباً زمنياً»، فالذي تحتاج إليه كلَّ يوم موضوع في أقرب مكان، والذي قلَّما تحتاج إليه يُوضَع في مكان متوسِّط، والذي نادراً ما تحتاج إليه في مكان بعيد، والذي لا تحتاج إليه أبداً قد يُمحى من الذاكرة، بل إنَّ طريقة الحاسوب في قراءة المعلومات تقليدٌ لطريقة الذاكرة في استرجاع المعلومات.

أنت إذا شممت رائحةً تحاول أن تتعرَّف إلى هذه الرائحة، فما الذي يحدث في الذاكرة؟ إنَّ أثر هذه الرائحة يمرُّ على كلِّ ذاكرات الشَّمِّ، أكثر من عشرة آلاف ذاكرة

شميَّة، فحيثما يكن التوافق تقل: إنها رائحة الياسمين، أو الفلّ مثلاً... وإلى آخره من الروائح.

الذَّاكرة وحدها من آيات الله العجيبة الدَّالة على عظمته، وأنت تتذكَّر الشَّيء الذي تهتمُّ به، وهذا عدلٌ من الله عز وجل.

قد تجد إنساناً كثير النِّسيان في موضوعات لا تعنيه، أمَّا في الموضوعات التي تعنيه فكأنَّ ذهنه مسجِّلة، سريعاً ما يحفظ، فلذلك إذا اهتمَّ أحدنا بكتاب الله عز وجل يحفظه، وإذا اهتمَّ أحدنا بالحديث الشريف يحفظه، وإذا اهتمَّ أحدنا بالمعاني المتعلقة بكتاب الله تعالى والتي هي كنزٌ ثمين يحفظها.

وقد يقول أحدهم: والله ما سمعت معنىً متعلِّقاً بكتاب الله إلا حفظته، وهذا الإنسان نفسه قد ينسى أشياء واضحة جداً وقريبة جداً لأنها لا تعنيه، فالمؤمن مشغول بموجبات الإيمان.

والقاعدة: اكتب أجمل ما قرأت، واحفظ أجمل ما كتبت.

لذلك، فالإنسان أحياناً يأتي إلى مجلس علم، فلماذا يطرب لما سمع؟ لأن هذا الذي أُلقي شفاهاً من الذَّاكرة أجمل ما كُتب، والذي كُتب أجملُ ما قُرئ، والذي قُرئ أجملُ ما سمع... فهناك كلام يسمع، وهذا المسموع كلام فيه الشيء الحسن، فيه أيضاً كلام يُلقى على عواهنه، ولكنَّ المكتوب أرقى لأنه مدروس وهو خلاصة المسموع، وخلاصة المكتوب يُحفَظ.

فأحياناً تجد إنساناً يصغي إلى درس إصغاءً تاماً، لأنَّ الأمور كلَّها التي تُطرح في الدرس هي أجملُ ما تحويه ذاكرة المتحدِّث، وهي أجمل التحليلات، وأجمل التعليقات، وأجمل الإرشادات.

فقد حدثني أخٌ قال لي: كنت في أمريكا وهم الآن يسجِّلون الكتب الثمينة على أشرطة بصوت يحبُّونه، فالإنسان أحياناً يكون لديه وقت ميّت؛ وهذا تعريف للوقت

الضائع بالتعبير الاقتصادي، وهذا الوقت هو وقت انطلاقه بمركبته إلى عمله، ووقت الرياضة أيضاً، فأصبح هناك بين كلِّ الناس سلوكٌ شائعٌ، وهو أن يمضي هذا الوقت في طريقه إلى عمله وفي عودته من عمله وفي ساعات الرياضة في سماع شيءٍ ثمين، وهذا الشريط المسجَّل من نعمة الله على الناس، فيمكنك أن تستمع إلى درس علم، أو إلى تفسير، أو حديث،، أو إلى درس سيرة، وأنت في بيتك، وأنت تعمل، وأنت في مركبتك، وأنت في السفر، المؤمن الموفَّق لا يضيِّع ثانيةً من وقته، فبإمكانه حتى في الأوقات الميتة أن يستفيد منها في طلب العلم.

قالوا: هناك رجلٌ حافظُ العين، أي: لا يغلبه النوم، لأنَّ العين تحفظ صاحبها، فهو أثناء جلوسه في مكان، يكون هذا المكان تحت سيطرة عينيه، أمَّا في الليل فالمكان يصبح تحت سيطرة أُذنيه، أرأيتم إلى نعم الله عز وجل، لذلك أصغِ بسمعك للآيات التي قال الله تعالى فيها: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:٧١-٧٢].

﴿ٱلَّيْلَ﴾ إن الحاسة الأولى فيه السمع... لذلك قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ والعكس.. الحاسة الأولى في ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ هي العين ولذلك قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أنت في النهار مسيطرٌ بعينيك... وفي الليل مسيطرٌ بأُذنيك، فإذا دخلت فويسقة إلى بيتك -الفأرة- وقد سماها النبي ﷺ فويسقة [انظر البخاري (٣٣١٦)، وسنن أبي داود (١٨٤٨)]، وماتت تحت السرير فلا تراها عينك ولا تسمعها أُذنك، الحاسة الثالثة التي تكشفها لك هي حاسّة الشّمّ، فأنت بالحواس الخمس مسيطِرٌ على العالم الخارجي، والآلات الحديثة استطالةٌ للحواس... فالمجهر استطالةٌ للعينين، وكذلك المنظار.

فمن منكم اطّلع على كتاب الإحياء الذي تركه الغزالي رحمه الله تعالى، فالإحياء يعدُّ أول كتاب في علم النفس الإسلامي، ففيه أحوال النفس، وأمراض النفس،

وفضائل النفس، ومناهج لتحلية النفس بالكمال، وهو من أروع ما كُتب، ولكن هل تصدِّقون أن الإحياء كتبه الإمام الغزالي من ذاكرته وهو في بلاد الشام؟! وكذلك زاد المعاد على ما فيه من التحريرات الفقهية والدراسات الحديثية ألَّفه ابن القيم في حال السفر لا الإقامة، والقلب -كما قال- بكل وادٍ منه شعبة وليس في حوزته المصادر التي ينقل منها ما يحتاج إليها.

إذاً من أوتي حافظةً جيدةً فقد أوتي خيراً كثيراً... وقد علَّمونا ونحن في الجامعة أنَّ الذكاء شيء والذاكرة شيء آخر، فما كلُّ ذكيٍّ ذا ذاكرةٍ قوية، وما كلُّ ذي ذاكرةٍ قوية ذكياً... قالوا: إلا أنَّ هناك منطقةً مشتركةً بين دائرتين متداخلتين وهذه المنطقة هي القاسم المشترك بين الذكاء والذاكرة، فكلُّ إنسان يتمتَّع بذكاء فلا بد من أن يستعين بذاكرة، وكلُّ إنسان عنده ذاكرة جيدة لا بدَّ من أن يكون على شيءٍ من الذكاء، إلا أنَّ الذاكرة شيء، والذَّكاء شيءٌ آخر.

قيل مرةً لشيخ: إن فلاناً حفظ كتاب كذا. فتبسَّم وقال: زادت نسخُهُ نسخةً. فالحفظ وحده لا يقدِّم ولا يؤخِّر، لكن العقل والتدبُّر والفهم العميق هو الذي يرقى بالإنسان.

الحافظ هو الذي يثبّتكَ على الطريق البيِّن المستقيم الذي لا ينقطع، ويحفظك على المواظبة عليه، أما الحَفَظَةُ الذين يحصون أعمال العباد ويكتبونها عليهم هم من الملائكة، والمحافظة: المواظبة على الأمر.

المحافظة تصنع تراكم المعلومات أو غيرها، والإنسان بلا تراكم لمعلوماته لا يحقِّق شيئاً.

عَنْ عائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَدِّدوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إلى الله أَدْوَمُها وإنْ قَلَّ» [صحيح البخاري].

فلو ثَبَتَّ على المجيء لحضور درس ما من دروس العلم لتراكمت لديك الحقائق، وإذا ثبتَّ على صلاة أو على صدقة، أو ثبتَّ على ذكر، أو على تلاوة... فأحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ.

المحافظة... أي: المواظبة على الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

وقيل: المحافظة هي المراقبة، والمحافظة الذَّبُّ عن المحارم، أي: الدفاع عن المحارم، والمحافظة على العهد: الوفاء به والتمسُّك بالودِّ... هذه اللغة، فإذا قلنا الله جل جلاله هو الحافظ، فقد حفظ خلقه وعباده من كلِّ سوء، وحفظ عليهم ما يعملون، وحفظ السموات والأرض بقدرته... ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ فقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

أحياناً يقول أحدهم: هذا الأمر فوق طاقتي، لا أستطيع أن أستوعبه، ولا أن أُحيط به، ولا أن أديره فهو يحتاج إلى خمسة أشخاص لإنجازه، ولكن الله جل جلاله يقول: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

وقد قال تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

ويقول الشاعر:

وإذا العنايـــة لاحظتــك عيونهـــا نَــمْ فالمخـــاوف كلُّهُـــنَّ أمـــانُ
واصـــعد بهـــا العنقـــاء فهـــي حبالـــه واقتـــدْ بهـــا الجـــوزاء فهـــي عنـــان

وقيل: قم -للعمل- فالمخاوف كلُّهنَّ أمان.

إذا حفظك الله عز وجل سخَّر لك كلَّ شيء؛ حتى أعداؤك هم في خدمتك، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فالإنسان قد يُحكم الأقفال... كما حدثوني عن أحد الصّاغة، وهو يُعَدُّ الأول في صنعته وليس له شبيهٌ، قام بصنع صندوقٍ من الحديد بحيث لا يمكن أن يُفتح، وبقدرة قادر دخل اللصوص وفتحوه وأخذوا كلَّ ما فيه... فهو قد ظنَّ أنَّ هذا الصندوق ﴿خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾.. لكن الله هو خير حافظٍ... ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

الإنسان كثيراً ما يأخذ بالأسباب إلى حدّ غير معقول ويعتمد عليها، ينسى أن الله هو خير حافظاً فيُؤتى من مأمنه، يُؤتى وهو في أعلى درجات اليقظة، يُؤتى الحَذِر من المنطقة المطمئن إليها، وهذا من آيات الله فقد قيل: عرفت الله من نقض العزائم... إنه من الواجب عليك أن تأخذ بالأسباب وأن تأخذ الاحتياط، ولكنَّ الواجب أيضاً أن تعتمد على الله الواحد القهّار، أن يكون اعتمادك على الله حقاً مع الأخذ بالأسباب.

أحياناً يقولون: قمنا بعمل مراجعة كاملة على السيارة فاطمَئِنّ، فتقطعه في الطريق، وأحياناً تُجرى عليها مراجعة كاملة ويقول صاحبها أنت يا رب الحافظ؛ فاعقل وتوكل. فيجب أن تأخذ بكلِّ الأسباب وألا تعتمد في حفظها لك إلا على الله عز وجل.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ﴾ إعراب حافظاً: تمييز... أي: اللهُ خيرٌ، خيرٌ معطياً، خيرٌ آخذاً، خيرٌ حافظاً و﴿خَيْرٌ﴾ لفظٌ مبهم، لولا التمييز لصدق على أشياء كثيرة ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: حفظٌ مطلق.

قد يسافر الإنسان؛ فهل في الأرض جهةٌ يمكن أن ترافقه وأن تخلفه في بيته وسفره معاً وفي وقت واحدٍ؟ مستحيل ذلك إلا على الله، فإذا سافر الإنسان يقول: اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل.

وقد يتعرَّض طفل صغير لحادث؛ كأن يقع على رأسه إبريقٌ من الشّاي السّاخن ويشوّه وجهه، وكلما ألقى الأب على ابنه نظرةً شعر بحرقةٍ في قلبه، فالإنسان أثناء سفره يفكِّر هل أهله بخير، ويضرع إلى الله ألا تكون هناك مشكلة لديهم، ويسأل هل هم مستقرون في البيت، وهل حدث لهم حادث مزعِج... فمن الذي يحفظ أهلك في

غيبتك؟ إنَّه الله جل جلاله. فأنت إذا سافرت حتى تكون مطمئناً فوّض الأمر إلى الله وادعُ بهذا الدعاء: اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا.

كلام ربنا كلام رائع جداً: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ يحفظ لك صحّتك، ويحفظ لك مالك... وقد يسافر المرء إلى بلد بعيد ومعه أموال طائلة، وفيه يقظة وحرص وانتباه ولا ينقصه شيء، فتُسرق محفظته، وفيها كلُّ لوازمه الشخصيَّة من جواز للسفر، للشيكات المصرفية والمعاملات والوثائق الضرورية، وبطاقة الطائرة، فيصبح شريداً متسكِّعاً في الطرقات ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ ﴾ أي يحفظ لك صحتك، ويحفظ لك أهلك وأولادك، ومالك، وبيتك، ومحلَّك، ومستودعك، وبضاعتك، وسمعتك، ومكانتك ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ ﴾.

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد... كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلحك.

وهذه الآية الكريمة وردت على لسان سيدنا يعقوب فقد قال تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي فالله خيرٌ حافظاً يحفظ ابني يوسف، وسيرحم كِبَري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يردَّه علي ويجمع شملي به إنه أرحم الراحمين.

لذلك فاليأس من رَوْح الله كُفر، اليأس والقنوط يساويان الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

الآيات التي ورد فيها الحفظ

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

هذا قرآننا الكريم الذي نزل على سيد المرسلين هو هو الذي بين أيدينا، ليس فيه حرفٌ زائدٌ ولا حرفٌ ناقصٌ، وجميع المحاولات التي جرت لتغيير كلماته أخفقت، فقد

طُبع في العهد العثماني خمسون ألف نسخة حذفت منها كلمة واحدة من سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران:٨٥].

وقد حذفوا كلمة واحدة ولم يطبعوها وهي كلمة ﴿غَيْرَ﴾ فأصبحت الآية: (ومن يبتغ الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) فأتلفت النسخ وأحرقت، فالله -عز وجل- تولى بذاته حفظ كلامه، فلا يمكن لجهةٍ في الأرض أن تُبدِّل أو أن تغيِّر فيه، وليس معنى هذا أنه لا تجري محاولات بل تجري وما أكثر ما تجري، ولكنها لا تنجح، ولن تنجح بإذن الله.

وقد قال العلماء أيضاً: «من لوازم حفظ القرآن الكريم حفظ سنَّة رسول الله ﷺ لأنها مبيِّنة»، فالقرآن قانون والسنَّة معه كمرسوم تفسيري تشريعي، إذا حافظنا علىٰ القانون ولم نحافظ على المرسوم لم نستفد من ذلك شيئاً، لأن القانون مُقنِّنٌ والمرسوم مفسِّر... فمن لوازم حفظ كلامه حفظ سنَّة نبيِّه ﷺ.

لذلك هؤلاء العلماء الأجلاَّء أمثال البخاري ومسلم وابن ماجه والترمذي والإمام مالك وغيرهم، هؤلاء العلماء الذين شمَّروا ودرسوا حديث رسول الله ﷺ ودرسوا أحوال الرجال، وصنَّفوا، وعدَّلوا وجرّحوا، واعتمدوا قواعد صارمة لتدوين الحديث، هؤلاء أعانهم الله على أعمالهم، ويسَّر الله لهم عملهم، لأنه تولَّى بنفسه حفظ كتابه وحفظ سُنَّة نبيه ﷺ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وفي سورة الأنبياء، يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء:٨٢].

أي مراقبين لهم فيما يعملون. والحفظ له معنيان: إما أن أحفظ كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله، وأسجِّل عليك كلَّ ما تفعله وكلَّ ما تقوله، وإمَّا أن أحفظك من كلِّ

مكروه... فالمعنى الأول هو العلم، والمعنى الثاني هو التربية أي: حفظٌ في الذاكرة وإحصاء، وحفظٌ من كل مكروه وأذيّة.

قال الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١].

وفي سورة البروج، قال الله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج:٢١-٢٢].

فهذا اللوح المحفوظ، اختلف العلماء في تفسيره، فأقرب ما يكون أن المبادئ الكبرى التي خلق الله الخلق وَفقها، والسنن العظمى التي سنَّها الله في تعامله مع خلقه، هي في اللوح المحفوظ، ومن باب التقريب والتوضيح؛ أن أمة عظيمةً لها دولةٌ كبيرة ولها أجهزةٌ بالغة الأهميّة، لا بدَّ لها من دستورٍ فيه كلُّ الأمور الأساسية، ويصدر مع هذا الدستور قوانين كثيرة ومراسيم تشريعية، ومراسيم تفسيرية، ومراسيم تنظيمية، إلا أن الأصل أن كلَّ القوانين تنطلق من الدستور، مثلاً حرية الكلمة، حرية العمل، حرية التعلُّم، حرية التعبير هذه كلها في الدستور، ثم القوانين تفسرها وتوضّح كيفية الأخذ بها، فاللوح المحفوظ يضم المبادئ العظمى، والسنن الكبرى التي يتعامل الله بها مع خلقه في اللوح المحفوظ.

الإمام الحسن البصري يقول: «إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوحٍ محفوظ، يُنزِّل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه».

ويقول الله تعالى في سورة النساء عندما يتحدث عن الأسرة وقوامة الرجل في بيته وأهلِهِ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ

نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [النساء:٣٤].

فأرقى صفة في المرأة أنها تحفظ زوجها، تحفظ عرضها في غيبة زوجها، وتحفظ مال زوجها في غيبته، وتحفظ سرَّ زوجها، وتحفظ نفسها.

المرأة الصالحة تحفظ نفسها، لا تسمح لأجنبيٍّ أن ينظر إليها، لا تلين ولا تخضع بالقول للبائع إذا اشترت، لا تضرب برجلها ليظهر ما يَخْفى من زينتها، كلامها جادٌّ، مشيتها جادَّة، نظراتها مستقيمة، لا يزيغ بصرها، لا تسمح لأحدٍ أن يطمع فيها... فقد قال تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١].

أما هذه التي تبدو بأكمل زينة، تثير كلَّ الناس حولها، لسان حالها يدعو الآخرين إلى التحرُّش بها، هذه المتبرِّجة، المتفلِّتة التي لا ترعى حقَّ الله في خروجها، فلسان حالها يدعو الناس إلى الدّنوِّ منها والطمع فيها، فالمرأة المؤمنة تحفظ نفسها، وتحفظ مال زوجها، وتحفظ سرَّ زوجها.

روي في الحديث الشريف «إني لأبغض المرأة تخرج من بيتها تجرُّ ذيلها تشكو زوجها» [الطبراني عن أم سلمة].

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ» ورُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ لَمْ تَرِحْ رائِحَةَ الجَنَّةِ» [سنن الترمذي].

وعن ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه» [رواه النسائي في الكبرى].

حدثني أخ يعمل في طلاء البيوت قال لي: كنا مجموعة من العمال نعمل في البيت وبه غرفة مغلقة من الداخل، الرجل حريص على أهل بيته وفي تلك الغرفة زوجته، قال: في أثناء غيبته خرجت بثيابٍ لا يعقل أن يراها فيها إلا زوجها، ثياب شفافة، إنها متفلِّتة خرجت بين الشباب في غيبة زوجها، فإن هذا السلوك لا يكون من مؤمنة، المؤمنة تحفظ نفسها، وتحفظ سرّ زوجها، وتحفظ مال زوجها، وتحافظ على سمعته وكرامته من خلال حشمتها وصونها لذاتها.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» قال: وتلا هذه الآية ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى آخر الآية [أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده].

والحفظ أيضاً ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الصافات:٦-٧].

أي إذا استرق الشيطان السمع أتبعه شهابٌ ثاقب.

ما منا واحدٌ إلا ويتمنى أن يحفظه الله... إلا أن النبي ﷺ كان أديباً مع الله كان يدعو ويقول:

«مَنْ كانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى الله أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ، سُبْحَانَ الله رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ، الحَمْدُ لله رَبِّ

العَالَمِينَ، اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْباً لا غَفَرْتَهُ، وَلا هَمّاً إلا فَرَّجْتَهُ، ولا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضاً إلا قَضَيْتَهَا لِي، ثُمَّ يَسْأَلُ اللهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ» [سنن ابن ماجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى].

والحفظ له موجبات؛ احفظ الله يحفظك، هذا هو أهم ما في البحث الذي نحن بصدده، احفظ أمر الله يحفظك الله عز وجل... إذا سألت فاسأل الله، وإن استعنت فاستعن بالله... أمَّا الأساس فهو أنَّك لن تستطيع أن تصل إلى حفظ الله عز وجل إلا إذا حفظت أمره، يراك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك، إن حفظت أمر الله -عز وجل- فالله يحفظك، وحفظ الله شامل يحفظ لك عقلك من أن يصيبه الخلل، يحفظ لك حواسَّك وأعضاءك، يحفظ لك زوجتك وأولادك، يحفظ لك بناتك، يحفظ لك مالك، يحفظ لك سُمْعتك، يحفظ لك دينك، يحفظ لك كرامتك.

يا ابن عمر، لا يغرنك ما سبق لأبويك من قبل، فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم، يا ابن عمر، دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا.

والإنسان حينما يرى كلَّ شيء له محفوظاً فهذه هي الاستقامة، وعزَّة الاستقامة، الاستقامة عين الكرامة، أنت إذا استقمت على أمر الله حفظ الله لك كلَّ شيء، أنت في ظل الله، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور:٤٨].

هذه الآية موجَّهةٌ للنبي ﷺ وكلُّ آيةٍ موجهةٍ للنبي ﷺ للمؤمن منها نصيبٌ على قدر استقامته وإيمانه وإخلاصه... ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾... وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، وحفظ الله يغني عن كلِّ شيء.

فالنبي ﷺ وهو في غار ثور كان دمه مهدوراً، مئة ناقة لمن يأتي به حيّاً أو ميتاً، ودخلا إلى غار ثور، قال الصديق: لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا. قال النبي الكريم ﷺ: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] [البخاري، عن البراء بن عازب]، حفظه الله، فقد تبعه سراقة على حصانه، غاصت قوائمه في الرمل، طلب الأمان لكنه عاد ثانيةً فغاصت قوائم فرسه في الرمل ثانيةً فاستسلم لأمر النبي ﷺ [السيرة النبوية لابن هشام].

فإذا كان الله معك فمن عليك؟ إذا حفظك الله فأي شيء يضرك؟! والله ليس في الأرض كلّها جهةٌ مهما قويت تستطيع أن تصل إليك، وإذا تخلّى الله عنك، فقد أسلمك لعدوك، فقد قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

أنت في كلِّ يوم لك حالان مع الله، حال التولِّي، وحال التخلِّي، إذا قلت: أنا، أصابك التخلِّي، وإذا قلت: الله؛ نالك التولِّي، أي إذا وحَّدت الله تولاَّك الله، وإذا اعتددتَ بنفسك، بمالك، بقوَّتك، بعملك، بذكائك، بخبرتك تخلَّى الله عنك. تخلَّى عن أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين وفيهم النبي ﷺ.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾، بينما في بدر قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

فقد كانوا يوم بدر في غاية الضراعة والذِّلَّة بين يدي الله عز وجل فنصرهم وأيّدهم.

أما ملخص الملخص... فإنه ما منا واحدٌ دون استثناء إلا ويتمنى أن يحفظه الله، أن يحفظ له صحته، هناك أمراض عُضالة إذا ألَّمت بالإنسان جعلت حياته جحيماً لا

يطاق، يتمنى كلٌّ منا أن يحفظ الله له صحته، وأهله وأولاده وبناته وأصهاره وبيته وماله وتجارته وسمعته ومكانته.

قد تسمع أخباراً كأنها الصاعقة يرتجف منها كل إنسان عاقل... قال لي رجل ابنتي حاملٌ من ابني. أين مكانته أمام الأسرة، الابن في السجن والبنت في المشفى هذه مشكلة، مشكلة كبيرة جداً، وإني أعقّب على هذا فأقول: لقد قصّر في تربية أولاده ومراقبتهم والالتجاء إلى الله ليعينه على توجيههم، وتخلَّى عن الله، فتخلى الله عنهم وعنه! وهنالك إنسان سمعته طيبة، بيته نظيف، علاقاته كلُّها إيجابية، وعمله جيّد، محفوظ في مكانته وسمعته، موفَّق في عمله، ولعلّه حفظَ اللهَ فحفظ اللهُ عليه بيته وأهله فقد قال يعقوب لأولاده كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤].

لا تعتمد على غير الله في الحفظ ولا في أي أمر من أمورك، أما القول الفيصل: احفظ الله يحفظك، أي: كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد.

قائماً بالقسط

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨].

من معاني المقسط

في اللغة... أقسط فلانٌ إذا عدل، وقسط فلانٌ إذا جار... أقسط: عدل، وقسط: ظلم وجار... المقسط: العادل، والقاسط: الظالم، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن:١٥].

قال بعض علماء اللغة: «المقسط هو العادل في حكمه، قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الرحمن:٩]: أي: بالعدل، والقِسْطُ أيضاً هو النقيض»، القِسْطُ... أقساط، أجزاء، أنصبة.

ذكر بعض علماء اللغة أنَّ القسْطَ: «هو أن يأخذ الإنسان قِسطَ غيره، أي: يظلم»... القسط مصدر... أي: يأخذ نصيب غيره، أن يأخذ ما ليس له فهو ظالم.

والإقساطُ أن يُعطي قسط غيره فهو عادل... أن تعطي حقَّ الناس إلى الناس فأنت عادل، أن تأخذ ما ليس لك بحق فأنت ظالم... أن تأخذ قِسْطَ غيرك هذا ظلم، أن تعطي الآخرين قِسْطَهم هذا عدل... هذا الفرق بين قَسَطَ وأقْسَطَ.

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت: يا أمير المؤمنين! أقر الله عينك، وفرَّحك بما آتاك، وأتمَّ سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم! فقال: أمَّا الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأمَّا المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً، قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها: أقر الله عينك، أي: أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام:٤٤] وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصُه ترقَّبْ زوالاً إذا قيل: تمّ

وأمَّا قولها: لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن:١٥] فتعجَّبوا من ذلك.

فكلمة «قاسط» لا تعني مدحاً، بل تعني ذماً.

المُقْسِطُ في حقِّ الله تعالى هو العادل في الأحكام، الذي يتصرَّف في العوالم بكلِّ نظام.

يعقوب بن يوسف الكوفي «وكان قد روى الأشعار والأحاديث عن أبيه» قال: حججت ذات سنة فإذا أنا برجلٍ عند البيت وهو يقول: اللهمَّ اغفر لي وما أراك تفعل. قال: فقلت: يا هذا ما أعجب يأسك من عفو الله، قال: إنَّ لي ذنباً عظيماً، قال: فقلت: أخبرني قال: كنت مع يحيى بن محمد بالموصل فأمرنا يوم جمعة فاعترضنا المسجد، فنرى أنا قتلنا ثلاثين ألفاً ثم نادى مناديه: من علَّقَ سوطه على دارٍ فالدار وما فيها له، فعلَّقْت

سَوطي على دار ودخلتها فإذا فيها رجل وامرأةٌ وابنان لهما، فقدَّمْت الرجل فقتلته، ثم قلت للمرأة: هاتي ما عندك وإلا ألحقت ابنيك به، فجاءتني بسبعة دنانير ومتيع، قال: فقلت: هاتي ما عندك، فقالت: ما عندي غيرها، فقدمت أحد ابنيها فقتلته ثم قلت: هاتي ما عندك، وإلاَّ ألحقت الآخر به، فلما رأت الجدَّ مني قالت: ارفق فإنَّ عندي شيئاً كان أودعنيه أبوهما، فجاءتني بدرع مذهبة لم أرَ مثلها في حسنها، فجعلت أقلِّبها فإذا عليها مكتوب بالذهب:

إذا جـــار الأمـــير وحاجبـــاه وقـــاضي الأرض أسرف في القضـــاء
فويـــلٌ ثـــمَّ ويـــلٌ ثـــمَّ ويـــلٌ لقـــاضي الأرض مـــن قـــاضي الســـماء

فسقط السيف من يدي وارتعدت، وخرجت من وجهي إلى حيث ترى...

أحياناً يكون الظالم زوجاً يقول لنفسه: إنَّ زوجتي ليس لها سند، ومقطوعة من الأهل... فيظلمها أشدَّ الظلم، ويضغط عليها أشدَّ الضغط، فنقول له:

فويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ لقـــاضي الأرض مـــن قـــاضي الســـماءِ

أحياناً تكون في وظيفة يمكن أن تؤذي الناس من خلالها، تستخدم هذه الثقة التي مُنحت إياها لحفظ مصالح الأمة في سبيل ابتزازِ أموال الأمة، فيقال لك:

فويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ ثـــم ويـــلٌ لقـــاضي الأرض مـــن قـــاضي الســـماءِ

وما أكثر أنواع الظلم، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى مُقسط، لذلك فالمؤمن يعدُّ للمليون قبل أن يظلم إنساناً، لأنه يعلم أنَّ الله أقدرُ عليه منه على هذا الإنسان... وقد ورد هذا في نصِّ حديث رسول الله ﷺ عندما رأى أحد أصحابه يضرب غلاماً له فقال: «اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليك منك عليه، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله! هو حرٌّ لوجه الله، فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار» [رواه مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري].

وقال بعضهم: إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكَّر قدرة الله عليك.

ذات مرة أراد الحجاج أن يحاكم إنساناً ليقتله فقال هذا الإنسان: أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي، فتفكَّر الحجاج ثم عفا عنه. فالإنسان كلما ازداد علماً ازداد خوفاً من الله، إذا ظنَّ أنه قوي وأنه يفعل ما يريد فاستخدم هذه القوة في غير العدل فقد استوجب سخط الله عز وجل، وإذا سخِط الله عليه بطش به، كما ورد في الآية الكريمة قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج:١٢-١٣].

ويوم أرسل النبيُّ الكريم ﷺ عبد الله بن رواحة إلى اليهود ليأخذ منهم ما اتُّفق على أن يعطوه للنبي ﷺ من ثمارٍ وزروع، فأراد هؤلاء أن يرشوا عبد الله بن رواحة لعله يترفَّق بهم في قِسمة الزروع بينهم وبين النبي ﷺ، فقال عبد الله بن رواحة: يا أعداء الله تعطوني السحت والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الناس إليّ -من عند رسول الله ﷺ- ولأنتم أبغض إليَّ من القِردة والخنازير، ولا يحملني حبّي لرسول الله وبغضي لكم على ألا أعدل، أو أن أفعل معكم غير الحق. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وبهذا تغلبوننا [الطبراني في المعجم الكبير]... فأنا أشعر أنَّ قيمة العدل هي أخطر قيمة في المجتمع.

يروي التاريخ المعاصر أنَّ بريطانيا عقب الحرب العالمية الثانية دُمِّرت مواردها كلياً، وقف أحد زعمائها (تشرشل) في مجلس العموم يسأل وزراءه وزيراً وزيراً: كيف الصناعة عندك يا فلان؟ يقول له: المعامل مدمَّرة، كيف الزراعة عندك يا فلان؟ يقول له: لا ثمار ولا غلال، كم في الخزينة عندك يا فلان؟ يقول له: لا شيء، خواء. فكل ما عندهم دُمِّر... فالتفت إلى وزير العدل وقال كيف العدل عندك يا فلان؟ قال: بخير. قال: كلُّنا إذاً بخير.

يبدأ هذا العدل من داخل أسرتك؛ لا تظلم، لا تميِّز ولداً على ولد، لا تميِّز زوجةً على زوجة إن كانت لك زوجتان، لا تميِّز أخاً على أخ، السموات والأرض لا تقومان إلا بالعدل، والعدل أساس الملك، أن تملك زمام أولادك، فأساس هذا الملك العدل،

أن تملك قيادة الموظفين العاملين عندك فأساس هذا الملك العدل، قيمة العدل هي أفضل قيمة يمكن أن تأكل أخشن الطعام، وأن تلبس أخشن الثياب، وأن تشعر أنك قد أخذت حقَّك، أما حينما يشعر الإنسان بالظلم عندئذٍ تنقلب حياته إلى جحيم، من هنا قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

عَنْ أبي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي ألا فَلا تَظَالَمُوا، كُلُّ بَنِي آدَمَ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ وَلا أُبَالِي»، وَقَالَ: «يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ كَانَ ضَالاً إلا مَنْ هَدَيْتُ، وكُلُّكُمْ كَانَ عَارِياً إلا مَنْ كَسَوْتُ، وكُلُّكُمْ كَانَ جائِعاً إلا مَنْ أطْعَمْتُ، وكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآناً إلا مَنْ سَقَيْتُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، وَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، وَاسْتَطْعِمُوني أُطْعِمْكُمْ، وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِكُمْ...» [مسند الإمام أحمد].

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، الظلم مرتعه وخيم، والله عز وجل مقسط، قال أحد الحكماء: «المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم» وكلما عرفتَ عدله تأدَّبتَ معه، وكلما أكبرتَ عدالته ازددت معه أدباً.

قد يكون المظلوم هرَّة... وكلنا سَمِعَ حديث الهرة:

عن هَمَّامِ بنِ مُنبِّهٍ، قال: هذا ما حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا أَوْ هِرٍّ، رَبَطَتْهَا فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً» [صحيح مسلم].

وكلُّكم يستمع إلى آلاف الوقائع والحوادث عن إنسان تعدَّى على حيوان... فقد بصره، أو فقد حركته، بشلل أصابه، إنسان غضب من هرَّة فألقاها من الطابق السابع، بعد حينٍ اختلَّ توازنه في المشيْ، وأمضى حياته كلَّها على عُكَّازين... فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

أحد العلماء يقول: «المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم، وكماله في أن يضيف إلى إرضاءِ المظلوم إرضاء الظالم».

الله عز وجلَّ ينتصر للمظلوم من الظالم، وبعد ذلك يرضي الظالم، بعدما قام بتأديبه ورجع إلى الحق يكرمه، والدليل الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص:٤-٦].

فإذا طغى عبدٌ على عبد، انتصر للمظلوم من الظالم، فإذا رجع الظالم عن ظلمه وتاب إلى الله أكرمه الله.

أهمُّ نقطة أنَّ الله جلَّ جلاله لا يُبغض الكافر، ولكن يُبغض عمله، فإذا قال الله عز وجل ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران:٣٢]، فإن العلماء أجمعوا على أنَّ الله عز وجل لا يُحبُّ عملهم، فإذا تابوا وأنابوا أحبَّهم، والمؤمن الصادق المخلص... لو أنَّ له خصماً عنيداً كافراً فاجراً منحرفاً إلى آخر هذه الأوصاف، إذا أناب إلى الله وتاب إليه واصطلح معه فبأقل من ثانية ينقلب حاله فيكون أقرب الناس إليه، والدليل على ذلك:

عُمَيْر بن وَهْب كان شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء أذاهم بمكة، وكان ابن عُمَيْر بن وهب في أسارى أصحاب بدر، قال: أقبل عمير بن وهب حتى جاء صفوان بن أمية في الحِجْر، فقال صفوان: قَبَّح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال عمير: والله! ما في العيش خير بعدهم، صدقت، والله! لولا دين عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعيالي أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن لي فيهم عِلَّة، ابني عندهم أسير في أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان فقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك وعيالك أسوة عيالي في النفقة إن يسعني شيء وتعجز

عنهم، قال عمير: اكتم عني شأني وشأنك، قال: أفعل، ثم أمر عمير بسيفه فشحذ وسم، ثم انطلق إلى المدينة فبينما عمر رضي الله عنه بالمدينة في نفر من المسلمين يتذاكرون يوم بدر وما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم رأي عمير بن وهب لما أناخ بباب المسجد متوشحاً السيف فقال هذا الكلب والله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، هذا الذي حرش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر، ثم دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله هذا عمير بن وهب قد جاء متوشحاً بالسيف، قال: فأدخله، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببه بها، وقال عمر لرجال من الأنصار ممن كان معه: ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا هذا الكلب عليه فإنه غير مأمون، ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم به عمر آخذ بحمالة سيفه فقال: أرسله يا عمر، أدن يا عمير فدنا، فقال: أنعموا صباحاً -وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، السلام تحية أهل الجنة، فقال: أما والله يا محمد إن كنت لحديث عهد بها قال: فما جاء بك؟ قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف فهل أغنت عنا شيئاً؟ قال: اصدقني ما الذي جئت له؟ قال: ما قدمت إلا في أسيري، قال: بَلْ قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فتذاكرتما أصحاب القليب من قريش، فقلت: لولا دين عليّ وعيالي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان لك بدينك وعيالك على أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذلك، قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني أعلم ما أنبأك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره، ثم قال: يا رسول الله! إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم وإلاَّ آذيتُهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة، وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب

قال لقريش: أبشروا بوقعة تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير [رواه الطبراني مرسلاً وإسناده جيد].

واستمعوا إلى ما قاله عمر -كما في الرواية عن عروة بن الزبير مرسلاً- قال: لخنزيرٌ كان أحبُّ إليَّ منه حين طلع، ولهو اليوم أحبُّ إليَّ من بعض بَنِيَّ.

المؤمن ليس له عدو، فإن كره الكافر يكره عمله فقط، إن كره الظالم يكره ظلمه، إن كره الفاسق يكره فسقه، إن كره المعتدي يكره عدوانه، أما إذا عاد المعتدي إلى جادَّة الصواب، وترك الفاسق فسقه، وترك الكافر كفره... صار أقرب الناس للمؤمن.

قال: لا يقدر على الانتصاف من الظالم للمظلوم ثم إرضاء المظلوم والظالم إلا الله، هذا من اختصاص الله... إليكم هذه القصة:

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذا رأيناه ضحك بدت ثناياه فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله؟ بأبي أنت وأمي! قال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما: يا رب! خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبقَ من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري» قال: وفاضت عينا رسول الله بالبكاء ثم قال: «إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب! أرى مدائن من ذهب وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا أو لأي صديق هذا أو لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن، قال: يا رب! ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب! فإني قد عفوت عنه، قال الله عز وجل: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة» فقال رسول الله عند ذلك: «اتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين» [أخرجه الحاكم في «المستدرك»].

فالله عز وجل مختصٌّ بهذا وحده، وهو الذي يستطيع أن ينتصر للمظلوم من الظالم، فإذا رجع الظالم عن ظلمه أرضى الظالم أيضاً وشملته رحمته... هذه ليست لغير الله... لأنَّ بعض العلماء يقول: «إنَّ أكمل درجات الإقساط؛ العدل أن تعامل كلا الطرفين معاملةً يرضيان عنها».

حقيقة تملأ جوانحي... المؤمن لا يحقد!! لأنه يرى الأمراض التي أمامه من بني البشر هي أمراض وليست سجايا، هي أعراض الإعراض، فكما أنَّ الطبيب لا يحقد على مريضٍ مصاب بمرضٍ معدٍ، كذلك يعلم المؤمن أنَّ هذه الأخطاء والرُّعونات والانحرافات هي أعراضٌ لمرضٍ واحد هو الإعراض عن الله عز وجل، وأكبر دليل أنَّ الإنسان عندما يقبل تراه لطيفاً ومنصفاً، وقَّافاً عند حدود الله، فسبحان من يغير ولا يتغير.

وسرعان ما نعود إلى المُقسِط فقد ورد المعنى في بعض آيات القرآن الكريم ففي سورة المائدة قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة:٤٢].

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وعن النعمان بن بشير أن أباه أتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: إني نحلت ابني هذا غلاماً فقال: «أكلَّ ولدك نحلت مثله؟» قال: لا قال: «فأرجعه». وفي رواية: أنه قال: «أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟» قال: بلى، قال: «فلا إذن». وفي رواية: أنه قال: أعطاني أبي عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى رسول الله فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بن رواحة فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله، قال: أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم». قال: فرجع فردَّ عطيته. وفي رواية: أنه قال: «لا أشهد على جور» [متفق عليه].

روي أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالمَرْأَةُ بِطَاعَةِ الله سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا المَوْتُ فَيُضَارَّانِ فِي الوَصِيَّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ» [سنن الترمذي، من حديث أبي هريرة].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «قَارِبُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ» يَعْنِي سَوُّوا بَيْنَهُمْ. [مسند الإمام أحمد].

من أعجب ما سمعت أن أسرةً توفي منها الأب وترك أولاداً وبنتاً وحيدة متزوِّجة، وهذه البنت الوحيدة نصيبها من الميراث ستَّة عشر مليوناً لم يُعطها إخوتها شيئاً، لأنها متزوجة، فطلَّقها زوجها فوراً، فأهلُها ظلموها، وزوجها ظلمها، أعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه... لا علاقة لك بغنيٍّ أو فقير، فموضوع الحقّ ليس له علاقة بالغنىِّ أو الفقر.

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ لو ظلمتْ ابنتُك زوجَها وجارت عليه، فكن عادلاً وأنصف المظلوم، وإذا بغى ابنك على صديقه فردَّ الباغي: كن عادلاً، وخذ بيد المظلوم.

لكن أكثر الناس مع ابنه على حقٍّ أو على باطل، ومع ابنته على حقٍّ أو على باطل، ما الذي يميز المؤمن من الكافر؟ العدل...

ساعة عدل.. كلمة عدل خير من الدنيا وما فيها. النبيُّ ﷺ استعرض أسرى بدر فإذا صهره أبو العاص بن الربيع زوج زينب بين الأسرى... أُلقي عليه القبض وأسر لأنه كان في عِداد المحاربين يريد أن يقتل المسلمين، ولما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسولَ الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها قلادتها» ففعلوا [الإصابة، عن عائشة]. وروي أنه ﷺ قال: «ما ذممنا صهر أبي العاص» [الطبقات الكبرى لابن سعد] وثبت في الصحيحين من حديث المسور بن مخرمة أن النبي ﷺ خطب فذكر أبا العاص بن الربيع فأثنى عليه في مصاهرته خيراً وقال: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفَّى لي» إذ عندما تمَّ إطلاق سراحه مع أسرى بدر

اشترط عليه رسول الله ﷺ أن يرسل زينب إلى المدينة، ففعل ذلك، ثم قدم في عير لقريش، فأسره المسلمون، وأخذوا ما معه، فأجارته زينب، فرجع إلى مكة، فأدّى الودائع إلى أهلها، ثم هاجر إلى المدينة مسلماً، فردَّ النبي ﷺ إليه ابنته [الإصابة في تمييز الصحابة]. فهو صهر ممتاز... هذه الكلمات التي أنصفه بها فعلت فيه فِعل السحر وانتهت به إلى الإيمان.

من السهل جداً أن تُحبَّ إنساناً محبَّةً عمياء... ومن السهل جداً أن تبغضه بغضاً أعمى ولكنَّ الإنصاف يفرض عليك أن تحبَّه وأن تبغِضه بالعدل، أن تحبَّه منصفاً وأن تبغضه منصفاً، معظم الناس إذا أحبوا إنساناً ستروا كلَّ عيوبه، وإذا أبغضوا إنساناً ستروا كلَّ فضائله، فهذا ظلم، قال عمر: لا يكن حبُّك كلفاً ولا بغضك تلفاً فقلت -أسلم، وهو الراوي عن عمر- كيف ذاك؟ قال: إذا أحببت كلفت كلَفَ الصبيِّ، وإذا أبغضت أحببت لصاحبك التلف.

تعامل أحد أولادك معاملة جيدة وتسيء لأخيه هذا ظلم، وتعامل إحدى بناتك بغير ما تعامل أُختها هذا ظلم، تعامل موظَّفاً في المكتب بغير ما تعامل الموظَّف الآخر فهذا ظلم... ثم وسِّع الأمر كما شئت.

وفي سورة الحجرات قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات:٩].

كثير من الناس يرى أن معاملتك للكافر الفاجر الفاسق الملحد لا غبار عليها مهما أسأت إليه، فلا عليك مثلاً أن تأخذ ماله وأن تضطهده وأن تظلمه، أن تغُشَّه، هذا هو الجهل بعينه، وهذا هو الخطأُ بعينه، وهذا هو الظلم بعينه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة:٨].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾... يخاطب الله المؤمنين ويحضهم على العدل. من هم أعداء المؤمنين التقليديّون؟ الكفار، الفجَّار، العصاة، الفاسقون، المارقون، هؤلاء الكفار، الفجَّار، العصاة، المارقون، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾... مع هؤلاء ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾... إن عدلتم معهم قرَّبتموهم إلى الله، وإن عدلتم معهم قرَّبتموهم إليكم، أما إن ظلمتموهم فقد زدّتموهم بعداً، زدّتموهم كفراً.

يسألني أخ وهو في حيرة من أمره: لي ولدان... أحدهما فاسق والآخر طائع، أريد أن أُعطي الطائع نصيباً أوفر من أخيه. أقول له وبلا تردد: لا تفعل... إنك إن ظلمت الثاني زِدته عقوقاً، اعدل بينهما والله --سبحانه وتعالى- يبارك للبارِّ بما أعطيته.

أنا وقّاف عند كلمة «يبارك» لأنني أطرب لسماعها ويهزني معناها... يقولون: رجل مبارك، رزق مبارك، زوجة مباركة، بيت مبارك، بارك الله لك، هذه الكلمات... تستخدم على أوسع نطاق في العالم الإسلامي، ما معنى بركة؟ الخير الكثير، ما معنى تبارك الذي بيده الملك؟ أي ما أعظم خيرَه وأكثره!

الله -عزَّ وجلَ- يبارك لك أحياناً بمالك، أي: ينتج لك من الشيء القليل الخير الكثير، مال يكون قليلاً فتنتفع به ببركة الله، تتزوَّج به، تأكل منه، تشرب، تلبس، وهو مال قليل، وأحياناً المال الكثير يمحق الله بركته فإذا هو نقمةٌ على صاحبه.

أما المستقيم فالله عز وجل يبارك له في ماله، وأحياناً يبارك لك بوقتك، في الوقت القليل تفعل الشيء الكثير.

الإمام النووي ترك كُتُباً من تأليفه وعُدَّت صفحاتها وقسَّمت على سنيِّ حياته فكان نصيب كل يوم تأليف تسعين صفحة[1]، وقد ورد أنه من أخَّر الصلاة عن وقتها، أذهب الله البركة من عمره، وإنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها.

---

(١) ويكفي أن له: المجموع وشرح مسلم والروضة والمنهاج والأذكار وتحرير التنبيه والإيضاح والفتاوى والتقريب ومناقب الشافعي وتهذيب الأسماء واللغات، وأنه ألّف في الفقه والحديث وشرح الحديث =

فهناك وقت مبارك... أنت إذا صلَّيت، إذا اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لخدمة الخلق، وقتاً لنشر الحق، وقتاً لنصرة الضعيف، وقتاً لمواساة المسكين، هذا الوقت الذي اقتطعته من وقتك كأنَّه زكاة وقتك... ومن أدَّى زكاة ماله حفظ الله له بقية ماله... حصِّنوا أموالكم بالزكاة، ومن أدى زكاة وقته حفِظ الله له بقية وقته، تجد فيما تبقى له من وقت يفعل خلاله الشيء الكثير على الرغم من أنه قصير.

أحياناً تتعسَّر أمور الإنسان، يطلب أحد أصدقائه فلا يجده، أو بعد أن يقوم بإصلاح محرِّك لآلة فينسى أن يضع قطعة صغيرة في محلّها، فيفكّ أجزاءه مرةً أخرى وقد أخذ من وقته الساعات الطوال، أحياناً الله عز وجل يذهب لك زبدة وقتك وخلاصته وخيره في أتفه الموضوعات، فقد ينقصك قطعة تبديل لآلة معطّلة، والعُمّال ينتظرون إحضارها، فتقوم باستيرادها وقد تأتي ناقصة من الخارج، وذلك بأنك ضننت بوقتك على أن تصلِّي أو على أن تحضر مجلس علم، أو أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أذهب الله البركة من وقتك... وضيعه سُدىً بلا طائل.

دائماً نعجب من المؤمن... فالله يوفِّقه بأن يبارك له بوقته؟ يفعل أشياء كثيرة في وقت قصير هذه هي البركة، ومن هنا كان دعاء القنوت: «اللهم! اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولَّني فيمن تولَّيت، وبارك لي فيما أعطيت» [الأربعة والدارمي من حديث الحسن بن علي].

يعطيك دخلاً يكفيك ويغطي جميع نفقاتك، يكفي أن يكون الإنسان معافى في صحَّته، فقد خلّص نفسه من الذهاب إلى الأطباء والمشافي والتصوير الإشعاعي والطبقي المحوري والمرنان، والتحاليل، والذهاب للخارج وتبديل دسام قلبه، أو الكلية، كل ذلك بمئات الألوف، بالملايين.

= والمصطلح واللغة والتراجم والتوحيد وغير ذلك وكان يكتب حتى تكل يده فيعجز... هذا ولم يطلب العلم إلا في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة...!!

إذا استقام الإنسان على أمر الله حفظ الله له صحته، إذا أدَّى زكاة ماله حفظ الله له ماله، فلا حريق، ولا ضياع، ولا مصادرات، ولا مخالفات، ولا استملاك، والله ينجّيه من كلِّ ذلك.

فقد سمعت عن رجل والشيء بالشيء يُذكر... له دكّان صغير في سوق شعبي وهو مستقيم طوال حياته، لم يأكل مالاً حراماً إطلاقاً، جاءه رجل وبتطفُّل وبأسلوب عدواني يريد شراء دكانه، والرجل يرفض بيعها لأنها مورد رزقه. فقال له: أحببت هذه الدكان ويجب أن تبيعني إياها... فقد وقعت في قلبي، وإلا أحسدك، وما زال به حتى باعه إياها بسبعمئة ألف. وهي في سوق شعبي في طرف دمشق، قبض الثمن منه، وبعد عشرة أيام استُملك السوق، فأعطوا المشتري الجديد سبعة آلاف ليرة تعويضاً!!

فالمالك الأول كان صادقاً طوال حياته مع الناس ولم يكذب عليهم، ولم يغشَّهم... فكافأه الله سبحانه بأن حفظ له ماله، سأجعل هذه الدكان تحلو بعين فلان... فما زال به يلحُّ إلى أن باعه إياها بسبعمئة ألف، ثم قبض الآخر تعويضاً لهذه الدكان سبعة آلاف ليرة!!

فلذلك أركِّز على البركة... فإذا اتقيت الله عز وجل بارك الله لك بوقتك، وبارك لك بصحتك، وبارك لك بمالك، وبارك لك بزوجتك.

فقد حضرت تعزية بوفاة امرأة، وزوجها حيٌّ وعمره يقارب السبعين، وزوجته المتوفاة في الستين، فقد بكى بكاءً غير معقول على الإطلاق... فهو في السبعين وزوجته المتوفاة في الستين... فلما انتهى وقت التعزية وذهب المعزّون جرى حديث بغية التخفيف عن الزوج، وأن عليه أن يصبر ويحتسب. فقال: والله عِشتُ معها خمسةً وأربعين عاماً ما نمت ليلةً واحدة وأنا غاضبٌ عليها.

فقد بارك الله له بزوجته... وقد تجد شخصاً يقول لك: لم أرتح يوماً واحداً معها، فالزوجة وكذلك الزوج إما بلاء من الله وإما أنها هي الدنيا وزينتها كما في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة:٢٠١].

العلماء فسروا حسنة الدنيا بالزوجة الصالحة، التي إن نظرت إليها سرَّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غِبت عنها حفظتك في مالك ونفسها... وهي ستِّيرة، وإذا خلا بها بذلت له ما أراد منها، فبارك الله لك في مالك، وبارك الله لك في وقتك، وبارك الله لك في زوجتك، وبارك الله لك في أولادك.

تجد ابناً باراً مع أبيه دائماً، فوالله أرى هذه نعمة كبرى، هو في خدمته، وبأدب وتواضع هذا من فضل الله، فأشعر أن هنالك أسراً ناعمة البال، راغدة العيش، ببر بعضهم بعضاً، ففي حياتهم بركة.

فإذا استقام الإنسان على أمر الله ينال البركة من الله... وإذا مُحقت البركة يصبح المال نقمة، قد يُقتل من أجل ماله، وقد تكون الزوجة شؤماً قد ينتحر من أجلها وبسببها، وقد يكون الابن شؤماً كذلك، وقد يكون الزوج بلاء، وهكذا تقلب له الحياة ظهر المجن.

أحياناً يكون لك قريب تقول عنه: لا دين له، إنه لا يصلي ومغموس في الملذات إلى قِمَّة رأسه، لكنه يحترمك كثيراً، ويُكبر فيك إيمانك واستقامتك، ولك مكانة عنده، فيأتي المؤمن الجاهل أحياناً يسيء إلى هذا الإنسان غير الملتزم بدعوى أنه غير ملتزم، فاستمع إلى هذه الآية، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة:٨].

هو لا يعارضك ولا يحاربك، ولا يطعن بك، ولا يذُمُّك بل يقدِّر فيك استقامتك وإيمانك وصلاتك، وهو مقصِّر وغارق في الشهوات، هذا الإنسان ينبغي أن يرى منك كل استقامة وكلَّ بِر وكل إقساط كما في الآية السابقة.

وهأنذا أؤكِّد أن آلاف الحالات... حالات التوبة أساسها عمل ذكي بسبب إحسان بادر به مؤمن، قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠].

يسألني أحياناً أحدهم: هل أستطيع أن أعطي صدقة لقريب لا دين له؟ فأقول: إن غلب على ظنِّك أنَّ إعطاءه هذا المال يقرِّبه منك ومن الدين فافعل... أما إذا كان هذا المال يزيده بُعداً عنك وعن الدين فلا تفعل... فالضابط المنظِّم لهذا العمل هو: ما إذا غلب على ظنِّك أنَّ إحسانك إليه يزيده قرباً من الله.

فدائماً وأبداً... العدل العدل، فقد قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فإنَّها لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الله حِجابٌ» [صحيح البخاري من حدث ابن عباس].

الأبلغ من ذلك... أنك إذا ظلمت مسلماً، المسلم أبغضك، أي: أبغض ذاتك، أما إذا ظلمت غير مسلم، فإن المظلوم يبغض دينك، ويقول: الإسلام ظلمني... ينسى الإنسان ويتَّهم الدين كلَّه بالظلم، لذلك يجب أن يشعر المؤمن الصادق دائماً: «أنه على ثغرةٍ من ثُغر الإسلام، فلا يؤتَيَنَّ من قبله».

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

قالوا: أوفر الناس حظاً من هذا الفعل من ينتصف من نفسه، فلو أخطأت وأنت القوي جداً مع إنسان ضعيف جداً وظلمته فقل له: أنا أخطأت معك وسامحني. فهذا أرقى ما يتصف به أحد بالعدل، أن تنتصف من نفسك لمن هو أضعف منك، أن تنتصف من نفسك وليس لنفسك، أن تنتصر لمن هو أضعف منك.

أحياناً يكون الزوج في البيت هو كلُّ شيء، وعنده زوجة ضعيفة إذا أخطأ قال لها: أنا أخطأت وهذا خطئي... فهذا أعلى درجات الإنصاف.

وقد يكون عندك صانع يعمل لديك في الدّكان، وهو شاب وإخراجه من المحل ممكن بكلمة واحدة: اذهب ولا تعد... وأخطأت معه والصانع خاف منك، عليك أن تقول: أنا أخطأت وهذا الخطأ خطئي. هذه أعلى درجة من أنواع الكمال والإنصاف.

فقد يكون الإنسان في موقع لا أحد يستطيع محاسبته، فكماله أن ينتصف من نفسه، وأن يعترف بخطئه.

سمعت عن طبيب في مصر، وصف دواء لطفل صغير، الجرعة منه تُعطى لكبير، وبحسب علمه لو تناول هذه الجرعة لمات الطفل من فوره، فماذا يفعل؟ لا يوجد عنده عنوانه وهو في مستوصف عام فاتصل بوسائل الإعلام، وقال: أرجو أن تبلغوا المواطنين أن رجلاً وابنه دخلا إلى المستوصف الفلاني، وقد أعطيتهما وصفة فليمتنعا عن أخذ الوصفة وإلا يموت الطفل، فهو إذا سكت لا أحد يعلم وقد يموت الطفل دون أن يكون مُداناً، لكنه أعلن على الملأ أمام خمسين مليون أنني أخطأت، والشيء الذي لا يصدق أن الذي أخذ هذا الدواء وصله الخبر قبل أن يعطي لابنه الدواء، فالذي حصل عكس ما تصور الطبيب، فإنه اكتسب سمعة وشهرة تفوق حدَّ الخيال.

أحد العلماء يقول: «إن أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف أولاً من نفسه ثم ينتصف من غيره، أولاً من نفسه ثم من غيره».

يهودي دخل على سيدنا عمر يشكو سيدنا علياً، فقال له: قم يا أبا الحسن فقف إلى جانب الرجل... فأصبح عليّ خصماً في قاعة القضاء وهو من المقربين لعمر... فوقف، وتغيَّر لون سيدنا عليّ، فلما حكم له وانصرف اليهودي قال له: أَوجدتَ عليَّ يا أبا الحسن؟ فقال: نعم. فقال له: لِمَ؟ فقال: لأنك قلت لي يا أبا الحسن ولم تقل لي يا علي، لقد ميَّزتني عليه... لِمَ لم تقل لي: قم يا علي فقف إلى جانب الرجل، قلت لي: قم يا أبا الحسن؟ فقبَّل عمر رأس عليّ وقال: لا أبقاني الله بأرض ليس فيها أبو الحسن، بهذا قامت السموات والأرض، نعم قامت بالعدل.

وأنت تقوم وتقوى بالعدل، وتسقط بالظلم... ألا ترون معي أنَّ العالم كله يئنُّ من أن الظُّلاَّم يكيلون بمكيالين، ومن أنهم يقيسون بمقياسين، يشددون النكير على من يُتَّهم بقتل إنسان ولا يحاسبون من يُتَّهمون بقتل شعب، ألا يشعر بالظلم كلُّ العالم اليوم؟!

لذلك كما قال سيدنا رسول الله ﷺ:

«تُمْلأُ الأرضُ جوْراً وَظُلْماً، فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعاً أَوْ تِسْعاً فَيَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلاً» [مسند الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري].

لا تصلح الدنيا سواء أكنت زوجاً، أو تاجراً، أو موظفاً إلا بالعدل، والعدل أساس المُلك، والعدل يزيدك قوةً، والعدل أن تنتصف من نفسك قبل أن تنتصف من غيرك، أن تقول أخطأت على الملأ فهذا الذي يرفعك عند الله عز وجل.

إلهي أنت المقسط في الأحكام، المتفضِّل بالإسلام، عدلت في أقدارك الأزلية، وتفضَّلت في حِكَمِك العلية.

البعث

من أفعاله جل جلاله: البَعْث.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠ ﴾ [الأنعام:٦٠].

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِى كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ ﴾ [النحل:٣٦].

وفي سورة الإسراء قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء:٧٨-٧٩].

وفي سورة الكهف قال تعالى عن أهل الكهف: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢ ﴾ [الكهف:١٢].

وفي سورة الحج: ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾ [الحج:٧].

وفي سورة التغابن قال تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ ﴾ [التغابن:٧].

من معاني البعث

البعث في اللغة... الإثارةُ والإنهاض... يقال: بعث بعيره فانبعث، أي: استنهضه فنهض... أنهضه، وبعثه: أرسله، وانبعث فلانٌ لشأنه، أي: سار لشأنه، بعث الناقة: أثارها، بعث فلاناً من نومه: أيقظه، ومنه بعث الجنود إلى الغزو، فالبعث هو الجيش، والبعث: الإحياء من الله عز وجل، والبعث: النشر. هذا ما ورد في معاجم اللغة حول معنى كلمة البعث.

وأما البعث في حق الله تعالى... فمعناه أنَّ الله سبحانه وتعالى باعث الخلق يوم القيامة كما يقول في سورة الحج، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾ [الحج:٧].

أي إنَّ الله سبحانه وتعالى يُنهض الموتى من قبورهم ليحاسبهم، وقد قال تعالى في سورة الزلزلة: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ ﴾ [الزلزلة:١-٦].

هذا هو البعث... فالمؤمن يؤمن بيوم البعث.

المعنى الآخر أن الله جلَّ جلاله باعث الرسل إلى الخلق، يقول تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل٣٦].

إنهاض الناس من قبورهم بعث، وإرسال الرسل إلى الناس كافة بعث.

والمعنى الثالث أنه تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة، أي: أنَّ الله عز وجل يُلهم الإنسان في حركاته وسكناته... وذلك بالطبع لصالحه مكافأةً أو تأديباً... قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس:٢٢].

ألم يقل النبي ﷺ: «إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا عَلَى طَاعَتِكَ» [رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو].

هذا التقليب لصالح العباد، فالإنسان أحياناً يُلهَم أن يتحرَّك، يُلهَم أن يسير في هذا الطريق، يُلهم أن يشتري، يُلهم أن يبيع، وقد يستجيب أحياناً لوسوسة الشيطان. والله سبحانه وتعالى لا يسمح لفعلٍ إلا إذا كان فيه صالحٌ للعبد نفسه، الله تعالى يُقلِّب قلوب العباد بين إصبعيه.

فمثلاً لو أنَّ الإنسان اختار طريق الحق أو اختار طاعة الله عز وجل، أو اختار التوبة النصوح، ربُّنا سبحانه وتعالى يشرح له صدره، شَرْحُ صدره إعانةٌ لهذا العبد على طاعة ربِّه، فقد قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف:١٣].

فالإنسان مثلاً إذا تحرَّك نحو الله قليلاً فالله سبحانه وتعالى يبارك حركته ويشجِّعه ويشرح له صدره ويُعينه على طاعته، ألم يُجمَع القرآن كلُّه في الفاتحة؟ ألا تُجمَع الفاتحة في آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

ولو أنَّ الإنسان اختار طريق الباطل، أو طريق الشهوة، أو طريق المكاسب المادية، أو طريق الأذى، فالله سبحانه وتعالى كيف يُعينه على أن يبتعد عن هذا القرار؟ يجعل صدرهُ ضيِّقاً حرجاً كأنَّما يصَّعد في السماء كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٥].

فهنا وقفة... إن اتخذت قراراً صحيحاً شرح الله لك صدرك وهو بهذا أعانك على متابعة هذا القرار، وإن اتخذت قراراً خاطئاً ضيَّق الله عليك نفسَك ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ لعلَّك ترتدع عن متابعة هذا القرار.

فالله سبحانه وتعالى حينما جعل قلوب العباد بين إصبعيه ما جعلها كذلك إلا ليعين عباده على الخير، وليبعدهم عن الشرِّ، فالله تعالى أحياناً يبعث هذا الانشراح، ويبعث له هذا الضيق، فالله سبحانه وتعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة.

هناك معنى آخر: أن الله سبحانه وتعالى أمر ونهى وكلَّف، وأعطى الإنسان حرية الاختيار، ولو أن الإنسان اتخذ قراراً خاطئاً وتابع خطأه إلى ما لا نهاية حتى جاءه الموت وهو متلبِّسٌ بالمعصية والكفر، لاستحقَّ جهنم إلى أبد الآبدين، هذا محض العدل، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يربِّي هذا العبد، فلو أنه اتخذ قراراً خاطئاً وأراد أن يؤدِّبه بعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه عقاباً شديداً... فإذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كلِّ ذي لبٍّ لُبَّه.

فمثلاً: إذا اتخذ إنسانٌ قراراً في أن يؤذي الناس، كأن يَغُشَّهم في بضاعته وأن يغتصب بعض أموالهم، وحاز هذا المال؛ فلو أن الله تركه إلى نهاية المطاف لاستحقَّ النار، لكنه يتحرَّك حركةً خاطئة فيبعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه العقوبة كي يؤدَّب، فقد قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأنعام:١٤٧].

إذاً إنَّ الله تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة إما تحقيقاً لاختيارهم، أو تأديباً لهم، أو مكافأةً لهم، فلو أن إنساناً أدَّى زكاة ماله يبعثه لشراء صفقةٍ رابحة، يُعوِّض عليه كلَّ ما دفع، بينما إنسان آخر بخل أن يُزكِّي ماله يبعثه إلى صفقةٍ خاسرة.

فالله عز وجل يبعث... بالمعنى الأول يحقق لك اختيارك، وبالمعنى الثاني يكافئك على حسن اختيارك أو يؤدِّبك على سوء اختيارك، هذا التسيير الأول... لتحقيق الاختيار... أما الثاني فهو لدفع ثمن الاختيار.

التسيير الأول هو أن تحقق اختيارك... أما التسيير الثاني فهو تسيير تربوي، فإما أن يُشجِّع وإما أن يعاقِب، وهذا هو معنى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة.

يبعث من في القبور... ينهضهم.

يبعث الأنبياء والمرسلين... يرسلهم.

يبعث عباده على الأفعال المخصوصة... أي: يخلق الإرادات والدواعي في قلوبهم.

والمعنى الرابع... أنَّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة.

فالإنسان بين حالين لا ثالث لهما، حال الاعتداد بالنفس كما حدث للصحابة الكرام يوم حنين فقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة:٢٥].

وحال الافتقار إلى الله مثلما كان حال الصحابة الكرام في بدر، فقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران:١٢٣].

أنت بين حال الاعتداد بالنفس أن تقول: أنا، وبين حال الافتقار إلى الله أن تقول: الله، إن قلت: أنا، تخلَّى عنك، ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة:٢٥].

والحالة الثانية أن تقول: الله، وعندها يتولاَّك الله بالرعاية والتوفيق. في حياة كلِّ منا كلَّ يوم عشرات الدروس إن قلت: أنا، تخلَّى الله عنك، وإن قلت: الله، تولاَّك ورعاك وأيَّدك ونصرك وأعانك وألهمك وحفظك ودافع عنك، شتَّان بين أن تقول:

الله، وأن تقول: أنا، ولا يخفى عليكم أنَّ... أنا، ونحن، ولي، وعندي أربع كلماتٍ مهلكات، فقد قال إبليس: أنا، فأهلكه الله، ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص:٧٦].

وقال قوم سبأ: «نحن» فأهلكهم الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [النمل:٣٣].

وقال فرعون: «لي» فأهلكه الله: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف:٥١].

وقال قارون: «عندي» فأهلكه الله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨].

فالمعنى الرابع... أنَّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة، وعند الذنب بقبول التوبة.

والله تعالى يبعث مَن في القبور، باعثُ الساكنِ، ساكنٌ يبعثه الله فيتحرَّك، كلُّ شيءٍ ساكن يبعثه الله فيتحرَّك، فالنبات في الشتاء ساكن يكون حطباً، ويأتي الربيع فيبعثه الله فيزهر ويورق ويُثمر، بعض الحيوانات تنام في الشتاء فإذا جاء فصل الربيع بعثها الله.

البذرة... فيها رُشيم، فيها جُذَير، فيها سُويق، فيها حياةٌ يمكن أن تخزِّنها آلاف السنوات، القمح الذي وُجد في الأهرامات زُرع فأنبت وقد مضى عليه ستة آلاف عام، فلما وضعت هذه البذرة في الأرض بعثها الله، نبتت.

والله تعالى يبعث الهمم، فالإنسان أحياناً تضعف نفسه، فإذا استعان بالله عز وجل أعطاه همةً، وأعطاه قوةً وأعطاه اندفاعاً، لذلك فالمؤمن الصادق يدعو ويقول:

«اللهمَّ! تبرَّأت من حولي وقوَّتي، والتجأت إلى حولك وقوَّتك يا ذا القوة المتين».

يقول أحد العلماء: هو الذي يحيي الخلق يوم النشور، ويبعث من في القبور، ويحصِّل ما في الصدور».

كلُّ أعمالك مسجَّلةٌ عليك، سوف تبعث وتراها أمامك واحدةً واحدة فقد قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤ ﴾ [الإسراء:١٤].

والبعث هو النشأة الآخرة، فالنشأة الأولى في الدنيا، والنشأة الآخرة يوم القيامة.

قال بعض العلماء: «الإنسان أحياناً يتوهَّم أنَّ الموت عدمٌ، وأنَّ البعث إيجاد ابتداءً»، والحقيقة غير ذلك، الإنسان يموت ولكنَّه في القبر إما أن يكون من أهل النعيم، وإما أن يكون من أهل الجحيم، إما أن يكون القبر روضةً من رياض الجنة، وإما أن يكون القبر حفرةً من حفر النيران، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ ﴾ [آل عمران:١٦٩].

الموت ليس فناءً ونهايةً ومن ثم يوم القيامة فيه بدءٌ جديدٌ، لا، بل هناك حياة برزخية، ألم يقل الله عز وجل في فرعون وقومه يصفهم في قبورهم: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦ ﴾ [غافر:٤٦].

مضى على عذابهم أكثر من ستَّة آلاف عام وإلى يوم القيامة غُدوّاً وعشياً، هذه الآية أصلٌ في عذاب القبر أو عذاب البرزخ مطلقاً.

الموتى إما أن يكونوا أشقياء، وإما أن يكونوا سعداء، إن كانت أعمالهم سيئة كانوا أشقياء في القبور وإلى يوم القيامة، وإن كانت أعمالهم صالحة كانوا سعداء في القبور وإلى يوم القيامة، لذلك فإن القبر روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النيران.

ورد في بعض الآثار: «أنَّ روح الميت ترفرف فوق النعش تقول: يا أهلي ويا ولدي لا تلعبنَّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال من حِلِّه ومن غير حلِّه، ثم خلفته لغيري فالمهناة له والتبعة عليّ فاحذروا ما حلَّ بي».

عن أبي طلحة عن النبي ﷺ: «كان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال» [البخاري، من حديث أبي طلحة]. وعن أبي طلحة قال: «لما كانَ يومُ بدر وظهَرَ عليهم نبيُّ الله

ﷺ، أمَرَ ببضعَة وعشرينَ رجلاً -وفي رواية؛ بأربعة وعشرينَ رجلاً- من صناديد قريش، فألقوا في طويّ من أطْواءِ بدر خبيث مُخْبِث، وكان إذا ظَهَرَ على قوم أقامَ بالعَرْصَة ثلاثَ ليال، فلما كانَ ببدر اليومَ الثالث أمرَ براحلَته فشُدَّ عليها رَحلُها، ثم مشى، واتَّبَعَهُ أصحابُهُ، قالوا: ما نُرَى يَنطلَقُ إلا لبعض حاجته، حتى قامَ على شَفَة الركيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيَسُرُّكم أنَّكم أطعتمُ الله ورسولهُ؟ فإنَّا قد وجدنا ما وَعَدَنا ربُّنا حقّاً، فهل وجدتُم ما وعدَ ربكمْ حقا؟ فقال عمر: يا رسول الله، ما تُكلِّم من أجساد لا أرواحَ لها؟ فقال النبيُّ ﷺ: والذي نفس محمد بيدِه، ما أنتُم بأسمع لما أقولُ منهم. قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَهُ، توبيخاً، وتصغيراً، ونقيمة، وحسرة، وندماً» [أخرجه البخاري، ومسلم].

قالت عائشة لَمَّا أمَرَ النبيُّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ بِأُولَئِكَ الرَّهْطِ فَالقُوا في الطَّوِيِّ عُتْبَةُ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ وَقَفَ عليهمْ فقالَ: «جَزَاكُمُ اللهُ شَرّاً مِنْ قوم نَبِيٍّ، مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَ التَّكْذِيبِ» قالوا يا رسولَ الله: كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْماً جَيَّفُوا؟ فَقَالَ: «مَا أَنْتُمْ بِأَفْهَمَ لِقَوْلِي مِنْهُمْ أَوْ هُمْ أَفْهَمُ لِقَوْلِي مِنْكُمْ» [مسند الإمام أحمد].

إذاً الإنسان يحيا، والموت عملية انفصال نفسه عن جسده عن روحه... روح الإنسان هي القوة المحرِّكة، وجسده وِعاؤه، ونفسه ذاته. النفس خالدةٌ إلى أبد الآبدين، إما في جنات النعيم وإما في أعماق الجحيم، فقد قال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف:٧٧].

فأنت خُلقت لتبقى، إما في نعيم مقيم وهذا ما نرجوه إن شاء الله تعالى، وإما في جحيم لا تطاق ولا تحتمل، فلذلك عندما يؤثر الإنسان الدنيا على الآخرة يكون أحمق وغبياً.

مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

إني وجدت ما وعدني ربي حقاً، فهل وجدتُّم ما وعد ربُّكم حقاً؟ خاطبهم... رايموند ماودي ألَّف كتاباً عنوانه الحياة بعد الموت... وكان الباعث على تأليف هذا

الكتاب أن مريضاً توقف قلبه أمداً طويلاً ثم عاد ونبض، فذكر هذا الإنسان كيف أنَّه تصوَّر أعماله كلَّها، وكيف أن نفسه ابتعدت عن جسده، وكيف أنه ندم على أعماله السيئة، هذا الوصف جعل مؤلِّف الكتاب يتحرَّك إلى أكثر المشافي، وأراد أن يأخذ تقارير مشابهة عن هذه الحالات، وقام بجمع هذه التقارير وألَّفها في كتاب.

والملخَّص... أن الإنسان حينما يموت تبتعد نفسه عن جسده، المؤمن يستعرض أعماله كلَّها طوال حياته، ويُقيِّم أعماله كلَّها وفق مقياسٍ واحد هو مدى ما ينتفع بها عباد الله، ويرى أن أعماله ولو عظمت إن لم ينتفع بها أحد فلا قيمة لها فإن خير عباد الله أنفعهم للناس.

فالإنسان حينما يعلمُ علم اليقين أنه سوف يدخل في القبر، وأنَّ هذا القبر حياةٌ برزخية تسبق الحياة الأُخرويَّة، وأنَّ هذه الحياة في القبر نعيمٌ أو جحيم، ينبغي أن يعدَّ ألف مرة قبل أن يقترف المعصية.

العمل أساسه إرادة، الإرادة تتحرك بالباعث، والباعث هو الله سبحانه وتعالى يبعثنا إلى أعمالٍ اخترناها صالحة، أو إلى أعمالٍ اخترناها سيئة، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ما هو الكسبُ؟ أنت حينما تقول: أنا سأُصلِّي، هذا هو الباعث، هذا هو الكسب. الله سبحانه وتعالى يُمِدُّك بقوةٍ منه، فالله جلَّ جلاله حينما يراك تريد أن تصلِّي يعينك على أداء الصلاة، هو الذي يحقق أفعال العباد، الأفعال بيد الله، والإنسان يملك الانبعاث، يملك الإرادة، يملك الاختيار، يملك الكسب، وما سوى ذلك من خلق الله عز وجل، وهذه هي العقيدة الصحيحة.

وقيل: «هو الذي يبعث الهمم إلى الترقّي في ساحات التوحيد».

فالإنسان أحياناً إذا وصل إلى مستوى معيَّن ولم يتجاوزه إلى مستوىً أعلى قد يُصاب بالسأم والضجر والملل... من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، فقرار الهدى قرارٌ مستمرٌ فكلما ازددت علماً ارتقيت عند الله، وكلما ارتقيت عند الله ارتفع مستوى

عملك، وكلما ارتفع مستوى عملك زاد إقبالك، فهي سلسلة متتابعة، فالذي يبقى في مرتبةٍ واحدة هذا معرَّض لأن يقول: مللت، والله سبحانه وتعالى لا يملّ حتى تملّوا، فإذا لم يكن هناك ازدياد علميّ وازدياد عمليّ فلن يكون رقيٌّ حقيقيٌّ، ولن يكون هناك عمل صالح ترقى به. وربما انعكس هذا سلباً على مكانة الإنسان عند الله عز وجل.

وقيل: «هو الذي يبعثك على عليَّات الأمور»، أي إذا أراد ربُّك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

الحقيقة أن هناك في الدين حقيقة خطيرة جداً، أنت لا شيء، أنت ضعيف، أنت فقير، أنت جاهل، ولكنك إذا أقبلت على الله أصبحت عالماً، وإن أقبلت على الله عز وجل أمدَّك بقوةٍ من عنده، إن أقبلت على الله علَّمك ما لم تكن تعلم.

فالإنسان بذاته ضعيف، أما بالله فهو قوي، بذاته جاهل، أما بالله فهو عالم، بذاته فقير، أما بالله فهو غنيّ.

وبعد فملخص التوحيد ألاَّ ترى مع الله أحداً، وألاَّ ترى لنفسك شيئاً، حينما تفتقر ذاتُك إلى الله، فإنّك تستحقُّ كلَّ مكرمة... لذلك قالوا: الأبواب إلى الله كثيرة، وباب الانكسار: هو أعظم هذه الأبواب، فكلما ازددت افتقاراً إلى الله، رفعك الله إلى أعلى المراتب، والأمر متعلق بالتوحيد. كلما رأيت أن الله هو الإله العظيم الذي لا نِدّ له وهو الواحد، وهو المعطي، هو المانع، هو المغني، هو الممد هو القابض، هو الباسط، هو المعز، هو المُذل، تتوحّد وجهتك.

وبعد... من أين يأتي الإخلاص؟ من التوحيد، هناك علاقة بين التوحيد والإخلاص، كلما ازددت توحيداً ازددت إخلاصاً، لأنه ما دام هناك جهات أخرى تعطي وتمنع، ترفع وتخفض، تعزُّ وتذلُّ، فأنت موزّع بين ما تعتقده في هذه الجهات من أنها تعطي وتمنع، أمَّا إذا أيقنت يقيناً قطعياً أن كلَّ الجهات عاجزة وهي لا تعطي ولا تمنع، لا ترفع ولا تخفض، لا تعزّ ولا تذلّ، وأيقنت أن الله هو وحده لا شريك له، وبيده كلُّ شيء، إليه يرجع الأمر كلُّه، فعندئذ تعبده وتتوكَّل عليه.

إذاً... ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، قال الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٣].

أحدُ أكبر أسباب عذابات النفس، أنْ تدعوَ مع الله إلهاً آخر، وأحد أكبر أسباب الخوف أن تشرك بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأحزاب:٢٦].

الرّعب متعلّقٌ بالشرك، فهذا قانون إلهي، أنت تخاف بقدر ما تبتعد عن التوحيد، فإذا وحّدت الله عز وجل نُزع من قلبك الخوف، لأن أمرك كلَّه بيد الله، والله وليّك، فلا خوف، ولا حزن... ولذلك فالإنسان إذا وحّد أخلص، وإذا أخلص ارتقت همّته.

ورد: أن اصنعِ المعروف مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهلَهُ أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله.

الموحِّد لا يعلّق أهمية على ردود فعل الناس، أما غير الموحِّد فإن أسدى إليهم معروفاً ولم يتلقَّ منهم استحساناً أو ثناءً فإنَّه يتألّم، أمَّا الموحِّد فإنْ أسدى إلى الناس معروفاً فهو يدرك أنه ما فعل ذلك إلا ابتغاء وجه الله... قال الله تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [الليل:١٩-٢١].

وبعد، فليعلم المؤمن أن التوحيد طريق مختصر، والإخلاص مسرِّع، إلا أن التوحيد كلمة واحدة، وتلخِّص الإيمان كلّه، وتلخص العمل كلَّه، وتلخِّص مجاهدة النفس والهوى كلِّها، والتوحيد ملخص معرفتك كلِّها بالله، وهو الهدف الكبير لهذا الدين، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

إذاً: الباعث أيضاً هو الذي يبعثك على عليّات الأمور، ويرفع عن قلبك وساوس الصدور.

وقيل: «هو الذي يصفِّي الأسرار عن الهوس، ويسمو بالأفعال عن الدَّنَس»، أي إنَّ الله عز وجل إن أقبلتَ عليه طهَّر قلبك من الأدران.

وإني لأذكر هذه الآية: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فأجد فيها معنىً مهمّاً... ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما قال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ الباء باء السبب، أي: بسبب رحمةٍ استقرَّت في قلبك يا محمد، من خلال اتصالك بالله لنت لهم، فلما لنت لهم التفّوا حولك، وأحبّوك وأقبلوا عليك.

لو أنَّ الإنسان انقطع عن الله خلا قلبه من الرحمة، فكان فظّاً غليظاً، فلما كان فظّاً غليظاً انفضَّ الناس من حوله، فهل بالإمكان أن نستنبط قانوناً؟ القانون: هو اتصالٌ... رحمةٌ... لينٌ... يعني التفافٌ من حولك، انقطاعٌ... قسوة... غلظة... يعني انفضاضاً عنك، هذا هو القانون.

إن اتصلت بالله عز وجل تستقر الرحمة في قلبك، مُنْعَكَسُ هذا الرحمة لين وتواضع وإيناس وذوق، عندئذٍ يجتمع الناس حولك، فلو أن القلب أقفر من الاتصال بالله عز وجل، أصبح قاسياً وعندئذٍ يصبح فظاً غليظاً، وينفض الناس من حوله.

هناك حقيقة: هي أن الدعوة إلى الله ليست المعلومات وحدها، بل هي الشرط اللازم لها، إن المعلومات شرط لازم وغير كافٍ، لكنَّ القلب الكبير الذي يسع الخلق، القلب الكبير الذي يرحم الخلق، والقلب الكبير الذي يتواضع للخلق، القلب الكبير الذي يعطف على الخلق، هذا القلب هو أساس الدعوة إلى الله، لأن أصحاب النبي ﷺ أحبوه حباً لا يوصف.

سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي حينما كان يخدم الرسول ﷺ، وانتهت خدمته ذات ليلة وأمره أن ينصرف، بقي على عتبة دارِه حتى الفجر من شدة التعلُّق به [مسند الإمام أحمد]، ما معنى ذلك؟ التعلُّق له علاقة بالكمال، كلما كنت أكثر كمالاً تعلَّق الناس بك، وكلما ابتعدت عن الله عز وجل انخفض مستوى الكمال، وعندئذٍ ينفضُّ الناس من حولك.

وقيل «الباعث... باعث الرسل بالأحكام، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وباعث الموتى بالقيام».

قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [البقرة:٥٦].

وباعث النيام بيقظةِ الأجسام... الإنسان ينام، والنوم موتٌ مؤقَّت، قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢].

النوم موت مؤقت، لهذا كان ﷺ يقول: «إذا قام أحدكم عن فراشه ثم رجع إليه فلينفضه بصنفة إزارة ثلاث مرات، فإنه لا يدري ما خلفه عليه بعدُ، فإذا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: باسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أرْفَعُهُ، فإنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وإنْ أرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْها بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ، فإذا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ: الحَمْدُ لله الذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وأذِنَ لِي بِذِكْرِهِ» [سنن الترمذي من حديث أبي هريرة].

وكان ﷺ إذا استيقظ يقول:

«الحَمْدُ لله الذِي أحْياناً بَعْدَ مَا أمَاتَنَا وإِلَيْهِ النُّشُورُ» [البخاري من حديث حذيفة بن اليمان، ومسلم من حديث البراء بن عازب].

وقد قيل: «ما من يومٍ إلا وينادي يا ابن آدم! أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّدْ مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة».

فالله هو الذي يبعثك من نومك، فإذا استيقظ الإنسان ينبغي أن يعلم أنَّ الله تعالى سمح له أن يعيش يوماً جديداً... إذاً فهو يبعث الموتى، ويبعث الرسل، ويبعث النيام، ويبعث كلَّ ساكن.

عند بعض العلماء تجد أن حقيقة البعثِ... هي إحياء الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى.

في الدنيا قد يعاقب الله بعض المسيئين عقاباً تربوياً تأديبياً لبقية المسيئين، وقد يكافئ الله بعض المحسنين مكافأةً تشجيعيةً لبقية المحسنين، ولكن قد تجد مسيئاً لا

يعاقب، ومحسناً لا يكافأ، لأن الحياة الدنيا دار عمل ودار ابتلاء، ودار تكليف، أما الجزاء الأوفى، والحساب الكامل، والرصيد فهو في الآخرة... قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ﴾ [آل عمران:١٨٥].

أي فأنت في دار عمل، ثم هناك دار جزاء، هنا عمل ولا جزاء، وفي الآخرة جزاء ولا عمل، أنت في دار تكليف، والآخرة دار تشريف، فإذا اختلطت عندك الأمور، وإذا ظننت أن الدنيا دار تشريف، وأنَّ القويَّ مكرَّمٌ، والغنيَّ مكرمٌ، وقعت في وهمٍ كبير.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ» [سنن الترمذي].

أنت في دار ابتلاء، لا دار قرار، الآخرة هي دار القرار، والآخرة هي دار الجزاء، الآخرة هي دار النعيم، الآخرة هي الدار التي تُؤتى فيها ما تشتهي دون عمل... قال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق:٣٥].

أما الدنيا فهي دار سعي، لا بد من أن تسعى حتى تصل، لذلك الله عز وجل قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

فحقيقة البعث عند بعض العلماء: هو أن الله سبحانه وتعالى يحيي الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى.

وقد قيل: «الجهل هو الموت الأكبر»، أي: الجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، والعلم هو الحياةُ العُليا، أي أعلى درجات الحياة أن تعرف الله، وأدنى درجات الموت أن تجهله فلا تعرفه، وقد ذكر الله تعالى العلم والجهل في القرآن وسماهما، حياةً وموتاً: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي: كنتم موتى بالجهل ثم أحياكم بالعلم، وكنتم موتى بالبعد وأحياكم بالقرب، كنتم موتى بالضياع فأحياكم بالوجدان، كنتم موتى بالإدبار فأحياكم بالإقبال، كنتم موتى بالتفلّت فأحياكم بالانضباط.

لذلك فإن العلماء يقولون في تفسير هذه الآية: «إن أعلى درجات الحياة أن تعرف الله وأن تتصل به»، فقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

ليس مَنْ مات فاستراح بميِّتٍ إنَّما الميْتُ ميِّتُ الأحياء

سيدنا علي يقول: «العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، وصنيعة المال تزول بزواله ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسبه الطاعة في حياته وجميل الأحدوثة بعد مماته، مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

يقول أحد العلماء: «الجهل هو الموت الأكبر، والعلم هو الحياة العليا، وقد ذكر الله تعالى الجهل والعلم في القرآن فسماهما حياةً وموتاً».

هناك معنى يضيفه أحد العلماء: «أنه مَنْ رقَّى إنساناً من الجهل إلى العلم ومن البعد إلى القرب، ومن الإدبار إلى الإقبال، فقد أنشأه نشأةً أخرى»، هناك نشأة حيوانية: جسم، قلب رئتان معدة أمعاء فم سمع بصر، يتحرَّك، يأكل، ينام، يتزوج، هذه حياة لا تليق بالإنسان، إلا أن هناك حياة أرقى، أن تفكِّر وأن تعرف الله وأن تعرف منهجه وأن تعرف من أين... وإلى أين... ولماذا؟ هذا أكبر سؤال، فعندما يعرف الإنسان سرَّ وجوده وغاية وجوده ويعرف ربّه ويعرف منهج ربّه، وأن هذه الحياة حياةٌ دنيا إعدادية لحياة عليا أبدية عندئذٍ يصبح في أعلى درجات الحياة... قال تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾.

قالوا: هذا هو التعليم الحقُّ... نقل الناس من الموت إلى الحياة، من الجهل إلى العلم، من الإدبار إلى الإقبال، من الضياع إلى الوجدان، فهذه رتبة الأنبياء والمرسلين، ومن ينوب منابهم من العلماء الصادقين؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت:٣٣].

ثم إن هناك نقطة عميقة الدلالة، فالله عز وجل عندما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل:١].

من منا رأى هذه الحادثة؟ لا أحد، لعل أحدهم يقول: لو أن الله عز وجل قال: ألم تصدق، ألم تسمع، بدل قوله: ألم ترَ.

العلماء قالوا: «إنَّ إخبار الله عز وجل -لمصداقيته المطلقة- ينبغي أن يقع منك موقع الرؤية، إن مصداقية الله عز وجل في أخباره ينبغي أن توقع هذه الأخبار منك موقع الرؤية، بل إن الفعل الماضي الذي يستخدم في القرآن الكريم في التعبير عن المستقبل كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ [المائدة:١١٦]».

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾... هذا لم يقع بعد ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾، استخدام الفعل الماضي من أجل أن يقع هذا الخبر في نفسك موقع الوقوع الحتمي اليقيني، أتى أمر الله فعل ماضٍ فلا تستعجلوه إذاً: لم يأتِ. أتى أمر الله فلا تستعجلوه، الفعل الماضي حينما يعبر به عن المستقبل وحينما يقول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾، أي يجب أن تقع أخبار الله التي أخبرك بها في كتابه موقع اليقين الشهودي.

نصيب المؤمن من فعل البعث

كيف أن الله سبحانه وتعالى يبعث الموتى؟ والإنسان قبل أن يعرف الله، ميتٌ، فإذا أحيا قلبه بالمعرفة، وبالطاعة فكأنه تخلَّق بكمالات الله هذا أول معنى... ففي الآية الكريمة قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وفي سورة النحل قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ [النحل:٢].

فالعبد إذا سعى لمعرفة الله، وطاعته والإقبال عليه، والاستنارة بنوره، فقد بعث نفسه من الموت إلى الحياة.

التخلّق الثاني: المؤمن ينبغي أن يبعث نفسه دائماً كما يريد مولاه فعلاً وقولاً؛ أي أنْ تأتي أفعاله مطابقة لكتاب الله.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَالتُ عائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِيني عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ [مسند الإمام أحمد].

قالوا: الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي ﷺ قرآن يمشي.

فمِن تأدُّبِ العبد مع الله الباعث أن يبعث نفسه بما يُرْضي ربَّه، وأن يجعل أعماله متوافقةً مع منهج ربِّه.

الأدب الثالث: أنه إذا تحقق وأيقن، أن الله سبحانه وتعالى يبعث الناس بعد الموت ثم يجزيهم بالثواب والعقاب، فعندئذٍ يشغل وقته كلّه بطاعته، والتزود للدار الآخرةِ وتصفُّحِ أعماله ومحاسبةِ نفسه حساباً دقيقاً.

رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه وضع يده -يعني: اليمنى- تحت خدِّه ثم قال: «اللهم! قني عذابك يوم تبعث عبادك» [رواه أحمد والترمذي والنسائي من حديث البراء بن

عازب]، وكان ﷺ يقول عند الاستيقاظ: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» [البخاري من حديث حذيفة بن اليمان، ومسلم من حديث البراء بن عازب].

وأخيراً فملخص الملخص... يبعث الله الرسل، يبعث الله من في القبور، يبعث الله العباد لأعمالٍ تحقق اختيارهم ثم تربيهم، ويبعث الله تعالى كلَّ ساكن، وأدب المؤمن مع الله عز وجل أن يبعث نفسه دائماً كما يريد مولاه فعلاً وقولاً.

تأخير العقوبة

الله تعالى لا يُعجِّل بالعقوبة لِمَنْ عصاه فهو يُمهل ولا يُهمل، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تتحدث عن هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر:٤٥].

الإنسان أحياناً، إذا تولَّى أمر عشرة أو أكثر، فحينما يغضب منهم يتمنَّى أن يُنزل بهم أشدَّ العقوبة، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فتأخير العقوبة من أفعال الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه:١٢٩].

يعني كان لِزاماً أن ينزل الله بالعُصاة أشدَّ العقاب، وأن يُنهِيَهم ويبيدهم، ولكنَّ كلمة سبقت من الله عز وجل هي التي تجعل العقوبة متأخرة. فما هذه الكلمة؟ هي: إن

رحمتي سبقت غضبي، ما الكلمة؟ إن الله خلق الخلق ليرحمهم، ما الذي يؤخر إنزال العقوبات الحاسمة؟ هو رحمة الله عز وجل؛ يعني كأنَّ الله عز وجل يعطي الناس فرصةً ليتوبوا، يعطيهم فرصةً ليرجعوا، ليُنيبوا، ليصحِّحوا، ليستغفروا؛ لذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:٣٣].

فما دام الإنسان في استغفار فرحمة الله قريبة منه ومغفرته واسعة، حيث إن القصد هو إصلاحه، والقصد هو إسعاده، والقصد هو إكرامه، ولو أنَّ القصد تطبيق القوانين لما ترك على ظهرها من دابة، لو أنَّ كلَّ إنسان عصى الله عز وجل أنهاه الله عز وجل بعقوبة قاصمة ما ترك على ظهرها من دابة، فتأخير العقاب من فعل الله تعالى، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

وهذه آية أخرى تدل على المعنى نفسه، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد:٣٢].

آية ثالثة تؤكد مفهوم تأخير العقوبة؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحج:٤٨].

فالإنسان أحياناً يختلُّ توازنه حينما يرى كافراً قوياً شديداً عتيداً مستعلياً يزداد قوة ومنعة وغنىً وسيطرةً، وقد يسأل الإنسان نفسه: أين الله؟ ربنا عز وجل بماذا يجيب عن هذا السؤال؛ إذا رأيت الكافر يزداد قوةً وغِنىً وسيطرةً واستعلاءً وجبروتاً ويتحدَّى ويسخَر ويستهزئ فاذكر فرعون، ألم يقل فرعون: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات:٢٤] بماذا أجاب الله عز وجل في القرآن الكريم عن هذا السؤال؟ قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

إجابة أخرى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام: ٤٤].

جواب ثالث قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

الله عز وجل ليسَ غافلاً، فاللهُ عز وجل من أجل أن يكشف الإنسان على حقيقته يُملي له، ويعطي له من القوة، ومن الشأن ومن الوجاهة ما يكشفه على حقيقته، فهل يطمئنُّ الإنسان العاقل إلى قوَّته؟ هل يطمئنُّ إلى ماله الوفير؟ هل يطمئنُّ إلى مركزه القويِّ؟ العاقل يطمئنُّ إلى طاعة الله، يجب أن تطمئنَّ حينما تطيع الله عز وجل. أمَّا إذا كنت قويّاً أو إذا كنت غنيّاً أو إذا كنت وجيهاً فهذه أشياء تُسلَبُ في لحظة واحدة. عطاؤه عجيب، وأخذه عجيب.

زارني طبيب وذكر لي قصة وقعت قبل يومَين من زيارته، أن فتاة متخلِّفة عقلياً تأخَّر كلامها سنتين، وفيها عِلّة في دماغها، وهذه العلَّة ظهرت في مشيتها العرجاء، تشكو من ضعف في أعصابها الحركية ومصدره الدماغ، وتشكو من تأخُّر في نُطقِها، وهذه آفة مصدرها الدماغ، ويكاد يكون الشفاء مستحيلاً، قبل يومين أو ثلاثة كُسرت رجلها، فأُخذت إلى مستشفى العظام، وأعطيت مخدراً لشدة الألم الذي انتابها حين تجبير عظمها، بعدما انتهت العملية انطلقت في الكلام ومشت مشياً طبيعياً فجاء أبوها وقال: ما هذا؟ ما علاقة ما جرى لها بما صلح من نُطقِها ومن حركتها؟ فالله على كل شيء قدير، كسرُ هذه الرجل كان سبباً، ولعل هذا المخدر أيقظَ مكاناً في الدماغ كان في سبات، فربُّنا عز وجل يعطي ويدهش، ويأخذ ويُدهش.

وإليك آيةً أخرى تدل على تأخير العقوبة؛ وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣].

ذات يوم سألتُ أحد الإخوة المتخصصين عن كلمة متين؛ فقال: إن كلمة متين تستعمل في الفيزياء للتعبير عن مقاومة قوى الشّدّ، والقساوة تستعمل للتعبير عن مقاومة قوى الضغط، فالشيء الذي يتحمَّل قوى الضغط يقال له: قاسٍ، والشيء الذي يتحمَّل قوى الشّدّ يُقال له: متين، فما وجه العلاقة بين كيد الله عز وجل ومتانته؟ قوله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٣].

فالإنسان لا يمكن أن ينجو من قبضة الله؛ كأن كيد الله حبل متين لا يمكن أن ينقطع أبداً.

وهذه آية خامسة هي قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف:٥٨].

وبعد، فهل مرَّ معنا في السيرة موقف بدا فيه هذا المعنى واضحاً؟ لعله في الحديبية عندما أُبرم صُلح الحديبية؟ حيث إنَّ الله عز وجل يعلم أنَّ في كفار قريش رجالاً مؤمنين، ونساءً مؤمنات، يكتمون إيمانهم، ولا يعلمهم المؤمنون؛ فربنا عز وجل رحمةً بهم وتأخيراً للعقوبة عن الكفار، أخّرَ فتح مكة من أجلهم، وقد أمرنا الله تعالى بالصبر، فقال: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنعام:٣٤].

ما معنى: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ [المدثر:٧].

هناك صبر لغير الله؛ قد تكون إنساناً مستضعفاً ولك عدو يُنكّل بك، ولا تستطيع أن تفعل شيئاً، فأنت صابر لا لأنك صبور، بل لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً، فليس هذا من الصبر الذي أمرنا الله تعالى به. إنما الصبر أن تكون قادراً على أن تفعل

شيئاً ولكنَّ إيمانك بالله عز وجل يلجمك وتصبر، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ وأحياناً يتوهم الإنسان أن بإمكانه أن يصبر، فإذا هو في بعض الحالات لا يصبر، كان يبدو أن بإمكانه أن يصبر، فإذا هو ينفجر، كيف نحلُّ هذه المشكلة؟ قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:١٢٧].

أنت لا تصبر إلاّ إذا أعانك الله على الصبر، فهل هناك آية يرتفع بها الصبر إلى أعلى مستوى؟ نحن عندنا قاعدة، وهي أن العطف يقتضي التجانس؛ إذ لا تستطيع أن تقول: اشتريت بيتاً وملعقةً، لعدم التناسب، هذا ولقد جُمع الصبر مع الصلاة، وجُمع الصبر مع الحظ العظيم، وجُمع الصبر مع الجزاء بغير حساب، وجُمع الصبر مع الحق.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:٣].

وإذا قرأنا الآية التي وردت في آخر آل عمران فلعلنا نتبين شيئاً من ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:٢٠٠].

فالصبر معروف، أما المصابرة فهي: أن تعينَ أخاك على الصبر، لذلك قالوا: لا تكن عوناً للشيطان على أخيك، وكن عوناً لأخيك على الشيطان؛ أي: أنت إذا أعنته وبيّنت له وخففت عنه مصابه، وواسيتَه بمالك؛ فلعل في ذلك معاونةً لأخيك على الصبر، وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾.

أما أوضح آية متعلقة بالصبر والتي معناها يُثلج الصدر فهي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

هذه المصائب لمن؟ للمؤمنين، هذه المصائب للمؤمنين خاصة... لنبلونَّكم أيها المؤمنون بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا إصابتهم مصيبة قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾، إذاً الصابر هو الذي يصبر على تربية الله له، فما معنى أنك صابر؟ يعني أن الله يُربيك وأنت تفهم عن الله عز وجل وتصبر، إذاً من الصابر؟ هو إنسان راشد مثلاً يجلس على كرسي طبيب الأسنان فيعلم علم يقين أنه مُتقِن لصنعته، وأنه عليم باختصاصه، وأن بحوثاً عديدة اطلع عليها، وأن أناساً كثيرين أَثْنوا عليه، وأنه تعلَّم عِلماً صحيحاً، وأن يده فيها مرونة كبيرة، وعنده وسائل جيدة، وأنَّ كلَّ ما يفعله بك طبيب الأسنان هو في صالح أسنانك؛ لذلك ولو آلمك في بعض الأحيان فلا بد أن تصبر، فمن الذي يصبر إذًا؟ هو الذي فهم على الطبيب، وَثِقَ من علمه ومن خبرته ومن نصيحته، وهو يتحمَّل معالجة هذا الطبيب لأسنانه، هذا بشكل مبسط.

إذاً هناك إنسان صابر، فنحن في واقع الحياة لدينا عِلل كثيرة، وربنا عز وجل يتولى تربية هذه النفس.

النهاية السعيدة أن تصل إلى دار السلام بسلام، النهاية الموفَّقة أن تقول من أعماق أعماقك: الحمد لله رب العالمين، النهاية التي ليس بعدها ولا قبلها؛ أن ترث جنة عرضها السموات والأرض، إذاً فالصابر إنسان فَهِمَ عن الله عز وجل مراده.

تروي كتب السيرة أنه بعد وفاة النبي ﷺ، حدثت هناك اضطرابات وفتن وبدت بوادر رِدَّة كبيرة جداً؛ بل أصبحت المدينة مهددة بالخطر والنبي ﷺ كان قد جهز جيشاً لفتح بلاد الشام أمَّر عليه أسامة، ورأى أصحاب النبي ﷺ أنه من الحكمة ألا ينفذ أبو بكر الخليفة بعث أسامة؛ لأن البلاد مقبلة على فتنة اضطرابات

داخلية، أيُعقل أن تذر الاضطرابات قرنها، ونرسل جيشاً لفتح الشام؟ فهذا منطق غير مقبول؛ فأصحاب النبي ﷺ اضطربوا وتمنوا على سيدنا الصديق ألا يرسل هذا الجيش، وتهامسوا فيما بينهم، وانتقل الخبر لسيدنا عمر، فسيدنا عمر جاء ليُبلّغ سيدنا الصديق هذه الرغبة وتَبنّاها، ولكن سيدنا الصديق أراد أن يربي الأصحاب تربيةً حاسمة، فما كان منه إلا أن أمسك بلحية عمر وهزَّها هزاً شديداً وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب؛ أَجَبار في الجاهلية خوّار في الإسلام؟! فلما رأى أصحاب النبي ما فعل الصديق بعمر ارتعدت فرائصهم، وندموا على خواطرهم، وانصاعوا لأمر سيدنا الصديق، لماذا صبر سيدنا عمر على أخذ الصديق بلحيته وهزَّه هزاً شديداً، وقال له: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أجَبار في الجاهلية خوّار في الإسلام؟ لأنه فهِم عن سيدنا الصديق مراده البعيد.

قال ابن عطاء الله السكندري: «إذا كَشَفَ الله لك حكمته في المنْع عاد المنع عين العطاء»، فربما كان الإحسان من الله حرماناً، وربما كان المنع من الله إحساناً، فمتى يصبر الإنسان؟ من الذي يصبر؟ الذي يعرف الله عز وجل، أما الذي لا يعرف الله عز وجل فلا يصبر، بل بالعكس يُزمجر ويتكلم كلاماً سيئاً يسجل عليه، علامةُ معرفتك بالله صبرُك على قضائه وقدره، لكن كلُّ حسنةٍ بعشرِ أمثالها، وكلُّ شيء له حساب، إلا أن الصابرين كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

فأما الصابرون فإنهم يوفَّون أجورهم بغير حساب؛ فهذا المحسن حينما صبر كأن لسان حاله يقول يا رب: عالجني كما تريد، وأنا أصبر يا رب، أنت ربي لا إله إلا أنت، أنت وليّي في الدنيا والآخرة، عالجني كما تريد أنا أصبر على معالجتك، كأن لسان حال الصابر يقول: يا رب أصبر في الدنيا ولا أصبر في الآخرة، القضية في الدنيا مقبولة، أما في الآخرة فالخزي لا يُحتمل؛ والنبي ﷺ قبيل وفاته وقف بين أصحابه وخَطَبَ خطبةً مؤثرةً:

عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَلَسَ على المِنْبَرِ فَقَالَ: «إنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيا ما شاءَ وَبَيْنَ ما عِنْدَهُ فاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ»، بكى أبو بكرٍ وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا [رواه البخاري].

مثلاً لو أنَّ طالباً سرق قلم حبر، وكُشف أمره أمام رفيقه فهذا شيء قد يهون، أما إذا كُشف أمره أمام طلاب الصف كلِّهم فهذا شيءٌ آخر، فضيحة صارخة، أما إذا كُشف أمره في الباحة أمام ثلاثين شعبة فهذا شيءٌ أكبر وفضيحة تنتشر كالنار في الهشيم.

الفضيحة في الدنيا أهون، أنت ساكنٌ في مدينة، في حيٍّ من الأحياء هناك من يعرفك وهم قلة، أما على رؤوس الأشهاد إذ يقف هؤلاء الفُساق والفجار مواقف الخزي والعار.

عن أبي ذَرٍّ قالَ: قُلْتُ: يا رسُولَ الله ألا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قالَ: فَضَرَب بيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثمَّ قالَ: «يا أبا ذَرٍّ إنَّكَ ضَعيفٌ، وإنَّها أمانَةُ، وإنَّها يَوْمَ القِيامَةِ خِزْيٌ ونَدامَةٌ إلاَّ مَنْ أخَذَها بحَقِّها وأدَّى الذي عَلَيْهِ فِيها» [رواه مسلم وأحمد].

فالصابر كأنه يقول: عالجْني يا رب قبل أن أموت، يا رب لا تمتني حتى تطهرني من ذنوبي ومن عيوبي ومن أدراني، فالإنسان العاقل يجتهد لتنقية نفسه من كلِّ مرض، لأن الله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

إذاً: إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب والآية التي تتحدث عن الصبر قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

هذه معيّة خاصة أم عامة؟ إنها معية خاصة؛ لأن المعيّة الخاصة تعني التأييد والنصر والتوفيق والحِفظ، حيثما وردت في القرآن الكريم معيّة خاصة، تعني التأييد

والنصر والتوفيق والحفظ، ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ ﴾ وقال جلَّ شأنه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

مع الصابرين بالرعاية والحفظ والتأييد والتوفيق، والله عز وجل يوفيهم أجورهم بغير حساب، والله يحبُّهم ويوفِّيهم أجرهم بغير حساب، لأنهم قَبِلوا معالجته، أحياناً أنسب شيء هو معالجة المرض من دون مخدِّر، أما إذا رفض هذا الإنسان وصاح وتكلم كلاماً قاسياً، فإنه عندئذٍ يضطر الطبيب أن يسلك معه الطريق الأطول الأخطرَ في العلاج، ربنا عز وجل حينما يرى عبداً صابراً معنى ذلك أن هذا العبد قد رضي بمعالجة الله له، وأن يستسلم لقضائه وقدره، هذا هو معنى الصبر.

الصبر شيء عظيم، والإنسان الغربي من شدة بُعدِه عن الله يقف في حياته موقفين: إما أن ينال ما يصبو إليه وإما أن ينتحر؛ فإذا فقد الشيء الذي يصبو إليه إضافةً إلى بُعده عن الله، فإما أن ينال طلبته، وإما أن يصاب بأمراض نفسية إذا لم ينتحر؛ أمراض الإحباط، الكآبة السوداوية، انفصام الشخصية، هذه كلُّها أمراض نفسية، أساسها إنسان تعرض لمصائب وهو لا يعرف الله عز وجل، والأمراض النفسية أساسها عدم معرفة الله عز وجل.

إذاً الخلاصة بتمامها: إياك أن تصبر لغير الله، فعندئذ ليس لك من أجر، فمثلاً قد يضايقك شخص قوي متسلط وأنت صابر، فالله عز وجل يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤ ﴾ [الرعد:٢٢-٢٤].

دخلتم الجنة، ووصلتم إلى أعلى درجة يتمناها كل إنسان على وجه الأرض، وصلتم إلى دار السلام، إلى جنةٍ عرضُها السموات والأرض، وصلتم إلى سعادة الأبد،

وصلتم إلى نعيم مقيم، وصلتم إلى دارٍ لا خروج منها ولا قلق فيها، ولا مرض، ولا منافسة، ولا تحاسد، ومن بعد فهذه الجنة مهيأة لك ما ثمنُها؟

قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ ﴾، صبركم كان ثمن الجنة ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ ﴾، انظر إلى صبر المؤمن، فالمؤمن دائماً في صبر، على المرض صابر، مشكلة في بيته صابر، يعامَل بقسوة صابر، دَخْله قليل صابر، منغِّصات في عمله صابر، إنه يرى قدرة الله عز وجل، والإنسان إذا كان بإمكانه أن يمنع عنه الأذى ولا يمنع عنه الأذى فهو عاصٍ، وليس بصابر، الصابر إذا كنت لا تستطيع أن تزيل عنك هذا الأذى، الصبر عند استنفاد الجهد.

هناك قضية مزعجة وبإمكاني أن أعالجها، فقد يقول قائل: هذا الأمر أو البلاء من قضاء الله وقدره، فمن قال لك ذلك؟ إن كان من قضاء الله وقدره فالحلّ يتم بقضاء الله وقدره كذلك.

فهذا سيدنا عمر عندما قدم على الشام أيام وجود الطاعون بها فامتنع عن دخولها فقيل له: يا أمير المؤمنين: أتفِرُّ من قضاء الله؟ قال: نعم أفرُّ من قضاء الله إلى قضاء الله، وقال: لو كنتَ تملك قطيعاً من الغنم، وهناك أرض مُجدِبة وأرض مخصِبة، أين سترعى غنمك؟ إن رعَيْتها بالأرض المجدبة فبقضاء الله، وإن رعيتها بالأرض المخصبة فبقضاء الله. أنا أَفِرُّ من أرضٍ مُجدبة بقضاء الله إلى أرضٍ مخصِبة بقضاء الله، هذا هو التفكير العلمي، فإذا أمكن علاج الابن عند طبيب فلا يجوز الاستسلام بحجة أنه صابر، لا، بل نقول له: أنت مُقصّر؛ إذ ليس هذا هو قضاء الله عز وجل، فحينما لا تملك حيلةً فعندئذٍ أنت معذور.

ماذا روي عن النبي ﷺ في الطائف: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس» [الطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن جعفر]، لقد اجتهد حينما خرج من مكة إلى الطائف لعلهم يؤمنون، لكنه شكا قلة حيلته، وأنت كونك إنساناً تقف

أمام بعض الأمور عاجزاً؛ لكن إذا أمكنك الحركة فيجب أن تتحرَّك، إلا أنك حينما تفقد الحيلة يأتي دور الصبر، إذاً الصبر يأتي حينما تنعدم الحيلة.

سيدنا عمر أشار إلى أن الصبر نعمةٌ من نِعَم الله الكبرى، كان إذا أصابته مصيبة قال: «الحمد لله ثلاثاً؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمت الصبر عليها»، إن الله عز وجل يقول: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل:١٢٧].

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ ﴾ وإليك الآية الثانية أيها القارئ الكريم: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٦].

سيدنا أيوب ثبتت فيه آيةٌ -سبحان الله- أتذوَّق منها الشيء الكثير، قال تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص:٤٤].

﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾، أحياناً يبعث الله لك بلاءً ليرى موقفك.

على كُلِّ إنسان أن يعرف معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾، فالله يمتحن الإنسان، يُتلف له شيئاً من حاجياته، يحبط له بعضاً من مساعيه، لا تتحقَّق له بعض غاياته، هو تحت المراقبة! سيدنا أيوب ما كان وضعه؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ﴾ أجمل موقف يقفه المؤمن حينما يتلقى خبراً سيئاً أن يقول: الحمد لله رب العالمين، يا رب لك الحمد هذه حكمتُك، وهذا قضاؤك، وهذا قدرك، وأنا راضٍ بحكمتك، اللهم ألهمني الصبر، هذا أعظم موقف يقفه المؤمن، لا تظنَّنَّ أن الإنسان أياً كان لن يتعرض لمواقف فيها امتحان، لكنه حينما يقول: الحمد لله فقد نجح.

الإيمان كلُّه صبر يقال: «الإيمان نصفان؛ فنصف في الصبر ونصف في الشكر»، ثم إني وجدت حديثاً شافياً جداً: سئل: ما الإيمان؟ قال: «السماحة والصبر» [اخرجه أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت].

في الأساس الجنةُ لها ثمنٌ، وثمنها أن الله عز وجل ركّبَ في الإنسان طبعاً، وكل التكاليف عكس طبعه، ركّبَ فيك حُبَّ المال وأمرك بإنفاق المال، وركّبَ فيك حُبَ الراحة، وأمرك بصلاة قبل طلوع الشمس، وركّبَ فيك فضولية في أخبار الناس، وأمرك أن تسكت عن الغيبة والنميمة، لو تتبعت أوامر الشرع لوجدت أنك لن تستطيع تطبيقها إلا إذا خالفت طبيعة نفسك، إذاً الدين كلُّه صبرٌ، فمن الكافر؟ هو إنسان ينساق مع شهواته ومع أهوائه ومع ميوله وحظوظه ومصالحه، ومن المؤمن؟ هو الذي عاكس هواه وشهوته وميوله وحظوظه وطبّقَ منهج ربه.

فإذا أردت أن تقول لي: الدين كلُّه صبر؟ أقول لك: نعم الإيمان هو الصبر والسماحة، الصبر سلبي، السماحة إيجابية، أن تصبر عن المعصية، وأن تصبر على الطاعة، وأن تصبر على الأمر التكويني ثلاثة مناهل: صبر عن المعصية، وصبر على الطاعة، وصبر على الأمر التكويني، فلذلك من السذاجة أن تظنَّ أن الفقير فقط عليه أن يصبر، فمن قال لك هذا؟ إذا كان صبر الفقير عن موضوع واحد فالغنيُّ أشدُّ حاجةً إلى الصبر من الفقير، لماذا؟ لأنَّ الغنيَّ يمتلك خيارات، كثيرة جداً لغناه وسَعة دنياه، مثلاً إذا قلنا للضعيف: اصبر، فالحقيقة أنَّ القويَّ أشدّ حاجةً ألف مرة إلى الصبر من الضعيف، لأن الضعيف قدرته ضعيفة، أما القوي فبإمكانه أن يفعل كلَّ شيء، لكنه إن خاف من الله عز وجل لم يفعل شيئاً يغضبه، فهذا الدليل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنبياء:٣٥].

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ ﴾، بالخير أنت مُمتحَن، بالمال ممتحن، بالقوة ممتحَن، بالشباب ممتحن، والنتيجة أنَّ الدين كُلَّهُ صبر، فمثلاً الشجاعة صبر، لكن الهروب انسجام مع حب الحياة، إن الجسم يحتاج إلى استلقاء وراحة، جاء للبيت مساءً مُتعباً أكل ونام، هكذا كثير من الناس، أمَّا المؤمن فعليه صلاة العشاء؛ أكل وتوضأ وصلى الفرض والسنّة والوِتر فهذا صَبَر ثم نام، في الساعة الواحدة ليلاً والفراش وثير، والجو شتوي، والفراش دافئ، وغداً يومُ عطلة؛ فسمع أذان الفجر، الآن سيصبر على ترك

الفراش، وينهض للصلاة، لو تتبعت الأمور فأنت ممتحن في كلِّ لحظة، مرت امرأة جميلة بثياب فاضحة، إذا نظرتَ إليها فقد انسجمت مع شهوتك إلى النساء، أمَّا إذا غضضت بصرك عنها غضَّاً حازماً فقد عاكست شهوتك، إذاً أنت صابر، فالصبر هو مخالفة شهوات النفس وأنت مكلف أن تصبر في كلِّ دقيقة.

قال بعض العلماء: إذا أقامك الله في مقام الشكر فكُنْ من الشاكرين، وإذا أقامك في مقام الصبر فكُنْ من الصابرين، المؤمن في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور.

فأنتَ بين الشكر والصبر، لا بد من التنويه إلى أن المؤمن يجب أن يطلب من الله العافية، وهذا مأخوذ من رسول الله ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بنِ مالِكٍ قالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فقالَ: يا رَسُولَ الله أَيُّ الدُّعاءِ أَفْضَلُ؟ قالَ: «سَلْ رَبَّكَ العَفْوَ والعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ»، ثم أتاهُ في اليَوْمِ الثاني فقالَ: يا رَسُولَ الله أيُّ الدُّعاءِ أفْضَلُ؟ قالَ: «سَلْ رَبَّكَ العَفْوَ والعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ»، ثُمَّ أتاهُ في اليوْمِ الثَّالِثِ فقالَ: يا نَبِيَّ الله أيُّ الدُّعاءِ أفْضَلُ؟قالَ: «سَلْ رَبَّكَ العَفْوَ وَالعافِيَةَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ؛ فإذا أُعْطِيتَ العَفْوَ وَالعافِيَةَ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ فَقَدْ أفْلَحْتَ» [رواه الترمذي].

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

وفي الطائف قال ﷺ: «إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي غير أن عافيتك أوسع لي» [الطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن جعفر].

عزيزي القارئ: سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإذا أُعطيت العافية في الدنيا وأُعطيتها في الآخرة فقد أفلحت وأنجحت إن شاء الله.

ذو انتقام

من أفعاله جل جلاله: الانتقام.

يقول تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف:٢٥].

ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران:٤].

إذا وُصف إنسان بأنه منتقم فالأمر يختلف عما إذا كان هذا الوصف لله تعالى، لأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها فضلى، والدليل قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

وقد يتصف إنسان بالانتقام فلا نحبُّه، لكنَّ الله سبحانه وتعالى حينما يضع للظالم حدّاً، ويحجزه عن أن يؤذي الآخرين، فهذا المعنى يليق بكمال الله جل جلاله، والنقمة هي العقوبة، والله جل جلاله يعاقب ليؤدب، ويؤدب ليسعد.

وقد ذكرت من قبل أنَّ الشّرَّ المطلق لا وجود له في الكون بالنسبة لله سبحانه وتعالى؛ لأنَّ وجوده يتناقض مع وجود الله، ولأنَّ الله جل جلاله ذات كاملة، ولله

الأسماء الحسنى، ويمكن أن نصف هذه الذات الكاملة بالوجود والوحدانية والكمال، فأيُّ صفة اتصف الله بها، وأيُّ اسم سمَّى نفسه به، يجب أن نفهمه فهماً يليق بكمال الله.

من معاني المنتقم

المنتقم من الانتقام، والنِّقْمة هي العقوبة، والمنتقم الذي يعاقب من يشاء مهما علا، أما الإنسان فلا يستطيع أن يعاقب من يشاء، إذ لا يعاقب إلا من هو دونه، ولا يستطيع أن يعاقب ندّاً أو مساوياً له، وأمَّا أن يعاقب من هو أعلى منه فهذا مستحيل، لكنَّ الله سبحانه وتعالى ينتقم ممن يشاء؛ أي: يعاقب من يشاء، فإذا كنت مع القويّ فأنت قويٌّ، مهما يكن عدوُّك كبيراً، أو قويّاً أو جبّاراً، أو طاغياً، أو متطاولاً، فالله جل جلاله أكبر، ينتقم منه، ويوقفه عند حدّه، ويحجزه عن أن يؤذي خلق الله عز وجل، وبهذا المعنى نفهم الانتقام.

فلو أنَّك في الدنيا رأيت إنساناً شارداً مجرماً عاتياً يقتل ويسرق ويفعل ما يحلو له، فحينما يُلقى القبض عليه وتُحجز حريته يشعر الناس جميعاً بالراحة لأنّه حُجز عن أن يؤذي خلق الله عز وجل، فالانتقام في هذا المعنى يليق بكمال الله جل جلاله.

قال بعض العلماء: «المنتقم في حق الله تعالى هو الذي يقصم ظهور الطغاة ويشدد العقوبة على العصاة، والانتقام أشدُّ من العقوبة العاجلة التي لا تمكن صاحبها من الإمعان في المعصية، لكن المنتقم هو الذي يعاقب عقوبة تمنع المعاقَب من أن يقع في المعصية»

وقد تجد إنساناً فتسأل كيف يصلح هذا الإنسان، ويعود إلى الله ويستقيم على أمره، فتجد أن الله جل جلاله عاقبه بعقاب أو ساق له شدةً تحار فيها العقول فإذا به يقف عند حده، ويرتدع ويعود إلى ربه ويسلك الطريق القويم، فالله هو الرّب، ينتقم ليؤدب، ويؤدب ليسعد.

قالوا: المنتقم له معنى آخر، «هو الذي عُرفت عظمته فخشي العباد نقمته»، وتقريباً للمعنى؛ دولة عظمى لديها سلاح نووي قد لا تستخدم هذ السلاح إطلاقاً، لكنها مرهوبة الجانب، فلا يفكّر أحد أن يعتدي عليها، فالله سبحانه وتعالى لأنه إذا أراد أن يعاقب عاقب ولا رادّ لإرادته: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [البروج:١٢].

فإذا عرف الإنسان عظمة الله عز وجل تأدّب، معه، فكان تعظيم الله سبباً لطاعته ولخشية نقمته، فالنقمة هي العقوبة، ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:١٣٦] أي: عاقبناهم، ولكن أريد أن أوضح بعض المعاني، الكلمة كما تعلمنا في اللغة هي كائن يولد وينمو ويهرم يموت، وهناك كلمات ميتة كثيرة جداً، وأضرب لكم بعض الأمثلة، قال النابغة الذيباني:

مقذوفــةٍ بــدخيسِ الــنَّحْضِ بازلُهــا ... لــه صَرِيــفٌ صريــفَ القعــو بالمســد

هل فهمت شيئاً؟ لا أعتقد، فهذه كلمات لا ينتفع بها إلا المختصون.

وأحياناً، للكلمة معنى رفيع، وبعد حين تكتسب معنى آخر غير المعنى الذي وُضعت له، كنت أضرب على ذلك المثل التالي، الجرثومة في اللغة أصل الشيء، وقد وقف أبو تمام يمدح المعتصم يصفه بأنه جرثومة الدين والإسلام والحسب، وهذا بيت في المديح، والخليفة تقبّل هذا البيت بنفس رضيّة.

قال أبو تمام:

خليفــة الله جــازى الله ســعيك عــن ... جرثومــة الــدين والإســلام والحســبِ

أما كلمة جرثومة فهي في هذا السياق كلمة ذم، إذ تأخذ الكلمة معنى غير المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة.

وكلمة استعمار؛ من إعمار الأرض، يعني أنت مثلاً إذا بنيت الأبنية وبنيت الجسور، وأنشأت المدارس والمستشفيات وشققت الطرق فأنت مستعمِر، أما حينما

جاءت قوة غاشمة واحتلت البلاد وسلبت ونهبت وقهرت وطغت وبغت فقد سميت استعماراً، فكلمة استعمار لها وقع سيِّئ في النفوس.

وكلمة عصابة: تعني الجماعة، قال ﷺ قبيل معركة بدر: «إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض» [مسلم، عن عمر بن الخطاب]، أما إذا قلت الآن: عصابة فهي تعني عصابة المجرمين أو عصابة قطاع طرق، فلها معنى آخر، فينبغي لك أن تفهم الكلمة كما هي في أصل اللغة، فالمنتقم هو المعاقب.

ولعلنا نفهم المنتقم من البشر الذي يحقد والذي يعاقب ليتشفى، هذه المعاني التي نفهمها من كلام الناس اليوم لا علاقة لها بهذا الاسم إطلاقاً، والمنتقم هو الذي يعاقب، أو هو الذي يعاقب عقوبة تردع صاحبها عن أن يعصي الله عز وجل، والمنتقم هو الذي يعاقب ليوقف الباغي والظالم عند حدّه، والناس جميعاً يرتاحون إذا أُلقي القبض على مجرم عاتٍ باغٍ ووُضع حدٌّ لإجرامه.

والمعنى الفرعي الذي ذكرته قبل قليل، هو الذي عُرفت عظمته فخشي الناس نقمته، ومن عرف رحمته رجا نعمته، فإن عرفت عقوبته خشيت معصيته، وإن عرفت رحمته رجوت نعمته.

وسيدنا عمر قال له بعض أصحاب رسول الله ﷺ: إن الناس خافوا شدتك وبطشك، فبكى وقال: لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

وربنا عز وجل أحياناً يريك من رحمته الشيء الكثير، فترتاح راحة كبرى، وتطمح، وتطمع وتسترخي أحياناً، وتتساهل وتقصِّر، ويريك من شدَّته فتخاف، فهو يعالج الناس، إن أقبلوا على رحمته، وإن قصَّروا أو تساهلوا أراهم من شدته.

ويقول بعض العلماء: إن المنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكّل بالجناة، ويشدّد العقاب على الطغاة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

إنه النمروذ فتروي الأخبار أن بعوضة دخلت إلى أنفه واستقرت في أعلى خيشومه فأحدثتْ من الألم ما لا يطاق، والإنسان ضعيف، فلو أن قناة الدمع سُدت لأصبحت حياته لا تطاق، ولو أن المستقيم أصيب بالشلل أو أصيب بورم خبيث واستؤصل، وإذا استؤصل فسوف تحوّل الفضلات إلى فتحة في جدار البطن، وهذا شيء لا يُحتمل... ولو أن هذه الجفون أطبقت بعضها على بعض ولم ترفع إلا بيدك، لغدا الأمر فاجعة، وربنا عز وجل لديه آلاف الأدوية بل مئات ألوف الأدوية لعلاج العصاة والعتاة، فإذا كنت في طاعته فأنت في ظله وحفظه ورحمته وفضله.

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكل بالجناة، ويشدد العقاب على الطغاة، ولكن بعد الإعذار والإنذار، إن الله جلت حكمته لا يبطش من أول مرة، بل يعطي فرصة، وزمناً كي تتوب، وترجع.

وبعد الإعذار والإنذار، فالله يعطي تنبيهاً، وهناك من يقود مركبته في أحد طرق دمشق، فأصيب بأزمة قلبية فانكبَّ على المقود وزوجته إلى جانبه فصرخت، ومن غرائب الموافقات، أو من توفيق الله عز وجل أن صديقه خلفه بسيارته، فخرج من مركبته وحمله على المقعد الخلفي وأخذه إلى المشفى فأدخل إلى غرفة العناية المشددة، وبعد يومين أو ثلاثة، شعر بالخطر وقال: ائتوني بآلة التسجيل، فقال: المحل الفلاني لأخي وليس لي لقد اغتصبته منه، والبيت الفلاني لفلان، والأرض الفلانية لفلان، وكلّ الأراضي والبيوت والحوانيت التي اغتصبها اعترف بها على هذا الشريط، وبعد يومين أو ثلاثة، شعر أنه عاد إلى ما كان من عافية، وغدا طبيعياً جداً، فقال: أين الشريط؟ ائتوني به، فكسره وعاد إلى ما كان عليه، وبعد ثمانية أشهر جاءت النوبة القاضية.

فالله عز وجل متى يبطش؟ ومتى يهلك؟ ومتى ينتقم؟ بعدما يعذر وينذر، وبعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال.

بعض العلماء يرى أن الانتقام نتيجة الكراهية، كراهية وعقوبة، لكنك إذا قلت: إن الله يكره، فالله لا يكره الإنسان لأنه إنسان بل يكره عمله فقط، فلا يغضب منه ولا يغضب عليه، ولا يكرهه بل يكره عمله، وتقريباً للمعنى أضرب هذا المثل، فالأب مع ابنه المنحرف يكره انحرافه وهو ابنه، فإذا عاد إليه عاد إلى مكانته الطبيعية، إذاً فالكراهية لشيء والعقوبة عليه أيضاً كراهية وعقوبة، إلا أن كراهية الله عز وجل لكماله ولحرصه ورحمته، يكره العمل الذي يفضي بصاحبه إلى النار، فانتقام الله تعالى من العصاة على ما كره منهم ليصلحهم وليوصلهم إلى أبوابه وأبواب طاعته، والكراهة في حق الله تعالى ذمُّ الفاعل والحكم عليه بالعقوبة، أمَّا أن يكره الله عز وجل إنساناً فيتحمَّل مشقة منه، فهذا لا يليق بالله أبداً، إذ لا نفع ولا ضرر يصل إليه ولا شيء ينال منه، إنه فوق كلِّ شيء.

وإذا غضب الله عز وجل فلا يغضب لنفسه ولا يغضب على خلقه، بل يغضب لأعمالهم التي سوف تشقيهم، إنه غني عنهم، ولو أن العباد جميعاً على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد في ملك الله شيء.

وقيل: المنتقم هو الذي يشدد العقوبة على الظالمين، ويسلط البلاء على المجرمين، وهو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات، فمن لم ينتفع بالإنذارات سلط عليه العقوبات.

وشيء مألوف؛ أن يقول لك الطبيب مثلاً: لا تدخن فالدخان يسبب الأمراض الخبيثة، وأمراض القلب والأوعية، وأمراض الموات «الغرغرين»، فإن لم تستجب لهذه النصيحة يداهمك المرض المزعج وتقع فريسة له.

وقال بعضهم: هو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات، فإن لم ينتفع بها الإنسان سلط عليه العقوبات والانتقامات.

ورود الانتقام في القرآن الكريم

الانتقام مادة لغوية؛ وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة:٩٥].

ومن عاد، واستمرأ المعصية، وبالغ فيها، ولم يرتدع، فينتقم الله منه، أي: يعاقبه، يعاقبه ليرحمه.

كما وردت كلمة انتقمنا منسوبة إلى الله جل جلاله في الأعراف: ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٦].

موسى رسول كريم جاء فرعونَ ليدعوه إلى رب كريم، جاء بالبينات والمعجزات والآيات، جاء لينهاه عن قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، فما كان من فرعون الطاغية إلا أن جمع جنوده ولحق بموسى ومن معه، قال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:٥٤-٥٥].

تصور فئة قليلة خائفة وجِلة وضعيفة مستضعَفة، وراءها فرعون بجبروته وقوته وطغيانه وجنوده، والبحر أمامها، وفرعون وراءها، والهلاك محقق: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٢].

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الشعراء:٦٦] أي: فرعون وقومه.

والحكمة بالغة، أنقذ الله جسده إلى الشاطئ، لأن هذا الجسد لو لم يصل إلى الشاطئ لما صدق الناس أنه غرق، وهو يدعي الألوهية، قال جل شأنه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس:٩٢].

والذي سمعته أنه محنط في متحف مصر، وأغلب الظن أن هذا المحنط في متحف مصر الفرعوني هو نفسه فرعون موسى، لأن آثار الملح موجودة في فمه، هكذا يقول بعض العلماء: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) ﴾ [الأعراف:١٣٦].

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر:٧٩].

الأنبياء على صراط واضح مستقيم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أهلِ الكُتُبِ فَقَرَأَهُ على النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ فَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ فيها يا ابْنَ الخَطَّابِ؟! وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيّاً مَا وَسِعَهُ إلا أَنْ يَتَّبِعَنِي» [مسند الإمام أحمد].

وفي سورة الروم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم:٤٧].

ويقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات:١٧٣].

كن جندياً لله وانتظر وعد الله بالنصر، فلا يمكن لمن كان جندياً لله أن يُهزم، وإذا هزم الإنسان فذلك يرجع إلى خلل في جنديته لله عز وجل، وليس معنى أن يكون جندياً لله أن يحارب فحسب، فالكلمة لها معنى واسع جداً، فأنت إذا وظَّفت علمك وخبرتك في سبيل الله، في سبيل إحقاق الحق فأنت جندي لله، أحياناً تقول لإنسان كبير: نحن جنودك، وليس هناك حرب، ونحن أعوانك، ونحن في خدمتك، وطاقاتنا مرهونة لديك، فكيف إذا كنت جندياً لله، والمؤمن الصادق، علمه وخبرته وماله ولسانه قلمه واختصاصه وحرفته ومهنته ومكانته وميزاته وخصائصه كلُّها موظَّفة في

سبيل الله، ومعظم الناس يأكلون يشربون ويعملون ويتَّجرون ويربحون إلا المؤمن، كلُّ هذه الأفعال الاعتيادية التي يفعلها كلُّ الناس ولا أجر لهم، لكن إذا فعلها المؤمن تُحسب له أعمالاً صالحة لأنه يبتغي بها وجه الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء:١٠٤].

وعندما يسهر الكفار ويخططون ويبذلون الجهود الكبيرة والجبارة ليطفئوا نور الله عز وجل، وليضيقوا على المؤمنين، ليضعفوا دوائر الحق، فهذا جهد ووقت وطاقة وذكاء وعلم وإمكانات وأموال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنفال:٣٦].

ومما ينبغي على المؤمنين فهمه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ ﴾، لكن: ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

أضرب لكم مثلاً آخر؛ شابان أزمعا على أن يتزوجا، هل من السهل تأمين بيت، لقد غدا حال الشاب أنه لا يصل إلى مفتاح بيت إلا بشق النفس، وقد يكون بيتاً مؤلفاً من غرفة واحدة في أطراف المدينة البعيدة، فإذا ملك هذا المفتاح فكأنه ملكَ مفتاح الجنة، هذا الشاب الذي يسعى للزواج يبذل جهداً كبيراً جداً، فإذا أراد من الزواج المتعة واللذة فقط، فهو يألم كما يألم أيُّ شاب مؤمن، ولكنَّ المؤمن يرجو من الله في زواجه ما لا يرجوه غير المؤمن، فالمؤمن يطمع في أن يرزقه الله ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده، ويطمع في زوجة يأخذ بيدها إلى الله، وأن يؤسس عشّاً إسلامياً نموذجياً لكلِّ من يقتدي به، وهذه هي النقطة الدقيقة، فالأعمال الاعتيادية التي يفعلها معظم الناس

مكرهين لا أجر لهم عليها عند الله عز وجل، إلا أنَّ المؤمن كلُّ نشاطاته، وكلُّ طاقاته وإمكاناته موظَّفة في خدمة الحق.

وجاء في سورة الزخرف: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الزخرف:٢٥].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم، فقال: يا أبا جهل بن هشام، يا أميَّةَ بن خَلَفَ، يا عُتبةَ بن ربيعةَ، يا شيبة بن ربيعة، أليسَ قد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّاً، فإني قد وجدتُ ما وَعَدني رَبي حقّاً؟ فسمِع عمرُ بن الخطاب قولَ النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يَسْمَعُوا؟ وأنَّى يُجِيبُوا، وقد جيَّفُوا؟ قال: والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنهم لا يَقْدرُونَ أن يجيبوا، ثم أمر بهم فسُحِبوا، فالقوا في قَليب بدر [أخرجه مسلم].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزخرف:٥٥].

تلاحظون طغياناً وبغياً وعدواناً وكبراً وغطرسة، وقد سمعتم قبل سنوات كيف أن اليهود أرادوا في ليلة القدر أن ينفذوا عدواناً مجرماً على لبنان، وكيف انتقم الله منهم، إنهم مئة من نخبة الضباط لا يمكن أن يعوَّضوا في أقل من عشر سنين، سمعوا ما في الصندوق الأسود فقال الطيار في الطيارة العليا المحلقة، إنني أسقط ولا أدري لم أسقط! نزل فوق الطائرة السفلى التي ترافقها فاحترقتا ونزلت الطائرتان فوق مستعمرة فأهلكت هؤلاء. لقد أرادوا أن يعتدوا في ليلة القدر... ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

وفي آل عمران: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران:٣-٤].

هناك نقطة عميقة الدِّلالة، يجب أن يكون في قلبك خوف من الله، وتعظيم، وحب له سبحانه في وقت واحد: «قال يا رب: أي عبادي أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إليّ تقي القلب، نقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءاً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي، قال: يا رب إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي»

فالدعوة إلى الله يجب أن تتحرّك في هذه المتوازيات الثلاثة، ويجب أن تبين للناس عظمة الله عز وجل، من أجل أن تطيعه تعظيماً، وينبغي لك أن ترى فضله عليك من أجل أن تحبه، وينبغي لك أن ترى بطشه وشدته وانتقامه أحياناً من أجل أن تخاف منه، ولا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن الصادق تعظيم عن طريق الآيات، ومحبة عن طريق النعم، وخوف عن طريق العقوبات، فالعقوبات لها معنى، والنعم لها معنى، والآيات لها معنى، تعظمه وتحبه وتخاف منه، والآية الكريمة: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

رغباً راغبين ورهباً خائفين، نرجو رحمتك ونخشى عذابك.

ثم انظر في هذه الآية الكريمة في سورة إبراهيم: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾، يرخي الحبل، فيظنُّ الإنسان أنَّ أحداً لن يستطيع أن يوقفه عند حدِّه، يُشَدُّ الحبل فجأة فإذا هو في قبضة الله، فمن العاقل؟ ومن الموفَّق؟ إنَّه من يدخل في حساباته عظمة الله عز وجل، وقوَّته وبطشه.

قال بعض العلماء: «صفة الانتقام من صفات الجلال والقهر»... أما الرحمن الرحيم المنان؛ فهذه أسماء الرحمة... وأمَّا الجبار المتكبر القوي؛ فهذه من أسماء الجلال والقهر.

وإن البحر جميل جداً إذا كان هادئاً، فإذا هاج الموج فهو يمثل اسم الجبار، والله عز وجل يتجلّى على شيء باسم الجمال، فإذا هو يأخذ بالألباب، ويتجلى على شيء آخر باسم القهَّار... فانظر إلى الزلازل، فهناك شيء مخيف رهيب: ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) ﴾ [الحجر:٧٤].

بين الحين والحين هناك زلازل، يقال: ثلاثة آلاف متشرد، ألف وخمسمئة قتيل، في أربع ثوان، ست درجات على مقياس رختر، انتهى كلُّ شيء إلى قتل ودمار، أبنية انهارت وأنابيب تفجرت وحرائق اشتعلت. ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤٧) ﴾.

وفي الزمر: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر:٣٧].

والناس يستهزئون أحياناً بكلمة: إني سأشكوك إلى الله، وحبذا لو تعرفون أبعاد هذه الكلمة، ويقول لك أحدهم: سأشكوك إلى الله ولن أسامحك، والله لو تعرف أبعاد هذه الكلمة لارتعدت فرائصك.

وهذه امرأة كانت تنتقد عمر بن الخطاب، فاستدعاها في اليوم التالي وأعطاها مبلغاً كبيراً وكتبت له براءة من تقصيره، فقال: ضعوها في كفني، فأنا استسمحت منها.

والإنسان حينما يعرف الله عز وجل ويقف عند حدوده، لا يؤذي أحداً من خلقه لأن الله منتقم، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف:١٣٦].

والإنسان حينما يكون جاهلاً يتطاول ويتجاوز حدوده، وقد سمعت مئات الحوادث والحكايات حول هذا الموضوع، فعندما يتجبّر الإنسان ويتكبّر ويتعالى ويتغطرس، الله جل جلاله لا بدَّ من أن يرى الناس فيه يوماً، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ [السجدة:٢٢].

ولو رأيت إنساناً يبيع ويشتري ويربح ملايين ويركب أفخر المركبات ويستطيل على خلق الله، ويتحدى عظمة الله عز وجل، ولم يعبأ بشيء من أفعاله، وعشت أمداً طويلاً فلم ترَ فيه يوماً يسوؤه، فتذكر أن الله عز وجل يقول: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزخرف:٤١].

ولا بد من أن ننتقم منهم، سواء أرأيت هذا أم لم ترَ، وكفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان:١٦].

وهذه بلدة في الساحل الأطلسي اسمها أغادير كانت من أفسق البلدان في المغرب، كلُّها نوادي عراة وخمور وزنى، ترتكب فيها كلُّ أنواع المعاصي، وخلال عشرين أو ثلاثين ثانية جعلها الله رأساً على عقب... ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾.

ومن لم يعرف أسماء الجلال وأخلاق الكبير المتعال وقع في الضلال والنكال، فإن عرفت أنه كريم رحيم فاعرف أنه منتقم شديد عظيم... دققوا النظر في هذه الآية: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

زرت مرةً رجلاً في مرض شديد فقال لي: والله -ويكاد قلبه يعتصر آلاماً- أنا مصاب بمرضين، فأدوية هذا المرض تؤذي الآخر وأدوية الآخر تؤذي الأول ولا أدري ماذا أفعل.

وأحيانا تتلاحق المصائب من كلِّ جانب وتحيط بالإنسان، ولكن الخوف له وظيفة تربوية. قال الفضيل رحمه الله:

«من خاف الله دلَّه الخوف على كلِّ خير».

ونحن مؤمنون بأن هناك خوفاً مقدساً، فأروع أنواع الخوف أن تخاف من الله، والنبي ﷺ سيد الرسل، أرسل خادمه بحاجة فغاب طويلاً، فلما عاد، قال له: «لولا

القصاص لأوجعتك بهذا السواك» [ابن سعد في الطبقات، عن أم سلمة]، وهل السواك يؤلم الطفل؟ لكن الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله.

نصيب المؤمن من معرفته بالله المنتقم

المؤمن الكامل ينتقم من أعداء الله تعالى، فلا يجاملهم ولا يعينهم على معصية، ولا يغطي انحرافهم، ولا يباركه، ويقف أمامهم بجرأة ويتعالى عليهم.

وفي الآية التالية يصف الله عز وجل المؤمنين قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤].

فلا تكن عوناً لإنسان منحرف، فمن أعان ظالماً سلطه الله عليه، ومن شرك في دم حرام بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه «آيس من رحمة الله» [الطبراني في الكبير، عن ابن عباس].

تخلق بكمالات الله، فهذا إنسان منحرف، فاسق فاجر، لا تبجِّله ولا تعظِّمْه، ولا تقل فيه كلاماً لست مقتنعاً به.

إلهي! أنت المنتقم من أعدائك الظالمين، القاهر بسطوتك المجرمين، قد انتقمت من النمرود وفرعون وهامان ومحقت أهل الظلم والطغيان.

فإذا خفت من الله وصلت إلى كل خير، وأعظم خوف أن تخاف الله، ورأس الحكمة مخافة الله، والإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن.

تصور هرة ينتقم الله لها!

حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسولِ الله ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا -أَوْ هِرٍّ- رَبَطَتْها فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً» [صحيح مسلم].

إنك جامع الناس

من أفعاله جل جلاله: الجمع.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ⁽٩⁾﴾ [آل عمران:٩].

وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ⁽١٤٠⁾﴾ [النساء:١٤٠].

ويقول أيضاً: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ⁽٨٧⁾﴾ [النساء:٨٧].

وفي سورة الأنعام قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ⁽١٢⁾﴾ [الأنعام:١٢].

وفي سورة الكهف قال تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الكهف:٩٩].

وفي سورة سبأ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ:٢٦].

وفي سورة الجاثية قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الجاثية:٢٦].

وفي سورة الشورى قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى:٢٩].

وفي التغابن قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [التغابن:٩].

من معاني الجمع

الجمع هو الضَّمُّ، جمعتُ يديَّ، أي: ضممتُهما، تجميع أجزاء الشيء بعضها إلى بعض هو الجمع، ويوم الجمع هو يوم القيامة، حيث يجمع الله عز وجل كلَّ الخلائق للحساب، فالله سبحانه وتعالى في هذا اليوم يجمع الأولين والآخرين، ويجمع الإنس والجن، ويجمع أهل السماء وأهل الأرض، ويوم الجمع أيضاً يجمع الله سبحانه وتعالى العبدَ وعملَه.

قد تلتقي بإنسان في مكانٍ ما يقول لك: اسمي فلان، وأحمل الشهادة الفلانيّة، ولي المؤلَّف الفلانيّ، فلو طلبت إضبارته في دائرته لوجدت هناك عقوبات وأعمالاً لا تُرضي، فأنت لم تكتشف حقيقته، أما إذا جُمع مع أعماله فإنَّ التقييم يكون صحيحاً.

أعود وأقول: يوم الجمع يوم القيامة، يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين، بين الإنس والجن، بين أهل السماء وأهل الأرض، يجمع بين العبد وعمله فقد قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء:١٤].

الإنسان أحياناً يُفتضَح في مكان فينتقل إلى بلدة أخرى، وفي هذه البلدة لا أحد يعرفه، أمَّا إذا انتقلت المعلومات عنه إلى تلك البلدة فقد جُمع مع عمله، شيءٌ مخيف أن يُجمع الإنسان مع عمله، أن يكون عمله كلُّه مسطوراً في كتاب، وأنَّ هذا الكتاب يرافقه إلى أيِّ مكانٍ انتقل إليه.

وسُمِّيَ يومَ الجمع؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يجمع بين الظالم والمظلوم، بين القوي والضعيف، بين المعطي والآخذ، بين المتكبِّر والمتواضع، بين القوي الظالم والمستضعف المظلوم، يجمع بينهم ليقتصَّ الله للضعيف من القوي، للمظلوم من الظالم، للمستضعَف من المستكبِر، ويجمع الله سبحانه وتعالى في هذا اليوم بين كلِّ نبيٍّ وأمَّته، كلُّ نبيٍّ يأتي مع أُمَّته ليكون شهيداً عليهم فقد قال تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة:١١٧].

ويجمع الله عز وجل في هذا اليوم بين ثواب أهل طاعته، وعقاب أهل معصيته، وسمّى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يومَ الجمع، لأنَّه يجمع فيه كلَّ هذه الخلائق من أوَّلها إلى آخرها، يجمع الإنس والجن، يجمع أهل السماء وأهل الأرض، يجمع كلَّ عبدٍ مع عمله، ذلك يوم الجمع.

فأحياناً تقف عقبة في سبيل إحقاق الحق، ذلك أنَّ الطرف الآخر لم يُبلَّغ لعدم وجود عنوان معروف للتبليغ عليه، فماذا يفعل المظلوم؟ أقام دعوى، فكيف يحضر الطرف الآخر ويأتي به إلى ساحة القضاء وهو ليس له عنوان وإبلاغه مستحيل؟ لكن الله سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى يجمع، يجمع القوي مع الضعيف، والظالم مع

المظلوم، والمستكبر مع المستضعَف، هذا معنى... لأنَّ يوم القيامة هو يوم الجمع، فالله سبحانه وتعالى جامعٌ، يجمع كلَّ هذه الخلائق ليحاسبها.

والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلَّها، ذاتاً، وصفاتٍ، وأفعالاً، وكما تعلم أنَّ كلَّ إنسانٍ يتفوَّق في جانبٍ من جوانب الكمال، أمَّا أن يجمع الكمالات كلَّها فهذا مستحيل، أما أن يجمع الاختصاصات كلَّها فهو أشدُّ استحالةً، أمَّا أن يجمع الحِرف كلَّها فمستحيل، أما أن يجمع الخبرات كلَّها فمستحيل أيضاً.

فالإنسان له حرفةٌ واحدة، واختصاصٌ واحد، وتفوُّق واحد، واهتمام واحد، ونشاط واحد، أما أن يجمع كلَّ الكمالات، يجمع كلَّ الاختصاصات فلا، فعندما يتقن الإنسان عملين يُدهشنا... نقول: ما شاء الله! هذا له اختصاص علمي وحرفة يدوية، أو تجارة وتدريس، يعجبنا أن يجمع الإنسان بين شيئين.

لكنَّ الله سبحانه جلَّ في عُلاه جمع الكمالات كلَّها، أجل جمع كل ذلك، أسماؤه كلُّها حسنى... فالإنسان لا يستطيع أن يتفوَّق إلا في جانب، إلا أنَّ النبي ﷺ جمع الكمالات كلها، جمع الكمالات البشرية كلَّها، وكلُّ صحابيٍّ من صحابته حاز على بعضها، فهذا تفوَّق في شجاعته، وهذا في حلمه، وهذا في جوده، وهذا في عفوه، وهذا في عبادته، وهذا في قيادته، لكنَّ النبي ﷺ كان بطلاً في كلِّ الاختصاصات، فلذلك مُدح فقيل فيه:

وأجمل منك لم ترَ قطُّ عيني وأكمل منك لم تلِدِ النساءُ

كان ﷺ في أعلى درجات الأدب، في أعلى درجات الحلم، في أعلى درجات الرحمة... في أعلى درجات الوقار، في أعلى درجات الهيبة، في أعلى درجات العلم.

يا أيُّها الأُميُّ حَسْبُكَ رتبةً في العلمِ أن دانت لك العُلماءُ

فالنبيُّ ﷺ جمع هذه الكمالات البشرية كلَّها، والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلَّها في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله.

وكمثالٍ في حياتنا الواقعية أن يجمع إنسان مئة ألف من الناس دفعة واحدة فهذا مستحيل فقد يجمع خمسة آلاف، ثلاثة آلاف، فجمع الناس يحتاج إلى طاقات كبيرة جداً، يحتاج إلى ملكات قيادية، يحتاج إلى تفوُّقٍ، من أجل أن تجمع الناس إليك.

كم من إنسان في هذه الأرض؟ ستة آلاف مليون كلُّهم من بنيةٍ واحدة، والدليل أنَّ الدواء الذي يُصنع في كندا يستعمل في أستراليا، وأنَّ المسكِّن الذي صنع في فرنسا يؤثِّر في اليابان، وأنَّ الدواء المضاد للالتهاب إذا صنع في اليابان يؤثِّر في البرازيل، فمعنى ذلك أنَّ بنية الخلق واحدة، فالله تعالى جمع بين المتماثلات، إلا أنه من سعة الله عزَّ وجلَّ أنَّ كلَّ إنسانٍ نسيج وحده، فالإنسان لكرامته على الله عز وجل جعله فرداً فهو فردٌ في شكله، فردٌ في قِوامه، فردٌ في ملامحه، فردٌ في لونه، فردٌ في قُزحيَّة عينه، فردٌ في تركيب دمه، فردٌ في بصمته، فردٌ في نبرة صوته، فالله عز وجل جامع وواسع، جمع المتماثلات وواسعٌ جعل كلَّ إنسانٍ نسيج وحده، وله طابعٌ خاص لا يُشركه فيه أحد.

أما المتباينات... فقد جمع بين السماء والأرض، والطول والعرض، وجمع الماء... البحر واليابسة... فعند الساحل تجد هذا هو البحر وهذه هي اليابسة، يجمع بين المتباينات... ماءٌ ويابسة، بحرٌ ونهرٌ، جبلٌ وسهلٌ، سهلٌ وغورٌ، ساحلٌ وداخل... فالأشكال متباينة، والطعوم متباينة، فكم لوناً موجوداً في الكون؟ لو نظرت إلى باقة من الورد فكم لوناً فيها؟ قرأت قبل أيام أنَّ في البحر وحده مليون نوع من الأسماك أي ألف ألف نوع من السمك، هذا جمع بين المتباينات.

فتجد سمكة شفافة صغيرة من أسماك الزينة، وسمكة سوداء، وأخرى عملاقة طولها ثلاثون متراً، وتزن مئة وخمسين طناً وهو الحوت الأزرق ويعيش في المحيط الجنوبي، ويستخرج منه تسعون برميلاً من زيت الحوت، وخمسون طناً من الدهون، وخمسون طناً من اللحم، ويزن لسانه أربع مئة وخمسين كيلو غراماً مثلاً... وإذا أرضع وليده فالرضعة الواحدة تبلغ ثلاث مئة كيلوغرام، وإذا أراد أن يأكل فإنه يلتهم في الوجبة المعتدلة أربعة أطنان، فبداخل البحر حوت وتعوم فيه سمكة سوداء طولها سنتيمتر واحد تزيينية.

وهناك سمكةٌ كأنها باقة من الورد، وهناك سمك يمشي على أربعة أرجل في أعماق المحيطات وقاعها، وهناك سمكٌ يدافع عن نفسه بشرارة صاعقة كهربائية تبلغ ستة آلاف فولط، وهناك سمك يهرب من عدوِّه عن طريق سحابة سوداء كأنها حبر أسود، وهذا الذي يستخرج منه حبر المطابع، وهناك سمك له ضوء يهتدي به أثناء سيره في أعماق المحيطات ويجذب إليه فريسته ليأكلها، فإذا قرأ الإنسان موسوعة عن البحار يرى العجب العجاب، وهناك سمكةٌ من نوع الأفعى طولها سبعة وعشرون متراً، وهناك خنزير البحر، وقنفذ البحر، والدلفين وهو من أذكى الحيوانات وهو صديق الإنسان، فسبحانه وتعالى جعله في السواحل ومهمته أن يُنقذ الغرقى، وأن يدُلَّ ربابنة السفن، فهو كالقائد، وهو أليفٌ للإنسان بدرجة غير معقولة وصديقٌ له، فإذا ما رأى غريقاً أنقذه، أو تائهاً أرشده وهو مشهور.

فكم نوعاً من الأسماك؟ وكم نوعاً من الأطيار وكم نوعاً من الأزهار؟ كم نوعاً من الأبصال؟ الجواب أنه كثير كثير... فقد جمع الله بين المتماثلات كالإنسان، فهو متماثل في بُنيته مختلف في طباعه، والمتباينات كذلك... فتخيَّل كم شكلٍ لورقة النبات... فهناك ورقة مثل الإبرة وورق دائري، وورق مثلَّث الشكل، وورق مستطيل، وورق له طرف مسنن، وورق له طرف مستقيم، وورق له ثنيَّات كورق بعض نخيل الزينة، فلو حاولت أن تستقصي أشكال أوراق النباتات فلن تنتهي منها، فورق صغير، ونبات دائم الخضرة، ونبات متساقط الأوراق، ونبات جذري، ونبات ساقي، ونبات أساسه الورق، شيء لا يُعدُّ ولا يُحصى، فإذا دخلنا في شرح نبات واحد كالقمح مثلاً فكم نوعاً له؟ ثلاثة آلاف وخمس مئة نوع... والعنب له ثلاث مئة وثلاثون نوعاً... فليس هناك فاكهة أو محصول زراعي لا ينقسم إلى مئات بل بضع مئات من الأنواع.

وبعد،... فالله تعالى جمع بين المتباينات، وجمع بين المتماثلات، وجمع بين المتضادات، فأحياناً هناك شيءٌ مضادٌ للشيء الآخر... كالحرارة والبرودة، ظلامٌ دامس ثم بعد حين شمسٌ مشرقة.. يا رب أين الليل إذا جاء النهار؟! ففي العصر شمس جميلةٌ

جداً وهي شمس الأصيل، وفجأةً غابت وأصبح الظلام دامساً، وأين النهار إذا جاء الليل؟ ويقال: درجة الحرارة أربعون درجة مئوية، وفجأة تأتي موجة من البرودة فتلطّف الجو كثيراً، موجة من الحر فيتخفَّف الناس من ثيابهم وفجأة تعقبها موجة من البرد... فحرٌّ وبرد، ورطوبة ويبوسة، هذه كلُّها متضادات يجمع بينها.

فهو سبحانه يجمع بين المتضادات، وبين المتباينات، وبين المتماثلات.

شيء آخر... الجمع مع الوساطة... فمثلاً الحجر، وهو أساسي في حياتنا، فبناؤنا من الحجر، والحديد هذا أساسي كذلك في حياتنا، فكيف تستطيع أن تجمع بين الحديد والحجر؟ لو أردت أن تُثبت سوراً حديدياً على جدار حجري فكيف ذلك؟ خلق الله لك معدناً للجمع بينهما وهو معدن الرصاص، فتجد الرصاص ينصهر ببساطة عند الدرجة مئة مئوية ويصبح سائلاً، فإذا حفرنا حفرةً في الجدار الحجري كشكل ثمرة الكمثري -الإجاصة- وسكب فيها الرصاص الذي من خصائصه التمدُّد بعد البرودة، فإذا تمدد ليس في الأرض جهةٌ تستطيع قلع هذا القضيب الحديدي من الحجر إلا بقطعه بالمنشار. فكيف جمع بين الحجر والحديد؟ عن طريق معدن الرصاص.

وقد تجد متضادات جُمعت بعضها مع بعض من خلال أجسام ثالثة وسيطة.

هناك شيء آخر... فأحياناً سبحانه وتعالى يجمع ولكن مع الجمع هناك تنسيق... فليس من السهولة أن تكون مديراً لمؤسسة ويعمل لديك مئتا موظَّف، وكلُّهم في مكان واحد، وكلُّ إنسان يعمل في عمله دون أن يتضارب عمل مع عمل آخر، أو أن يتناقض عمل مع عمل، أو يزدوج عمل مع عمل، وهذا هو الجمع مع التنسيق.

فكذلك الحيوانات والحشرات... فالنحل يتحرك نحو حقول الأزهار، فكيف يتحرك؟ تجد النحلات المستطلعات تتعرف بادئ ذي بدء إلى موقع الحقول وتعود وترقص، وطريقة رقص هذه النحلات يُحدِّد بُعد الحقل عن خلية النحل، وتواتر الرقصة يحدِّد غزارة المحصول، وجهة الرقصة تحدِّد جهة المحصول، فهذه النحلات

تنظر إلى الراقصات فتعرف جهة الحقل، وبُعد الحقل، وغزارة الحقل، فتنطلق النحلة وتقع على الزهرة وتمتصُّ رحيقها، وبينما هي تمتصُّ رحيقها تُلقِّحها، فالنحل له وظيفة التلقيح أيضاً، ولعلَّها من أخطر الوظائف، النحلة حينما تعود إلى خليَّتها... إذا كان موسم الأزهار كثيفاً فلا تدخل إلى الخلية بل تُعطي حمولتها من الرحيق وحبوب اللقاح لنحلةٍ على باب الخلية من أجل توفير الوقت... وهناك نحلةٌ حارسة، ونحلةٌ وصيفة، ونحلةٌ منظِّفة، تنظِّف الخلايا، ونحلات تصقلها، ونحلات تُلمِّعها... تنظيف، وصقل، وتلميع.. هناك نحلات مستطلعة، وهناك نحلات مغذِّية، وظائف رائعة جداً وتنسيق بديع، فهناك ملكة واحدة في كلِّ خلية فإذا نافستها ملكةٌ أخرى قُتِلت، والذكور لها وظيفة، والإناث لها وظيفة، والحارسات لها وظيفة، ونحلات موكَّلة بتهوية الخلية، والنحلات الحارسات لا تسمح لنحلة بالدخول للخلية إلا إذا ألقت كلمة السر وإلا تُقتل... فكيف جُمعت هذه النحلات؟ كيف كان التنسيق بينها؟

أحياناً الإنسان إذا كان عنده عشرة موظفين فإذا استطاع أن يجعلهم جميعاً يعملون بتنسيق فيكون إدارياً ناجحاً جداً، أحياناً يكون العاملون كثُراً وهم قليلو الإنتاج، أو قليلو العدد كثيرو الإنتاج، أحياناً القدرة على تشغيل أعداد كبيرة من الأشخاص دون أي تضارب أو ازدواجية ومع التنسيق فهي قدرة عالية جداً، فالله عز وجل جمع الأجزاء ونسَّق بينها.

فمثلاً الإنسان حرٌّ في اختيار مهنته أليس كذلك؟ فتجد مدينة مثل دمشق كم خطاطاً فيها؟ لو أنَّ فيها مثلاً عشرة آلاف خطاط لماتوا من الجوع.. ولكن ليس فيها سوى خمسة أو ستة خطاطين، فمن الذي حدَّد عددهم؟ تجد المهن النادرة أصحابها قلائل، وتجد المهن كثيرة جداً وكلُّ إنسان حر في اختيار مهنته، ولكنك تجد في النهاية تنسيقاً عجيباً، والمهن موزَّعة توزيعاً بالتساوي، فتجد هذا له اتجاه لمهنة الميكانيك، وهذا للدراسة بالجامعة، وهذا للبيع والشراء، وهذا مهندس، وهذا طبيب، وهذا محام، وفي النهاية تجد المحصِّلة أن لدينا أطباء ومهندسين ومحامين وأصحاب حِرَف

ومدرسين ودعاة، فتجد في هذا الكون تنسيقاً عجيباً مع أن الإنسان مخيَّر، فبالرغم من أنه مخيَّر هناك تنسيق عجيب، فالله تعالى جمع عباده وألَّف بينهم، ومعنى التأليف هو التنسيق.

وإليك معنى آخر... أنَّ الله سبحانه وتعالى جمع قلوب الأحباب فقد قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال:٦٣].

فقد جمع القلوب... فزوج وزوجة... فهذا من أسرة وهذه من أسرة، هذا من بيئة وهي من بيئة أخرى، هذا له ثقافة مغايرة وهي لها ثقافة، يتزاوجان، فتجد أقرب إنسان إلى الرجل في الحياة زوجته، وأقرب رجل في حياتها زوجها، فمن ألَّف بين القلوب؟ فقد قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم:٢١].

من آياته الدالة على عظمته، أنّ الإنسان يلتقي مع شبيهه، مع مثيله أو صنفه، مع من يلتقي؟ يلتقي مع من يشبهه في فكره وفي قيمه وفي أخلاقه فمن ألّف بين القلوب ومن جمع بين الشتات؟

لو افترضنا أنَّ طائرة احترقت ومات فيها إنسان، فكيف يجمع الله رفاته؟ رفاته التي احترقت تُجمع يوم القيامة فقد قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ [القيامة:٤].

كيف؟... وقد قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المرسلات:٣٨].

الجمع واسع جداً... جمع خلقه، جمعهم في الدنيا، فقهرهم على أن يجتمعوا... ولننظر متأملين... قهرهم على أن يجتمعوا، فالإنسان مهما يكن ذكياً فهل بإمكانه أن يعيش وحده؟ فهو يحتاج إلى خبزٍ ليأكله، فلو كان يعيش وحده لاحتاج إلى أن يزرع، أن يحرث الأرض وأن يسمِّدها ويقلِّبها ويحصد محصولها، وأن يطحن وأن يخبز فمعنى ذلك أنه

يبذل جهداً مستحيلاً، ويحتاج إلى ثياب، لكنَّ الله سمح لك أن تُتقن حاجة وأن تفتقر إلى الكثير من الحاجات، فأنت مقهور، أن تجتمع فهو الذي جمعنا، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾.

وقيل: «الله تعالى هو الذي يجمع أجزاء الخلق بعد تفرُّقها عند الحشر والنشر للحساب والجزاء، أو يجمع الخلق في موقف القيامة».

وقال الإمام الرازي:

«هو الذي يجمع قلوب أوليائه إلى شهود عظمته، ويصونهم عن ملاحظة الأغيار برحمته».

يجمع الخلق ليحاسبهم، وأنت من أجل أن تعرف عظمة هذا الاسم حاول أن تدعو مئة شخص لعقد قران، فهذا يحتاج إلى اتصال هاتفي وهذا ليس لديه هاتف، وهذا ذهبت إليه فلم تجده، فالأمر صعب ولا يعرف قيمة الجمع إلا من أراد أن يجمع حتى يخبر المئة مدعو يقول لك: هلكت... فقد بذلت جهداً فوق طاقتي... وهذا فقط للإعلام، فكيف أن يأتوا جميعاً إليك؟ أما ربنا عز وجل فكلُّ هؤلاء الخلق يجمعهم يوم القيامة ليحاسبهم في وقت يسير وعلى صعيد واحد.

قال أحد العلماء: «الجامع في وصفه تعالى بمعنى الحاشر للخلق والناشر لهم يوم القيامة للثواب والعقاب»... يجمعهم ويُحاسبهم... بل إنه يجمع لحومهم المتفرِّقة.. هذا مات في البحر غرقاً، وهذا مات في الجو احتراقاً، وهذا دُفن في صحراء، وذاك دُفن في سفح جبل، حتى لحوم هؤلاء الموتى نفسها تجمع يوم القيامة... وجلودهم المتمزِّقة،

وعِظامهم النخرة، وهو الجامع بين الأشكال والأمثال، وبين المختلفات والأضداد كالجماد والنبات والحيوان.

فمثلاً الماء... فاسأل كلَّ علماء الفيزياء والكيمياء يقولون لك: أوكسجين وهيدروجين وهما غازان، ولكن الهيدروجين شديد الاشتعال والأوكسجين غاز يساعد على الاشتعال، والماء جمع بينهما وبه تُطفأُ النار... فبالماء تطفأ النار، والماء أساسه غازان أحدهما شديد الاشتعال، والثاني يساعد على الاشتعال وقد جُمِعا في الماء، والدليل إذا كان لديك مدفأة تعمل على الوقود السائل، ضَعْ عدَّة نقاط من الماء مع الوقود يجعل الشعلة تتألّق ويحدث شبه انفجارات لتحلل الماء إلى غازين، وهذان الغازان ساعدا على الاشتعال، حتى أعلمني بعض الإخوة في بعض الأفران يضعون نقطة من الماء بنظام معين مع الوقود السائل ليزداد اشتعاله... فكيف جُمع الأوكسجين والهيدروجين في الماء؟

نضرب لكم أمثلة بسيطة لا تحتاج إلى بحوث علمية... فالدجاجة ماذا تأكل؟ تأكل كلَّ شيء حتى الفضلات، وحتى فضلات الإنسان، وتعطيك بيضاً، وهذا البيض شيء مدهش فهو يحتوي على أربعة عشر فيتاميناً، وبروتينات، ومواد دهنية، مواد كلسية، والدليل أنَّ هذه البيضة تنقلب إلى فرخ صغير، معنى ذلك أنَّ فيها خلقاً كاملاً ففيها من العناصر التي يتكون منها هذا المخلوق كالمنغنيز والحديد والكالسيوم والمواد البروتينية والمواد الدهنية والعديد من المواد... فلو أنَّك قمت بجمع طعام الدجاجة ووضعته بين أيدي أكبر علماء الأرض وأعظم المخابر وتركتهم يعملون ليلاً نهاراً؛ يطحنون ويضيفون مواد كما يشاؤون ولكن في النهاية هل يستطيع الخلق جميعاً أن يصنعوا من هذا الطعام التي تأكله الدجاجة بيضة؟

الأبقار ماذا تأكل؟ تأكل مواد نباتية وتعطينا حليباً، فهل في إمكان أهل الأرض جميعاً أن يصنعوا من هذه الحشائش التي تأكلها البقرة حليباً خالصاً سائغاً للشاربين؟ مستحيل أن يفعلوه... فكيف جمع هذه المواد؟ فقد أطلعني أخ يعمل في هذا المجال على

بحث عن حليب الأبقار، فثدي البقرة عبارة عن غدّة كالقبّة مغطاة بشبكة من الأوعية الدموية بالغة الدقة، وهذه القبّة مجموعة من الخلايا تسمّى الخلايا الثديية، وهذه الخليّة تأخذ حاجتها من الدم، والدم فيه مواد كالبروتين والعناصر المعدنية الكالسيوم والمنغنيز والحديد، وفيه مواد سكرية ومواد دهنية وشحوم، وحمض البول وهو الفرث، فالفرث يطلق على أنواع ثلاث... فرث سائل، وفرث صلب، وفرث غازي، فالإنسان عندما يستنشق الأكسجين، وهذا الأكسجين يتفاعل مع الدم، فتحترق المواد بهذا الأكسجين، والناتج عن هذا الاحتراق هو غاز الفحم، أي: ثاني أكسيد الكربون، وهذا الغاز هو فضلات، أي: فرثٌ غازي، وحمض البول فرثٌ سائل، والروث فرثٌ صُلب فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل:٦٦].

هذه الخلية الثديية، كيف جُمعت هذه المواد فيها بنسب رائعة تتناسب مع حاجة الإنسان؟!

قيل: «وهو الجامع قلوب أوليائه إلى شهود تقديره، ليتخلصوا من أسباب التفرقة فيطيب عيشهم، لأنهم لا يرون الوسائط ولا ينظرون إلى الحادثات إلا بعين التقدير».

وقيل: «الجامع سبحانه هو الذي جمع بين الكثيف واللطيف، جمع بين قلوب المؤمنين، ألَّف بين أرواح المحبين، هو الذي جمع في الإنسان روحاً من نور وجسماً من ظُلمة، ونفساً أمَّارةً وعقلاً مستضيئاً».

فأوضح شيء نأخذه اجتماع القلوب... الأمُّ وابنُها... ما هذا الجمع؟ فقد لا يهدأ لها عيش إلا إذا كان معافى، لا تشبع إلا إذا شبع، ولا تنام إلا إذا نام، لا تسعد إلا إذا سعد، من جمع هذه العواطف والقلوب، ووحَّد بينها؟

أحياناً يجمعك الله جلَّ جلاله مع إنسان على غير ميعاد، فقد تركب سيارة بعد انتظارك لها لفترة ثم تمشي على قدميك فإذا بهذا الإنسان تراه تجاهك، فكيف حرَّك الله

هذا الإنسان وحرَّك الآخر وكيف التقيا في ذاك المكان؟ وأحياناً هذا اللقاء قد ينتج عنه خير كثير، وهذا من تسيير الله عز وجل أن يجمعنا على غير ميعاد.

فقد ذكر لي أحد الإخوة وكنا في دعوة فوجدته مهتماً اهتماماً كبيراً بما أقول، فقال لي: في إحدى المرَّات كنت أسير أمام مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي، فأذَّن المغرب، فدخلت لأُصلِّي، فوجدت جمعاً غفيراً، فجلست لأستمع إلى درس كنتَ تلقيه... وكنتُ أعاني من مشكلة وأقسم بالله لو أنني حدثتك عن مشكلتي مئة مرة، وكلّفتك أن تضع لها حلولاً، ما سمعت معالجةً لمشكلتي مع طرح حلولها كما سمعتُ في هذا الدرس... وأنا والله لا أعرف هذا الأخ من قبل، فقلت: سبحان الله! كيف ساقه الله إلى باب هذا المسجد؟ وكيف دخل إليه، وكيف أُلهمتُ أن أُعالج قضيةً يعاني منها، وأن أطرحَ حلاً لها؟ هذا الجمع من قبل الله عز وجل... فهذا الموضوع يمكن أن نذكر عليه ألف قصة أو أكثر، كيف أنَّ الله جمعك مع فلان ومع فلان، فقد قال تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) ﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾... فأحياناً الإنسان قد يضيع منه شيء يقول: اللهمَّ يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين حاجتي... فيلتقي بحاجته ويجدها.

وأخيراً فإن من آداب العبد إذا عرف أن الله تعالى هو الجامع أن يجمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح، والحقائق الباطنة في القلوب، فمن كمُلت معرفته، وحسُنت سيرته فهو الجامع.

لذلك قيل: الكامل من لا يُطفأ نورُ معرفته، ونور ورعه، والجامع من جمع بين البصر والبصيرة، من جمع بين الحقِّ وأهله، والدنيا والآخرة.

وكل شيء أحصيناه كتاباً

من أفعاله تعالى: الإحصاء.

قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النبأ:٢٩].

وفي سورة مريم: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [مريم:٩٣-٩٤].

وفي سورة يس: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس:١٢].

من معاني الإحصاء

حتى نفهم معنى الإحصاء سأذكِّر القارئ الكريم بحديث لرسول الله ﷺ: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ لله تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا واحِداً مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ» [رواه البخاري ومسلم].

يتوهم البعض أنَّ الإحصاء هو العد؛ فمن عدَّها دخل الجنة، وهذا خطأ في فهم كلمة أحصاها، وهناك قاعدة وهي أن الشيء العظيم لا يصح أن يتوقف على شيء

ضعيف، فهذه التفسيرات والتأويلات السطحية لهذا الحديث ليست صحيحة، فدخول الجنة التي خُلق الإنسان من أجلها، والتي كُلِّف أن يعرف الله، وأن يستقيم على أمره لا تكون فقط بِعَدِّ هذه الأسماء، فليس معنى الإحصاء هو العَدّ، وهناك قاعدة في اللغة وهي: الاختلاف في المبنى دليل على الاختلاف في المعنى، قال الله: ﴿ لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ [مريم:٩٤].

فالعدُّ شيء والإحصاء شيء آخر، فالعدُّ معروف تقول: عندي ثلاثون كتاباً، أما الإحصاء فأن تقول: قرأت كلَّ هذه الكتب وفهمتها صفحةً صفحة، قيَّمتها، وعرفت أخطاءها وصوابها وفوائدها؛ فالإحصاء يعني العِلم الدقيق، ولو سألت عن عدد الموظفين في مؤسسة وقيل لك: مئة وثمانون فهذا عَدٌّ، أما إن ذُكرتْ لك أوصافُهم؛ قدراتهم وكفاءاتهم، أوضاعهم المعاشية، والاقتصادية والفكرية صار إحصاءً، فالإحصاء هو الذي يفيد العلم، وهناك مع الإحصاء جزئيات وتفاصيل ومعلومات دقيقة جداً، فالذي يملك معلومات كلية وإجمالية شمولية شيء، والذي يملك أدق المعلومات مع فروعها شيء آخر، فهذا الأخير هو الإحصاء، لذلك قالوا: الإحصاء هو الإحاطة بتفاصيل كثيرة للأشياء وليس هو التعداد، وإذا قلت: هذا أمر لا أحصيه، أي: لا أطيق ضبطه. والله سبحانه وتعالى هو الذي يحصي الأعمال ويعدها يوم اللقاء، فالإنسان لا يستطيع أن يعدَّ كم يوماً عاشه، وكم نزهة قام، بها وكم كلمة لفظها؟ لكن الله سبحانه وتعالى يعلم كلَّ أعمالك بدقائقها وتفاصيلها ومناسباتها ودوافعها وأهدافها، كلُّ هذا تراه يوم القيامة رأي العين، وهذا هو معنى الإحصاء.

الله تعالى هو الذي يحصي الأعمال ويهيئها بتفاصيلها ليوم القيامة أو ليوم الحساب أو ليوم الجزاء أو ليوم الثواب والعقاب، وهو العليم بدقائق الأمور وبأسرار المقدور، هو بالمظاهر بصير وبالبواطن خبير، وهو المحصي للطاعات والمحصي لجميع الحالات، والمحصي لأنفاس الخلائق والخبير بخفي الوساوس، وهو العليم بجميع الموجودات

وعدد حركاتها وسكناتها وشؤونها، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩].

فالإنسان إذا أيقن أنَّ الله عز وجل يحصي عليه كلَّ حركاته وكلَّ أنفاسه وكلَّ أفعاله وكلَّ وساوسه وكلَّ ما تنطوي عليه نفسه من نيات وبواعث وأهداف وصراعات كان شأنه مع الله شأناً آخر.

أحياناً تسأل شخصاً سؤالاً فيقول لك: لا أعرف، وآخر تسأله عن تقدير عدد الطلاب مثلاً فيقول لك: لا بد من أن أراجع السِّجلات، فأكثر الناس لا يستطيعون -طبعاً إذا كانوا صادقين- الإدلاء بمعلومات دقيقة، لأنهم يفتقرون إلى سجلات ومحاسبين، لكن الله سبحانه وتعالى عالِم بكل شيء بدقة.

العبد إذا أمكنه أن يُحصي بعلمه بعض المعلومات فهو يعجز عن أكثرها، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم:٣٤] لم يقل الله تعالى وإن تعدوا نِعَم الله وإنما جاءت بالمفرد، والسؤال هل النعمة الواحدة تُعدّ؟ استنبط العلماء أن النعمة الواحدة لو أمضيت كلَّ حياتك تَعُدُّ خيراتها وبركاتها ومنافعها تنقضي حياتك ولا تنقضي منافعها، فهذا من بلاغة القرآن الكريم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ فأنتم عاجزون عن إحصائها فلأنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، كلكم يعلم أنَّ الإنسان إذا رُزِق مولوداً تتابعت الهدايا الكثيرة، يتمكَّن بسهرة واحدة أن يحصي مجموع هذه الهدايا، أما مكافأة أصحاب هذه الهدايا فيحتاج إلى مال كثير، وإلى جهد كبير، وإلى أمد طويل، ففرق كبير بين إحصاء هذه الهدايا والمكافأة عليها، فربنا عز وجل أثبت لنا عجزنا عن إحصاء النِّعم، فما بالُكم عن شكر النِّعَم! فأنتم عاجزون عن إحصائها، فلأنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، لذلك فالإنسان في موضع الإحصاء يبدو ضعيفاً جداً، فأيُّ مدير مثلاً أراد أن يتخذ قراراً مهماً في مؤسسة يحتاج إلى طاقم من المحاسبين والمستشارين، فمعنى الإحصاء في حديث رسول الله هو العلم، عن أبي

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إنَّ لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا وَاحِداً مَنْ أَحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ» [رواه البخاري ومسلم].

وقيل: أحصاه الله أي هو المحيط بكل شيء جملةً وتفصيلاً لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء، وقال بعض العلماء: هو الذي بالظاهر راقب أنفاسك وبالباطن راقب حواسك، وقيل: هو الحافظ لأعداد طاعتك، العالِم بجميع حالتك، فأنت أمام الله مكشوف ولا تخفى عليه من خلقه خافية أبداً ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ فمن باب أولى كل حركاتك وسكناتك بعلم الله عز وجل، فلما أمر الله عز وجل أم موسى رضي الله عنها أن تلقي ابنها في اليم، كانت حركات الموجات وحركة الصندوق بعلم الله عز وجل، وسَوْقه إلى الشاطئ كان بعلم الله عز وجل، ونزول امرأة فرعون بالذات في هذه اللحظة بعلم الله عز وجل، فهذا هو الإحصاء؛ علمٌ بالدقائق والتفاصيل، فأكثر الناس علمهم بالكليات والإجمال، أما التفاصيل فيقول لك: لا أعرف، فتركيب الدواء مثلاً يمكن أن يقال عنه: هو نافع لكذا، أما عن تفاصيله فعليك الرجوع إلى التعليمات الموجودة بالوصفة، إذاً العالِم بالدقائق هو الذي يستلزم الإحصاء، الإمام الرازي يقول: إن هذا الإحصاء راجع إلى علم الله سبحانه وتعالى بعدد أجزاء الموجودات وعدد حركاتها وسكناتها.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود:٦].

فالدابة وردت نكرة في الآية، والتنكير هنا تنكير شمول، أيُّ دابة على وجه الأرض؛ نملة، حشرة، جرثومة، فيروس، الذي لا يُرى حتى بالمجهر الإلكتروني، فأي شيء يدبُّ على وجه الأرض فهو دابة، فكلمة: «مِن» تفيد استغراق أفراد النوع، رِزقها على الله ويعلم مستقرها ومستودعها، هذه الدابة أين مستقرها ومستودع رزقها؟ إذا كان رزقها قمحاً فأين هو؟ بالجزيرة مثلاً أو ببلد ما أو مستورد؟ يعلم مستقرها ومستودعها هذا هو الإحصاء.

ومن المعاني المهمة للإحصاء أنَّ الله عز وجل يحصي لك أعمالك؛ الصالحة والطالحة فكلُّ شيء مسجَّل خيراً وشراً، أعمالك الجليلة مسجلة والصغيرة مسجلة، وهذا المعنى يجعلك إذا أحسست أنك مراقب، وكلُّ حركاتك مسجَّلة فهذا يستدعي أن تكون منضبطاً.

نصيب المؤمن من إحصاء الله لأعماله

يقول تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم:٩٣-٩٤].

وفي سورة يس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس:١٢].

وفي سورة النبأ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾ [النبأ:٢٩].

فكلُّ هذه الآيات ورد فيها فعل الإحصاء، لذلك حظ العبد من هذه الآيات هو: أنه متى علم أن الله يحصي عليه كلَّ حركاته وسكناته وخواطره وأنفاسه ونياته شعر أن الله عز وجل بالمرصاد، وعليه أن يكون في وضع يستحي فيه من الله عز وجل، فيجب أن تراقب قلبك، ولتعلم أن الله عز وجل يراقبك، لذلك سيدنا عمر يقول: «فتعاهَدْ قلبك»، فنحن دائماً نتعاهد أجسامنا، بحيث نسرع لوقاية أي عضو أُصيب، أمَّا المؤمن فإنه يتعاهد قلبه كذلك ويخشى أن يرى الله عز وجل في قلبه شيئاً لا يرضيه، ومن الآداب التي يجب أن يتحلَّى بها المؤمن أن يحصي هو أيضاً أخطاءه ويحصي أفعاله ويحصي أيامه، ويحصي نِعَمَ الله عليه، فهناك شخص أعرفه يسجِّل أخطاءه ليستغفر الله عز وجل عند تذكرها ويقابل كلَّ خطيئة بعمل صالح، مع أنَّ الإحصاء بين العبد والرب فيه فرق وبَون شاسع، لكن يجب أن تُعلِّمَ نفْسك أن تُحصي أيامك، يقول: مضى من عمري كذا، فهل بقي لي بقَدر ما مضى؟! والله هذا سؤال نافع جداً، وهو سؤال محرج؛ كيف مضَتْ

هذه السنوات الأربعون، أو الثلاثون، إذاً مضى من عمري أكثر مما بقي، وهذا الذي مضى كلمح البصر، فالذي بقي أقلّ، فكيف أشغل هذه الأيام والليالي؟ كيف سأُنظِّم برنامجي؟ وكيف سأطلب العلم؟ وما العمل الذي سألقى به الله تعالى؟ فالعبد إذا أحصى أخطاءه واستغفر الله منها كان هذا حافزاً إلى طاعة ربه وابتعاده من الغفلة.

يدبر الأمر

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

آية ثالثة: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

وقال تعالى في سورة السجدة: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة:٥].

من معاني التدبير

التدبير هو النَّظر في عواقب الأمور؛ وتدبَّر الأمر، أي: نظر في عواقبه؛ والعاقل يتدبَّر الأمر وينظر في عواقب الأمور؛ قد تُعجِبه امرأة حسناء رقيق دينُها فتجده يرفض هذا الزواج! لأنه تدبَّر عاقبة الأمر فهي أمُّ أولاده مستقبلاً وستُربيهم تربيةً فاسدة وسيخجلون بأُمِّهِمْ إذا كَبِروا، فتدبُّر الأمر: هو النَّظر في عواقبه.

قد يذهب الإنسان إلى بلدٍ غربيٍّ ويجد بحبوحة كبيرة: جمال طبيعيٌّ ما بعده جمال ورخاء في المواد والأسعار، ورُخْصٌ في المركبات، وبيوت فخمة جداً، فطبيعة الحياة تُغريه أن يذهب إلى هناك ويستقرَّ فيه، فالعاقل يتدبَّر عاقبة هذا الأمر، سوف يكبر أبناؤه هناك، وسوف ينشؤون نشأةً لا تُرضي الله، وسيجد مع ابنته صديقاً فماذا يفعل؟ وماذا يفعل إذا كبر أبناؤه في مجتمعٍ فاسدٍ وسيئ ولا حرج على أحدهم أن يمارس الزنا فالأمر سهل كشربة الماء؟ فإذا أردت تنفيذ أمْرٍ فتدبَّرْ عاقبته.

قد يسافر الإنسان فما عاقبة هذا السفر؟ وقد يعمل عملاً ما فما عاقبة هذا العمل؟ وقد يقبض المال الحرام فما عاقبة هذا المال؟ وقد يتزوج هذه المرأة اللعوب فما عاقبة ذلك؟ فالتدبُّر هو التَّفكُّر في عواقب الأمور، والتفكر في نتائجها، فالمؤمن لا يُقبِل على أمر حتى يتدبَّر عاقبته، وهناك أناس كثيرون يُغريهم العمل بما يخالِف القوانين فيربحون ثم يخسرون كلَّ شيء، ولو أنَّهم تدبَّروا عاقبة الأمور لما فعلوا ذلك، ولما وقعوا في سوء أفعالهم.

أمثلة كثيرة، لو أنَّ الإنسان رفض أن يتعلَّم فإذا تدبر عاقبة هذا الأمر ورأى نفسه جاهِلاً تائهاً وشارِداً وضعيف الشأن في المجتمع لما أحجم عن التعلُّم. فالإنسان العاقل هو الذي يفكِّر في عاقبة الشيء قبل أن يصل إليه فهو يخاف بعقله؛ والإنسان الأقلُّ عقلانيَّة أو ضعيف العقل أو الذي يُعطِّل عقله يخاف بعينِه، وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان؛ فالإنسان يخاف بعقلِهِ والحيوان يخاف بعَيْنه، فالذي يُدخِّن ولا يُقْلِع عن التدخين حتى يصاب بمرضٍ عُضال، فعند فحص العينة بالمخبر ويأتي الجواب:

مرض خبيث، بسبب الدخان عندئذٍ يُقْلِع عن التدخين، أما العاقِل فيعرف عاقبة التدخين قبل أن يصل إليها، فالعقل يريك النتيجة قبل أن تصل إليها، وتصل إليها بعقلك قبل أن تصل إليها بجسمك، فإذا كان هناك طريق مغلقة بعد خمسة كيلومترات فهل تُكْمِل المسير؟ فالذي يتحرك بعينه يقول: الطريق سالكة، ويسير، فإذا به بعد قليل يجد الطريق محفورةً ومغلقة، فلو قرأت اللوحة لوَصَلْتَ إلى هذه النتيجة بيسر وأرحت نفسك فاللوحة تعطيك النتيجة قبل المجازفة، فهذا هو العاقل. أما غير العاقل فإنه يقرأ اللوحة ويكمل سَيْرَه لأنه يرى الطريق سالِماً إلى أن يجد الحفر فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود راغماً، فإذا تحرَّكتَ بحواسك الخمس فأنت دون مستوى البشر أما إذا تحركت بعَقْلِك ووصلت إلى النتائج مسبقاً فأنت عاقل حقّاً.

إنسان ذهب إلى بلدٍ وزلَّت قدمه فعانى من مرضٍ جنسي عشرين عاماً وهو يتمزَّق كي يُخْفِيَه عن أولاده وزوجته وكيف يُعالجه؛ فهذا لو تدبَّر الأمر قبل أن يفعله لما فعله فهذا هو التَّدبُّر؛ التفكر في عواقب الأمور والتفكر في نتائجها ومؤداها وعقابها، أحياناً يكون الإنسان في أوْج شبابه يعيش لحظته يأكل ويشرب ويستمتِع ولا يتعلَّم ولا ينضَبِط ولا يسأل عن شيء، فإذا تقدَّمت به السن يجد نفسه بعيداً عن مراتب البطولة وفي مؤخرة الرَّكْب وفي الدرجة الدنيا في المجتمع فهذا عطّل عقله ولم يفكر، وتجد آخر يفكر ويتروَّى ويبني مستقبله لبنةً لبنة ويجعل لنفسه بدايةً مُحْرِقة فتكون له نهاية مشرقة.

التدبر هو النظر في عواقب الأمور وأدبارِها، والتدبير هو أن يحسن المرء التدبُّر والتفكُّر، وهو النظر في عاقبة الأمر، أو ما يؤول إليه وعاقِبتُه أي مؤداه ومنتهاه، والتدبر قريب من التفكر، أما الدَّبْر فهو النَّحْل والزنابير سِلاحها في أدبارها، وقيل سميت دَبُراً لتدبيرها وتألقها في العمل العجيب، ومنه بناء بيوتها فلذلك سميت بهذا الاسم في اللغة، فإذا قلنا: الله جل جلاله مُدَبِّرٌ كان لدينا معنى آخر قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣].

فما معنى يدبِّر الأمر؟

هنا التدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل كان له معنىً آخر؛ قال: هو التوفيق بين أوائل الأمور وعواقِبِها، فإذا طلب المرء الزواج فالزواج يبدأ بنيَّة؛ فهذا نوى أن يتزوَّج فمن الذي يُيَسِّر له البيت والزوجة الصالحة وأن يملك المهر والمال كي يؤسِّس بيتاً يضمُّهما، وأن يقتَرِن بهذه المرأة وأن يُنْجِب منها أولاداً صالحين، وبعد حين يجد نفسه في بيت يزدان بزوجة وأولاد، وغدا ذا مكانة في المجتمع، وقد كان بالأمسِ شاباً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، فمن دبَّر أمره؟ ومن أوْصَلَه من مبتدأ رغْبَتِه بالزواج إلى نهاية المطاف؟ إنه الله عز وجل.

وذاك أراد أن يتَّجِر فمن يسَّر له رأس المال ومكان العمل والرُّخص وشراء البضاعة والبيع والرِّبْح وتأمين الحاجات فمن يدبِّر الأمر؟ هو الله تعالى، وهذه كلمة واسعة جداً، وأنت تنام وتذهب إلى فراشك فمن يُحرِّك الأرض حول ذاتها من أجل أن يُشْرِق الصباح؟ هو الله سبحانه، ومن الذي يجعلها على خطٍّ سيرِها حول الشمس؟ هو الله سبحانه، ومن الذي يُنزِل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتِها؟ هو الله سبحانه. وأنت ما عليك إلا أن تُلقي حبة في الأرض فهذه الحبة من الذي أعطاها شروط النمو ومن الذي أودع فيها هذه القوة؟ حبةٌ صغيرة تصبح بعد حين شجرةً كبيرة فمن نمَّى هذه الحبة ومن الذي جعل لها سُوَيْقاً وجُذَيْراً وكذلك الرُّشَيْم؟ هو الله سبحانه، فهو يدبِّر الأمر في النبات والحيوان والإنسان، فإذا تمَّ اللقاء بين الزوجين خرج الماء وتم لقاح في البويضة وما عليك بعد ذلك من شيء، فأنت في حالك وزوجتك في حالِها، إن الله هو الخالق للنطفة والمدبِّر لها ثم يخرجه طفلاً.

فكيف لُقِّحت هذه البويضة؟ وكيف انقسمت؟ وكيف سارت إلى الرحم.؟ وكيف انغرست في جدار الرحم؟ وكيف جاء الدم الكثيف؟ وكيف نمت هذه البويضة فأصبحت على شكل ورقة؟ ثم كيف اتَّضح الدماغ والجِذع؟ وكيف نبتت الأطراف؟ وبعد تسعة أشهر تجد طفلاً كامل الخَلق؛ رأسٌ وجمجمة وبصر وأعصاب حِسٍّ وأعصاب

حركةٍ، عضلات وعِظام وجهاز هضم وجهاز تنفّس وجهاز دوران وإفراز وغدة صماء وغدة درقية وغدة نخامية وغدة البنكرياس؛ في تسعة أشهر وعشرة أيام من نطفة لا تُرى بالعين إلى طفلٍ كامل الخلق، فمن يدبِّر الأمر؟ يدبِّر الأمر يعني يوصِل المقدِّمات إلى النتائج، فالمقدِّمات نطفة والنتائج طفل، المقدمات رغبة في الزواج والنتائج زوجة وأولاد وبيت، المقدمات مشروع تجاري والنتائج تجارة رابحة؛ يدبِّر الأمر، إنه الله.

قالوا: التَّدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل فهو التوفيق بين أوائل الأمور ومبادئها وأدبارها وعواقِبها؛ فالطِّفل في بطن أمِّه مُعرَّض إلى أخطار كبيرة وكثيرة، فإذا به يُولد سليماً ومعافىً، فمن دبَّر أمره؟ هو الله جل جلاله، والمقدِّمات يجعلها الله تؤدي ما يجب من الغايات.

شيء آخر وهو أنه يدبِّر الأمر، أي: يهدي عباده إلى ما أراده لهم فهذا تدبير روحيٌّ؛ يدبِّر أمرهم في إمدادهم بما يحتاجون بالهواء والماء والطعام والشراب والحاجات والمعادن وما إلى ذلك فهذا التدبير المعيشي، لكنه أيضاً يدبِّر أمرهم الروحيَّ بإيصالهم إليه، أحياناً يبعث إليه من ينصحه، وأحياناً يبعث إليه من يضغط عليه، ويسوق له شدةً ويُخيفه ويريه مناماً مزعِجاً، ويجمَعُهُ الله مع إنسانٍ طيب ويرزقه رزقاً وافِياً كي يستحيي ويُقتِّر عليه في الرزق ويحيطه بخوفٍ شديد ويطمئنه ويمرِضُه أحياناً ثم يشفيه؛ فمن الذي يدبِّر أمره حتى يصل إليه؟ هو الله.

والحقيقة أن أعمق المعاني هو أن الله يدبِّر أمر عباده أي يهديهم إليه، فأحياناً تجد إنساناً أشرك بالله، وهذا الذي أشرك به يُلهِمُه أن يتخلَّى عنه تأديباً لمن أشرك بالله، فمن الذي لقَّن هذا الإنسان المشرِك درساً قاسياً؟ هو الله عز وجل، فهو تعالى يدبِّر الأمر؛ يعطي هذا مالاً، وذاك علماً، فالأول ينفعه المال فيعطيه المال، وذاك ينفعه العلم فيعطيه العلم، وهذا ينفعه الذكاء فيعطيه الذكاء، وذاك يضرُّه المال فيجعله فقيراً، من يدبِّر الأمر؟ ومن الذي يعطي الإنسان الشيء المناسب في الوقت المناسب بالكمِّ المناسب ومن النوع المناسب؟ هو الله جل جلاله.

هناك شيء مهمٌّ بالنسبة لمفهوم التدبير، وهو أنَّ الله عز وجل خلقنا لنعرفه ونسعد بقُرْبِه، فكلُّ أفعال الله هي سَوْق العباد لهذا الهدف، يدبِّر، أي: يسوقهم من بداياتهم إلى الغايات التي أرادها لهم.

هناك بعض الكلمات يقولها بعض الإخوة لها معنى لطيف: توكَّل دبِّر أو لا تُدبِّر واستسلم لله عز وجل فهو المدبِّر. وهو الذي يدبِّر أمور عباده، والحقيقة أن الوحي الذي جاءنا من السماء هو من التدبير، وإرسال الرسل من التدبير، وإلهام الدعاة إلى الله لإيصال الحقِّ إلى الناس من التدبير، وأن تجِفَّ السماء من التدبير، وأن تنهمر أمطارٌ غزيرة من التدبير؛ يدبِّر الأمر، قال تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ [السجدة:٥].

ويقول الله عز وجل في ختام هذه الآيات: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣] أي: أتجهلون أن هذا هو الحق المبين؟

قال بعضهم في معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الحديد:٤].

أي توحَّد بالجلال، بالكبرياء، في وصف الملكوت، كما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول؛ هذا لا نعلمه إلا أن الذي نعلمه هو أنه استوى على العرش، أحياناً كلُّ شيءٍ جاهز وما علينا إلا الضغط على مفتاح التشغيل وتتحرَّك كلُّ الأمور، فهذا تخطيط وتشغيل وتهيئة وفِعْل.

أيضاً يدبِّر الأمر، أي: أنَّ كلَّ الحوادث تصدر عن تقديره وحاصلةٌ بتدبيره، وهذا شيء أساسيٌّ في التوحيد، وهو أنَّ كلَّ شيء وقع في الكون أراده الله، ولا يقع حادث إلا بأمر الله ومشيئته لأنه المدبِّر.

هناك معنىً إضافي وهو أنَّ الله هو المحدِث فلا يقع حادِث إلا بأمر الله، أما المدبِّر فيسوق الحوادِث إلى أهدافها الصحيحة، أحياناً تجد حركة عشوائيَّة دون هدف، فلُعَبُ

السيارات الكهربائية تمشي دون هدف، أما الإنسان فإنه إذا أقلع بسيارته فهناك هدف يريد أن يصل إليه، فالحركةُ تعني أن الله هو المحدِث. أما إذا قلنا: المدبِّر فهذا يعني أن هذه الأحداث تتجه كلُّها إلى غاياتٍ أرادها الله، أحياناً تجد اهتماماً بليغاً من الأب لدفْع ابنه إلى الدراسة فتجده يكافئِه مرةً ويؤنِّبه أخرى ويدفع له ما يشاء من أجل تحصيل التفوق في الدراسة، فكلُّ هذه الأفعال المختلفة الصادرة من الأب، وذات الهدف الواحد هي من أجل تحصيل مستوى في الدراسة.

التدبير له معنى بلوغ الهدف. أما المحدِث فله معنى الحركة فالحادث له محدِث هو الله عز وجل، أما المدبِّر فهو أن يساق هذا الحادث لما خُلِق له ومن هنا قال ﷺ: «اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» [رواه الترمذي من حديث علي بن أبي طالب].

كلُّ إنسان خُلِق للجنة فهو ميسَّر لها، فإما أن يأتيَها طائعاً وإمّا أن يُساق إليها بالسلاسل، قال ﷺ:

عَنْ أبي غَالِبٍ عَنْ أبي أُمامَةَ، قالَ: اسْتَضْحَكَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْماً فَقِيلَ لَهُ: يا رَسُولَ الله مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يُسَاقُونَ إلى الجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ في السَّلاسِلِ» [رواه أحمد].

إمَّا أن تأتِيَها طائعاً مُبادِراً، وإمَّا أن يسوقك الله إليها بالسلاسل بالامتحانات والتأديبات والشدائد.

قال بعض العلماء: «يدبِّر الأمر لا شريك له تعبُدُه، وما قضى فما أحدٌ يَرُدّه ما من شفيعٍ إلا من بعدِ إذنه، وهو الذي ينطِق من يخاطِبه وهو الذي يخلق ما يشاء على ما يشاء إذا التَمَس يطالِبُه»، هذا من معاني تدبير الأمر، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

وفي سورة يونس ؑ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

أحياناً تأتي موجة حرٍّ في الربيع؛ فهناك بعض النباتات لا تنضج إلا بهذا الحرِّ فمن يدبِّر الأمر؟ إنَّه الله جل جلاله، ذهبنا مرةً إلى بلدةٍ في محافظة القنيْطرة، ووجدت أنواعاً من الديدان لا تُعَدُّ ولا تُحصى وعددها غير معقول، فسألت فقيل لي: هذا العام لم يأتِ ثلج كافٍ فحينما ينزل الثلج بشكل كاف تموت الديدان هناك تدبير إلهي، وحينما يداهم الحرُّ هناك تدبير إلهي، وحينما تأتي الرياح هناك تدبير إلهي، وأحياناً لا بدَّ من تلقيح النباتات فتأتي الرياح اللواقح، فالحرُّ له وظيفة في إنضاج الثمار، وهناك بردٌ له وظيفة في قتل الحشرات، وهناك رياح لها وظيفة في تلقيح النباتات فمن المدبِّر؟ الله هو المدبر فهو -تعالى- يسوق كلَّ شيء إلى هدفه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ هذا من التدبير، وقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ هذا من التدبير، وقوله: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ وملخص كل هذا: من يدبِّر الأمر؟ فالخلق تدبير، والهداية تدبير، والرزق تدبير، والمصائب تدبير، قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ ماذا تنتظر؟ فما دام الله هو المدبر، فأنت ماذا تفعل؟ ومن الذي يمنعك من أن تطيعه؟

أحد العلماء يسأل: أين كانت تكمُن السنبلة في الحبة؟ أحياناً تجد حبةً صغيرة، بذرة خيار، يقول لك البائع هذه البذرة تُنتِج خياراً طوله ثمانية عشر سنتمتراً، لونه أخضر داكن، ومُلَمَّع، وإنتاجه كثير وغزير، ومديد، فهذه الكلمات التي ينطق بها بائع البذور، لو أمْسَكت هذه البِذرة أين ترى هذه الخصائص؟ قد تجد عشرين خاصية لبذرةٍ فهل عندما تأتي البذور في الأغلفة أيكون مكتوباً عليها هذه الخصائص؟ فلو أنَّك فتحت هذه البذرة وقمت بتشريحها؛ هل ترى هذه الخصائص؟ ما عليك إلا أن تزرعها وهي تنبت مواصفات عالية كثيفة وغزيرة ومديدة، بحجمٍ معيّن، وبلونٍ معين، وبخصائص

معينة، وتقاوِم أمراضاً معينة، فمن جعل هذه الخصائص في هذه البِذرة؟ الله جل جلاله؛ يدبِّر الأمر.

قال: أين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وفي النواة أين يكمن اللّب واللحاء؟ فالتين مثلاً كم تحوي الواحدة من بذرة؟ وهل تستطيع عدّها؟ فهناك ما يقرب من عشرة آلاف حبَّة، البذرة الواحدة يمكنُها أن تُنْبِت شجرة تين بكاملها، لها ساق معين وجذع معين ولون معين وأغصان معينة وشكل معين وأوراق معينة وطبائع معينة فقد تجدها تحمل أوراقاً متساقطة أو دائمة الخضرة، كلُّ هذه الخصائص في البذرة التي لا تُرى بالعين وتحوي كلَّ خصائص التين، وهذا تين بعْل وذاك تين أسود، وهذا حجمه كبير وذاك حجمه صغير وهذا سكّره جارح، وذاك سكّره قليل، فكلُّ هذه الخصائص أين هي؟ وهذه البيضة التي تحوي صفاراً بعد عشرين يوماً تصبح فرخاً صغيراً فيه عينٌ وأُذن ومِنقار، وقالوا: هذا الصوص حينما يأتي وقت خروجِه من البيضة ينبت على مِنقارِه نتوءٌ كالإبرة تماماً، وبه يكسر البيضة ويخرج، وحين تنتهي مهمة هذا المِنقار يرجِع إلى وضعه الطبيعي.

ومن أوضح آيات التدبير أنَّ الجنين في بطن أمه ليس لديه تنفّس فالرئة معطلةٌ، عنده دورة دموية إلا أن التنفس معطَّل، فربُّنا عز جل خلق ثقباً بين الأذينين فالدم بَدَل أن ينتقل من الأذين إلى الرئتين ثم إلى البُطَيْن ينتقل من أذين إلى أُذين لأن طريق الرئتين مسدود، فما دام الطفل في بطن أمه فالهواء منعدم، لكن بعدما يولد الطفل قال الأطباء: فتأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب في الوقت المناسب وإلا يصاب هذا الطفل المولود حديثاً بمرضِ الزَّرَق، فلا يستطيع أن يتحرَّك لأنَّ دمه أزرق، ولا يذهب الدم للرئتين ليطرح غاز الفحم ويأخذ الأكسجين، ويبقى في الدم غاز الفحم وبذلك تنعدم القدرة على الحركة، وأغلب هؤلاء الأطفال يموتون في عشر سنوات تقريباً ما لم تُجْر لهم عملية باهظة التكاليف، لإغلاق هذا الثقب بين الأُذَيْنين فمن المدبِّر؟ الله عز وجل.

وهذا الكائن البشري أين هو في البويضة؟ أين كانت تكمُن ملامحِه؟ وأين كانت تكمن نبرات صوته؟ ونظرات عينيه، ولفتات جِيدِه، واستعدادات الأعصاب، ومُوَرِّثات

الجنس؟ أين كانت تكمن كل هذه الصفات في البويضة وفي الحوين؟ فمن المدبِّر، ومن الذي أخرجها إلى حيز الوجود؟ هل تصدقون أن على الحوين ملايين المعلومات المبرمجة؟ وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان: ٣٤].

ويسوق الحوادث إلى غاياتها، يسوق الإنسان إلى ما خُلق له، ويحرِّك الشمس والقمر ويولج الليل في النهار، وينزل الماء من السماء، وينبت الزرع، لقد كان وزنك ثلاثة كلغ عند الولادة، فإذا وزنت نفسك عند الكبر ربما تجدها ثمانين كلغ فكيف تمَّ لك هذا الوزن؟ ومن حوَّل الطعام والشراب والتفاح والخبز والجبن والسكر إلى لحمٍ وعظام ونُسُجٍ وأجهزةٍ؟ إنه المدبِّر.

وهناك أمر آخر في هذا الباب فلو أنك دخلت عالم النَّحل لوجدت العَجَب العُجاب أيضاً؛ ولو دخلت عالم النمل لوجدت العجب العُجاب؛ تعقيدات اجتماعية لحشرة النحل والنمل لا تصدَّق، وشيء لا يصدَّق أن تبني هذه النحلة بيتاً بشكل سداسيٍّ، والسداسي هو الشكل الهندسي الذي لا يأخذ فراغات بينيَّة ويُكتفى بالسداسي بأقصر ضِلع، ومعنى ذلك أنه متين كلما طال الضلع ضعفت المتانة، فهناك مواصفات رياضية للشكل السداسي، فمن الذي ألهم النحلة أن تبني بيتها على شكلٍ سداسيٍّ؟ ومن الذي ألهمها أن تذهب للحقول وتمتصّ رحيق الأزهار؟ ومن الذي ألهمها رقصة بها تحدِّد جهة الأزهار وبُعدها وكثافتها؟ الله جل جلاله. ومن الذي ألهم النحلة أن هذه الزهرة ممتصة الرحيق، فلا تقع عليها لأنها قد امتُصَّ منها الرحيق؟ من الذي يدبِّر الأمر؟ وهل تعتقد أنَّ النحلة لها عقل؟ لكنها تقوم بعملٍ رائع في عقلانيَّته وتعقيداته، إذاً من الذي يدبر أمر النحلة؟ هو الله عز وجل.

وفي سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد:٢].

فالله تعالى كلما أورد التفاصيل وساقها للإنسان أوجزها بكلمة يدبِّر الأمر؛ فخلقهُ تدبير، ورزقه تدبير، وهدايته تدبير، وفي النهاية يدبِّر الأمر، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

رجل كان في بستان فرأى قنفذاً يأكل أفعى، كلما أكل جزءاً ذهب إلى نباتٍ وأكل ورقاً من هذا النبات، فهذا البستانيُّ كان ذا فضول فقام لهذا النبات واقتلعه، فلما عاد القنفذ وأكل جزءاً من تلك الأفعى ذهب ليأكل من هذا النبات فلم يجده فمات! من الذي ألهم هذا القنفذ أنَّ لهذا النبات أثراً متوازياً مع لحم الأفعى؟ الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق:١٢].

فقوله: ﴿ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾؛ هذا من التدبير، يجب أن تعلموا أن الله تعالى هو الذي يسوق كلَّ شيء لكلِّ شيء.

نصيب المؤمن من معرفته بمن يدبر الأمر

إذا رأيت يد الله تعمل في الخفاء فهو المدبر، وإذا رأيت يد الله فوق أيديهم فهو المدبِّر، وإذا رأيت أنَّ كل شيء لا يقع إلا منه تعالى فهو المدبِّر.

لذلك توكَّل على الله الحكيم الرحيم العليم القدير، فهو حكيم في كلِّ تدبيره، رحيم عليم قدير بيده الأمر كلُّه قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود:١٢٣].

قال أمية بن أبي الصلت:

حنانيكَ إن الجنَّ كنت رجاءهم	وأنتَ إلهي ربَّنا ورجائيا
رضيتُ بكَ اللهم رَبّاً فلن أرى	أدينُ إلهاً غيرَكَ اللهُ ثانياً
وأنت الذي مِنْ فَضْلِ مَنٍّ ورحمةٍ	بعثت إلى موسى رسولاً مُنادِيا
فقال أعني بابن أمي فإنني	كثيرٌ به يا ربُّ صِلْ لي جناحيا
فقلتَ له فاذهب وهارون فادعُوا	إلى الله فرعونَ الذي كان طاغِيا
وقولا له أأنتَ سوَّيْتَ هذه	بلا وَتَدٍ حتى اطْمَأنَّت كما هيا
وقولا له أأنت رفَّعْتَ هذه	بلا عَمَدٍ أرْفِقْ إذاً بكَ بانِيا
وقولا له أأنت سَوَّيْتَ وَسطَها	منيراً إذا ما جَنَّه الليلُ هادِيا
وقولا له من يرسِل الشمس غدوةً	فيُصبِح ما مسَّت من الأرض ضاحِيا
وقولا له مَنْ ينبتُ الحَبَّ في الثرى	فيُصبح منه البقلُ يهتزُّ رابِيا
ويُخرِجُ منه حَبَّه في رؤوسِه	وفي ذاك آياتٌ لمن كان واعِيا
وإني لو سَبَّحتُ باسمكَ ربَّنا	لأُكثِرُ إلاّ ما غفرتَ خَطائِيا
فربَّ العبادِ التِي سَيْباً ورحمةً	عليَّ وبارِكْ في بنيَّ وماليا

والحقيقةُ أنَّ كلَّ ما في الكون ينطق باسمه خلْقاً وتصرفاً ومصيراً؛ نباتاً وحيواناً وإنساناً وجماداً وشمساً وقمراً وكواكبَ ومجرَّات ومذنبات وليلاً ونهاراً ورزقاً وهداية وتوفيقاً، أليس في القرآن الكريم:

﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود:٨٨].

فمن الذي يستطيع أن يسوق الحوادث إلى غاياتِها؟ هو الله عز وجل.

ومن ثم فإنه يمكننا أن نستنبط استنباطاً أن الله جل جلاله جعلك خليفةً في الأرض، وينبغي أن تدبِّر أمورك فأنت أبٌ وعليك أن تُدَبِّر أمر أسْرتِك؛ بناتك

وأولادك وأعمالك، وأنت طبيب فعليك أن تدبِّر أمر مرضاك، وأنت محامٍ فعليك أن تدبِّر أمر موكِّليك، فالذي يُهمِل عمله لا يدبّر أموره.

فالمدبر يوحي بحكمة بالغة، أذكُر أنني اشتريت مرة عِنَباً من منطقة باردة وظننته من شكله حُلْوَ المذاق، فلما سألت البائع لِمَ لمْ يكن حُلْوَ المذاق؟ قال: لم يأتِنا حرٌّ في هذا العام، فالحرُّ هو الذي يرفع كثافة السكر في الفواكِه، فمن المدبِّر؟ إذاً يتضح لكم أنه تعالى هو المدبِّر وأنت خليفته في الأرض، واللهُ وكَّلَك بهؤلاء الناس فعليك أن تدبِّر أحوالهم.

تجد أحياناً أباً يعتني بأولاده في أجسادهم وأفكارهم ودراستهم ودِينهم، هذَّبهم وعلّمهم وأحسن علاقتهم بغيرِهم، ومنحهم بعض الإمكانات إلى أن يُزوِّجهم؛ نقول: هذا الأب مُدَبِّر، وكذلك الأم فهي مدبِّرة ترعى أولادها وتخيط لهم وتطبخ لهم وتعتني بأخلاقهم وتحاسِبهم وتراقِبهم وتسهر على راحتهم وتعالِجهم إن هم مرضوا، فكما أن الله تعالى يدبِّر فإذا وكَّلَك بأسرةٍ كُن لها مدبِّراً، ووكَّلك بطلابٍ فكن مدبِّراً لهم، جاء ليشتري من متجرك فأعطِ له الشيء الجيد.

فمن التطبيقات العملية لهذا الاسم؛ كما أن الله تعالى دبَّر أمر عبادِه وأنت خليفته في الأرض، ما عليك إلا أن تدبِّر أمر من دونك، فمدير المدرسة والمستشفى والمؤسسة كلُّ من حوله ومن دونه تحت سمعه وبصره؛ فلان زوجته حامِل فهو يحتاج إلى مساعدة، وفلان يحتاج إلى توجيه، والآخر إلى طبيب، فأنت إذا كنت في منصبٍ أعلى كُن مدبِّراً، كما أن الله تعالى يدبِّر أمور عباده، فهذا من التطبيقات العملية لاسم المدبِّر، وكلما كنت من الطراز الرفيع كنت أكثر إيماناً وإتقاناً، فإتقان العمل هو التدبير، والمؤمن يتقِن عمله، وليكن لك حظُّك من التدبير.

يهدي من يشاء

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس:٢٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان:٣].

﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى:١-٣].

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

الله سبحانه وتعالى خَلَقَ ثم هدى.

شققنا الطريق، ثمَّ وضعنا الشاخصات، صنعنا الآلة، وأصدرنا كُتيِّب التعليمات، الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم نوّره.

يعني: خَلقك ليُسعِدَكَ، لا سعادة تنقطع عند الموت، بل ليُسعدَكَ إلى الأبد، وما الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الحياة الأبديَّة، إذاً: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ الصراط هو الطريق، الله عز وجل أعطى الإنسان حرية الاختيار؛ فمن شاء الهُدى هداه إلى صراط يؤدي إلى دار السلام، خُلقت لدار السلام، دار السلام هي الجنة، خلقت لدار السلام وأنت مُخيَّر، فإذا اخترت دار السلام هداك الله إلى الصراط المستقيم الذي يوصلك إلى دار السلام، آيةٌ عميقة المعنى جداً، لا تظنوا كما يظنُّ بعض الناس أنَّ الله سبحانه وتعالى خلق الناس ليعذِّبهم، لا تظنُّوا أنَّ هذه المصائب عشوائيَّة؛ بل إنَّ هذه المصائب مقرَّرة من قِبَل الله عز وجل لإلجاء العباد إلى بابه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ [يونس:٢٥].

من معاني الهداية

الهداية: الإمالة، هداه، أي: أماله، أي: وجَّهه نحو الحقِّ، فالهداية في اللغة معناها الإمالة، وتسمى الهديَّةُ هديَّةً لأنَّ من شأنها أن تُميل قلب المُهْدى إليه.

يقول الجنيد رحمه الله: «اهدنا الصراط المستقيم؛ يعني يا رب مِلْ بقلوبنا إليك، وأقم هِمَمنا بين يديك، واجعل دليلنا منك عليك»، النقطة المهمَّة هي أن الإنسان مخيّر، ومعنى مخيّر أن أمامه عدة خيارات، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣].

الداعية هو الذي يقنعك بأن تتَّجه إلى طريق الحق عن طريق الإقناع، وعن طريق الدليل، وعن طرق التبيين، وعن طريق التوضيح؛ فربنا عز وجل هو الهادي.

طرائق الهداية

بادئ ذي بدء الله سبحانَه هدى الإنسانَ إليه عن طريق الخَلْق، والله قوي، وفي الكون مظاهر قوته، وهو الغني وفي الكون مظاهر الغِنى، وهو عليم وفي الكون مظاهر العلم، وهو رحيم وفي الكون مظاهر الرحمة، يعني بإمكانك أن تقول: إنَّ الكون مظهر

لأسماء الله الحسنى ولصفاته الفضلى، فإذا أردت أن تفكِّر في الكون وصلتَ إلى الله، إنَّه صنعته، منه تصل إلى الصانع، إنه خلقه، منه تصل إلى الخالق، إنه كونه، منه تصل إلى المكوّن، إنه تنظيمه، منه تصل إلى المنظِّم، به ترى العلم، به ترى الحِكمة، به ترى القدرة، به ترى اللطف، به ترى العطف، به ترى الرحمة، به ترى الخبرة، كل ما في الكون يدلُّ على الله عز وجل.

وقد تنظر إلى وردة فكأنَّ الله سبحانه وتعالى تجلّى عليها باسم الجميل، فإذا رأيت البحر هادئاً، تجلّى الله عز وجل على البحر باسم الجبّار، تارةً ترى اسم الجبار، تارةً ترى اسم القهار، تارةً ترى اسم العليم، تارةً ترى اسم الحكيم، تارةً ترى اسم العليّ الكبير، فكلُّ مظهر في الكون؛ يدلُّ على اسم من أسمائِه؛ أو على كلِّ أسمائه فكيف هدانا الله؟ قال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١].

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ [عبس:٢٤].

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴿٨﴾ ﴾ [الطارق:٥-٨].

فإذا أردت أن تهتدي إلى الله فحسبُكَ الكون، وقد قيل: «حسبكم الكون معجزة».

هذا أول باب، ولكني أقول للقارئ الكريم: إنَّ باب الكون أوسع أبواب الهدى، وأقرب طرق الهدى؛ لأنَّ الكون يضعُك أمام قدرة الله، أمام عظمته، وأمام حكمته، وأمام رحمته، وأمام عِلمه وأمام خبرته، فالله سبحانه وتعالى هداك بخلقه.

أيها القارئ الكريم يمكنك أن تتأمل آلة وتقول: المهندس خِبرته رفيعة المستوى، وتقول: هذه الألوان التي أعطاها للآلة لطيفة فيها ذوق رفيع، تكتشف علمه،

وتكتشف ذوقه، وتكتشف خبرته، لكن أحياناً مع الآلة نشرة، الآن ربنا عز وجل يهدي الإنسان لا بخلقه فحسب بل بكلامه، قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج:٧٥].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة:٧٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل:٧٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة:١٨٢].

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج:١٤].

﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠].

وفي الآيات التالية تبيَّن الهدى بكلامه سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد:٢].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى:٢٩].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم:٢٢].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم:٢٥].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت:٣٧].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى:٣٢].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت:٣٩].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم:٤٦].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم:٢٠].

أحياناً تنظر إلى شيء رائع، ويقول لك صانع هذا الشيء: هذه صنعتها لكذا، وهذه لكذا، وهذه المادة الأولية من أعلى مستوى، وهذه الآلة لأجل كذا، قد أعطاك تعليمات من عنده مباشرةً، فالله سبحانه وتعالى يهدي بكلامه.

اقرأ القرآن، القرآن يبين لكَ أصل الخليقة، حقيقة الحياة الدنيا، ما بعد الدنيا، كما بيّن لك أسماء الله عز وجل، بيَّن لك صفاته، بيَّن لك أنبياءه السابقين واللاحقين، بيَّن لك حكمة الوجود، أمَرَكَ بالصلاة في القرآن، أمرَك بالصوم وبالزكاة وبالحج، بيَّن لك لماذا تصلي.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣].

فالله سبحانه هو هادٍ، الله هداك بكلامه، فإذا أردت أن تقرأ القرآن؛ فالقرآن باب إلى الله عز وجل. والكون باب؛ لكن الكون لغة عالمية، يعني يراه ويقرؤه ويفهمه المسلم وغير المسلم، العربي وغير العربي، إفريقي، صيني، أمريكي، أوروبي، من أي مكان، الشمس ساطعة، النجوم زاهرة، الكواكب متألّقة، الماء عذب زلال، من جعله عذباً زلالاً بعد أن كان مِلحاً أجاجاً؟ الكون يقرؤه كلُّ إنسان، لكنَّ القرآن يقرؤه العربي.

على كُلٍّ؛ إذا تعمّق الإنسان في معرفة الله عز وجل، تعلَّم العربية حُبّاً بالله عز وجل، وقد تجد شعوباً من غير العرب أتقنوا العربية لا لشيء إلا حُبّاً بالله عز وجل، كيف أنك اليوم إذا أردت أن تأخذ شهادة عليا من بلدٍ أجنبي، بادئ ذي بدء تتعلَّم لغة ذاك البلد، يقول لك: سنتان لغة، أي: تتعلم لغة البلد الأجنبي الذي قصدته لمدة سنتين.

طالب من طلابي نالَ بعثةً إلى تشيكوسلوفاكيا، قال: تعلمتُ لغتهم خلال سنتين، من أجل شهادة دنيوية، من أجل حياة محدودة، تعلمتَ لغة هؤلاء القوم كي تتعلم عِلمهم، لذلك إذا عرفت الله عز وجل، ورأيت أن كلامه شيء ثمين جداً فلا بد إنْ كنت غير عربي، أن تجدَ نفسك مسوقاً إلى تعلم اللغة العربية، والإخوة الأكارم الأفارقة مثلاً، والأتراك الذي وفدوا إلى هذه البلدة الطيبة لتعلُّم أمور الدين؛ تراهم يتقنون اللغة العربية، بل إنهم ينزعجون انزعاجاً شديداً لو تكلمنا بكلمة واحدة باللهجة العامية خلال الدرس كلِّه، لا يفهمون إلا اللغة الفصحى.

إذاً، إذا بلغ حُبُّكَ لله عز وجل حداً معيناً؛ ترى نفسك مسوقاً إلى تعلُّم اللغة العربية، إذاً فالقرآن؛ باب آخر من أبواب الهدى، الكون؛ هداك بخلقه، والقرآن؛ هداك بكلامه، وأرجو ألا تنسوا أن الله عز وجل جعل الكون كلَّه في كفة، وجعل القرآن في كِفَّة، قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام:١].

فهذه الآية صريحة في ذكر خلق الكون.

لأنهما: الكون والقرآن يدلان عليه، لأنهما يشيران إليه، لأنهما يُظهران أسماءَه الحسنى، وقال سبحانه في حديثه عن القرآن: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾ [الكهف:١].

فالكتاب؛ هدىً بيانيٌّ؛ والكون؛ هدىً استدلاليٌّ.

لاحظ نفسك، أحياناً تشتري آلة دون نشرة تعليمات تنظر إليها، تستنبط، تحرِّك بعض مفاتيحها، تُشغِّلها، تحرِّك هذا المفتاح، انقطع التيار، تحرِّك هذا المفتاح علا الصوت أو انخفض؛ إذاً هذا المفتاح للصوت، تحرّك هذا المفتاح فيصبح الصوت صافياً، إذاً هذا للتصفية، تكتشف خصائصها بالتأمل والملاحظة، لكن إذا رأيت معها نشرة باللغة العربية تقرؤها... مفتاح رقم واحد للصوت، الثاني للتصفية.. تطابُق، يمكن أن تتأمل في هذه الآلة فتصل إلى بعض خصائصها؛ لكنك إذا قرأت التعليمات التي أصدرها الصانع تصل إلى خصائصها الكاملة، إلا أن هناك ملاحظة؛ فأنت من طريق التأمل تصل إلى أشياء كثيرةٍ جداً، لكن ما كلُّ شيء تصل إليه من خلال الكون.

الكون، يدُل على وجود الله، يدل على عظمته، يدل على أسمائه لكن الكون لا يَدُلُّك على الصلاة، مهما تأملت في الكون أين الصلاة؟ أين ذكرُ خمس صلوات؟ أين الفرائض؟ أين السنن؟ أين الزكاة؟ أين الحج؟ أين الصيام؟ أين غضُّ البصر؟ هذه لا بد لها من منهج أنزله الله على نبيه ﷺ، من اكتفى بالكون فقد أخذ شطر الدين لكن لا بد من أن تهتدي بالكون جزئياً، ومن أن تهتدي بالقرآن كلياً.

القرآن يشتمل على أحكام، كما يشتمل على أوامر، وعلى نواهٍ، وفيه منهج كامل، وفيه أخبار السابقين، وأخبار اللاحقين، فيه بيان للمستقبل البعيد، وفيه بيان عن ذات الله عز وجل. لا يكفي الكون وحده، بل لا بدَّ من أن يتكامل الكون مع القرآن.

دخلتَ إلى جامعة، تأملت في قاعاتها الفسيحة، تأملت في قاعات المحاضرات الكبيرة، تأملت في حدائقها الرائعة، تأملت في بيوت طلابها، تأملت في مخبرها، تأملت

في مسرحها، تأملت في مكتبتها أخذك العجب العُجاب، لكن مهما تأملت في هذه الجامعة وفي أقواسها وقاعات محاضراتها، مهما تأملت في بيوت الطلاب وفي حدائقها وفي مكتبتها، لا يمكن أن تصل إلى نظامها الداخلي، لا يمكن أن تصل إلى طريقة النجاح والرسوب، لا يمكن أن تصل إلى أسماء الأساتذة، تأمل في الجدران من هم مدرسو هذه الجامعة؟ لا بد من كتاب تقرؤه في بيان الكليات، أقسام الكليات، رؤساء الأقسام، عُمداء الكليات، أسماء الأساتذة، اختصاصاتهم، ميزاتهم، موقع كلِّ كلية، نظامُها الداخلي، طريقة النجاح، طريقة الرسوب، طريقة الانتقال، طريقة الدرجات: مقبول، امتياز شرف، جيد، جيد جداً، هذا شيء لا بد من أن تقرأه في النظام الداخلي.

أنا أقول هذا الكلام وأريد منه أنك إذا فكرت في الكون عرفت عظمة الله عز وجل، أما إذا أردت أن تعرف منهجه، فلا بد من قراءة القرآن، والقرآن في أساسه موجز، فيه كليات الدين، جاء النبي ﷺ فشرحه وبيّنه، فإذا فكرت في الكون عرفت أن لهذا الكون خالِقاً عظيماً كبيراً علياً قديراً حكيماً لطيفاً... إلخ.

لكنك إذا أردت أن تعبده، إذا أردت أن تتقرب إليه، وإذا أردت أن يُحبك، فماذا تفعل؟ أنت الآن بحاجة إلى تعليمات من قِبَل الخالق يقول لك: صُمْ شهرَ رمضان، أدِّ زكاة مالك، غُضَّ بَصَرَك، أحسِن إلى أخيك، اعفُ عنه، أنت الآن بحاجة إلى تعليمات هذا الخالِق، أنت بعقلك عن طريق الكون آمنت بالخالق، لكنك إذا أردت أن تعرف منهج الخالق، أمره ونهيه، أخبار الأمم السابقة، ماذا يريد منك، لماذا خُلقت؟ فلا بد من أن تقرأ كتابه.

إذاً الكون؛ يدُلُّكَ على وجود الله وعلى أسمائِه الحسنى، والقرآن يدُلُّكَ على منهجه، يعني إذا أردتَ أن تؤمن به ففكّر في الكون وإذا أردت أن تعبده فاقرأ القرآن، بالكون تعرفه، وبالقرآن تعبده، لا يغني أحدُهما عن الآخر، إذا قرأت القرآن ولم تفكر في خلق الواحد الديّان كأنك ما قرأت القرآن لماذا؟ لأن القرآن يأمُرُكَ أن تفكر، فإذا لم تفكر فقد عطّلت آيات التفكر في القرآن، إذا فكرت في الأكوان ولم تقرأ القرآن عرفت

الصانع، لكن كيف تصلي وكيف تصوم؟ أين أمرُه؟ ما عباداته؟ ماذا يريد منك، فلا تعرف ذلك إلا بمطالعة نهجه المكتوب.

ومن ثم فبعدَ أن خَلَقَ الكون، والكون دلّكَ عليه، وأنزل القرآن والقرآن بيّنَ لك منهجه، وأمره، ونهيه، وهناك حوادث، كما أن هناك تصرفات، شيء ما يحدث، أمطار تنهمر سماء تمطر، سماء لا تمطر، تأتي موجة صقيع: ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القلم:١٩].

ترى محصولاً ثمنه مئات الملايين بثلاث دقائق يتلف بالصقيع، ونعوذ بالله من الصقيع، إذاً له أفعال، منها صقيع، ومنها رياح عاتية وأعاصير، وفيضانات، وبراكين، وزلازل، وكذلك أمراض وبلاء وقهر، وفقر، هذه أفعاله. خلقُهُ يدلُّ عليه، وكلامه يدل عليه، كما أن أفعاله تدل عليه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود:١١٧].

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى:٣٠].

استطلت في أعراض الناس، فالناس استطالوا في عرضك، هذه بتلك، تكبَّرت؛ فأهانك الله، تواضعت؛ فرَفَعَكَ الله، أنفقت، فعوّضَ الله عليك، بَخِلت، فأتلف الله مالَك، غضضت بصرك عن محارم الله، أسعَدَكَ الله في بيتك، أطلقت بصرك أشقاك في بيتك، كنتَ مع الناس صادقاً، وثق الناس بك، كذبت عليهم، فَضَحَ أمركَ.

أفعال الله وحدها تُعلِّمُكَ، مرةً ثانية؛ المعلم ساكت لم يتكلم كلمة واحدة حينما رآك وكزت زميلك وأنت خارج إلى الباحة ضربك على رأسك، في الساعة الثانية وكزته فضربك، في الساعة الثالثة وكزته فضربك المعلم وهو ساكت، سكوته كافٍ، وفِعلُه يُعلِّم، أليس كذلك، طبعاً على هذه الفكرة ينطبق آلاف الوقائع، أفعال الله

وحدها تعلِّمُك، خلقُه يعلِّمُك، وكلامه يعلِّمُك، ربنا عز وجل قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:٦٩].

شخص غشَّ الناس فصودرت بضاعته، فلماذا صودرت؟ دليل على أذيّته، هذا الذي نصحهم لماذا نمَّى الله ماله؟ هذا الذي أكرمهم لماذا أكرمه الناس؟ هذا الذي أعطاهم لماذا أعطاه الله؟

إذاً: يهدي بخلقه، ويهدي بكلامه، ويهدي بأفعاله، لا أعتقد أنَّ واحداً من الإخوة القراء إلا وعلَّمَهُ الله بالأفعال... صليتَ الصُّبح في جماعة، فشَعَرتَ طوالَ النهار أن كلامك سديد، وأن عقلك رشيد، وأن أحوالك عالية، وأن قلبَكَ عامر، وأن الناس قد هابوك، وأن الأمور ميسَّرَةٌ.

في اليوم التالي لم تُصلِّ الصبح، فاتتك صلاة الفجر، فواجهتك مشكلات كثيرة: أول مشكلة في الطريق، الثانية في المحل، الثالثة جاءك موظف تطاول عليك، الرابعة ذهبت إلى فلان فلم تجده.

لقد علّمَكَ بأفعالِهِ، يوم صليت الفجر في جماعة؛ فأنت في حفظ الله وفي ذمته، فلما فاتتك صلاة الفجر، تلاحقت المشكلات في الطريق وفي العمل وفي البيت، هذا تعليم، الله يهديك إليه بأفعاله، تصدقت جاءتك دفعة لم تكن بالحسبان، سألك إنسان سؤالاً فأعطيته، رغم أنك مضطر إلى المال فتح الله عليك رزقاً.

ذكر لي أخ كريم فقال: اتصلت بي أختي صباحاً، قالت لي: أريد خمسة آلاف ليرة، قال: معي المبلغ ولكني في ضيق شديد وعليّ دفعات كبيرة، نشأ صراع في نفسه، ثم غلب نفسه وذهب إلى بيت أخته وأعطاها المبلغ، وعاد إلى دكانه في سوق البزورية، فجاءه شخص، وقال: أريد هذه السلعة وسمّاها، قلت: ليست موجودة لديّ، قال: أين توجد؟ قلت: في المعمل الفلاني، فطلب مني أن أدلَّه عليه، فذهبت معه ودللته عليه وعدت إلى محلي، مساءً أتاه صاحب المعمل، وأعطاه مبلغاً من المال «طبعاً هذا إذا

أضافها على المشتري فيه شبهة أما إذا أعطاه من ربحه فلا شيء فيه» قال: أخذت ضعف ما قدمت لأختي صباحاً، ولا أعتقد أن أحداً ممن يقرأ هذا الكلام إلا ويلمس أن الله يوماً عامله بما يشبه معاملة ذلك الشخص، قال ﷺ: «أَنْفِقْ بلالُ؛ ولا تَخْشَ من ذي العرش إقلالاً» [البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «قالَ اللهُ: أَنْفِقْ يا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» [أخرجه البخاري].

أجل، علّمَكَ الله عز وجل بأفعاله، هو يعلِّمُك باستمرار، لذلك قال: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ [البقرة:٢٨٢].

يعلمك بأفعاله، لكنَّ الإنسان حينما يفهم عن ربه ما يأمر وما ينهى، وحينما تنعقد صلةٌ مباشرة، إدراك مباشر، تجد أن هذه بتلك وهذا الصنيع لذاك الفعل.

شخص له استقامته، وله انضباطه، وله ورعه، سافر في أول رحلة بالطائرة، زلت قدمه فأطلق بصره، ووصل إلى البلد الآخر فركب سيارة أجرة، وأعطى السائق أجرته، فأخذه السائق إلى المخفر، العملة مزوّرة، فقال: أنا عضو وفدٍ ومدعوٌّ إلى مؤتمر في أعلى درجة، إذا به في قفص اتهام. قال: والله دمعت عيني وكأن ربي عاتبني، قال: وقع في قلبي «لماذا أطلقت بصرك يا عبدي»، بالأفعال عاملك، هداك بالخلق، وهداك بالقرآن، والآن هداك بالأفعال.

لقد أبدعك الله إبداعاً عظيماً، مثال ذلك في بعض المحالِّ التجارية تجد على البضاعة قسيمة بالسعر، ويوجد مادة على لصاقة السعر، إذا أخرجت هذه البضاعة دون أن تؤدِّ ثمنها وأنت خارج تحت قوس معين يصدر صوت عالٍ، أما إذا أديت ثمنها يعطل الموظف مفعول هذه المادة بمادة أخرى، فلو رأى واحد شيئاً، قليل الحجم غالي الثمن وضعه في جيبه ولم ينتبه، وخرج من هذا المحل، هذا القوس الذي يخرج من تحته يُصدر صوتاً مزعجاً، كأنه يقول: هذا سارق خذوه؛ هذه البضاعة مصنَّعة بحيث إنك

إذا أخذتها دون أداء ثمنها تصيحُ بك، هذا من صنعة الإنسان فالله سبحانه وتعالى خلق لكَ نفساً إذا أسأت تشعُر بالضيق، تُسميه وخز ضمير، تسميه كآبة، تسميه ضيقاً، ضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَت، لأنَّ فِطرتك عالية، فأنتَ حينها أسأت خرجت عن قانون فِطرتِكَ، هكذا علّمَكَ بالفطرة، علمك بخلقه، وعلمك بكلامه، وعلمك بأفعاله، والآن علمك بالفطرة والدليل: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس:٧-٨].

يعني؛ إذا فَجَرَتْ، تعرف أنها فَجَرَتْ، وإذا اتقت، ارتاحت.

وبعد فإن القارئ الكريم وأنا لا أُبالغ يحس براحة نفسية لا تقدر بثمن، لأنه مطيعٌ لله فكيف يعرف ذلك؟ لو أنه زلّت قدمه لا سمح الله، لو أنه أطلَقَ بَصَرَهُ، ولو أنه فاته فرض صلاة، لو أنه كذب في كلمة، لو أنه اغتاب، لشَعَرَ كأنه سقط من السماء إلى الأرض، يشعر بالضيق، يُحس بالحِجاب، يحس أنَّ الله أبعده، أنَّ الله قلاهُ، أنَّ الله لم يقبلْهُ، هذا التعليم الرابع! هداية الفطرة، الآية الكريمة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ﴾ [الروم:٣٠].

إقامة وجهك للدين حنيفاً؛ هو نفسه فِطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها، فلا ترتاح إلا إذا عرفتَ الله، لأنك إذا عرفته آويت إلى ركن وثيق، إذا وُجِدَ موظف في دائرة من الدرجة الخامسة، على أساس الشهادة الثانوية، لكن المدير العام صهرُه زوج أخته، ترى أنَّ هذا الموظف له وضع خاص، مطمئنٌّ، يحسُّ بأمن عجيب بهذه الدائرة، لا يخشى لا من رئيسه المباشر ولا ممن هو أعلى من رئيسه ولا من المدير المعاون، كلهم مرتبطون بالأعلى، والأعلى يضفي عليه ظله، فهذا إنسان مع إنسان يحسُّ بالأمن؛ فكيف إذا كنتَ مع الله، إذا كنت مع الله فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟ علَّمَكَ بالفطرة، الإنسان متى يرتاح؟ إذا آوى إلى الله، إذا شعر أن الله يحبه، إذا شعر أنه بعين الله إذا شعر

أنه بحفظ الله، إذا شعر أنه يحب الخلق إكراماً لله، إذا نام مساءً ولم يؤذِ مخلوقاً ولم يكن لأحد حق في عنقه، لم يبنِ مجده على أنقاض الناس، لم يبنِ ثروته على فقر أحد، لم يبنِ أمنه على خوف الناس، لم يبنِ حياته على موت غيره، كان مِعطاءً، كان خيّراً. إذاً أنت لك فطرة قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٧-١٠]، إذا فجرت تعرف.

كنتُ في حفل عقد قِران تبعني شاب كريم، سألني سؤالاً حول موضوع حاك في صدره، فهو حينما فعل هذا الشيء المنكر جاء بمسوِّغات غير صحيحة، لكنه حينما عاد إلى بلده، قال: والله ما أعجبتني هذه المسوِّغات، كأنني رسبت في امتحان الله عز وجل، لم يعلِّمْه أحد، ولا سأل أحداً، ولكنه أدْرَكَ من تلقاء نفسِهِ، أعني أدرك بفطرته.

إذاً: الله عز وجل هداكَ بخلقه، وهداك بكلامه، وهداك بأفعاله وهداك بالفطرة. الله عز وجل له أساليب كثيرة في الهدى، بل أحياناً يهديك بالإلهام قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧].

هذا وحي إلهام، يقول لك: اللهُ ألهمني أن أسفار، الله ألهمني ألا أشتري هذه الصفقة، الله ألهمني ألا أشارك فلاناً، الله ألهمني ألا أشتري هذا البيت، ما عندي دليل، بل هو إلهام، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

مرةً في أحد أيام الأعياد، عندي فراغ ونويت أن أذهب لأزور صديقي غربي دمشق، لكني فجأة وجدت نفسي أنساق إلى بيتي بصورة لا شعورية، وبلا سبب، ولا مسوِّغ، فما إن وصلت إلى البيت حتى فوجئت برجلٍ يأتيني من مكان بعيد من بلد في الشمال جاء لزيارتي في فترة العيد، وليس له في الشام بيت آخر يبيت فيه، هذا إلهام، عندما يستسلم الإنسان لله عز وجل يُلهمه الله، وإلهامات المؤمن كلُّها لصالحه، لكن إلهامات الكافر، أقول إلهامات الكافر مجازاً ومثله الفاسق، المنحرف وهي وساوس شيطانية،

كلُّها لغير صالِحِهِ، يوسوس له أن يعقد هذه الصفقة يُفلس من خلالها، يوسوس له أن يشارك فلاناً ينهبُهُ، يوسوس له أن يفتتح مصلحة أو ينشئ مشروعاً فيكون سبب دماره وخسرانه، هذا وسواس شيطاني، أنت بين إلهام الرحمن أو وسوسة الشيطان، فإذا كنت مع الرحمن ألهمك، وإذا كان المرء مع الشيطان وسوَس إليه، هذه طريقة أخرى في الهدى، الله يُلهمك، لذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه:٤٠].

أحياناً يُلهمك أن تزور مثلاً هذا المسجد، أنا أتكلم عن سابق تجربة، إذ ليس من أخٍ اهتدى إلى الله عز وجل عن طريق هذه الدروس إلا وكنت أسأله سؤالاً صغيراً، أقول له: كيف اهتديت إلى هذا الجامع؟ فأسمع قصصاً عجيبةً، مثلاً دخل شخص ليصلي المغرب مصادفة فرأى جمعاً فجلس، فكان هذا أول درس يحضره وما ترك بعده درساً، هناك إنسان اهتدى عن طريق صديق، عن طريق قريب، عن طريق صاحب عن طريق موعد أحياناً، هذا إلهام.

إذاً بخلقه، بكلامه، بأفعاله، بالفطرة، بالإلهام.

الآن بالرؤيا الصالحة، هناك أشخاص إذا رأوا رؤيا صالحة واضحة، صارخة، بارزة، هذه الرؤيا تحمِلُهم على طاعة الله عز وجل، وهذا شيء مؤيِّد، لأن النبي ﷺ يقول «الرؤيا الصالحة جزءٌ من ست وأربعين جزءاً من النبوة» [أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري، ومسلم من حديث أبي هريرة]، أي إنّ الله عز وجل إذا أراد أن يُعلِّمَكَ شيئاً ما بطريق مباشر، بلا استنباط ولا تأمل ولا إدراك، ولا من طريق الأفعال ولا من طريق الخلق ولا من طريق القرآن.

لا تفكر في الكون ولا نظر في الأفعال ولا تدبر في القرآن، لكن يريد الله عز وجل أحياناً أن يعلمَكَ إعلاماً، مباشراً، سريعاً، حازماً، واضحاً، فقد ترى نفسك تسير في طريق الهاوية، كأن الله يُحذِّرُكَ، أحياناً تتساءل عن سؤال كبير، الله عز وجل يُجيبك عن هذا السؤال في الرؤيا.

كثير من الإخوة الكرام تكلّموا معي: قبل أن ينام أحدهم نشأ عنده سؤال فقال: أسألك يا رب أن تلهمني الصواب، فرأى رؤيا صالحة كأنها إجابة عن هذا السؤال، إذاً هذا هدى عن طريق الرؤيا، لكن هنا نقطة مهمة جداً، أيةُ رؤيا خالفت أوامر الشرع؛ اسمعوا ما أقول؛ اركِلها بقدمك لأنَّ الشرع هو الثابت وكلُّ ما جاء في الرؤيا خلاف القرآن الكريم من الشيطان، لو أن أحداً رأى رجلاً صالحاً، ويعتمُّ بعمّةٍ خضراء ووجهه يشعُّ نوراً وقال له: لا تصلِّ، نقول له: هذه الرؤيا اركِلها بقدمك، لا تصدق، كل ذلك كلام فارغ، نحن عندنا مقياس الشرع، أية رؤيا تخالف أوامر الله تخالف شرعَ الله عز وجل، لا تعبأ بها، ولا تقم لها قيمة، ولا تأخذ بها، ولا تحفل بها فإنها، قطعاً، من الشيطان.

لكن الرؤيا التي من الرحمن لها خصائص، إذا كنت لا سَمَحَ الله منحرفاً، ورأيت رؤيا مخيفة، فهذه من الرحمن قطعاً، وإذا كنت محسناً، ورأيت رؤيا مبشِّرة، هذه من الرحمن قطعاً.

فإذا كنتَ محسناً، ورأيت رؤيا مخيفة؛ هذه من الشيطان لكي تخاف، وإذا كنتَ لا سمح الله مُسيئاً، ورأيت رؤيا مبشِّرة؛ هذه أيضاً من الشيطان، الأصل الشرع واستقامتك، فهذه ثوابت.

بالمناسبة؛ الرؤيا لا يمكن أن تكون قاعدة، ولا يمكن أن تكون دليلاً. إنها اتصال مباشر بين العبد وربه فقط، هي شيء لا يجبر على فعلٍ ولا يُنقل أثره إلى غيره إنما هي شيء شخصي محَض، هذه الرؤيا.

أحياناً يهديك عن طريق خلقه، لا عن طريق مخلوقاته عن طريق الأشخاص، فمثلاً، يجمعك مع شخص يحكي لك موضوعاً، فحينما ألتقي مثلاً بإنسانٍ ويتكلم هذا الإنسان، أشعر بطريقة أو بأخرى وأتساءل: من الذي جمعني بهذا الإنسان؟ هو الله، من الذي ألهمه؟ هو الله، من الذي أنطقه؟ هو الله، حينما تكون في طريق غير صحيح، ويأتي إنسان يبين لكَ الصواب، فإني أعتقد اعتقاداً صحيحاً أن هذا الإنسان قد ساقَهُ الله إليك ليُبلِّغَك وليُعرِّفَكَ، هذا أيضاً هدى عن طريق الخلق.

وهناك هُدى من نوعٍ آخر، هذا الهُدى الانقباض والانبساط يقول لك: انقبضت، أزمعت أن تسافر إلى جهة ما فشعرت بانقباض، أو شعرت بانشراح، أو الأمور تيسَّرت أو تعسّرت، فالانقباض والتعسير والانشراح والتيسير هذا تعليم أيضاً، فإذا كان الله راضياً يكون هناك انشراح وتيسير، الله غير راضٍ وأنت مؤمن، عندكَ حساسية، وعندَكَ إدراكٌ دقيق أنت مؤمن، فأصبحَ هناكَ انقباض وتعسير، إذاً هذا شيء لا يرضي الله عز وجل.

وكخلاصة أوجز بها الموضوع أقول: أحياناً يسلب الله سبحانه وتعالى لُبَّ عبده أي: عقله ويُسيّرهُ تسييراً سلبياً في جهة ما، هذا أيضاً هدى. هدانا بخلق الكون، وهدانا بالقرآن وهدانا بأفعاله وهدانا بالفطرة، وهدانا بالإلهام، وهدانا بالرؤيا، وهدانا عن طريق الأشخاص، وهدانا عن طريق الانشراح والانقباض والتيسير والتعسير، ثم هدانا عن طريق التسيير المباشر. هذه كلها تعني أنَّ الله هو الهادي.

أنواع الهداية

العلماء لهم تفسيرات عميقة للهدى الإلهي، الهدى أربعة أنواع:

- الهُدى العام: الله عز وجل زوّدَكَ بحاسة الشم، تقول: رائحة غاز، كيف هداك إلى وجود غاز وفيه خطر على البيت؟ عن طريق الشم، أحياناً تسمع صوتاً في الغرفة الثانية، كيف هداك أن هناك حركة في البيت؟ عن طريق السمع، أعطاك ملكة الاستدلال والتفكير، أعطاك علماً، أعطاك خِبرة أعطاك حواس خمساً، هذه كلُّها القدرات التي أودعها الله في المخلوقات هداهم إلى مصالحهم.

ائت بنملة ضع أصبعك أمامها تقف وتغير طريقها، يعني أن الله أعطاها بصراً، أعطاها إدراكاً بأن هنا خطراً وهو حاجز، الله عز وجل هدى كلَّ الحيوانات؛ عن طريق الغريزة إلى مصالحها.

أحد الأشخاص كان في بستان، فرأى قنفذاً يأكل أفعى، أكل قطعة منها ثم تركها وذهب إلى نبات وأكل منه ورقة، ثم عاد، وأكل قطعة ثانية ثم ذهب إلى هذا النبات

وأكل ورقة ثانية، فهذا البستاني أمسك بالنبات وقلعه، وأكل القنفذ قطعة ثالثة ثم ذهب إلى النبات فلم يجده، فمات القنفذ، من هداه إلى أن هذا النبات يتناسب مع هذا الطعام؟ الله عز وجل.

مثلا: لو أحضرنا أمهر رُبان في العالم، أعلى رُبان على وجه الأرض في علمه ومهارته يحمل شهادات عليا وعنده ألفا ساعة قيادة سفن، وعنده دراسات وعنده اختصاص، وعنده خبرات، لو وضعناه على سفينة بلا بوصلة على ساحل فرنسا، وقلنا له: اتجه بها إلى مصبِّ نهر الأمازون، لا أُبالغ إذا قلت ربما جاء البرازيل في جزئها الجنوبي، فلا مجال بدون البوصلة ولا إمكانية، ولو انحرف درجة في بدء مساره لانحرف في النهاية مسافة خمسمئة كيلومتر، أما سمك السلمون فإنه يتجه من سواحل الأطلسي إلى مصبات الأنهار في أمريكا، كلُّ سمكة وُلدت بمنبع نهر تتجه إلى مصب النهر، وهذه السمكة المتجهة ليست هي التي قدمت عند بدء الرحلة بل أمها هي التي جاءت إلى هنا، ثم وضعت بيضها وربما ماتت في مكانها الجديد، أما السمك الجديد فبعد أن يخرج من البيوض يتجه نحو الشرق إلى سواحل فرنسا إلى حيث بدأت رحلة الأمهات، فإذا كبرت عادت إلى مصبات الأنهار، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

هذه هداية، فأول هداية: هداية عامة، هُديَ الإنسان إلى طعامه ولباسه إذ صَنَعَ نسيجاً ولبس، صَنَعَ بيتاً، طهى الطعام، طهي الطعام شيء معقد جداً، أكل الأكلة فإذا كان فيها خلل تتضايق منها، من هداك لوضع ملح وطحينة وكمون وفلفل وعصفر؟ مَن؟ إذاً لدينا هُدى، هُدى إلى كسب الرزق، هُدى إلى تأمين المعاش، هُدى إلى تأمين الحاجات، فهذا الهدى الأول هداية عامة.

– الهدى الثاني هداية الوحي، يهديك إليه، يهديك إلى كتابهِ يهديك إلى الحق.

– الهدى الثالث: هداية التوفيق، قال تعالى: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴿١٣﴾ ﴾ [الكهف:١٣].

- الهدى الرابع: هداية الجنة، قال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [محمد:٤-٦].

إذاً هناك هداية عامة، وهداية الوحي وهداية التوفيق والهدى إلى الجنة.

في ختام هذا البحث لا بد من بيان قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة:٢٨٢] هذه الواو تفيد أن الجملة ليست شرطية، ليس اتقوا الله يعلمْكم بل: ... واتقوا الله، لماذا لا تتقونه؟ لأنه يُعلمكم، يعلمكم دائماً بالخلق، وبكلامه وبأفعاله وبالفطرة وبالإلهام وبالرؤيا، وبالخلق، وبالقلب وبالانقباض والتيسير وبالتعسير وما إلى ذلك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾.

ولعله صار واضحاً أنه بتقوى الله تتحقق كلُّ مفاهيم الهداية ومقوماتها للإنسان فيهتدي إلى ربه ويسعد إلى الأبد.

يضل من يشاء

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل: ٩٣]

ويقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:٢٧]

من معاني الضلال والإضلال

لا بدَّ من مقدِّمة لغويَّة: الكلمة تحتمل من المعاني بقدر ما يملك الإنسان من خبرات، وكأنَّ الكلمة مِشجبٌ يعلِّق عليه كلُّ إنسانٍ ما يملكه من خبرات حول هذه الكلمة، لذلك هناك خطرٌ كبير هو أن نملك مفهوماً خاطئاً عن كلمة، فكلما ذكرنا هذه الكلمة حمَّلناها ذلك المفهوم.

مثلاً... كلمة جرثومة في استعمالاتنا اليومية تشير إلى المرض، أمَّا أن يقف شاعر كأبي تمام يقول وهو يخاطب خليفةً كبيراً كالمعتصم «محمد بن هارون الرشيد»:

خليفــةَ الله جــازى اللهُ ســعيَكَ عــن جُرثومَــةِ الــدِّينِ والإســلام والحســبِ

فمعنى ذلك أن كلمة «جرثومة» وقت أن مدح الشاعرُ الخليفةَ بها كانت تعني شيئاً حميداً، كانت تعني «أصل الشيء»، فلما سمينا تلك الكائنات المجهرية التي هي سبب الأمراض جراثيم، فلم يعد من المناسب أن تمدح إنساناً وتصفه بأنَّه جرثومة، إذاً هذه الكلمة حملت معنىً في حقبةٍ ما غير المعنى الذي تحمله الآن.

كلمة استعمار، هذه الكلمة ليست محبَّبة، لأن أقوياء منحرفين معتدين احتلُّوا بلاداً كثيرة ونهبوا ثرواتها وقهروا أهلها واستعبدوهم فسمُّوا أنفسهم مستعمرين بمعنى أنهم أرادوا أن يُعَمِّروا الأرض، فالممارسة المؤلمة الخاطئة والتي أُلصقت بهذه الكلمة أعطتها معنىً لا يُقبل الآن أن يمدح به إنسان، ومن أجل أن يقف القارئ الكريم على إيجابية كلمة «استعمار» فليقرأ قوله تعالى في سورة هود: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

أردت من هذه المقدمة أن نحرر مفاهيم الكلمات مما لصق بها من خبرات. فربما كانت الكلمة لها معنىً في اللغة غير هذا المعنى.

ربما من خلال الممارسات وجدنا أن إنساناً يُضلُّ إنساناً آخر، فهذا العمل ليس محبوباً عندنا، ليس عملاً مستحسناً أن يُضلَّ إنسانٌ إنساناً، إنه عملٌ مخالفٌ للفطرة، مخالفٌ للقيم الإنسانية الرفيعة، أما إذا قلنا: إن الله يُضِلُّ فلا بدَّ من معنى يليق بكمال الله.

الضَّلالُ: النِّسيان والضَّياع... فقد قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥٢].

وضلَّ الكافر... إذا غاب عن علة وجوده الذي خُلق من أجلها.

إنسان ذهب إلى بلد غريب لينال الدكتوراه، فتنته تلك البلاد بمسارحها ومقاصفها ونواديها وحدائقها وشهواتها فانغمس في هذه الشهوات، وضلَّ عن هدفه

الذي سافر من أجله، فيقال: هذا الطالب ضالّ، أي: غاب عن الهدف الذي جاء من أجله، وقد يكون الضلال هو الانحراف عن الطريق المستقيم... فالطريق المستقيم إذا خرج الإنسان عنه فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً.

وأضلَّه: جعله ضالًّا، أما إذا قلنا: الله جلَّ جلاله أضلَّ فلاناً فمن معانيها: وجده ضالاً وعلِمَه ضالًّا.

والضَّلالُ: كلُّ عدولٍ عن المنهج عمداً أو سهواً، يسيراً أو كثيراً.

قال بعض العلماء: «إنَّ إضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين، أحدهما أن يكون الإنسان ضالاًّ»... أي: اختار الضلال فقدَّر الله عليه الضلال الجزائيَّ المبنيَّ على ضلال اختياريٍّ، فإذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبنيُّ على ضلال اختياريٍّ، إذا قلنا: إنَّ رئاسة الجامعة قد طردت هذا الطالب من الجامعة فليس معنى هذا الكلام إلا أنَّ الطالب رفض أن يدرس، ورفض أن يداوم، ورفض أن يُقدِّم الامتحان، ورفض أن يجيب عن الإنذارات، وتجاهل كلَّ دعوةٍ إلى العودة إلى الجامعة، عندئذٍ لم تجد رئاسة الجامعة بداً من أن تصدر قراراً يجسِّدُ سلوك الطالب، يُجسِّد اختيار الطالب، فإذ عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.

لو فتحنا معجم اللغة وأردنا أن نستشفَّ معنى فعل أَفْعَلَ، فعندنا فِعْلُ (فَعَلَ) وهو فعل لازم، وأما (أَفْعَلَ) فقد يأتي للتعدية، ضلَّ: تاه، أَضَلَّ... من معنى الفعل الثلاثي المزيد بهمزةٍ في أوَّله «أَفْعَلَ» فأضل تفيد الوجدان أو العلم، كأن نقول: اختبرتُ هذه القبيلة فما أجبنتُها... أي ما وجدتها جبانةً، أو نقول: عاملتُها فما أبخلتُها... أي ما وجدتها بخيلةً، إذاً هناك معنى آخر، أي: أنَّه وجده ضالاًّ، علمه ضالاًّ، أعطاه الخيار، فاختار الضلال فحكم الله عليه بالضلال فأضلَّه.

لو أخذنا الجامعة مثالاً؛ فليست البطولة أن ينجح جميع الطلاب بعلاماتٍ تامَّة، ولكنَّ كمال هذه الجامعة أن تأتي علامات الطلاب مطابقة لمستوياتهم العلمية، فتطابقُ

النتائج مع المقدِّمات هو الكمال، أمَّا أن ننتظر من جامعةٍ ما أن يكون طلابُها جميعاً في الدرجة الأولى فهذا يتنافى مع طبيعة الإنسان المخيَّر، إلا أنَّ النتائج إذا جاءت مطابقةً للمقدِّمات فهذا هو الكمال.

فالإنسان حينما يختار الضَّلال يذكِّره الله فلا يذكُر، يُنذره فلا يتأثَّر، يدلُّه فلا يسلك، يخيفه فلا يتوب، يكرمه فلا يشكر، والله جلَّ جلاله يهدي الإنسان بياناً، ثم يهديه تأديباً، ثم يهديه إكراماً... لم يستجب في البيان، ولا في التأديب تَضَرَّعَ، ولا في الإكرام شكر، فإذا أصرَّ على الضلال فبحسب قوانين الله عز وجل وبحسب سُننه في الكون هذا الإنسان الذي اختار الضلال بمحض مشيئته سوف يسلك الله به إلى النار ليدفع الإنسان به ثمن اختياره.

الشيء الثاني... معنى الإضلال كما قلت قبل قليل: الحكم على هذا الإنسان بأنَّه ضالٌّ والعدول به عن طريق الجنة إلى النار وهذا العدول حقٌّ وعدل.

وهناك معنى ثالث... هو أن الله سبحانه وتعالى جَبَلَ نفسية الإنسان جِبِلّةً بحيث إذا اختارت طريقاً فإنَّها تألفه ويصعب أن تحيد عنه، فمن شبَّ على شيءٍ شاب عليه، ومن شاب على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ حُشِر عليه، فلو أنَّ الإنسان اختار طريق الضلال، وأَلِفَ الضلال ومارسه، وانغمس في المعاصي والآثام وأَلِف هذه الحياة، فإنه يصعب عليه بناءً على جبلَّته أن يغير ما ألفه، هذه الجبلَّة التي يصعب عليها أن تُغيِّر المألوف عندها، هي في الأصل لمصلحة الإنسان.

في علوم الفيزياء قانونٌ يسمى: «قانون العطالة»، فالأشياء المتحرِّكة ترفض السكون، والأشياء الساكنة ترفض الحركة، فلو كنتَ تركب مركبةً وأوقف السائقُ المركبةَ فجأةً فأنت ترفض أن تقف فتتابع الحركة، هذا الذي يدفع صانعي السيارات لوضع أحزمة الأمان في المقاعد لتكون مرتبطاً بالمركبة ولست حراً، فالمركبة حينما تقف فجأةً يبقى الراكب مندفعاً نحو الأمام، وقد يتأذى بهذا الاندفاع، فلا بدَّ من حزام الأمان، وهذا أساس مبدأ العطالة، والأشياء الساكنة ترفض الحركة، فلو كنت جالساً

في مركبة وأقلعت تشعر أن شيئاً دفعك نحو الخلف، فالمقعد دفعك من جهة الخلف لأنك ترفض الحركة والمركبة تحرَّكت... فهذا القانون لصالح الإنسان. فلو أن الإنسان هُديَ هدايةً كبيرة جداً ولسببٍ تافهٍ يعدل عن هذه الهداية، فهذه مشكلة كبيرة تواجهه وتحدث عنده خللاً.

فأنت جبِلَّتكِ تقترب من مبدأ العطالة، فإذا ألفت الهدى تابعت الهدى، وبالمقابل؛ فإذا ألف الإنسان الضلال تابع الضلال، فهذا القانون قانونٌ ذو حدَّين لمصلحة المؤمن، كذلك ليس لمصلحة الكافر، المؤمن يزداد به إيماناً، والكافر يزداد به كفراً، والحياة أساسها الاختيار، فكلُّ شيء حياديٌّ، فهذا القانون يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن، ويمكن أن يكون لغير مصلحة الكافر.

ففي جبلَّة الإنسان، أنَّ الإنسان إذا سلك طريقاً محموداً أو مذموماً ألفه واستطابه ولزمه وتعذَّر عليه صرفه أو انصرافه عنه، لذلك أهون شيءٍ أنْ ترشد الصغار لأنهم ليِّنو العود، أما الكبار فقد ثبتوا على طريقةٍ معينة فمن الصعب جداً أن تغيِّر سلوك الكبير لأنه ألف شيئاً يصعب عليه أن يتركه.

فالإنسان الجاهل بالله عز وجل، والجاهل بمعاني الكلمات قد يفهم الإضلال فهماً لا يليق بكمال الله عز وجل، قد يفهم أنَّ الله أضلَّه، أي: جعله ضالاً وخلق فيه الضلال، يا ربِّ إذا خلقت فيه الضلال فلماذا تحاسبه؟ هذا المعنى لا يليق بالله عز وجل... فبناءً على أنَّ المقدِّمات لا بدَّ لها من نتائج متوافقة معها. فمن اختار الضلال بمحض مشيئته وأصرَّ عليه خلقه الله فيه جزاءً لا ابتداءً.

والمعنى الثاني أنَّ طبيعة الإنسان ذات عطالة، فإذا ألفت الخير ثبتت عليه، وإذا ألفت الشر ثبتت عليه، فهذا القانون حيادي يمكن أن يكون لمصلحة المؤمن وقد لا يكون لمصلحة غير المؤمن.

لذلك إن الإنسان إذا انتبه للهدى في وقتٍ مبكِّر، فهذا من نعم الله العظمى لأنه سيبني بيتاً إسلامياً، وسيختار عملاً إسلامياً، أمَّا إذا تأخَّر في البداية، فقد يجد نفسه

ضائعاً فبيته ليس إسلامياً، وعمله ليس إسلامياً، وقد ألف حياة التفلُّت؛ عندئذٍ يصعب عليه أن يعود إلى الله كما لو كان شاباً.

يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) ﴾ [التوبة:١١٥].

فعندما يختار الإنسان الهدى، واللهُ سبحانه ييسِّر له سبيل الهدى يستحيل على كمال الله عز وجل أن يضلَّه بعد أن اهتدى إليه... لذلك: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾.

قال تعالى: ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) ﴾ [محمد:٤-٥].

معنى آخر... إنَّ الكافر أحياناً يُضلُّه الله لا عن ذاته تعالى، بل عن شركائه، فلو أنَّ إنساناً أشرك جهةً مع الله أيَّةَ جهةٍ، فمن تربية الله له، ومن تأديب الله له، أنَّ هذه الجهة التي أشركها مع الله يسخِّرها الله لتخييب ظنِّه، ويجب أن يُحبَط عملُ هذ الإنسان الذي اعتمد فيه على شريكٍ لله عز وجل، كأنَّ الله أضلَّه عنه ولم يبقَ له إلا الله.

والحقيقة: ما أكثر ما يقع هذا الشيء. فكلما علَّقتَ الآمال على جهةٍ أرضية؛ على ابنٍ مثلاً، أو على زوجة، أو على أخٍ، أو على صديقٍ، علَّقتَ عليه الآمال ونسيت الله عز وجل فلا بدَّ أن يخيِّب ظنَّك، هذا الذي علَّقتَ عليه الآمال، قد يكون وفياً، لكن يُلهمه الله أن يخيِّب ظنَّك ليضلَّك عنه، كي تتَّجه إلى الله وحده، لا إلى أحد في الأرض.

فلو أنَّ إنساناً له صديقٌ قويٌّ يعمل في منصبٍ حسّاس، وقال له: أنا في خدمتك، فأية قضيةٍ آلمتك فتعالَ إليّ، فهذا الإنسان يتكئ على هذا الصديق ويشعر بالأمن والقوة، أشرك وهو لا يدري، ونسي الله وهو لا يدري، فلو أنه استجاره مرةً، وطرق بابه ووجد منه خلاف ما يظن فيرى أنه قد تخلّى عنه، ووقف منه موقفاً سلبياً قاسياً، فهذا التخلي أو تلك القسوة بإلهام الله لهذا القويِّ كي يضلَّ هذا المشرك عن الشريك ليوحِّدَ الله عز وجل.

فإذاً، كلما قلت: أنا، أو نحن، أو زيد، أو عُبيد تخلَّى الله عنك، وإذا قلت: الله... تولاّك، فأنت دائماً وأبداً بين التولي والتخلي، إذا وحَّدت الله تولى أمرك، وإذا أشركت معه تخلى عنك... وهذا الدرس نحتاج إليه كلَّ يوم.

كلُّ إنسان له عمل، له خبرات، عنده مال، يستند إلى مراكز قوة، عنده إيجابيات، عنده قدرات، عنده ملكات، إذا اعتمد على ملكاته، على قدراته، على أمواله، على جماعته، على أقربائه، على إمكاناته، على شأنه، على وجاهته، على ذكائه، على رصيده، كلما اعتمد على شيءٍ أرضي تخلَّى الله عنه.

أضلَّه عن هذا الشريك ليوحِّد، فالمؤمن لو أنه أخذ بالأسباب فعليه ألا ينسى مسبِّب الأسباب، ولو أنه وسَّط فلاناً في قضيةٍ ما فعليه ألاّ ينسى أنَّ الله هو الملهم وأن الخير والتوفيق بيده... فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ﴾ [محمد:٨].

لماذا لم يرد في القرآن أنَّ الله أضلَّ مؤمناً؟ فهذه النقطة نقطة إيجابية دقيقة... لأنَّ المؤمن آمن فقد قال تعالى عنه: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦ ﴾ [مريم:٧٦].

وقال تعالى عن أهل الكهف: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ ﴾ [الكهف:١٣].

أي إنَّ قضاء الله وقدرَه مع المؤمن ومع الكافر، فالمؤمن إذا اختار الهدى يزداد هدىً، إذا آمن يُلقي الله في قلبه السكينة ليزداد إيماناً مع إيمانه، إذا اتخذ قراراً يرضي الله عز وجل شرح الله له صدره، أما إذا اتخذ قراراً يُسخط الله عز وجل فلسوف يضيق صدره ويصبح حرجاً ضيقاً كأنما يصَّعد في السماء كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا

يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

من هنا قال النبي ﷺ: «إنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اللهمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنا عَلَى طَاعَتِكَ» [رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو].

الله جلَّ جلاله هو الكامل، فأيُّ فهمٍ لكلام الله عز وجل على غير الكمال الذي يليق بالله فهذا فهم خاطئ.

في معجم ألفاظ القرآن الكريم قال: أضلَّه جعله ضالاً، وأضلَّه: وجده ضالاً، كما يقال: أحمدته وأبخلته، أي: وجدته محموداً وبخيلاً، وبهذين المعنيين يمكن تفسير ما ورد من إسناد إضلال الضالين إلى الله تعالى في مثل: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٤].

قد يتوهَّم البعض أن معنى أضلَّه أي: خلق فيه الضلال... كما قيل في بيتين من الشعر:

مـا حيلـةُ العبـد والأقـدار جاريـة ... عليـه في كـلِّ حـال أيهـا الرائـي
ألقـاه في اليمِّ مكتوفـاً وقـال لـه ... إيَّـاك إيَّـاك أن تبتـلَّ بالمـاء[1]

---

(١) البيت من كلام الحلاج وقد ردَّ عليه الشيخ عبد الغني النابلسي في قصيدة مطلعها:

قـد قـال مـن قـال مـن جهـل وإغـواء ... عـن حكـم تكليـف ربي عبـده النـائي
مـا حيلـة العبـد والأقـدار جاريـة ... عليـه في كـل حـال أيهـا الرائـي
ألقـاه في البحـر مكتوفـاً وقـال لـه ... إيَّـاك إيـاك أن تبتـل بالمـاء
جنـى عليـه فتـى مـن أهـل ملتنـا ... قـد قـال في رده نظمـاً بإنشـاء
إن حقـه اللطـف لم يمسسـه مـن بلـل ... ومـا عليـه بتكتيـف وإلقـاء
وإن يكـن قـدر المـولى لـه غرقـاً ... فهـو الغريـق وإن ألقـي بصحراء

عقيدة الجبر عقيدةٌ زائغة، مرفوضة، لا تليق بكمال الله عز وجل، وتتناقض مع تكليف الإنسان، ومع حرية اختياره، ومع كسبه، ومع الثواب والعقاب، ومع الجنة والنار، عقيدة الجبر تنفيها آيةٌ كريمة صريحة قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:١٤٨].

قال علماء اللغة: «أضلَّه... وجده ضالاً»، كأن تقول أحمدته أي وجدته محموداً، وأبخلته أي: وجدته بخيلاً.

عندنا قاعدة في أصول الفقه: الآيات المتشابهات مهما كثُرت تُحمَل على الآيات المحكمات مهما قلَّت، فالكلمة المتشابهة تشبه معنىً ومعنىً آخر، إذا قلنا: القمح مادةٌ خطيرة، فما معنى خطيرة؟ فالقنبلة خطيرة لأنها مدمِّرة ونقول عنها سلاحٌ خطير... واللحم مادة خطيرة، أي: أساسية في حياة الإنسان، فيا تُرى كلمة خطيرة التي وُصف بها القمح أو اللحم هل تعني أنها مدمِّرة أم أساسية؟ فلو قلنا: القمح مادةٌ خطيرة ماذا نقصد بها؟ لو قلنا بعد حين: القمح مادةٌ مهمةٌ في حياة الإنسان، فكلمة مهمَّة تعبير محكم واضح جليٌّ، كلمة القمح مادةٌ خطيرة كلمة متشابهة، كيف نفهم كلمة خطيرة، إذا قرأنا جملة ثانية أن القمح مادة أساسية، فنحمل كلمة خطيرة على أنها أساسية، لأن الكلمات المتشابهة تُحمل على الكلمات المحكمة... هذه قاعدة.

فإذا جاء في القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا، وخلقنا ليهدينا، وإنَّ الله لا يأمر بالفحشاء فقد قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٨].

والله سبحانه ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ قال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الزمر:٧].

ما دامت آيات كتاب الله تؤكِّد أنَّ الإنسان مخيَّر، وأنَّ الشرَّ ليس إيجابياً بل هو شيء سلبيٌّ، وليس مقصوداً لذاته فهو موظَّف للخير المطلق، عندئذٍ يجب أن نفهم معنى الإضلال لا على أنَّ الله خلق في الإنسان الضلال، بل على أنه أعطاه حرية الاختيار، فاختار الضلال فوجده الله ضالاً، ولأن هناك قوانين إلهيَّة فالضلال له نهاية والهدى له نهاية.

يضلُّ الله من يشاء... عندنا آية تقوِّي هذا المعنى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الصف:٥].

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ ﴾ زيغاً ابتدائياً مختارين فأزاغ الله قلوبهم زيْغاً جزائياً.

وأذكِّر مرة ثانية بمثل الجامعة، طالب بمحض اختياره ترك الدوام، فإنه لم يداوم، ولم يؤدِّ الامتحان، ولم يشترِ الكتب، ولم يردّ على الإنذارات التي وُجهت إليه، ولم يستجب للدعوة للعودة إلى الجامعة، أصر على هذا الموقف، وبعد ذلك يصدرُ من إدارة الجامعة قرار بترقين قيده، هذا القرار تجسيدٌ لإرادته الحرة، نقول: الجامعة طردته، الجامعة رقَّنت قيده، الجامعة جهةٌ خيرةٌ حكيمةٌ أُنشئَت الجامعة ليتعلَّم الطلاب، لا لتطردهم منها، ولا لتُرقِّن قيودهم منها.

إذاً: نفهم ترقين القيد والطرد من الجامعة فهماً جزائياً لا فهماً جبرياً، فهناك فرقٌ بين الفهم الجزائي والجبري... ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ ﴾، ومن يشاء الهدى يهديه الله.. ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾... فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر:٣١].

هناك معنى آخر للإضلال... إنسان يتَّجه إلى حمص، وقبل حمص رأى طريقين بلا لافتات، ورأى رجلاً فسأله قائلاً: مِن فضلك: مِن أين طريق حمص؟ قال له الرجل: من هذا الطريق. فقال هذا السائل لهذا المسؤول: جزاك الله خيراً، بارك الله فيك، فلما قبل هذه النصيحة، وقبل هذا الإرشاد، قال له الآخر: انتبه فهناك حاجز، وهناك طريق فرعي، وهناك مقطع من الطريق شديد السوء فانتبه واحذر... عندما قبل منه هذا الإرشاد أمدَّه بكثير من التفاصيل... ولو أنَّ إنساناً آخر وصل لهذا المفترق الذي دون لافتات وسأل هذا الرجل: من أين طريق حمص؟ قال له: من هنا. قال: أنت كاذب، فهذا الذي يقف على مفترق الطرق هل بإمكانه أن يعطيه تعليمات تفصيلية؟ وقد رفض دعوته كلياً، ورفض نصيحته كلياً، رفض دلالته.

معنى ذلك أنَّ الإنسان حينما يرفض أصل الدين، وأصل الشريعة، حينما يرفض منهج الله عز وجل فلن يستفيد من منهج الله وكأنَّ الله أضلَّه.

هناك ألف ميزة لطالب الجامعة... مكتبة مجانية، وإعارة كتب وتعويض، ولباس مجاني، وبطاقات تخفيض للمطاعم وفي السفر وفي الطائرات، إذا رفض الإنسان دخول الجامعة فهل يتمتَّع بهذه الميزات؟ إذاً هو حُرم منها كلياً... فهذا إذاً معنى سادس للإضلال... أنت حين ترفض أصل الدين فلن تقبل من الله توجيهاته، لن تقبل شرعه، لن تقبل أمره، لن تقبل نهيه، لن تقبل القيم التي أرادها لخير الإنسان، فأنت الذي رفضت الدين فرفضت إذاً كلَّ ميزاته وكلَّ ثمراته.

إذاً ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ من يشاء الضلالة يضلُّه الله، يشاء الضلال اختياراً فيضلُّه الله جزاءً، أي: يُحرم من ثمرات الدين.

وقد قال تعالى في الآية الكريمة: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر:٢٣].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ أي أنَّ الإنسان حينما يختار الضلال لا يستطيع أحدٌ في الكون أن يهديه... أبو لهب مثلاً ألم يعش مع رسول الله ﷺ؟! ألم يرَ دلائل نبوَّته، ألم يَرَ كماله؟!! هو رفض الحقيقة كلياً، فلا تتعب نفسك فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص:٥٦] ما الهداية؟ الهداية قرار داخلي.

ويجدر بي بعد هذا أن أذكِّر بهذه الكلمة... أنت إذا أردت الحقيقة فكلُّ شيءٍ في الكون يدلُّك عليها، وإذا رفضتها فلن تقبل من أحد أن يرغمك عليها، فقوم موسى رأوا البحر وقد أصبح طريقاً يبساً، ورأوا العصا وقد أصبحت ثعباناً مبيناً، فلما أتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم، قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة... وهذا ما ورد في قصة سيدنا موسى مع قومه في الآية الكريمة: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعراف:١٣٨].

فالإنسان إذا لم يتخذ قراراً داخلياً بالبحث عن الحقيقة، فليس في الكون كلِّه جهة يمكن أن تهديه إليها، أُناس عاشوا مع رسول الله ﷺ في الوقت الذي كان القرآن يَنزل عليه والمعجزات تتوالى، والآيات واضحة، والدلائل كثيرة، ومع ذلك ناصبوا النبي ﷺ العداء.

إذاً... ومن يضلل الله، أي: من يتخذ قرار الضلال، من يُرد الشهوات، من يرد الدنيا، من يعرض عن الله عز وجل فلن يستطيع أحدٌ في الأرض ولا الأنبياء أن يهدوه إلى الله، لأن الهدى ذاتي، وهو قرار داخلي.

أضرب مثلاً... الإنسان قد يكون شديد الذكاء، وقد يكون عبقرياً وقد يكون كآنشتاين، هذا الذكاء يشبه آلة للتصوير عالية التقنية، فهناك آلات ثمنها ألوفٌ، وآلات أخرى ثمنها ملايين من الليرات كالآلات التي تستخدمها محطات التلفزيون وقد يصل

ثمنها إلى أكثر من مليونين من الليرات، فلو كانت هذه الآلات ليس في داخلها فيلمٌ فما قيمتها؟

فالإنسان إذا أراد الحقيقة يجعل في داخل آلته فيلماً ينطبع عليه كلُّ شيء، أما إذا لم يرد الحقيقة فآلته غالية الثمن جداً ولكن دون فيلم... إذاً فما قيمة التصوير وضبط العدسة وضبط المسافة والسرعة؟ لا قيمة لهذه الآلة كلِّها، أمَّا إن أردت الحقيقة فمعناه أنك وضعت في داخل آلتك فيلماً، فكلُّ شيء تلتقطه، وإذا لم ترد الحقيقة فمهما تكن آلتك غالية الثمن ولكن من دون فيلم في داخلها فلن يجديك نفعاً، هذا معنى قول الله عز وجل ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾... في الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

إذا أضلّ الإنسانُ نفسه عن الله فأراد الدنيا وأراد الشهوات فلن تجد له في الأرض من يهديه.

أمَّا المؤمنون فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة:١١٥]، مستحيل ذلك فكلُّكم يعلم أن هذه الصيغة (ما كان) من أشدّ صيغ النفي، فهذا نفي الشأن وفرقٌ كبير بين نفي الشأن ونفي الحدث... ما كان له أن يسرق... لا يسرق، ولا يحبُّ أن يسرق، ولا يريد أن يسرق، ولا يتمنَّى أن يسرق، ولا يفكِّر أن يسرق، ولا يرضى أن يسرق، ولا يرضى لأحدٍ أن يسرق... ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾.

كن في طمأنينة، الله جلَّ جلاله ينمّي الخير القليل فيجعله كثيراً، ينمّي الطلب القليل ليجعله طلباً كبيراً.

وفي آيةٍ أخرى قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [محمد:٤-٥]، أي فأنت رأس مالك أن تبحث عن الحقيقة، فإذا اتخذت قراراً صادقاً مخلصاً في البحث عن الحقيقة وصلت إليها وربِّ الكعبة، وزوال الكون أهون على الله من أن تبحث عنها فلا تصل إليها.

فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٥].

أي أن الله عز وجل دائماً من سننه في معاملة خلقه، أنه ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب كما في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:١٧٩].

فلا بد من فرزٍ مستمر... فحديث الإفك فرزٌ للمؤمنين، فمنهم من صدَّق ومنهم من كذَّب، منهم من سكت توقيراً للنبي ﷺ وزوجه المصون، ومنهم من خاض في حديث الإفك... قصة الإسراء والمعراج فرزٌ للمؤمنين، منهم من ازداد إيماناً برسالة النبي ﷺ، ومنه من انتكس بهذا الخبر... فهذا الفرز دائم، فإذا كنت أمام خمسين طالباً دون إجراء مذاكرات وامتحانات فهناك مشكلة، فتجدهم كلُّهم يرتدون ثياباً موحَّدة،

وكلُّهم يطلبون العلم، ولكن بعضهم لا يدرس مطلقاً، وبعضهم في راحة من عناء الدراسة، وبعضهم عبء على أهله... فلا بد من مذاكرةٍ من حين لآخر، فهذه المذاكرة تفرز الطلاب ومن خلالها يتمُّ إعلام الآباء بمستويات أبنائهم، فهذا كسلان في الدراسة، وهذا علاماته متدنية في الرياضيات مثلاً فبذلك يتلافى التقصير، ونشجع المجتهد... أما أن يكون كامل العام الدراسي بلا مذاكرات، وبلا فرز، وبلا تقييم فهذه مشكلة.

فلحكمةٍ أرادها الله دائماً هناك امتحانات قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾... الفتنة: الامتحان... ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ أي أن الضال الذي يخفي الضلال ويظهر الهداية نفاقاً يكشفه الله، والمهتدي الذي ينطوي على هداية، وعلى استقامة وعلى إخلاص لله عز وجل يكافئه... هذا معنى من معاني الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:٢٧].

هنا معنى مخالف ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ من يضلُّ إذاً؟ من أعرض. فالمنيب يهديه الله، أمَّا المعرض فلا يهديه الله عز وجل، وقال تعالى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان:٣١].

وهذا معنى آخر.. من يشاء هكذا؟ قال: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ معنى ذلك يشاء الله غير الظالمين، وهذا بالمقابل.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧].

آياتٌ كثيرة يُعْزَى فيها الإضلال إلى الله، فالإضلال الإلهيُّ هو الإضلال الجزائيُّ المبنيُّ على ضلال اختياري، أو أنَّ الله يضلُّ الإنسان المشرك عن شركائه، فهذا الإنسان متجه نحو شريك ضعيف فيضلُّه الله عن شركائه ليهتدي إلى الله.

هناك أشياء قد تقع كثيراً وقد يكون عند الإنسان منافذ لمواجهتها... فإذا ضاقت به الأمور يقول: سألجأ إلى فلان أو فلان، وإذا كان ابنه مسافراً مثلاً يلتجئ إليه ويقول له: ابعث لي مالاً أستعين به، ويلتجئ بعضهم إلى أخيه، أو صديقه، أو إلى شيء يبيعه ليفرِّج أزمته المالية التي ألمت به، إنه يركن إلى الدنيا، ويتمسك بأهدابها على ضعفها وتقلب أهلها، ويبقى غافلاً عن الله الذي يقدر وحده على ردِّ لهفته.

وأحياناً يقع في شدَّة فيسأل ابنه فيعتذر إليه الابن، ويطرق باب فلان فيعتذر، يحاول السفر فلا يُسمح له، يعرض البيت للبيع فلا يأتيه أحدٌ ليشتريه منه، يغلق الله عليه كلَّ المنافذ ليتجه إلى الله، أي أضلَّ الله هذا الإنسان عن شركائه... فهو مشرك متَّكئ على فلان وعلى زيد وعلى عُبيد وعلى مال وعلى وساطة وعلى وجاهة ونسي الله، فإذا قلنا: فلان أضلَّه الله، أي أضلَّه عن هذه الجهات الأرضية ليتجه إلى الله خالق البرية.

وبعد، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنة... إن أردت أن تصل إلى الجنة فعليك أن تحسن ظنَّك بالله، وأن تفهم أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى وأفعاله الحكيمة على نحوٍ يليق بكماله، ويليق بجلاله، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠].

ويقول أيضاً: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح:٦].

وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٤].

فكلما ازددت معرفةً بالله ارتاحت نفسك وانعقدت صلتك به وأقبلت عليه وسعدت بقربه، وكلما ابتعدت عن حُسْن الظن به صار حجابٌ بينك وبينه، لذلك:

روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ العِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الخَنازِيرِ الجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ» [سنن ابن ماجه].

فليس للإنسان عذر إن أساء الظنَّ بالله أن يظل ساكتاً، فقد حضَّنا الله على أن نسأل... ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان:٥٩].

إذاً، إذا أشكل عليك مفهوم من مفهومات دينك، فاسأل أهل الذكر لعلك تخرج من حيرتك وتهتدي سواء السبيل.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل:٤٣].

أرجو الله سبحانه وتعالى منيباً وضارعاً أن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يلهمنا الحقَّ والخير والسداد في الأمر كلِّه.

يحيي ويميت

قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾ [الروم:٥٠].

وفي سورة فصلت قال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فصلت:٣٩].

وفي سورة البقرة: ﴿ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة:٧٣].

وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٦].

وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ

ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٨].

من معاني (يحيي ويميت)

المعنى الأول أنَّ الله سبحانه وتعالى يحيي الأجساد بإيجاد الأرواح فيها، فالعلقة في رحم الأم تنمو، لكن بعد أن تنمو يلقي الله فيها الروح، فتتحرك والقلب ينبض، والأجهزة تتكامل إلى أن يصبح الجنين طفلا سويّاً، دماغ، جمجمة، أعصاب للحس، أعصاب للحركة، جهاز هضم متكامل، جهاز للتنفس، جهاز دوران، جهاز لطرح الفضلات، عظام، عضلات، أربطة، طفل صغير كان قبل تسعة أشهر نطفةً من ماء مهين، كان حويناً من ثلاثمئة مليون حوين بعد تسعة أشهر والأم غافلةٌ عما في بطنها إذا هو طفلٌ يخرج من رحم أمِّه سويّاً مكتمل الخلق... من أودع فيه الروح؟ قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء:٨٥].

يعني لو درسنا مكونات الحليب وجئنا بكلِّ هذه المكونات، هل نستطيع أن نصنع حليباً؟ لو جئنا بكل مكونات البيضة هل نستطيع أن نصنع بيضةً؟ ماذا يجري في بطن الدجاجة؟ وماذا يجري في الخلية من الخلايا الثديية للبقرة؟ هذه الروح.

الكبد... ما دامت الروح في الإنسان له خمسة آلاف وظيفة، فإذا مات الإنسان أُلقي في المهملات، كبد الدجاج... والدجاج حيٌّ له وظائف خطيرة، فإذا ذُبِحَ الدجاج أصبح طعاماً يؤكل، فما سر هذه الحياة؟

هذه المعدة... ما دامت الحياة فيها فإنها لا تهضم نفسها، أما إذا ذبح الخروف فإنك تأكلها وتهضمها، هناك أمثلة لا تُعدُّ ولا تحصى.

وردة صُنعت من مادة بلاستيكية، ولها ألوان زاهية تجد أنَّ النفس تعافها، بينما الوردة الطبيعية تشعر وتحسُّ بتعاطف معها عجيب، فيها حياة، فالطبيعي فيه حياة، أما الوردة البلاستيكية فلا يوجد فيها حياة.

وقد نرى في واجهات المحال التجارية أجساماً توضع عليها الأقمشة، تشعر أنها بلاستيك أو شمع ليس فيها حياة، أمّا أن ترى إنساناً أمامك يتكلَّم، يتحرَّك، يتفاعل، يبتسم، يضحك، يفكِّر، يعتقد، يناقش، يأكل، يهضم، يتنفَّس، فذلك إنسان... فرقٌ كبير بين الدُّمية والطفل، من الذي أوجد الروح في الإنسان؟ الله جل جلاله هو المحيي، فهل هناك أحد من الحاضرين ليس له أبٌ أو أم أو لا يعرف قصة خلقه؟ قصة خلقه هو أن أباه تزوج أمَّه وخرج واحد من ثلاثمئة مليون حوين ولقَّح البويضة، هذا الحوين خلية لها غلاف وفيها نواة وفي النواة عدد كبير من الجينات وعليها معلومات مبرمجة تصل إلى الآلاف، ويدخل الحوين إلى البويضة وتبدأ البويضة الملقحة بالانقسام؛ تنقسم البويضة الملقَّحة إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم دون أن يزداد حجمها، لو ازداد حجمها لوقفت في الأنبوب وتعثَّر سيرها، كيف تُغرس في الرحم؟ كيف تأتي الدماء غزيرةً إلى الرحم؟ كيف يتكون هذا الجنين؟ بدءاً من دماغه إلى قلبه إلى أحشائه إلى أطرافه إلى أن يكون في الشهر التاسع طفلاً مكتملاً، يتثاءب، يضحك، يبكي، يتنفس، يهضم الحليب، فيه حياة، فالمحيي هو الذي يوجد الأرواح في الأجسام.

والله تعالى خالق الحياة ومعطيها لمن يشاء، هناك إنسان تجده في بيته مصدراً لسعادة البيت كلِّه، إذا دخل تجد البيت كأنه في عيد، الأولاد يتراكضون إليه، يتعلقون به، يجلسون في حضنه، الزوجة تستقبله، الضيوف يرحِّب بهم، فإذا مات خاف أقرب الناس إليه من الدخول إلى غرفته، فأين هو؟ أقرب الناس إليه زوجته، أولاده، الضيوف، ما الذي فقده؟ لو وزناه قبل أن يموت وبعد أن يموت لوجدنا وزنه كما هو، انسحبت الروح فأصبح مخيفاً، هناك من يخاف أن ينظر إلى ميت، من الذي أودع فيه الروح؟ الله جلَّ جلاله.

الله عز وجل خالق الحياة في كلِّ شيءٍ حي، في النبات... الشجرة حطب يابس يأتي الربيع تزهر، تورق، تثمر، من أوْدَعَ فيها الحياة؟ هرَّة تلد أمامك أربع هرر صغيرة تنمو، ترضع، من أودع فيها الحياة؟ الله جل جلاله هو المحيي، أتعبد مخلوقاً يحتاج إلى من يحييه؟ أتعبد مخلوقاً سوف يموت؟ أم تعبد الخالق المحيي المميت؟

خالق الحياة في كلِّ شيء، النبات فيه حياة، لو توسَّعنا أكثر: هذه الطاولة التي تبدو لكم جماداً لا يتحرَّك، ولا يدرك، ولا يسمع، ولا ينظر، اسألوا علماء الفيزياء هل فيها حياة؟ هذه الطاولة تتألف من ذرات، والذرة هي نواة وكهارب تدور حول النواة، وكلُّ ذرة لها عدد معين من الكهارب ومسارات معينة وسرعات معينة، وقد ينتقل العنصر من الطبيعة الغازية إلى الطبيعة الجمودية باختلاف كهروبٍ واحد على السطح الخارجي، فحتى الجماد فيه حياة، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس:٤٠].

كلُّ ما في الكون يسبح في أفلاك مغلقة، بدءاً من الذرة وانتهاءً بالمجرة، من الذي أودع الحياة في الجماد؟ الجماد حيٌّ، والنبات حيٌّ، والحيوان حيٌّ، والإنسان حيٌّ، والله هو المحيي.

أمَّا الجماد فإنه يشغل حيزاً له طول وعرض وارتفاع، لكنَّه لا ينمو ولا يتحرَّك، أمَّا النَّبات فإنه يشغل حيِّزاً وله وزن إلا أنه ينمو، والحيوان يشغل حيزاً وينمو ويتحرَّك.

أمَّا الإنسان فله وزن ويشغل حيِّزاً، وينمو ويتحرَّك ويفكِّر. قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن:١-٤].

من الذي أودع الحياة؟ هو الله جل جلاله هو المحيي.

الآن... يحيي الخلق من العدم، ويحيي الخلق بعد الموت... إحياءين. قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١].

الإحياء الأول الإحياء من العدم، والإحياء الثاني الإحياء بعد الموت، أمتَّنا اثنين وأحييتنا اثنين، معنى الإحياء أنه يحيينا من العدم، سبقنا عدم في بطون أمهاتنا، والإحياء الثاني يحيينا يوم القيامة، يبعثنا من قبورنا ونحيا مرةً ثانية.

الآن. في الحياة معنى آخر، تجلس مع إنسان كتلة من لحم ودم لا يعي هدف وجوده، يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يتمتَّع، لا يعبأ بقيمة ولا بخلق ولا بمبدأ ولا

بدين ولا بعقيدة، كائن يبحث عن طعامٍ وشراب وعن لذَّةٍ يقتنصها، فتشعر بكلِّ خليةٍ في جسمك وبكلِّ قطرةٍ في دمك أنَّ هذا الإنسان ميت، أمَّا قلبه فهو في أعلى درجة، ونبضه نظاميٌّ، تنفسُّه جيد، ضغطه جيد، لو فحصته فهو في أحسن حال مئة في المئة، لكنَّه ميِّت، قلبه ميِّت.

معنىً جديد للمحيي هو الذي يحيي القلوب بمعرفته والاتصال به، يحيي الأجسام بالأرواح، ويحيي النفوس بمعرفته وطاعته... تجلس مع مؤمنٍ فيه حياة، فيه مبدأ، فيه خُلق، فيه حياء، فيه رحمة، فيه إنصاف، فيه تواضع وعلم، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾... بالمعنى الثالث.

أول معنى: يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها وهي من عدم.

المعنى الثاني: يحيي النفوس بعد موتها.

المعنى الثالث: يحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه.

المؤمن حيّ..يقول سيدنا علي رضي الله عنه: يا بُنيّ مات خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم موجودة.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾... هذا المعنى الثالث... تجد المؤمن حيَّ القلب، إذا قرأ القرآن تدمع عينه، إذا قرأ القرآن يقشعرُّ جلده، يَجِفُ قلبه ويضطرب، يحبُّ ربَّه، يحبُّ طاعته، يحبُّ الخير، يصغي إلى الحق، ينطق بالحق، يذكر الله، يذكِّر بالله، يدعو إلى الله، يفصِّل، يبيِّن، يشرح، له أهداف كبيرة سامية جداً، يسعى إلى مرضاته.

يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها، ويحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه، قال تعالى: ﴿يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل:٦٥].

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر:٩].

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجاثية:٥].

﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾... بإنزال المطر.

والمحيي كما قال بعض العلماء: «يحيي العوالم بسرِّه»، العوالم جمع عالم كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾... جمع عالَم، عالَم الحشرات، عالَم الفيروسات، عالم البكتيريات، عالم الأحياء الدقيقة، الآن توجد بحوث جديدة تشير إلى أنَّ هناك مسببات للمرض هي كائنات حية أقلُّ من الفيروس، أصغر مخلوق هو الفيروس، الآن هناك مسببات تسببها هذه الكائنات التي هي أصغر من الفيروس تسبب مرض جنون البقر، أقل من الفيروس وهو كائن حي.

أحياناً ترى على صفحة الكتاب نقطة تمشي أقل من عُشر المِلِّيمتر، فلو قسمنا المليمتر إلى عشرة أقسام لكانت هذه الدويبية عشر المليمتر تمشي، ولو وضعت يدك أمامها لوقفت، ومعنى ذلك أنها أدركت أنَّ هناك حاجزاً أمامها، والجرثوم أصغر منها، والفيروس أصغر من الجرثوم، وبعض مكونات الأمراض أصغر من الفيروس، أودَعَ فيها الحياة.

وهناك الحوت الأزرق يزن مئة وخمسين طناً، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان، وإذا أرادت أنثاه أن ترضع وليدها ترضعه في الرضعة الواحدة ثلاثمئة كيلوغرام من الحليب،

أي طناً من الحليب في الرضعات الثلاث، يستخرجون منه تسعين برميلاً من الزيوت، خمسين طناً من اللحم، خمسين طناً أخرى من الدهون، ودماغه كتلة كبيرة جداً، وهذا الفيروس فيه حياة، أقلُّ من الفيروس فيه حياة، والحوت الأزرق فيه حياة، هو المحيي.

إذاً أحيا العوالم بسرِّه... عالم الأسماك، عالم الطيور، عالم الحشرات، عالم الفراشات، عالم البكتيريات، عالم الفيروسات، عالم الإنسان، عالم الحيوانات البرية، عالم النباتات، كلُّ شيء بيده.

الله تعالى أحيا العوالم بسرِّه، وغمر الموجودات بوافر برِّه، فهل هناك مخلوقٌ لا يأكل أو لا يشرب؟ في بعض قمم جبال هيمالايا توجد ينابيع ماء، فما معنى أن تجد ينبوع ماء في قمَّة جبل، بحسب قانون الأواني المستطرقة؟ ما معنى وجود ماء في جبل؟ هناك مستودعات للمياه في جبل أعلى وهناك تمديدات إلى الجبل الأدنى، لأن هناك أنواعاً من الوعول تعيش في قمم الجبال، رحمةً بها جعل الله لها بعض الينابيع في قمم الجبال.

إذاً... هو الذي أحيا العوالم بسرِّه، وغمر الموجودات بوافر برِّه، فلو أمسكت بسنبلة من القمح فهي غذاء كامل، ساق هذه السنبلة غذاء كامل للحيوان، وهو أرقى أنواع العلف، وأغلى أنواع العلف، كيف أنَّ القمح غذاءٌ كامل، ساق السنبلة غذاءٌ كامل، من جعل السنبلة للإنسان وساق السنبلة للحيوان؟ قال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ [عبس:٣١].

الفاكهة للإنسان، والأبُّ للحيوان.

وجمَّل نفوس المخلصين بالمجاهدة.

الحقيقة أنَّ المؤمن حيّ تنجذب نحوه، ما الذي يَجذبُ فيه؟ ضع في إناءين طاقة (باقة) من الورد الاصطناعي وطاقة (باقة) من الورد الطبيعي وانظر إليهما تجد نفسك منجذباً للطبيعي تشمُّها وتنتعش، تنظر إليها وتستمتع، فيها حياة، نضارة، ألوان رائعة، كذلك المؤمن كالوردة الطبيعية.

فقد تجد إنساناً ذكياً وعاقلاً ومتجمِّلاً وأنيقاً لكنه كالوردة البلاستيكية. النفوس لا تنجذب إليه، لذلك أمدَّ أحبابه بنور المعرفة والمحبة، منح المخلصين أنوار القربات، أوصلهم إليه بعد الغربة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

أنت بإمكانك أن تملأ قلبك حياةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك غنىً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك طمأنينةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك قناعةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك أمناً بالاتصال بالله، القلب الموصول حيٌّ، والاتصال ثمنه الطاعة، فقضية سهلة بسيطة جداً، أطع واتَّصل، فأنت مؤمنٌ حيُّ القلب، وفي المقابل -لا سمح الله- اعصِ وانقطع. القلب ميِّت، حقدٌ على ضغينةٍ على لؤم على كبر على أنانية، على استعلاء، على كذب على جحود، على خيانة، القلب مقطوع وميت.

وأدب المؤمن مع الله تعالى هو الإكثار من ذكر الحيّ، حتى يحيي القلب بنور المعرفة، وتُضيء النفس بأسرار المكاشفة، والإكثار من ذكره ولا سيما في جوف الليل، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، الحي القيوم مصدر حياة قلوبنا، مصدر حياة أجسامنا.

روي عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة على سطح لها، وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهي قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك، ثم تقبل على صلاتها، فإذا طلع الفجر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلتَ مني ليلتي فأهنا، أم رددتها عليَّ فأعزَّى، وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزَّتِك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من جودك وكرمك.

إذا لم يكن للإنسان مع الله مناجاة وصلة في جوف الليل، في الصلوات المكتوبات، في السجود، فالقلب قاسٍ. فليس هناك شيء أجمل من أن تناجي خالق الكون، من أن

تتصل به، لكن الله عز وجل كلُّنا عباده، وليس هناك فرقٌ بين عبدٍ وآخر إلا بالطاعة، أطعه وادخل عليه، أطعه وأقبل عليه، أطعه وناجِه، أطعه وابتهل إليه ترَ بابه مفتوحاً لك أبداً.

كان رجل من أصحاب ذي النون يطوف في السكك يبكي وينادي أين قلبي أين قلبي من وجد قلبي؟ فدخل يوماً بعض السكك فوجد صبيّاً يبكي وأمه تضربه ثم أخرجته من الدار فأغلقت دونه الباب فجعل الصبي يلتفت يميناً وشمالاً ولا يدري أين يذهب ولا أين يقصد، فرجع إلى باب الدار فوضع رأسه على عتبته فنام، فلما استيقظ جعل يبكي ويقول: يا أماه من يفتح لي الباب إذا أغلقت عني بابك، ومن يدنيني من نفسه إذا طردتني، ومن الذي يؤويني بعد أن غضبت عليّ؟ فرحمته فقامت فنظرت من خَلَلِ الباب فوجدت ولدها تجري الدموع على خده متمعكاً في التراب، ففتحت الباب وأخذته حتى وضعته في حجرها، وجعلت تقبله وتقول: يا قرة عيني وعزيز نفسي أنت الذي حملتني على نفسك، وأنت الذي تعرضت لما حل بك، لو كنت أطعتني لم تلق مني مكروهاً. فتواجد الرجل ثم قام وصاح وقال: قد وجدت قلبي، قد وجدت قلبي.

سبحان الله لو صبر الناس على باب الله لفتحه لهم، سلعة الله غالية، سلعة الله لا تأخذها مباشرةً إلا بعد جهد حقيقي، لذلك قال محمد بن يَسير البصري:

أخلِقْ بذي الصَّبرِ أن يحظَى بحاجته ... ومُدْمِنُ القَرْعِ للأبوابِ أن يَلِجا

ليس هناك أعظم من إنسان له صلة بالله، فأحياناً إذا كان هناك إنسانٌ عظيمٌ ينادونه قائلين: سعادة فلان... وقديماً: دولة فلان، فالله سمى إبراهيم: أمَّة.

وإذا كان المؤمن له صلة بالله، فالصلة فيها علم، فيها حلم، فيها توازن، فيها طمأنينة، فيها حكمة، فيها رحمة، فيها إنصاف، فيها عدل، فعلاً صار أمة ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ [النحل:١٢٠]، فالقضية بسيطة جداً، لا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها، أطعه واتصل به فأنت حيٌّ.

لو تفلّتَّ من منهجه وانقطعت عنه فأنت ميِّت، ولو كنت في أوج حياتك، في أوج شبابك، في أوج نشاطك، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)﴾ [فاطر:٢٢].

مرة التقيت بإنسان من بلد أجنبي فقلت في نفسي لعلي أذكِّره بالله، فذكرت له بعض الكلمات فقال لي: هذه المعلومات لا تهمُّني ولا أبحث عنها ولا تعنيني، أنا يعنيني امرأةٌ جميلة، وسيارةٌ فارهة ومنزلٌ واسع. وانتهى الأمر. لم أشعر بإنسان ميت كهذا الإنسان، فأحياناً يأتي الطبيب فيجسُّ النبض فلا يجد نبضاً، فيطلب مرآة فيضعها أمام الأنف فلا يجد بخاراً خارجاً مع التنفس، ويأخذ كاشفاً للضوء فيفتح عينه ويسلط عليها الضوء فلا تصغر الحدقة، إذاً هذا ميت انتهت حياته، فقد تكلَّمت معه عن عظمة الله وعن خلقه المعجز، فقال: هذه المعلومات لا تعنيني ولا أعبأ بها ولا أكترث لها، فقط ثلاثة تعنيني: امرأةٌ جميلة، وسيارة فارهة ومنزلٌ واسع... وقد مات منذ حوالي سنتين بحادث... قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾ [الكهف:١٠٥].

كلٌّ منا يتمتع بصحته والحمد لله، هل يدري متى سيموت؟ وفي أي مكان سوف يموت؟ وبأي سببٍ سوف يموت؟ يموت في بلده أو في بلدٍ آخر؟ يموت ليلاً أو نهاراً؟ يموت صبحاً أو مساءً؟ يموت وحوله أهله أو يموت وحده؟ من يدري... يحيي ويميت، وما دام الإنسان لا يدري متى يموت، فينبغي أن يستعدَّ للموت، فقد قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [آل عمران:١٠٢].

أي لا يأتيكم الموت إلا وأنتم في أعلى درجات الاستسلام لله عز وجل.

الآن الموت ضد الحياة، ماتت الريح إذا ركدت وسكنت، مات الإنسان إذا نام، سمي النوم موتاً لأنه يزول معه العقل والحركة تمثيلاً وتشبيهاً لا تحقيقاً، والأرض الموات التي لم تُزرع... من أحيا أرضاً مواتاً فهي له، وفلان مَوْتانُ الفؤاد أي بليد غير ذكي، قال عدي بن الرعلاء:

لـيس مـن مـات فاسـتراح بميِّـتٍ إنـمـا المَيْـتُ مَيِّـتُ الأحيـاء

والله تعالى هو مُقَدِّرُ الموت على كلِّ من أماته، ذكرت قصة، جلست مع إنسان ساعة تقريباً حدثني عن طموحاته إلى عشرين عاماً قادمة... سيسافر من البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى الفلاني، وسيعود وسيفتح محلاً تجارياً، ويكبر أولاده، وفي اليوم نفسه رأيت نعيه على الجدران مساءً.

لا أحد منا يعرف متى سيموت؟ هل سيموت في الستين من عمره أم في الخامسة والخمسين أم في الثامنة والأربعين، أم في الثالثة والسبعين، أم في التسعين من عمره؟ لا أحد يعرف، فهناك شبابٌ يموتون.

إنسان مات قبل عامين ترك ألف مليون، أحد الورثة نصيبه تسعون مليوناً، أغلق محلَّه التجاري وبدأ في متابعة المعاملات فذلك أربح من كلِّ عمله، وستة أشهر بالتمام والكمال من دائرة إلى دائرة لاستخراج الوثائق اللازمة، ودخل إلى الحمام فإذا به يموت فجأة قبل أن يقبض قرشاً واحداً، فيا ترى وهو يبحث من مكان إلى مكان، هل كان يتصوَّر أنه سيموت قبل أن يقبض هذا المبلغ؟

من منا يعرف متى سيموت؟ تجد شخصاً في ذهنه خطط، يستغرق عشر سنوات لتحقيقها، ويأتي الموت فجأةً:

كـم مـن عـروس زيَّنوهـا لزوجهـا وقـد قُبِضـت أرواحهـم ليلـة القـدر

ليلة العرس ماتت... فما دام الموت ليس بيدنا فالإنسان العاقل هو الذي يكون مستعداً للموت، فالموت ليس معناه ألا يعمل الإنسان، ولكن إن أدخل الموت في حسابه يستقيم، فإذا قال: أنا سوف أموت فجأةً سيستقيم، أيةُ ساعة جاء الموت أهلاً وسهلاً، مرحباً بالموت.

واحزناه! -قالتها امرأة بلال له حين حضرته الوفاة- فقال: بل واطرباه.. غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

شيء عند معظم الناس مصيبة، ولكنه عند المؤمن عرس إنه الموت، والله سمّاه في القرآن مصيبة الموت لأنَّ الإنسان في حياته الدنيا ينمو، قد يكون طالباً فيحصل على الليسانس ثم الدكتوراه، يوظَّف بوظيفة ويشتري بيتاً ويتزوج، ثم ينتقل إلى بيت أكبر، ثم يضع جهازاً للتكييف، ثم يشتري سيارة، وبعد ذلك يأخذ بيتاً في المصيف، ينمو ويكبر، من بيت كانت مساحته مئة متر إلى بيت مساحته مئتان من الأمتار وبمنطقة جميلة، فهو ينمو، يحسِّن أثاثه، ويزين بيته بالسجاد فهو ينمو، ثم يأتي ملك الموت ويخلِّصه من الدنيا وينزعه منها في أقل من ثانية التي قام بجمعها في خمسين سنة أو بثمانين سنة درجة درجة، ويقبض روحه في ثانية واحدة ولا يأخذ شيئاً معه، حتى لو كان في فمه سنٌّ من الذهب ربما نزعه من طمع به.

فالله تعالى مقدِّر الموت على كلِّ من أماته، ولا مميت سواه... يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه ليس في الكون جهةٌ تقرر إنهاء الحياة إلا الله، ولو بدا لك بالعين أنَّ فلاناً أنهى حياته، مهما بدا بالعين القاصرة والعقل الضعيف أنَّ فلاناً أنهى حياة فلان، فلاناً قتل فلاناً، لا يموت الإنسان إلا بأجله الذي حدَّده الله له.

كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرِّب أجلاً، الذي أودع الحياة هو الله وحده الذي يقرِّر الموت، علاقتك مع الله، إن آمنت هذا الإيمان تغدو شجاعاً، تغدو جريئاً، تغدو صادقاً، تعتمد على الله، لا تخاف أحداً، أما إذا توهَّمت أنَّ فلاناً يمكنه أن ينهي الحياة فقد عبدته وأنت لا تشعر، عبدته من دون الله، وأرضيته بسخط الله وأشركته مع الله.

ولا مميت سواه... قَهَر عباده بالموت، مهما كبر الإنسان وعلا سيموت.

فقد قرأت كتاباً لطبيبٍ لامع فيه زُهاء مئتي مقالة، كل واحدة أروع من الأخرى، كيف يجب عليك أن تتجنَّب الملح، وكيف تقوم بأداء التمارين الرياضية، والمحافظة على المفاصل، الجلد، المعدة، الأمعاء، القلب، والفيتامينات، والمواد السيليلوزية، الفواكه، الخضراوات، نضارة الجلد، قوة القلب، فمعنى ذلك أنه لو قرأ أحد الكتاب وقام بتطبيق ما فيه من تعليمات فلن يموت أبداً... لكنَّ المؤلِّف بعد ذلك مات.

فسبحان الذي قهر عباده بالموت، فالطغاة يموتون، الأنبياء يموتون، كذلك الصالحون، الأشرار يموتون، الأذكياء يموتون، الأغبياء يموتون، النساء يمتن، والرجال يموتون أيضاً، فسبحان من قهر عباده بالموت.

فقد قرأت كتاب قصص العرب وهو كتاب ممتع جداً، فيه قصص واقعية وقعت في العالم العربي، وبعد ما قرأته نظرت نظرة كانت بالغة الموعظة، قلت: كلُّ هؤلاء ماتوا، الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء، الأصحاء والمرضى، الأذكياء والأغبياء، الظُلاَّم والمظلومون كلُّهم ماتوا، وسيأتي يومٌ بعد حين كلُّ من تراه عينك في الطريق سيموت... فنحن الموجودون هنا بعد مئة سنة لن تجد واحداً هنا، وكلُّنا تحت أطباق الثرى، وقبل مئة سنة لم يكن أحد منا موجوداً... فسبحان المحيي المميت، سبحان من قهر عباده بالموت.

الإنسان يكون كلُّ شيء بيده، وكلُّ الأطباء في خدمته، أي دواء من أي مكان يأتي فوراً ومع ذلك يموت الإنسان، فالله قدَّر الموت على العباد، فالأنبياء ماتوا وسيدنا محمد ﷺ مات، فالموت مما قهر الله به عباده.

فعادوا إلى الأرض وطواهم التراب... فأكبر موعظة إن كان لديك وقت فراغ ورأيت جنازة فامشِ وراءها، فلاحظ عندما يضعون النعش على القبر ويرفعون الغطاء ويحملون الميت، وينزل شخصٌ إلى القبر ليمسكه ويضعونه ويكشفون عن وجهه، ويطلع الحفَّار من حفرة القبر، ويضع بعض الأحجار ويهيل عليها التراب، ويقف أولاده يتقبلون التعازي في والدهم وانطوت صفحة... وفي بيته لا أحد يسأل: لماذا فلان لم يَعُد؟ لن يرجع، وانتهى الأمر بموته، أما إذا كان حياً فإنهم يسألون عنه وعن سبب تأخره حتى الساعة الثانية عشر فأين هو؟ وإن كان يزور أخته فيخبرونه ويسألون عنه، أما إذا مات ودفن فلن يسألوا عنه، حتى ملابسه لكي لا يتذكروه يعطونها للفقراء على الفور، فأكثر الأسر لا يتركون له حاجة من حاجاته من ألبسة أو من أحذية أو أي شيء له حتى لا يتذكَّروه، فكأن صفحة قد انطوت.

فالإنسان عندما يُولد كلٌّ من حوله يضحك وهو يبكي وحده، وإذا مات كلٌّ من حوله يبكي... فإذا كان بطلاً فليضحك وحده، فالآن يجب علينا جميعاً أن نعمل ونشتغل بطاعة الله وبذكره، بالعمل الصالح، بطلب العلم، بتعليمه، بالأمر بالمعروف، بالنهي عن المنكر، بالأذكار بالأوراد، بالتلاوة للقرآن، فباب الله مفتوحٌ للكلِّ... يجب أن نستعدَّ للموت بطاعة الله، أن نستعدَّ للموت بالتوبة إلى الله، أن نستعدَّ للموت بالعمل الصالح، ومفهوم الغِنى والفقر بعد العرض على الله، أن الغنى هو غنى العمل، والفقر فقر العمل.

هو المميت... فأحياناً تجد أرضاً ميتة لعدم هطول الأمطار... فقد رأيت صورة من إفريقيا. شيء مخيف، الأشجار يابسة والحيوانات كلّها نافقة، والشعب هجر الأرض، تركها لعدم سقوط المطر، فأمات الجماد وأمات الحيوان وأمات النبات وهجَّر الإنسان، تجد فلاحاً يملك بقرة ثمنها سبعون ألفاً وتموت فجأةً، ففي ثانية واحدة أين ثمنها؟ فقد ذهبت وذهب ثمنها... فالحياة بيد الله عز وجل.

لذلك الله عز وجل يميت، ليعلم الناس أنَّ الله قادرٌ على التصرُّف بالإحياء وبالإماتة متى شاء ومتى أراد.

جاء من أمريكا وهو يحمل شهادة الدكتوراه والبورد، أنزل حقائبه من السيارة ولم يكن السائق منتبهاً فرجع للخلف فصدمه وحصره بين السيارة والجدار، ومات.

أو يموت يوم عرسه، أو يوم أخذ شهادة، فالقصص غريبة واعظةٌ مؤثرة.

هناك إشكالٌ في موضوع المميت.. إذا كان الله تعالى هو المميت، فما معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة:١١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١] أيضاً: يجيب بعض العلماء عن هذا التساؤل: خَلقُ الموت في الحقيقة من الله عز وجل، خلق فعل الموت من الله، لكن الموت في عالم الأسباب مفوَّضٌ إلى ملك الموت.

الفاعل في الحقيقة هو الله، أحياناً يضاف ملك الموت إلى فعل الموت، أو يضاف إلى الأعوان... ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾.

إذا قال الله عز وجل.... ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾... الفاعل الحقيقي هو الله، أما في عالم الأسباب فعن طريق ملك الموت أو... ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾.

ففي الحقيقة الله المتوفِّي، وفي المجاز توفَّاه ملك الموت، أو تفوَّته رسلنا، إلا أنَّ الموت ورد في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة، وهي خمسة معانٍ تقريباً.

أولاً: الموت: انعدام القوة النامية في الإنسان والحيوان والنبات لقوله تعالى: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد:١٧].

حينما تنمو الأرض بالنبات فهذه هي الحياة، وحينما لا تنمو بالنبات فهذا هو الموت... وهذا هو المعنى الأول للموت.

المعنى الثاني: زوال القوة الحساسة في الإنسان كما جاء في القرآن الكريم على لسان السيدة مريم: ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ [مريم:٢٣]. يا ليتني لم أُحِسَّ بهذا الحمل.

المعنى الثالث: زوال القوة العاقلة كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، كان مغفَّلاً وكان جاهلاً فاستيقظ وأصبح حيّاً، فعدم النماء موت، عدم الإحساس موت، عدم الإدراك موت.

المعنى الرابع: الحزن والألم والكدر، والضيق موت، قال تعالى: ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم:١٧].

الطريق مسدود، ففي البيت جحيم، والعمل متوقِّف، أصدقاء تخلوا عنه، ويأتيه الموت من كل مكان ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾... انعدام السعادة انعدام التوفيق، انعدام

الحفظ، انعدام النجاح في الحياة، الطرق كلُّها مسدودة... موت، يقول لك: الحياة مثل الموت هذا المعنى الرابع.

المعنى الخامس: النوم، فالنوم موتٌ خفيف، والموت نومٌ ثقيل: عن أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إذا أَوى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِداخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبادَكَ الصَّالِحِينَ» [صحيح البخاري].

فأحدنا إن نام إما أن يصحو من النوم أو لا يصحو، فإذا لم يصحُ من نومه نسأل الله أن يرحمه، وإذا صحا من نومه نسأل الله أن يحفظه من المعاصي، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزمر:٤٢].

حظُّ المؤمن من هذا أن يذكر الموت كثيراً، قال ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات، فإنه ما ذكره أحد في ضيقٍ من العيش إلا وَسَّعَه عليه، ولا ذكره في سَعَةٍ إلا ضَيَّقَهُ عليه» [البزار في مسنده من حديث أنس].

قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: «يا محمد، عش ما شئت فإنَّك ميت، وأحببْ من شئت فإنَّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنَّك مجزيٌّ به» ثم قال: «يا محمدُ، شرفُ المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس» [الحاكم في المستدرك، من حديث سهل بن سعد].

وعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاها وتَمَنَّى عَلَى اللهِ» [سنن ابن ماجه].

إنَّ أكيسكم -يعني أعقلكم- أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدَّ استعداداً له، وإنَّ من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوُّد لسكنى القبور، والتأهُّب ليوم النشور.

يعز ويذل

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران:٢٦].

تمهيد

حينما فطر الله عزَّ وجلَّ الإنسان؛ فطره على أسس فيها قيام عيشه وحياته، من هذه الأسس أنه خَلَقَ فيه دافع الجوع، وهذا الدافع هو سبب بقائه وسبب استمرار الحياة بالنسبة إليه، لولا هذا الدافع لترك الطعام والشراب، ولانهار جسمه، ولمات دون أن يشعر بحاجة إلى تناول الطعام، فدافع الطعام والشراب هو الذي يدفعه دائماً إلى التزوُّد بهما حفاظاً على وجوده أو حِفاظاً على حياته، هذا الدافع الذي أودعه الله في الإنسان معروف لدى الجميع.

أمَّا بقاء الجماعة، بقاء الجنس البشري فإنه يحتاج إلى دافع آخر، إنَّه دافع الجنس، فقد أودع الله في الرجل وفي المرأة على حدٍّ سواء ما يدفع كلاًّ منهما إلى أن يتَّجه إلى

صاحبه إلى أن يتمَّ الاتصال، وقد شرع الله له الزواج، هذا دافع آخر يدفع الإنسان إلى الحفاظ على بقاء النوع، فالطعام والشراب يضمن بقاء الفرد، أما دافع الجنس فيضمن بقاء النوع.

لكنَّ علماء النفس وجدوا أنَّ في الإنسان دافعاً قوياً جداً لا يقلُّ عن دافع الطعام والشراب، ولا يقل عن دافع الجنس، هو دافع ما يسمى بالشعور بالأهمية، أو تحقيق الذات أو تأكيد الذات، ويمكن أن ندرجه تحت عنوان العزَّة، فكلُّ مخلوق لو توافر له الطعام والشراب ولو توافرت له الزوجة، يشعر أنَّه لا بدَّ أن يكون مهماً، لا بد أن يعتزَّ ولو بجسمه، ولو بماله، ولو بنسبه، ولو بخبرته، ولو بحرفته، ولو بقدرته على الأذى، ولو بجبروته، هناك دافع فطريٌّ يدفع الإنسان إلى الاعتزاز، أن يؤكد ذاته، أن يُشعر الآخرين بأنه إنسان خطير، بأنه متفوِّق أو بأنه عزيز.

والسؤال المطروح هو: لماذا أوجد الله في الإنسان دافع الطعام والشراب؟ الإجابة سهلة، حِفاظاً على بقاء الفرد، ولماذا أوجد الله في الإنسان دافع الجنس؟ حفاظاً على بقاء النوع وإعمار الأرض.

أمَّا لماذا خلق الله في الإنسان دافع الاعتزاز؟ دافع تأكيد الذات، دافع الشعور بالأهمية؟ فالإجابة عنه أيضاً سهلة، هذا عون من الله عز وجل للنفس البشرية، لعلَّ هذا الدافع يقيها من الانحراف.

الإنسان أحيانا يخاف على سمعته، يخاف على شرفه، يخاف على مكانته، يخاف على مرتبته، يخاف على جاهه من أن يُخدش وأن يُمرَّغ في الوحل، وأن يتحدث الناس عنه بالمكروه، يخاف أن يُفتضح، ويخاف أن يسقط من عين الناس ويهون عندهم، لولا هذا الدافع، دافع الاعتزاز، لهان على كلِّ إنسان اقتراف المعصية، ولهان سقوطه ممرَّغاً، ولهان عليه انحرافه، ولهان عليه انغماسه في الوحول، طبعاً ليس معنى هذا أنه ليس في بني البشر من هانت عليه نفسه، الفطرة قد تشوّه والعزَّة قد تمرَّغ بالوحل، هذه حالات شاذة وحالات استثنائية ليست مناط الحكم، نحن حينما نقول الإنسان هكذا نقصد في

الأعم الأغلب وفي الخط العريض، إلا أن هناك لكلِّ حالة استثناءات وخصوصيات في الطرف الأول والطرف الثاني، ولنضرب مثلاً: لو أنَّ طفلاً في مدرسة رأى قلماً وأعجبه فوضع القلم في جيبه، صاحب القلم اشتكى، والمدرس سأل، فلا أحد يجيب، ولو فرضنا أنَّ هذا المدرس منع الطلاب من الخروج من الصف، وفتَّش الطلاب واحداً واحداً، وضبط هذا القلم في جيب أحد الطلاب، حتى لو أنَّ هذا الطالب في الصف الأول أو في أي صف، فإنَّه يشعر وقد كشف وكذب بآلام لا توصف، وبخجل شديد، ويتمنى أن تبتلعه الأرض، فما هذا الشعور؟ هذا شعور الاعتزاز الذي أودعه الله في الإنسان.

أودع الله في الإنسان هذا الشعور من أجل أن يبتعد عن المعصية ترفُّعاً واعتزازاً وتأثُّماً، فنحن بادئ ذي بدء نقول: أودع الله عز وجل في الإنسان دافع الطعام والشراب ودافع الجنس ودافع الاعتزاز، ويمكن أن نطلق على هذا الدافع الأسماء المتنوعة التالية: الشعور بالأهمية أو تأكيد الذات أو إثبات الذات أو دافع الاعتزاز.

فلو جلست إلى أي إنسان يقول لك مفتخراً: أنا لي موقف لا يُنسى، هذا يقول لك: أنا فعلت كذا، أنا في مصلحتي الأول، صنعتي متقنة، لن تجد إنساناً إلا ويعتزُّ إما بحرفته أو بمهنته أو بماله أو بصحته أو بقوته أو بنسبه أو بكذا وكذا.

إذاً ما أودع الله في الإنسان هذا الدافع إلا من أجل أن يقيه السقوط، إلا من أجل أن يقيه الانحراف، إلا من أجل أن يقيه الفضيحة، وهذه واقعة أرويها سريعاً للقراء الكرام، دعماً للفكرة، وعسى أن يجدوا فيها العبرة والعظة:

رجل منحرف متبذِّل متحلِّل من كلِّ قيد اقتنى آلة تصوير فيديو وصوَّر نفسه مع زوجته، بأوضاع مبتذلة، وأعاد الشريط إلى مكتب إعارة الأشرطة بالخطأ، إذ وضعه خطأً في علبة من نوع علب الإعارة، ففوجئ صاحب هذا المكتب بشريط جديد، طبع منه نسخاً كثيرة ووزعه إلى أن وصل الشريط إلى أحد إخوة هذا الإنسان، نظر فإذا أخوه وامرأة أخيه في أوضاع مبتذلة يندى لها الجبين، أعلم أخاه، هذا الإنسان ظروفه جيدة، ودخله وفير، مطمئن في بيته، اضطرَّ هذا الإنسان إلى أن يبيع بيته في دمشق، وأن ينتقل

إلى مدينة أخرى فِراراً من الفضيحة، ما الذي حرّك هذا الإنسان؟ اعتزازه، فهذه فضيحة كبيرة جداً، حين تنكشف الأشياء الخاصة لدرجة أن تصبح منشورة بين الناس.

لمثل هذه الحال يقال: طوبى لمن وسعته السنَّة، ولم تستهوه البدعة، هذه بدعة، وهنا أحاديث شريفة كثيرة جداً تؤكد أن هذه العلاقات الحميمة الخاصة لا ينبغي أن يجاهر المرء بها، فكيف إذا صُوِّرَت؟ فما الذي دفعه إلى أن يهجر بلده؟ الفضيحة، وقد يندفع الإنسان إلى الانتحار إذا شَعَرَ بالفضيحة، أحداث كثيرة جداً، يكتشف المرء أنه تلاعب أو أنه سرق، وسوف يُفضح على الملأ وعلى صفحات الجرائد، فقد ينتحر.

إذاً: ينبغي ألا يستخفَّ أحد بهذا الدافع، دافع الاعتزاز ودافع الشعور بالأهمية، دافع العزة، دافع تأكيد الذات، دافع إثبات الذات فهو دافع كبير جداً وخطير، وما أودعه الله في الإنسان إلا رحمة بالإنسان، وما أودعه الله في الإنسان إلا حصناً له، ما أودعه الله في الإنسان إلا سياجاً منيعاً يحول بينه وبين السقوط في براثن القيل والقال.

كيف يعزك الله؟

الحقيقة أنّك تكون عزيزاً لمجرد أن تطبق أمر الله، مثلاً حينما تغضُّ بصرك عن محارم الله، حينما لا تخلو بامرأة أبداً، حينما لا تكذب، لا يستطيع الناس أبداً أن يضعوك في موضع التهمة والذّلّة، لو أنَّ إنساناً دخل إلى بيت صديقه، وصديقه ليس في البيت، ولو كان بريئاً يتحدَّث الناس عنه، يجرحه الناس، إذاً أنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل، تكون نزيهاً عفيفاً مستقيماً ملتزماً بالشرع فتكتسب عزَّة الشرع، هذه أول نقطة، فأنت عزيز لأنَّك مطيع لله عز وجل والله تعالى حينما أمرك بهذا المنهج حصَّن سمعتك.

النبيُّ ﷺ، لا ينطق عن الهوى، قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» [رواه الترمذي من حديث عمر].

فأنت ما دمت ملتزماً وعاملاً بنصِّ هذا الحديث فلا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك، ولا أن يتهمك، ولا أن يمرِّغك في الوحل، ولا أن يلهج بين الناس بما

يشينك، لأنك عملت بأمر الله عز وجل، في تطبيق أمره سبحانه حفاظاً على سمعتك وعلى كرامتك وعلى عزَّتك وعلى مكانتك وعلى شأنك.

إذاً: إذا طبَّقت أمر الله عز وجل واستقمت عليه، ووقفت الموقف الشرعي في كلِّ حالاتك فأنت عزيز، والنبي ﷺ علمنا أشياء كثيرة، كان مع زوجته صفية رضي الله عنها، مرَّ رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رِسلِكُما، إنها صفيَّة بنت حيي» فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً» [رواه مسلم من حديث صفية بنت حيي]، فالبيان يطرد الشيطان، فأنت أدركت أن هذه حرام، وهذه حلال، هذه تجوز، هذه لا تجوز، وعزمت مثلاً ألا تدخل بيتاً ليس فيه رجل حتى لو كنت من أصحاب الحِرف التي تستدعي العمل داخل المنازل، إذا وجدت أنَّ في الدخول لهذا البيت كإصلاح صنبور الماء، خلوة، فأنت لأنك مؤمن عليك ألا تدخل، ولك أن تضحي بأجر ذلك اليوم حِفاظاً على سمعتك وعلى عزتك وعلى كرامتك، هذا هو المعنى الأول، فأنت أمين، فالأمين عزيز، عفيف؛ العفيف عزيز، صادق؛ الصادق عزيز. تصور نفسك أنك تكلّمت بكلام فيه كذب في مجلس فدخل رجل يعرف الحقيقة، فقال: ما الموضوع؟ فقال أصحابك: والله فلان حدثنا كذا وكذا، فقد ينظر إليك، ويقول: لقد كنت معك حين ذاك، والأمر غير صحيح... فيبهت الذي كذب...

إذاً لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت صادقاً، لن تكونَ عزيزاً إلا إذا كنتَ عفيفاً، لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت أميناً، والدليل، لو أنَّ ابنك رَجاكَ أن تردَّ على أصدقائه إذا اتَّصلوا به بالهاتف وتقول: إنه غير موجود، وهو موجود حقيقة، وكذبت، فإنه لو لم يطّلع إنسان على هذه الكذبة، وتمت، يعلم ابنك، بل هو الذي طلب منك ذلك، فإنك تشعر أنَّ هناك ضعفاً في شخصيتك، تشعر بانهيار جزئي، لا، بل قل له: ابني مشغول، وهو يعتذر عن لقائك، هذا هو الصحيح، فأنت لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت مستقيماً على أمر الله، العفيف عزيز، الأمين عزيز، المستقيم عزيز، الصادق عزيز، المخلص عزيز، الواضح عزيز.

إن أيَّ انحراف يتبعه ذُلُّ الفضيحة، عرف أحدهم أنك لست بصادق، لحقك الذل، عرف أنك لست بحكيم جاءك اللوم، كشف أنك لست بأمين فسحب الثقة منك، كُشِفَ أنك لست بعفيف فتشكَّك الناس فيك.

فالذي أنزل على نبيه ﷺ كتاباً وأنطقه ببيان، ونظّمَ نظاماً، وقنَّن قانوناً، وسنَّ سُنَناً، وشرع شرائع إذا طبقتها بحكمة وبحذق، فأول ثمرة من ثمارها أنك تعيش بين الناس عزيزاً، لا يستطيع أحد أن يلوك سمعتك بلسانه، لا يستطيع متَّهِم أن يتهمك، لا يستطيع لأنه ليس لديه دليل، أما إذا كانت هناك انحرافات، هناك اختلاط، وأماكن مشبوهة، وعلاقات مريبة، وهناك تداخلات وقد تكون بريئاً، ولكن الناس يمضغونك بالأفواه، هذا المعنى الأول: أن الله عز وجل يعزُّك من خلال شرعه، يكفي أن تطبِّق شرعه فأنت عزيز، وإذا كنت عزيزاً حققت ثلث وجودك، الأول: الطعام والشراب، الثاني: الزواج، الثالث: تحقيق الذات، تأكيد الذات، الشعور بالعزة.

مثلا: أذكر أن أحد إخواننا الأكارم صاحب محلٍّ تجاري، عيَّن موظفاً، ذلك الموظف ضعيف الوازع الديني، ضعيف الانضباط، فمنذ الساعة الثامنة صباحاً وحتى الساعة الحادية عشر، وحده في المحل، وهو متزوِّج حديثاً، وزوجته لها طلبات كثيرة، ضعف أمام نفسه فمن حين لآخر يضع مبلغاً في جيبه دون أن يعلم صاحب المحل، صاحب المحل بالفراسة، بالحاسة السادسة شعر أن المحل فيه نقص في البضاعة، وفيه نقص في الغلة، فماذا فعل؟ رجا صديقاً له أن يأتي محله التجاري الساعة التاسعة ويشتري حاجات بخمسمئة ليرة ويدفع ثمنها نقداً، ثم يعود في الساعة الخامسة ليعيد البضاعة لسبب ما، فجاء صاحب المحل في الساعة الحادية عشرة، وسلم على موظفه الكريم وسأله: ماذا جرى في هذه الساعات الثلاث، فأخبره ألا شيء، قال: أما جاء أحد واشترى؟ قال: لا، حينما دخل ذاك الذي اشترى بضاعة في الصباح يريد أن يعيدها الساعة الخامسة وكان صاحب المحل وراء الطاولة، والموظف حاضر فأخذت الموظف الخائن رعدة كاد أن ينهار على إثرها، ووالله لو نظرت إلى وجهه لرأيت دماً، قفز إلى وجهه ثم تبدَّد ليعلو الوجه شحوب المهانة، وذلُّ الخيانة.

أذلَّه الله ليحمله على التوبة، فإذا تاب واستقام على أمر الله صار عزيزاً، فالله عز وجل لا يضع الإنسان في موضع ذليل إلا من أجل أن يعالجه كي يعزَّه، فاعلم إذاً أن الله عز وجل يعزُّ ويذلُّ، وينبغي أن تعتقد جازماً أنه إذا أذلَّ فمن أجل أن يعزَّ، لكنَّ الإنسان الحكيم لا يحتاج إلى أن يُذلَّ كي يُعزَّ.

ذكرت من قبل أن الإنسان يمكن أن يكشف الحقائق بنفسه، ولكن قد يكشفها بعد فوات الأوان، وقد يكشفها وقد دفع حياته ثمناً لها، وقد يكشفها وقد أضاع سعادته الزوجية وأردى نفسه وأهله.

إنسان تزوج امرأة، دفعها إلى أن تعمل خارج البيت طمعاً براتبها، دفعها إلى التحرر الزائف، دفعها إلى الاختلاط المريب، فهو إنسان عصري، إنسان متفتّح العقل كما يقال، إنسان واثق من زوجته إنسان... إنسان... إنسان، وبعد أن دفعها إلى الانفتاح، وإلى الاختلاط، وإلى التبذّل، وإلى أن ترتدي ثياباً وفق أحدث الصرعات، صار اهتمامها به قليلاً، صار غيابها عن البيت كثيراً، اتصالاتها مريبة، فوجئ أنها اشترت بيتاً آخر، من دخل خاص جاءها، فوجئ أنها استغنت عنه، فقال بالحرف الواحد: يلزمني ذبح على هذا التصرف الذي فعلته مع زوجتي، يحبها فدفعها نحو التحرر فأحبت غيره، وانساقت مع غيره، واستغنت عنه، هذا الإنسان بربكم أيها القراء الكرام لو أنَّ في دمه كريات حمراء وبيضاء لرأى أنه كان مخطئاً في عمله بداية، لقد عرف أنه كان مخطئاً لكن بعدْ فوات الأوان، بعد أن ضحّى بسعادته الزوجية، بعد أن ضحّى بأم أولاده، بعد أن افتقر إلى العُش الإسلامي الحاني الدافئ.

أنا لا أريد لك هذه التجربة، ولا أريد أن تكون حكيماً بعد أن تدفع الثمن باهظاً، لكنك إذا اتبعت كتاب الله وسُنَّةَ رسولِه ﷺ في مقتبل حياتك فأنت تهتدي برأي الخبير، وبحِكَمِ الخبير العليم، أنت تستعمل هذه الآلة وفق هواك، فيصيبها العطب، ثم تُصلح العطبَ، وتدفع الثمن باهظاً، ويهبط مستواها ومردودها، فلو أنك استعملت تعليمات الصانع لصُنتَ هذه الآلة وأخذت منها أكبر مردود، فليست الحكمة أن تعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، ولكن الحكمة أن تعرفها في الوقت المناسب.

إذا: يمكن أن تكون عزيزاً إذا اتبعت كلام الله، ويمكن أن تكون عزيزاً إذا أذلك الله عز وجل إثرَ انحراف ثم تبت من هذا الذنب، فأنت بين أن تكون عزيزاً بعد ذل، وبين أن تكون عزيزاً بعد علم، والفرق كبير، تعلّم منذ البدء وكن عزيزاً، وإياك أن تدفع ثمن عزتك ذلاً ومهانةً وإيلاماً.

الإعزاز والإذلال صفتان من صفات فعله جل جلاله، والله عز وجل له ذات وله صفات وله أفعال، إذاً له أسماء ذات وله أسماء صفات وله أسماء أفعال، فإعزازه للعبد يكون في الدنيا والآخرة، لكن إياك أن تغترَّ بعزِّ الدنيا، فقد يكون عزُّ الدنيا استدراجاً، لذلك.

رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ورب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ورب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ورُبَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم. ورب متخوِّض متنعِّم فيما أفاء الله على رسوله، ما له عند الله من خلاق. ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة. ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً. [هذا حديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، من حديث أبي البجير، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ].

أحياناً ترى شخصاً حياته ناعمة جداً، منزل واسع مفروش بأجمل الأثاث، التكييف، التدفئة، التزينات، الثريات، لا تُضاهَى أناقته، مركبته، مكتبه، دخله، تجارته، مكانته، ثيابه الأنيقة من أعلى مستوى، ما شاء الله، هذا طاعم شارب ناعم، وقد يكون مصيره إلى النار، وقد تجد إنساناً خشن الثياب خشن الطعام خشن الشراب، منزله ضيق، حياته من الدرجة الخامسة، لكنه طائع لله عز وجل، العبرة في النهاية، «ألا يا رب نفس طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمة ناعمةٍ يوم القيامة».

لكن: «ألا يا رُبَّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رُبَّ مهين لنفسه وهو لها مكرم» أحياناً الإنسان بدافع من عزته الباطلة يعصي الله ليحافظ على مكانته، فلو كُنت

بين أُناس فُجّار، بين أناس منحرفين وأردت أن تماشيهم في معصية حِفاظاً على مكانتك عندهم، فقد أكرمت نفسك أمامهم، ولكنك سوف تجعلها في الوحول يوم القيامة، «ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم».

قد تضع نفسك في الدنيا حفاظاً على دينك وحفاظاً على استقامتك، وحفاظاً على مرضاة ربك وحفاظاً على آخرتك، وحفاظاً على اتصالك بالله، قد تضع نفسك في موضع صعب جداً، قد تقول: لا أفعل، وهناك ضغط كبير من أجل أن تفعل، قد تقول: لا أفعل وهناك إغراء كبير من أجل أن تفعل، حينما ترفض تأتيك عبارات التقريع والسخرية والتعليمات والاتهامات، «ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم».

قد تكون عضواً في لجنة يعرض عليك كذا وكذا، تقول: لا أفعل هذا، حينما ترفض أن تفعل هذا، تُعزَل من هذه اللجنة، ويأتيك اللوم الشديد، ويقال لك: إنك مجنون، ضيّعت فرصة العمر في أن تكون غنياً، «ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم».

إذا أردت أن تفعل أمراً فتدبّر عاقبته، مرة قرأت بحثاً لطيفاً، سألوا مئة زوج في بلد غربي: لماذا لا تخون زوجتك؟ هذا اسمه استبيان في علم النفس، يعني هذا الذي لا يخون زوجته ما الذي دفعه إلى ذلك؟ فجاء الجواب متنوعاً، بعضهم قال: لا أستطيع، لأنه يعمل معها في مكان واحد فهي تراقبه، فقالوا: هذا أسخف جواب، هو يتمنى، ولكنه لا يستطيع.

أحياناً لا يستطيع تحمل الإثم، ولو كان بينه وبين نفسه، إذا فعل الإنسان فعلاً شنيعاً، ولم يعلم به أحد، يواجه نفسه بمرارة التعنيف يواجه اللوم الداخلي، يواجه التحقير الداخلي، يواجه السقوط الداخلي، فجاءت بعض الأجوبة: إنني لا أستطيع تحمل هذا الإثم، وجاء جواب آخر: إنني أكره الخيانة، فالثاني إذاً لو أنه تحمّلَ ألم الشعور بهذا الإثم لفعلها، لكن ابتغى راحة نفسه، لكن الثالث قال: أنا أكره الخيانة، هذا أرقى جواب.

فالإنسان حينما يضع نفسه في مواطن صعبة حِفاظاً على عزته البعيدة يفلح، فالأغبياء دائماً يعيشون وقتهم، الأغبياء يعيشون لحظتهم، يعيشون ساعتهم، أما الأذكياء فيعيشون مستقبلهم، فإذا أردتَ أن تجري فحص ذكاء ترى إنساناً يعيش وقته، يهمل صحته، يهمل واجباته، تأتيه المتاعب، تأتيه الهموم، تأتيه الأمراض، لكن الإنسان الأعقل هو كما قال في وصفه النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَهُ هواها وتمنى على الله الأماني» [أحمد والترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس].

عاش في العصور العباسية أديب اسمه ابن المقفع، له كتاب كليلة ودمنة، وهو كتاب مترجم عن اللغة الفارسية، كتاب فيه قصص على ألسنة الحيوانات، وهي مواعظ بالغة، من هذه القصص حديث عن سمكات ثلاث، قال: كيّسة وأكيس منها وعاجزة، هناك غدير ماء، فيه سمكات ثلاث كيِّسة، يعني: عاقلة، وأكيس منها يعني: أعقل؟ وعاجزة، هذا الغدير له فتحة يتصل بها مع نهر، فقال: اتفق أن مر بهذا المكان صيادان، فأبصرا الغدير، وأبصرا ما فيه من السمك، فتواعدا أن يرجِعا ومعهما شباكهما ليصيدان ما فيه من السمك، فسمعت السمكات قولهما «القصة رمزية طبعاً»، أما أكيسهن، يعني أعقلهن، فإنها ارتابت وتخوفت وقالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، هذا العاقل، خذ هذه القاعدة واعمل بها «العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها»، والأقل عقلاً حين وقوعها، والأحمق بعد وقوعها، هذه الكيّسة قالت: العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ولم تعرج على شيء حينما سمعت هذه الكلمة، وسارعت حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت واستراحت، وأراحت، وانتهى الأمر وهذا شأن العاقل من الناس.

وأما الكيِّسة الأقل عقلاً، فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، وبسذاجة قالت: سوف أخرج من هنا حين يقدمون، فلما أرادت أن تخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سدّه الصيادان، فقالت: فرطت وهذه عاقبة التفريط، لكنها لم تستسلم، وقالت: إن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ذكية ولكنها أقل ذكاء من الأولى، ثم إنها

تماوتت، فطفت على وجه الماء منقلبةً تارةً على بطنها وتارة على ظهرها، فأخذها أحد الصيادين فوضعها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت في النهر فنجت «ولكن تحطمت أعصابها ودفعت ثمناً باهظاً»، وأما العاجزة، فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت وأكلت، وهذا حال العاجز من الناس «تراه مرتبكاً يتلجلج جسماً ونفساً» فالعاقل إذاً يحتاط للأمور قبل وقوعها، الأقل عقلاً يبادر الأمور مع وقوعها، العاجز يعرف الحقائق وعواقب الأزمات بعد وقوعها فيردى.

إن الله عز وجل يُعزُّ الإنسان استدراجاً، كأن يسوِّل له بعضهم: إن فعلت كذا نضعك في هذا المكان ونمنُّ عليك بكذا وكذا، شيء مغرٍ، مما يرفع شأنك عالياً بين الناس، مبلغ كبير جداً تحُلُّ به كلَّ مشاكلك، تشتري بيتاً فخماً ومركبة تزهو بها بين الناس، نبوئك منزلة رفيعة تمكنك من الهيمنة على الآخرين، فكل هذا عِزّ، ولكن هذا العز استدراج، فإياك أن تفعل هذا، قل: الله الغني، لو كنت في دائرة مظلمة، لو كنت في زوايا النسيان وكنت طائعاً للواحد الديّان فأنت العزيز وأنت الرابح.

قالوا: فأما في الدنيا فقد يكون العِز إما بالمال أو بالحال؛ بالمال، وبالجمال، وبالغنى، وبالقوة، وبالأعوان والأولاد، وبالزوجات، وبالمناصب، وبمتع الدنيا، وبالبيوت وبالبساتين، أحياناً قد يكون للإنسان منتجع جميل، أو بستان وارف الظلال، يدعو أصدقاءه، ما شاء الله، ما هذا الجمال؟ يشعر عندئذٍ بعزّ، يزهو بهذا المنتج، ويشمخ بهذا البستان، وما علم أنه فيض عطاء من الله سبحانه، وأخذته عزة الدنيا زهواً.

اجعل لربك كلَّ عزِّ ك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزَّك ميت

فحينما يعتزُّ بشيء من متاع الدنيا فإنَّ عزَّه باطل، بل يعتزُّ أحياناً بشخص قد مات، أو بمتاع فانٍ، لذلك من علامات قيام الساعة أنَّ المرء في آخر الزمان قيمته متاعه فقط، كلُّ مكانتك من ثيابك المستورة، أصرت عظيماً بذلك؟ أصرت عظيماً من مساحة

بيتك الواسع، أو من موقع بيتك في شارع كذا أو حي كذا فمن استمد عِزّهُ من الدنيا فقد وقع في متاهة كبيرة.

قال بعض العلماء: «عزُّ الدنيا بالمال وعز الآخرة بالحال»، لك حال فيه طهر ونقاء واستقامة وشوق ومحبة وقرب، هذا عِزّ الآخرة، أما المال فهو عز الدنيا، والمال والدنيا إلى زوال.

قيل: إن فتحاً الموصلي، كان قاعداً، فسئل عمّن يلهث وراء الشهوات كيف صفته؟ وكان بقربه صبيان، مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبز وإدام، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه: أطعمني مما معك، فقال: بشرط أن تكون كلبي، فقال صاحبه: نعم، فجعل خيطاً في عنقه يعطيه اللقمة في فمه ويجرُّه من عنقه كما يُجَرُّ الكلب، فقال فتح الموصلي للسائل: أما إنه لو رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصر كلباً له. قال أبو موسى: فهكذا الدنيا.

إنها حكاية بليغة حقاً.

قصة ثانية، وهذا حديث ورد على لسان سيدنا داود، أن الله تعالى أوحى إليه أن يا داود، حذِّر وأنذر أصحابك الشهوات؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة.

وحُكِي عن بعضهم أنه دخل على تلميذ له فقدَّم التلميذ خبزاً قفاراً ولم يكن له إدام، فأخذ يتمنى بقلبه؛ أن ليت كان له إدام يقدِّمه إلى أستاذه، فأدرك الأستاذ أمنية الطفل فقام وقال: تعال معي، فحمله إلى باب السجن، فرأى الناس يُضربون وتُقطع جلودهم ويُعذبون، فقال الأستاذ لتلميذه: ترى هؤلاء الذين لم يصبروا على الخبز وحده ماذا حل بهم؟ إنهم سرقوا ووقعوا تحت السياط.

وقيل: إن رجلاً خرج من السجن وفي رجله قيد يسأل الناس، ويقول: أعطوني كسرة خبز، فقال له أحدهم: لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك.

وهذه قصة رمزية، يُروى أن رجلاً وقف بباب أمير، فرأى خادماً يدخل بلا استئذان، فعلم أن عفَّة هذا الخادم هي السبب في أن الحجاب قد رفع بينه وبين الأمير، فلا شيء يدق أعناق الرجال كالطمع ولا شيء يذل الرجال ويحقرهم كالجشع.

الله عز وجل يعزّك إذا طبقت شرعه، وإذا استغنيت به عمّن سواه، لذلك يروي الترمذي: عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذلَّ نفسه»، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: «يتعرض من البلاء لما لا يطيق».

«اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس؛ فإن الأمور تجري بالمقادير».

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن سهل بن سعد قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس.

فالعزَّة صفة أساسية من صفات المؤمنين، لقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون:٨].

إذا كنت مؤمناً حقاً فأنت عزيز لأنك مع العزيز، ولأنك على شرع العزيز، ولأنك مفتقر للعزيز، ومعتمد على العزيز، والعزيز لن يخيِّب ظنك.

قال بعضهم: إعزاز الله لعباده يكون بصحة قناعتهم، فإنَّ الذُّلَّ كلَّه في الطمع.

وخلاصة البحث الإعزاز والإذلال صفتان من صفات أفعاله، وموقف العبد من هذين الصفتين أنه إذا طبق أمر الله صار عزيزاً، حكيماً، وبمصطلح الفقهاء تحصيل حاصل، يعني أمر الله فيه بذور عزه المطبق، والله عز وجل بأمره التكويني يعزُّك إذا اعتززت به واعتمدت عليه وأخلصت له وأقبلت عليه ولم تشرك به.

يخفض ويرفع

يقول تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

ويقول أيضاً: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام:٨٣].

ويقول: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

ويقول ﷺ: «قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه...» [مسلم عن أبي هريرة].

ويقول ﷺ: «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين» [مسلم عن عمر] .

من معاني الخفض

الخفض أو الوضع في اللغة: ضد الرفع، والخفض: الانكسار واللِّين والانخفاض: الانحطاط، وتُوصَف به الواقعة، قال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الواقعة:١-٣].

الناس يتمايزون بمقاييس أرضية، مقاييس المال، القوّة، والذكاء، وتحصيل العلم، والوجاهة، وغيرها من الأمور، فإذا وقعت الواقعة، تبدَّلت هذه المقاييس، وتحكّمت في الخلق مقاييس رب العالمين، يُقاس الإنسان بعد الموت بقدر استقامته وطاعته لله عز وجل، وإحسانه للخلق. فلذلك تنقلب المقاييس فجأةً، فالذي كان في القمم ربما صار في الحضيض، والذي كان في الحضيض ربما صار في القِمم.

الخفض من صفات الواقعة، والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة. أي أن الواقعة تخفض أقواماً بمعاصيهم فيصيرون إلى النار، وترفع أقواماً بطاعاتهم فيدخلون الجنة.

ومادة الخفض وردت في القرآن في سورة الحجر، قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر:٨٨].

ووردت في سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٥].

هذا الفرق بين الآيتين هل يفيد معنى ثالثاً؟ ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾؛ فالإنسان يميل إلى جماعته وإلى أتباعه؛ فإذا مال إليهم، وتعصَّب لهم، وأنكر من سِواهم، وانحاز انحيازاً أعمى إلى من يلوذ به، فهذه نقيصة في الإنسان. فالله سبحانه وتعالى أمر نبيَّه ﷺ أن يخفض جناحه تارةً لمن اتبعه، وتارةً لكلِّ المؤمنين. أما نحن فما علاقتنا بهاتين الآيتين؟ عليك أن تحبَّ إخوانك في المسجد، وإذا كنت مؤمناً حقاً فيجب أن تحبَّ كلَّ مؤمن في الأرض، من أية جهة كان، وهذا هو الموقف الذي يليق بالمؤمن.

إذاً مادة الخفض وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ ووردت في سورة الإسراء: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ ووردت -كما سبق وذكرت- في سورة الشعراء، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

ابن الأثير يرى: أن الله تعالى هو الذي يخفض الجبّارين والفراعنة، أي: يضعهم ويهينهم، ويخفض ما يستحق أن يخفضه -وها نحن قد دخلنا في موضوع جديد- الإنسان له كيان مادي له جسم، وله كيان معنوي، الكيان المعنوي يرتفع وينخفض. فمثلاً إذا نجح الإنسان، ونال شهادةً عليا، يرتفع مقامه بين الناس. وإذا رَسب، انخفض. وإذا نجح في عمله، يرتفع. وإذا أخفق، انخفض. وإذا نجح في زواجه، ارتفع. وإذا أخفق، انخفض، وإذا ظهر صدقه للناس، يعْتَزُّ بأخلاقه، فإذا ظهر كذبه، ينكمش. وإذا كُشفت أسراره البيتيَّة ولم تكن على ما يرام، انخفض. فالإنسان بين أن يرتفع وأن ينخفض. لكن صدِّقوا أن الإنسان حينما يرتفع بالحق يدخل على قلبه من السرور ما لا يُوصف. النَّجاح مُسعِد في كلِّ شيء. وحينما ينخفض ويُكشف كذبهُ، ويُفتَضَح في بيته، وتظهر عدم كفاءته، أو حينما يسيء الاختيار، وينال عِقاباً نظير عمله السيئ ويصبح ذكرى سيئة بين الناس، ينكمش وينخفض. وقد يأتي على هذا الإنسان من الآلام ما لا يوصف، لذلك فالإنسان أكثر ما يعيش بسُمْعَتِه. بل إن العرب حينما ذكروا العرض، عرَّفوه بأنه موضِع المدح والذم في الإنسان. قد تكون فقيراً لكنك تقيٌّ مرفوع الرأس. قد يكون مريضاً ولكن نظيف الكَفَّين، لا انحراف بحياته وسلوكه، ولا دَجَل ولا تطاول، ولا يخاف، لا لأنه من جنسٍ آخر، وإنما هو من البشر، لكن لا يخاف لأنه مستقيم، وما خالف شرع الله في عمل، ولا خالف القانون، لذلك أحدُ أسباب العزة الإحسان في القول والعمل، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

إذا أتقنت عَمَلَك، وأدَّيْت وظيفتك على خير وجهٍ، تشعرُ بعزة الإنجاز وعزة الإتقان والتفوُّق. أما إذا أدَّيت عملك بغير إتقان، وكان عملك سيئاً ومرتجلاً، وذا عيوبٍ كثيرة، واكتُشفت الأخطاء عاتبك الناس، كَمَثَل الذي وصف دواءً لطفلٍ صغيرٍ أودى بحياته، ولما وُوجه هذا الذي وصف الدواء صار صغيراً ومنكمشاً، ويتمنى أن تنشقَّ الأرض وتبْتَلِعَه كما يقول العوام، فالإنسان يعتزُّ حينما يُتقن عمله، ويؤدي واجباته، ولكنه حينما يكون واضحاً، وتكون سريرَته كعلانيته، وخلْوتُه كجَلْوَتِه، وحياته الخارجية كحياته الداخلية، وأسراره كحياتِه المعلنة يسمو ويعلو، فالوضوح يرفع الإنسان. وتشعُر هذا من الواقع حيث يجد الإنسان في بعض الأحيان انقباضاً من جراء عَمَلٍ منْحط أو كلام بذيء، فلما انكشف الغطاء وجد نفسه في انكماش وصَغار وما من إنسان إلا ويتمنى أن يرتفع؛ ولا أقصد أن يرتفع كبراً وتطاولاً وإنما بإتقان العمل وحُسن السيرة يصير عزيزاً، فالصدق والأمانة يجعلانك عزيزاً، وأحياناً تتعرض لتَفْتيش مفاجئ في محَلِّك ومعملك، فإذا كانت المواد الأولية كلها صحيحة وبمواصفات جيدة والأمور في بيان ووضوح، وبعيدة عن الغشِّ والفساد فتشعُر بعزَّة ونشْوة، فكلُّ إنسان يطمع في أن يحقِّق مكانته.

نحن -المسلمين- لو أننا أيقَنا أن رِفْعتنا بطاعة الله، وباستقامتنا، وانضباطنا لاستقمنا في حياتنا، إنسان يشغل منصباً اجتماعياً رفيعاً لكنه جَلَب أبقاراً مصابة بمرض عضال، وسَبَّب حالات مرضية شديدة، فلما كُشف أمره سيق إلى السجن مُكَبَّل اليدين، وأُدخل قصر العَدْل لينال جزاءه العادل، فهذه المكانة التي كانت لهذا الشخص انهدرتْ، والذّلُّ لا يُحتَمل، وكذا الإهانة والانكماش، وعاقبتهما ضياع.

أعجب من هذا الذي يأكل مالاً حراماً، ويَغُشُّ المسلمين في غِذائهم، وهذا الذي يستَوْرِد لحوماً للكلاب ويبيعها للبشر، وهذا الذي يضع أصبغة البلاط في حلويات الأطفال، وفي المواد الغذائية فما جزاء هذا الذي يُكشف اختِلاسُه؟ سيُصيبه صغار وذلّة وهوان.

شعور الإنسان بالاستقامة والرِّفعة والنظافة والخَلْفِيات الواضحة هذا شعور لا يوصَف؛ وهو شعورٌ يرقى بالإنسان عالياً، وما منّا واحدٌ إلا ويتمنى أن يكون أمام الناس نظيفاً ومزهوّاً، ومرفوع الهامة. فالله سبحانه وتعالى هو الذي يخفض ويرفع كما يقول ابن الأثير: «هو الذي يضع الجبارين والطغاة ويُهينُهم»، وسبحان من قهر عباده بالموت. الله عز وجل يخفِض الجبابرة، وكقاعدة عامة أقول: الإنسان إذا كان صُعوده سريعاً وحاداً فسيكون انخفاضه مُريعاً، والإنسان إذا تكبَّر بغير الحق وصعد صعوداً حاداً ومفاجِئاً، فالله جل جلاله يجعله عِبرة لكلِّ من اعتبر، ويخْفِضه ويذِله ويهينه؛ هناك عذاب شديد، وهناك عذاب مهين. بربِّكم هل يتمنى مسلم أن يتردَّى في الفضيحة والذُلِّ والإهانة؟ أقول هذه الحقيقة، وأتمنى أن تكون واضحة لكل ذي لبٍّ: أية خيانة على الإطلاق، منذ خلق الله آدم وإلى يوم القيامة، لا بد من أن تُفْتَضح والدليل: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢].

والخائن حينما يُفْتَضح، لا يُفْتَضح بذكاء البشر بل بتقدير خالق البشر. فإذا أيقن الإنسان بأنَّ الله لن يسمح لإنسان أن يغُشَّ الناس إلى أمدٍ طويل، ولا أن يغُشَّ مجموع الناس إلى أمدٍ قصير، عندئذٍ يستقيم على أمر الله؛ لأن الفضيحة، والانكشاف تجعلانه قالة سوء، هذا شيء لا يُطيقه حرٌّ كريم؛ لكن كيف علاجُه؟ لا تفعل شيئاً تستحي منه، ولا تفعل شيئاً تضطرُّ إلى أن تعتذِر منه، قبل أن تفعل شيئاً فكِّر جيداً، وتأمل ملياً، وعُدَّ للآلاف قبل أن تأخذ ما ليس لك، وقبل أن تدخل إلى هذا البيت، وليس في البيت إلا امرأة؛ سل نفسك لعلك تُسأل لماذا دخلْت البيت؟ وأنت تعلم أنَّ الزوج غير موجود؟

فالإنسان حينما يتسرَّع ويتحرَّك عشوائياً بلا نور، وبلا منهج، وبلا أحكام شرعيَّة، يقع في شرِّ عمَلِه، يتردى وينخفض هواناً، والله هو الذي يخفضه؛ فأحياناً يكون الإنسان بأعلى درجة؛ ثم ينهار ما تحت قدميه ويهوي، أحد علماء المسلمين في أمريكا تناظر مع أحد أكبر القساوِسة. وهذا الرجل الخصم بعد حين، كُشف يمارس علاقة جنسيَّة شائنة فصار يبكي على شاشة التلفزيون، فالإنسان حينما تُكتَشف عثراته وسقطاته،

ينكمش ويتردَّى، والحقُّ أن الله خفضه. على كلِّ حال هذا من الفطرة الإنسانية. مثلاً لو فُقِد قَلَم غالي الثمن في غرفة الصفِّ، فمَنَع المُدرِّس خروج الطلاب، وفَتَّش الطلاب واحداً واحداً؛ فإذا القلم عند أحدهم، فقبل أن يعاقبه، وقبل أن يضربه، وقبل أن يستدعي والده، وقبل أن يفصِله لمدة ستة أيام، ماذا يشعر هذا الطفل؟ يشعر بألم وخِزي، فشُعور الخزي والعار لا يُحتَمل، فلْتستقم، ولتعملْ عملاً لا تستحي منه.

مرةً سألوا ألف زوجٍ في بلد غربيّ: لماذا لا تخون زوجتك؟ فجاءت الإجابات كثيرة جداً ومتنوِّعة. صُنِّفت هذه الإجابات في زمرٍ أخلاقية، وكانت إجابة أخفض صنفٍ: لا أستطيع، لأنها تخونه بالمثل، وإجابة الذي أعلى منه: لا أحتمل الإحساس بالخيانة، الإحساس بالخيانة ضاغِط، والأرقى قال: لا أحبُّ الخيانة، وصنْف أجاب بأنه يحبُّها ولكنّه لا يحتمل وخز الضمير، الأول يخشى خيانة زوجته إن خانها، والأخير يخشى وخز الضمير، وليس بينهم من قال: تمنعه الخشية من الله تعالى، فعندما يتحرَّك الإنسان حركة واضحة ونظيفة، يشعر براحة، وهذه الراحة لا تُقَدَّر بثمنٍ. قد تجد شخصاً يرتدي أغلى الأثواب، ويركب أجمل المركبات، ويسكن في أفسح القصور والبيوت، ومع ذلك فهو من داخله مُنهار؛ لأنَّ نفسه تُحاسِبه حساباً عسيراً. يعاني الانقباض، والكآبة، والشعور بالذنب ومُرَكَّب النقص، وهذا كلُّه من الأعمال الخسيسة والدنيئة التي لا تُرضي الله. ففطرة الإنسان متوافقة مع الإيمان؛ فإن حادَ عن الإيمان وعن منهج الله عذَّبتْه فطرته، مثَلاً: مرْكبة حديثة جداً مُصنَّعة لتسير على الشوارع المعبدة، لو ركِبتها في الطرق الوَعْرة، وفي طرق جبلية فيها وهدات ومنعرجات وذات أتربة ورمال، تشعر بتَعَبٍ شديد وانزعاج وبقلق، وتشعر أنَّ هذه المركبة ليست لهذا الطريق. ونفسك البشرية مخلوقة لمنهج الله، ومخلوقة لتكون على مستوى الشرع؛ فإذا حِدت عن الشرع، تعثَّرت نفسك وشعرت بالكآبة والضيق وما إلى ذلك.

والله تعالى يخفض بالإذلال مَنْ تعاظم وتكبَّر، وشمخ بأنفِه وتجبَّر، يخفضُ أقواماً ولا يخفض إلا أهل الباطل: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء:٨١].

ضربت مثلاً فقلت: ليتر من اللبن يحتمل خمسة أكيال ماء ويصبح شراباً لذيذاً ويُهدِّئ النفس ويشعر الإنسان براحة بعد شربه، ليتر لبن يتحمل خمسة أكيال ماء، ولا يتحمل نقطة نفْط واحدة أبداً، فهذه القطرة الواحدة تُفسِده، أمَّا خمسة أكيال من الماء فتُطَيِّبُه، كذلك الإيمان: فذرَّة كِبْر واحدة تتناقض مع العبودية، ومن صفات المؤمنين الأساسية التواضع لله، ترى المؤمن عزيزاً إلى أقصى درجة، ورافع الرأس إلى العلاء؛ ولكنه أمام الله ذليل؛ ويُبالِغ في التذلُّل أمام عَتَبَة ربه، ويبالغ في رفع رأسه شامخاً أمام أعداء الله، لذلك وصف الله المؤمنين في كتابه بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

بقَدْر ما هو متواضع ومتذلِّل بينه وبين الله، يكون بينه وبين الخلق عزيز النفس.

لو أننا تتبعنا تاريخ النظريات الوضعية التي ابتُدِعت خِلاف منهج الله، فهل نجد نظرية بقيت شامخة إلى ما لا نهاية؟ وهل هناك نظرية إلا ونزلت في الوَحْل وسقطت؟ ولاكَتْها الأفواه وتناولتها الألسن؟ وخاضت فيها الأقلام؟ والأدلّة أمامنا كثيرة، والتاريخ الذي بين أيدينا يصدّق ذلك، فسبعون عاماً في اعتزاز بالباطل، واعتزاز بالإلحاد، ثم أصبح هذا الإلحاد خُرافةً، وأصبح المجتمع المُلحِد في مؤخرة الشعوب على الإطلاق: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ العَرَب في الأندلس أسَّسوا حضارة من أكبر الحضارات في العالم؛ فلما التفتوا إلى القِيان وشرِبوا الخمور، واستمعوا إلى المعازف، ومالوا إلى اللهو والتَّرَف، أُخرجوا من هذه البلاد، وكان آخر ملوكهم أبو عبد الله الصغير يبكي، وهو يخرج من قصرِه في غرناطة (قصر الحمراء) قالت له أمه عائشة:

ابكِ مثلَ النساء مُلكاً مُضاعاً لم تُحافظ عليه مثل الرجال

فالله يخفض العصاة المتكبرين والمتجبرين.

والله تعالى يَخْفِض الكفار بالإشقاء، ويخفض أعداءه بالإبعاد، عدوٌّ يُخفَض، ومتجبِّر يُخفَض وطاغِيَة يُخفَض ومستعلٍ يُخفَض، قالوا: أنا، ونحن، ولي، وعندي، أربع كلمات

مهلِكات، قال تعالى عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص:٧٦]. فأهلكه الله.

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل٣٣]. قالها قوم بَلْقيس فأذلهم الله عز وجل.

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف:٥١] قالها فرعون فغَرِق.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص:٧٨] قالها قارون فدمَّره الله عز وجل، وخسف به الأرض؛ فالله يخفض أعداءه، ويخفض المتجبرين ويخفض الطغاة، ويخفض الظالمين، ويخفض الباطل، ويخفض أفكار الباطل فتصبح في الوَحْل ولا يعتَدُّ بها أحد، بعد أن كانت متألِّقة، يخفض الكفار بالإسقاط وأعداءه بالإبعاد والذل.

وقيل: هو الذي خفض أهل الكفر بعِزِّه، وخفض أهل الكِبْر بجلاله، وخفض أهل الزور بإظهار تكذيبهم، والكاذب لا بد من أن يفضحه الله؛ وحينما يفضحه، ينسى الحليب الذي رضعه من أُمِّه. والكذب شر ولا سيما الكذب في البيع والشراء، تجد الكاذب يُقسِم بالأيمان المُغلَّظة، أنَّ كُلفة هذه البضاعة يفوق هذا السِّعر، ثم تُكشَف الأوراق فإذا رأس ماله قليل جداً، وقد أقسم أيماناً كاذبة؛ فهذا الإنسان سَقَط، سقط من عين أهل الفضل والكمال.

ويخفض الله عز وجل كلَّ خارج عن شريعته مهما كان غنياً بالمال، أو عزيزاً بين الرِّجال. وقد ذكر العلماء أن الله تعالى يخفض من قَصُرت مشاهداته على المحسوسات، يعني ما آمن بالغيب، وإنما آمن بالأشياء المادية، والذي يراه بعينه يؤمن به، أما الآخرة فما رآها ولذلك هو يُنكِرها، وكذلك عقاب الله ما رآه فأنكره. فقال: يخفض من قَصُرت مُشاهداته على المحسوسات، وقصَر هِمَّته على ما تفعله البهائم من شراب وأكل ونكاح، وقد خفضه إلى أسفل سافلين، ولا يفعل ذلك إلا الله رب العالمين.

نصيب المؤمن من فعل الخفض

من أراد أن ينال نصيبه من فعل الخفض، فعَليه أن يخفض نفسه قبل أن يخفِضه الله، اخفِضها طواعيةً لله وتواضعاً لله.

انظـــر إلى الأكحـــال وهـــي حجـــارة لانَـــت فصـــار مَقَرُّهـــا في الأعْـــيُن

تواضع قبل أن يضعك الله، فالتواضع عبادة والتكبر نقيض العبادة؛ لذلك من عرف أن الله تعالى هو الذي يخفض، فعليه أن يخفض نفسه بالتواضع، فيراها أقلَّ من جميع العباد، وهذا رسول الله ﷺ وقد دخل عليه رجل فارتعدت مفاصله فهوَّن عليه: عن ابن مَسْعُودٍ قالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فقالَ لَهُ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّما أنا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ القَدِيدَ» [رواه ابن ماجه].

وكلّما تواضعت، رفعك الله. وهذه علاقة عكسية فكلما تكبَّرت، خفضَك الله، والعالِم الحقيقي متواضِع، والإنسان الذي يُعتدُّ به متواضع، ومتى سلِم العبد من شبهة الكِبْر فكلُّ شيء بعد ذلك يزول ويهون، قال ﷺ: «لو لم تكونوا تُذنبون لخِفتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك». فما هو الذي أكبر من الذنب؟ «العُجب العُجب» [البيهقي في شعب الإيمان عن أنس].

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر» [مسلم عن ابن مسعود].

كلما نزلت متواضِعاً إلى الله، رفعك الله. أنا لا أعتقد أنَّ على وجه الأرض إنساناً أشد تواضُعاً من رسول الله ﷺ؛ كما أنني لا أعتقِد أنَّ هناك من أعزه الله ورُفِع ذِكره وشأنه كرسول الله ﷺ، فبالقَدْر الذي تتواضع لله ترتفع إلى مراتب العُلو، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح:٤].

فإذا ذُكِر الله في الأذان؛ ذُكِر معه رسول الله ﷺ.

فالتطبيق الأول: أن تخفض نفسك بالتواضع، والتذلل، والانصياع، ولين الجانب، ولين العريكة، وأن ترى نفسك واحداً من الناس، لا أن ترى نفسك فوقهم.

كن واحداً منهم، تكن سيِّدهم. أما إذا جعلت نفسك فوقهم، يجعلونك في الحضيض. كن واحداً منهم وبأخلاقك الفاضلة يرفعونك إلى الأوج. سيدنا عمر رضي الله عنه أراد أن يُعَيِّن والياً فقال: أُريد رجلاً، إن كان أميراً، بدا وكأنَّه واحد من قومه، وإن كان ليس بأمير عليهم، بدا وكأنه أميرهم. غيرةً وحِرصاً على مصلحة قومه.

التطبيق الثاني: أخفِضْ إبليس بعدم الإصغاء لوسوساتِه. فإذا أصغى الإنسان إلى وسْوَسَة الشيطان يكون قد رفعه. أما إذا أعرض عنه، وسفَّه وسوسته، وابتعد عنه، ولعنه وأعرض عن كلِّ ما يُلقيه في روعه، يكون قد وضعه وانتصر على نفسه. فالتطبيق الثاني أن تخفض إبليس وأعوانَه وكلَّ وسْوَساته، وألا تُعَظم أهل المعصية، وألا تحترِمهم احتراماً بالِغاً، فهل يجوز أن يشرب الخمر إنسانٌ وتستقبله وتعانِقه، وتُرَحِّب به، وتثني على ذكائه وعلمه وخبرته، وتجعلُه في صدر المجلس، وهو تارك صلاةٍ وشارب خَمْرٍ؛ بهذا تكون قد فعلت شيئاً لا يُرضي الله، ينبغي أن تُخْفِضه وأن تُشْعِره أنه عاصٍ لله عز وجل، إلا في حالة واحدة وهي أن تتوقع منه الخير فتتألَّف قلبه بالتكريم. فالإنسان مُقصِّر لكنّ فيه خيراً، ولا يكره الحق، وليس بعيداً عن الحق، فعلى افتراض أنه مقَصِّر ورَحَّبْت به دون أن تُشعِر الناس أنَّه على حقٍّ، فصار إكرامك هادِفاً ويسمى إكرام التأليف، وهو مسموح به بشكل استثنائيٍّ. هذا وهناك التذلل والانخفاض للوالدين، قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾.

كتب لي أخ كريم يوماً بينما كنتُ في أحد مساجد دمشق، وذكر حكاية مؤلمة، عن أحد أقربائه، وطلب مني أن أُلقيَها على الناس لما فيها من العبرة البالِغة؛ فقد كان له قريبٌ عاقٌّ لوالديه، وجاء مرةً لأبنائه بالموز فقالت له ابنته: إن جدتي أكلت موزةً؛ فَمِن شدة بُخلِه دفع أمه من أول الدرج إلى آخره، وبيَّنت له أمه أنها أكلت شيئاً فَضُل عن ابنته، وماتت بعد ذلك بشهرين، وعندما وافاه الأجل بَقِيَ ميتاً في بيته أربعة أشهر، دخلوا عليه بالمُعَقِّمات وكانت الجرذان قد بدأت تأكله. شيء أليم لا يوصف، فالله أذله إذلالاً ليس بعده إذلال. فالإنسان ربما يكون عاقاً لوالديه ولمن رباه، أو عاقاً لإنسان كبير في السن.

عَنْ أبِي مُوسَى الأشْعَرِي قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنْ إجْلالِ الله إكْرامَ ذي الشَّيْبَةِ الْمُسْلمِ، وحامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ والجَافِي عَنْهُ، وإكْرَامَ ذي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ» [رواه أبو داود].

لقد علمنا في القسم الأول من هذا البحث أنّ الجبابرة والطغاة والمتكبرين والظُلاَّم والعُتاة؛ هؤلاء يخفضهم الله عز وجل. وأنت يا أخي المؤمن اخفض نفسك تواضعاً لله، واخفض أهل المعصية والفجور واخفض الشيطان وأعوانه قبل الإصغاء لوَسْوسَتِهم، هذا من عمل المؤمن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم:٩].

أنت تخطئ عندما تحترم إنساناً غارقاً بالمعاصي أمام أولادك -فالطفل بريء- ينظر فيرى أباه يُبَجِّل ويُكَرِّم أهل الفجور؛ فبهذا العمل كأنك أوْحيت لابنك أنَّ هذه ليست معاصي، والدليل التكريم المبالغ به لهؤلاء، فيجب أن يكون لك موقف سليم.

من معاني الرفع

الله تعالى يرفع من يشاء وما يشاء، والرفع يقال تارةً في الأجسام الموضوعة إذا أعْلَيتها عن مقرِّها نحو قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النساء:١٥٤].

الشيء المادي إذا رفعته نقول فيه: رفع، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد:٢].

ويقال: الرفع للبناء إذا أعليتهُ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة:١٢٧].

قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور:٣٦].

أن ترفع: أي: تعلو، وإذا عظَّمْتَ إنساناً ونَوَّهْت بفضائله وذكرت شمائله فيقال: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح:٤]، فالمعاني متعددة؛ معنى مادي: ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾ [النساء:١٥٤]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد:٢]، ومعنى الإطالة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾، ومعنى رفعة الشأن والتنويه بالذِّكر: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾، هذه في المنزلة. والنبي ﷺ قال: «أنزلوا الناس منازلهم» [أبو داود من حديث عائشة].

فإذا استقبلت أخاً مؤمناً، وأثنيت عليه فلا مانع من باب التشجيع له والتنويه بفضْله. والإنسان المغرور والحسود هو الذي يُعتِّم على الآخرين. فإذا تفوّق أخ مسلم ونال شهادة عليا فعليك أن تُنوِّه به، كأن تقول: هذا له أيادٍ بيضاء، وخدمات جُلّى للمسلمين، ومتفوِّق في اختصاص مُعيّن، هذا إذا عَرَّفت به، وذكرت فضائله، يكون من باب تأليف القلوب، والنبي ﷺ ذكر ذلك:

عَنْ أَنس بْنِ مالِكٍ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بأُمَّتِي أَبو بَكْرٍ، وأَشَدُّهُمْ في أَمْرِ الله عُمَرُ، وأَصْدَقُهُمْ حَياءً عُثْمانُ، وأَقْرَؤُهُمْ لكتابِ الله أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ، وأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثابتٍ، وأَعْلَمُهُمْ بالحلالِ والحَرامِ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ، ألا وإنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أميناً وإنَّ أمينَ هذِهِ الأُمَّةِ أَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرّاحِ» [رواه الترمذي].

وصف خالداً بأنه سَيْف الله وأبا عُبيدة بأمين هذه الأمة، وابن الزبير بحوارِيِّ هذه الأمة، وعمر بقوله: لو كان نبي بعده لَكان عمر، وأبا بكر بأخ ولو كان متخذاً خليلاً لاتخذه، وما من صحابي إلا نوَّه النبي ﷺ بفضْله وبيَن شأنه؛ لأن هذا من أخلاق النبوة. فإذا كان لأخٍ لك إنجاز جيِّد، وفضيلة مأنوسة؛ ونوَّهت بفضْله؛ فسيَشعرُ بقيمَتِه عندك، وأنه محترم؛ وهذا الفعل من فضائل المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف:٣٢].

والله جل جلاله في كتابه الكريم لم يخاطب النبي ﷺ باسمه بل قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ [التحريم:١].

وقال: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [المائدة:٤١].

ما خاطب الله النبي ﷺ إلا بلَقَب النبوة أو الرسالة؛ لكن ذكر اسمه في الخبر، ففي الخبر ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الفتح:٢٩] وفي الخطاب قال تعالى: ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١١٠].

وقال أيضاً: ﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقال أيضاً: ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ ﴾ [مريم:١٢].

خاطب الأنبياء بأسمائهم؛ لكن النبي ﷺ ما خاطبه الله إلا بألقاب النبوة والرسالة، وهذا تكريم من الله تعالى لنبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح:١-٤].

لما عَرَجَ الله بالنبي ﷺ إلى السماء، وأراه من آياته الكبرى، فهذا أعلى رفع لشأن النبي ﷺ وقدره، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم:١٨].

وهو الذي يرفع الأولياء وينصرهم على الأعداء. ويرفع الصالحين إلى أعلى عِلِّيين، ويرفع الحق، ويرفع المؤمنين بالإسعاد، ويرفع الأولياء بالتقريب والنصر، وكلَّ من تولاه حقاً وعدْلاً، وهو الذي رَفَع السماء بغير عَمَد. إذاً الرفع مادي ومعنوي؛ يرفع السماء بغير عمد، ويرفع ذكر رسول الله ﷺ، فعندما يستقيم الإنسان ويُخلِص لله عز وجل، تصبح له مكانة كبيرة في المجتمع، تفوق مرتبته العلمية واختصاصه وحِرفَته، فالعلماء قديماً كان أحدهم نجاراً، والآخر قصاباً، ومن ثم أصبحوا ذوي مكانات رفيعة القدر في المجتمع.

والله تعالى رَفَع السموات بغير عَمَدٍ ورفع الغَمام على متن الهواء ورفع الطيور في الفضاء، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [الملك:١٩].

وهو الذي رفع مقام الأولياء في الحياة؛ بخضوع القلوب لهم، وما أخلص عبدٌ لله، إلا جعل قلوب المؤمنين تهفو إليه بالمودة والرحمة؛ فهذا رفع، فهناك إنسان لا أحد يلتفت إليه، لا تتمنى دعْوته، ولا الجلوس معه فهو منبوذ، ملعون، مُبْعَد، أمَّا المؤمن فبإخلاصه لله إقباله عليه واستقامته على أمره يخلق الله مودَّة له في قلوب الآخرين. إذا أحب الله عبداً أوْدع في قلوب العباد محبته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩] أي: أحبك الخلق بحُبي لك.

أقسِم بالله! ولا أحنث إن شاء الله، ما من أحد يطيع الله كما أراد، ويُخلص لله عز وجل كما يجب إلا رفع الله ذِكره؛ وفي كل شؤون حياته، وهو من إكرام الله تعالى، وكافأته بعض الردود الإلهية الكريمة على إخلاص المؤمنين واستقامتهم، فهو جل جلاله المدبِّر لشؤون خلقه، يرفع من تولاه إلى أُفُق المقربين، كما يخفض من عصاه إلى أسفل سافلين. يرفع شأن المستضعفين. لما خافت أم موسى عليه السلام أن يُذبح ابنها موسى والقَته في اليَم بأمر الله عز وجل، فالتقطه آل فرعون ورباه فرعون في بيته، ما من طفلٍ كان يولد في بني إسرائيل إلا ويُذبح، إلا هذا الطفل فقد أراد فرعون أن يقتل كلَّ أبناء بني إسرائيل، لأنه رأى في الرؤيا أنَّ طفلاً منهم سيقضي على مُلْكِه، والطفل الذي سيقضي على مُلْكِه رباه في قصره وهو لا يشعر، قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص:٨].

واللام هنا لام المآل أو لام العاقبة وليست لام التعليل.

يرفع من تولاه إلى أُفق المقربين، كما يخفض من عصاه إلى أسفل السافلين ويرفع شأن المستضعفين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص:٤-٥].

كم من مستضعفٍ علا شأنه وتألّق نجمه، وارتفع مكانه؟ وكم من فقير صار غنياً؟ وكم من مستضعفٍ صار قوياً؟ وكم من مهمَلٍ صار ذا شأنٍ؟

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

فهناك مجند، وهناك رئيس أركان، وهناك ممرض وطبيب، وهناك معلِّم بقرية وهناك أستاذ جامعة، كما يشاهد بائع متجوِّل وهناك رئيس غرفة تجارة؛ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾. فإذا رفعك الله تعالى فيجب عليك أن تشكره على هذه الرِّفعة، وينبغي أن توظِّفها في طاعة الله. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:١٦٥].

والمؤمن كما قلت في أبحاث سابقة يمرُّ بأطوارٍ ثلاثة: طوْر يؤدَّبُ فيه على تقصيره وبعض مخالفاته، وطورٍ يُبتلى فيه ويُمتحن؛ فإذا نجح في الطورين بلغ طور التكريم، وأظن هذا يناله في الدنيا أو في الآخرة: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل:٩٧].

نصيب المؤمن من فعل الرفع

نصيب المؤمن من معرفته بأن الله تعالى هو الذي يرفع أن يسعى لينال الرفعة وعلوّ المنزلة والتكريم كما ينال منه أيضاً القرب والدنوّ، وأَيَّةُ آية يختص بها النبي ﷺ فلكل مؤمن منها نصيب بقدْر إخلاصه وطاعته كما قال ذلك بعض العلماء، انظر في قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ من معانيها: أن كل مؤمن يقتدي برسول الله ﷺ، ويقتفي أثره، ويتبع سنته، يناله شيء مما نال النبي ﷺ من رِفْعة شانٍ، وعلُو قدْر،

وسيرة العلماء العاملين الصالحين الصادقين والمخلصين في التاريخ الإسلامي تؤكِّد هذه الحقيقة.

نسأل الله أن نستحِقَّ أن يرفعنا الله عز وجل رَفْعاً مادياً ومعنوياً حتى نقطف ثِمار الإيمان الحق الذي هو في الحقيقة التزام واستقامة ومؤاثرة.

يبدئ ويعيد

يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف:٢٩].

يقول ابن القيم رحمه الله: «الشريعة عدلٌ كلُّها، رحمةٌ كلُّها، مصلحةٌ كلُّها، فأية قضيةٍ خرجت من العدل إلى الجور، من المصلحة إلى المفسدة، من الرحمة إلى خلافها فليست من الشريعة، ولو أُدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل».

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وفي سورة النمل قال تعالى: ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل:٦٤].

وفي سورة العنكبوت قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [العنكبوت:٢٠].

وفي سورة الروم قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم:١١].

وفي السورة نفسها قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم:٢٧].

وفي سورة البروج قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ [البروج:١٣].

فالإنسان أحياناً يقول: والله قد فعلت هذا الأمر ولكنّي لا أستطيع أن أُعيده. أي جاءته معونةٌ خاصة خارجةٌ عنه، فإذا كلَّفته أن يعيده لا يستطيع، فالإنسان من ضعفه أحياناً تأتيه بوارق، حالات استثنائية، إشراقات، فهو لا يملك هذا الإشراق دائماً، فكلُّ من يعمل في أعمال الفكر أو الإبداع، يعرف أنَّ الإبداع لا يأتيهم متى يشاؤون، الإبداع قد يوافي الرجل، وقد لا يوافيه، فمعنى ذلك أن الإنسان مفتقِر، أحياناً يُبدع في إلقاء كلمة، يُبدع في قراءة، يبدع في فكرة، يبدع في اكتشاف، لكن قد لا يُبدع أحياناً.

قال بعضهم: «العبقرية تسعٌ وتسعون بالمئة عرق، واحد بالمئة إلهام»، وهذا الشيء ثابت فكل الأدباء والكُتَّاب والشعراء، حتى كلُّ الأعمال التي تتسم بالإبداع أصحابها يعترفون أنه في بعض اللحظات يأتيهم إشراق، في بعض اللحظات تأتيهم معونة، في بعض اللحظات يتألّقون، ولكن هذه اللحظات لا يملكونها، تأتيهم أو لا تأتيهم، ولذلك الذي فعلته اليوم بإشراقةٍ أو بإبداعٍ أو باستثناءٍ لا تملك أن تعيده وهذا من ضعف الإنسان، لكن الله سبحانه وتعالى كلَّ شيء خلقه يعيده مرةً ثانية كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم:٢٧].

في اللغة العربية بدأ وابتدى بمعنى واحد... ولكن لي تعليقٌ على هذا الكلام هو أن كلَّ زيادةٍ في المبنى تدلُّ على زيادةٍ في المعنى وهذا في أصل اللغة، فسوف غير السين، فكلمة سأفعل كذا، غير: سوف أفعل كذا، ولا شك في ذلك، مثلاً: كتب غير اكتَتَبَ.. فكتب أي كتب رسالة، واكتتب أي اتخذ الكتابةَ مهنةً له.

بدأ الله الخلق... أي خلقهم وأوجدهم، فلانٌ لا يبدي، ولا يُعيد، أي: ليست له حيلة، لا يفعل شيئاً بادئ ذي بدء، وليس بإمكانه أن يعيده، إذاً هو ضعيف ولا حيلةَ له، قاصر.

وفي سورة سبأ قال تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ:٤٩].

الباطل ضعيف، الباطل زهوق وقد قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء:٨١].

والله عز وجل عندما قال ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ زهوق على وزن فعول، أي: شديد الزهوق، وصغية المبالغة دائماً في اللغة تعني شيئين، تعني الكمَّ وتعني الكيف، أي أن أكبر باطل زهوق، وأكثر باطل زهوق، فلو أن هناك مليون باطل، وبالطبع هناك باطل اعتقادي، وباطل فكري، وباطل سلوكي، أي شيء خلاف المنهج فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

فالحق واحد لا يتكرر، الحقُّ واحد كما أنّ بين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد فقط، ولو مررنا مستقيماً آخر لانطبق على الأول، فبين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد، والحق كذلك واحد، فالحقُّ لا يتعدد، أما الباطل فإنه يتعدد... فبين نقطتين يمرُّ ألف خط منحنٍ، وألف خط منكسر، فالباطل يتعدَّد أمَّا الحقُّ فلا يتعدَّد.

والآية الكريمة التي وردت في سورة البقرة أيضاً تؤدي المعنى ذاته قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:٢٥٧].

الظلمات جمع... والنور مفرد، فالحقُّ واحد، فهذا الذي لا يبدئ ولا يعيد هو ضعيف، مفتقر، ولا حيلة له، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يبدئ ويعيد.

الحقيقة كلمة يُبدئ... تشير إلى معنى المبدع... فالإنسان حينما يخترع شيئاً لا يخترع من فراغ بل من مثال سابق، حتى إنَّ الذي اخترع العجلة وكما قال بعضهم لا بد أنه رأى شجرة تتدحرج على الأرض فاستنبط من الشجرة العجلة، والذي اخترع

الغوَّاصة رأى السمكة في أعماق البحر، فعلى مستوى البشر ليس هناك إنسان اخترع شيئاً وأبدع شيئاً إلا على مثالٍ سابق، حتى إن الكُتّاب الخياليين إذا أرادوا أن يصوروا قصة خيالية في العالم الآخر، يصورون أشخاصاً وهؤلاء الأشخاص على مثال سابق، فيصوِّرونه له رأس وله يدان وله رجلان وله جذع، ولكن مع بعض التعديلات.

والمهندسون الذين يرسمون الأبنية هناك عدة أشكال في ذهنه، فأول شكل، والثاني والثالث والرابع والخامس وبعد السادس مثلاً تجده يعيد الشكل الأول، فالقدرة على إحداث شي من غير مثال سابق عند الإنسان محدودة للغاية، فلا بد من مثال سابق، لكن ربنا عز وجل عندما قال عن نفسه إنه يبدئ، أي: خلق الكون على غير مثالٍ سابق.

فمثلاً فكرة النبات... فأنت إذا أردت أن تصنع شيئاً يتكرر فكيف؟ تقول: نكثِّرهم. لكن ربنا سبحانه وتعالى جعل بداخل الثمرة بذرة، وهذه البذرة تزرع وتنتج شجرة، والشجرة تثمر هذه الثمار، فمبدأ البذور في الكون هذا إبداع وهو على غير مثالٍ سابق، مبدأ الألوان كذلك... فهناك ألوان والعين تحتاج إلى نور، فالله خلق كلَّ شيء على غير مثالٍ سابق.

فكلمة يبدئ فيها معنى الإبداع، فالإنسان له رأس وجذع وله أطراف، وله يدان ورجلان، وهو يرى ويسمع، وينطق ويتحرَّك، وهو ينام ويجوع ويعطش، من قال: إنَّ الإنسان بحاجة إلى أن يشرب؟؟ الله عز وجل... من خلق هذا الإنسان على أنه يحتاج إلى أن يشرب؟ من خلق الماء؟ فالإنسان خلق على أن يشرب، أوجد الله ماء، فهو مخلوق كذلك على أن يتنفس وهناك هواء.

بل إن الجنين في بطن أمه له رئتان وليس بحاجة إليهما إطلاقاً لأنَّ دمه يتجدَّد عن طريق الأم، فهذا الأكسجين يأخذه من دم أمِّه عن طريق المشيمة، فمعنى ذلك أنَّ هناك خالقاً مبدعاً خلق له الرئتين ليستعملهما حينما يولد.

من جعل الكون كُرات؟ فالكرة شكل هندسي له خصائص، ومن جعل الكون يتحرك؟ هذه الحركات المغلقة، من خلق قوى الجاذبية؟ من خلق النور والظلام؟ من جعل الحياة أساسها الماء؟ فهذا كلُّه مُبدَعٌ على غير مثالٍ سابق.

نحن ألفنا الكون، ألفنا القوانين، ألفنا الخصائص، فإذا أردنا أن نتحرك نتحرك وفق مثالٍ سابق فقد قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٤].

الله عز وجل سمَّى الإنسان الذي يصنع شيئاً سمَّاه مجازاً خالقاً، وسمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته فقال: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

لكن بين خلق الإنسان وخلق الله بونٌ شاسع.

الإنسان يصنع من كلِّ شيءٍ شيئاً، لكن الله سبحانه وتعالى يصنع كل شيءٍ من لا شيء، فقال تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾، وربُّنا عز وجل سمح لذاته العلية أن يوازنها مع مخلوقاته فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام:٦٢].

الآن هناك حاسوب، وهذا الحاسوب الذي اخترعه الإنسان شيء مذهل، يقرأ أربع مئة وخمسين مليون حرفاً في الثانية الواحدة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي أنه ليس هناك زمن، فهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس:٨٢].

فهنا أردت أن أقف قليلاً عند كلمة يبدئ.. أي: يبدع، وأضيف على هذا المعنى معنىً آخر، وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى لكرامة الإنسان عنده، هو مبدع الكون بطريقةٍ يستطيع الإنسان بها أن يبدع.

فمثلاً هناك نباتات مقزَّمة فهذا إبداع، وكذلك شجرة فاكهة ضخمة تقزَّم وتصبح في حجم صغير، وكثيرٌ من النباتات الآن مثل الليمون والبرتقال والرمان تُوضع في أُصص صغيرة جداً فهذا إبداع، ولكن ربَّنا عز وجل جعل الكون بطريقةٍ إذا أراد الإنسان أن يبدع، إنه يُبدع فيه.

اللغة مثلاً مؤلَفةً من حروف معدودة، ولكن من هذه الحروف المعدودة يمكنك أن تبدع كلمات غير محدودة، فمن معاني يُبدىء أنه جل جلاله أوجد الشيء على غير مثالٍ سابق، فليس هناك مثال سابق للمبدع سبحانه.

فالإنسان يمشي وله يدان... فهذا الشكل رائع جداً، لكن هناك أكثر من ستة آلاف مليون إنسان، فلا يوجد إنسان مثل الآخر... فالله يبدع، فبصمة الإبهام إبداع، وقُزحيَّة العين إبداع، وكيمياء الدم إبداع، ونبرة الصوت إبداع، ورائحة الجلد إبداع، فالإنسان متميز برائحة جلده، ونبرة صوته، وقزحية عينه، وبصمة إبهامه ينفرد بها، والآن اكتشف العلماء الزمر النسيجية وهي غير الزمر الدموية، فأثناء نقل الأعضاء لا بد من حد أدنى من التوافق النسيجي، وإلا فإن هذا العضو المزروع يُلفظ ولا يقبله الجسم، فكم زمرة نسيجية مكتشفة إلى الآن. اثنان ونصف مليار زمرة نسيجية، أي: ليس هناك سوى شخص آخر في هذا العالم يشبهك من حيث الزمرة النسيجية.

فأنت عندك زمرة نسيجية، وزمرة دموية، وبصمة إبهام، وكيمياء دم، ورائحة جلد، ونبرة صوت وقُزحية عين تتميز بها عمّن سواك، فالله عز وجل فرد، ومن تفضُّله على هذا الإنسان أن جعله فرداً لا مثيل له، فلك مكانتك عند الله عز وجل.

لو قلنا لك: ارسم لنا ورقة شجر. فإذا قمت بإجراء المحاولة فسترسم ورقة دائرية، أو ورقة مثلثة، أو مستطيلة، أو ورقة مسننة، أو ورقة نحيلة وطويلة، أو ورقة قصيرة وثخينة، عدة أمثلة ترسمها، ولكنك لو دخلت حديقةً وراقبت فقط أشكال أوراق النباتات لوجدت أعداداً لا تُحصى من أشكال أوراق النباتات، وأمعنْ نظرك في الأزهار هي كذلك لا تُحصى.

دخلت إلى أحد المعارض التي خصصت لعرض الفراشات بمصر وعلى ما أذكر فقد ضمّ المعرض أربع قاعات عُلِّقت على جدرانها كلِّها فراشات، وكلُّ واحدة غير الأخرى، وكلُّ واحدة أجمل من الثانية، شيء لا يُصدَّق، أشكال متباينة، وألوان مختلفة فهو سبحانه يبدع على غير مثالٍ سابق.

هذا الكون معرض لأسماء الله الحسنى، فكلما زدت هذا الكون نظراً وتأمّلاً تعرفت إلى الله أكثر فأكثر، إنَّ هذا الكون بابٌ واسع تدخل منه على الله، وطريقٌ قصيرة تصل بها إليه.

فالمعنى الأول ليبدئ هو المبدع الذي خلق فأبدع على غير مثالٍ سابق، أمَّا الإنسان... فقد قرأت موسوعة عن الطيور ففي المقدمة كتب المؤلِّف قائلاً: إنَّ أرقى طائرة صنعها الإنسان حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر. فأحد أنواع الطيور يطير ستة وثمانين ساعة طيران بلا توقف، ونحن إذا طرنا بطائرة سبع ساعات فوق مياه المحيط الأطلسي نقول: هذا شيء يفوق عجائب الدنيا السبع.

وبعض الطيور تقطع سبعة عشر ألف كيلومتر ولا تضلُّ الطريق بلا بوصلة ودون الاستعانة بمراكز البثِّ المنتشرة في أنحاء المعمورة، فالطائرة تعرف موقعها من خلال هذه المراكز وبالاتصال المستمر مع هذه المحطات الأرضية، ويعرف منها حوادث الطائرات بالساعة والدقيقة ومكان الوقوع إذا انقطع اتصال الطائرة بالأرض، ولكنَّ هذا الطائر الذي يطير من شمال الكرة الأرضية إلى جنوبها، من شمال بريطانيا إلى جنوب إفريقيا، وحينما يعود لو أنه أخطأ في زاوية العودة بمقدار درجة واحدة لهبط في هولندا، ولو أخطأ زاوية أخرى لجاء في ألمانيا.

والأغرب من ذلك هذه الطيور التي تبني أعشاشها... تُعشش في البيوت، والتي تهاجر إلى الجنوب وتعود، كطائر مثلاً وصل إلى جنوب إفريقيا وسيعود، وهو مثلاً في دمشق في بيت من بيوت الصالحية، لو أخطأ نحو اليسار درجة واحدة لجاء بمصر، ولو أخطأ نحو اليمين درجة لجاء بالعراق... لكنه إذا عاد فإنه يصل إلى عُشِّه الذي بناه في دمشق، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي.

كلما تأملت في خلق السموات والأرض ذابت نفسك خشوعاً لله عز وجل وتعظيماً له.

وقال بعضهم: «هو الذي ابتدأ العباد بالفيض والمدد، وهو نِعم السند».

أحياناً تُهدى هدية ابتداءً فتنتبه فتردُّ عليها، ولكن لمن الفضل؟ الفضل لمن بدأ... لأن ردَّ الفعل أقلُّ من الفعل... فربنا عز وجل أنعم عليك بنعمة الوجود، فأنت موجود، وبدأ فضله عليك بنعمة الإمداد ونعمة الهُدى والرشاد، وهو قد بدأك بالفضل فقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة:٥٤].

لم يقل: يحبونه ويحبُّهم بل قال: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾... حينما خلق الإنسان ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً بدأه بالفضل وقد قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

إلى متــى أنــت باللــذات مشــغولُ ... وأنـت عـن كُـلِّ مـا قـدَّمتَ مسـؤولُ

أيضاً المبدئ... المُظهر. قال: أظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود.

فالمعنى الأول للمبدئ... هو المبدع. أي: خلق على غير مثالٍ سابق.

المعنى الثاني للمبدئ... هو الذي بدأك بالإحسان فأوجدك.

المعنى الثالث... هو الذي أظهرك، فقد كنت في حيِّز العدم، أي: عدماً فأظهرك.

وقال بعض العارفين بالله: «المبدئ هو الذي يقذف في قلب عبده النور فيشرق»، أي كان إنساناً خاملاً تافهاً بعيداً، ضائعاً شارداً ضالاً، فلما ألقى في قلبه النور انتبه وصار شيئاً مذكوراً، فالله عز وجل يرفع الإنسان ويسمو به، ألم يقل في كتابه الكريم: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشرح:١-٤].

كان إنساناً خاملاً... فأحياناً تجلس مع إنسان تجد همومه سخيفة جداً، وأحياناً أخرى تجالس إنساناً آخر فتُدهش، فهناك أشخاص اتصالهم بالله ومعرفتهم باليوم الآخر وسعيهم إلى الدار الآخرة وبذلهم وتضحياتهم جعلت من شخصيتهم شخصياتٍ فذَّة.

فهذا الصحابي الجليل سيدنا ربيعة بن كعب الأسلمي مثلٌ ناطق، فعندما خدم سيدنا رسول الله ﷺ وقد انتهى وقت الخدمة، فقد أذَّن العشاء وصلَّى النبي ﷺ وأوى إلى فراشه، ولكنَّ ربيعة لم يستطع أن يغادر بيت النبي، بل يبيت عند باب النبي ﷺ، ليناوله وَضوءه عندما يستيقظ [البخاري في الأدب المفرد].

وفي «مسند الإمام أحمد» أنه كان بعد أن يقضي حوائج النبي ﷺ في النهار، وبعد أن يصلي العشاء الآخرة، يجلس عند باب النبي ﷺ، خشية أن تحدث لرسول الله ﷺ حاجة، فيأتيه بوَضوئه وحاجته.

فهذا الاتصال بالله عز وجل، هذا النور الذي يسري إلى قلب المؤمن يجعله كالكوكب الدريِّ مشعاً من حوله، فسبحان الله المؤمن له هيبته وشخصيته ووقاره، وله الأنوار من حوله، فكلّ إنسان التقى بمؤمن صادق يسري في كيانه ما يشابه التيار الكهربائي، ويشعر برعشة، ووجل.

فقد دخل على النبي الكريم رجل فأصابته رعدة، فقال له: «هوِّن عليك إنما أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد بمكة» [ابن ماجه، من حديث أبي مسعود].

الظاهر بيبرس وهو بطل من الأبطال ردَّ التتار ومع ذلك قال: والله ما استقرَّ مُلكي حتى مات العزُّ بن عبد السلام، والعزُّ بن عبد السلام كان أحد العلماء في عصره بل سلطان العلماء، وقد كان له من قوة الشخصية والهيبة وقوة التأثير ما دعا الظاهر بيبرس إلى أن يقول هذا القول.

رُوي أنَّ الحجاج بنى داراً بواسط وأحضر الحسن ليراها فلما دخلها قال: الحمد لله، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً، وإنا لنرى فيهم كلَّ يوم عِبراً، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحفُّ به ذباب طمع، وفراش نار، وأصحاب سوء، فيقول: انظروا ما صنعت، فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين؟ أما أهل السموات فقد مقتوك، وأمَّا أهل الأرض فقد لعنوك، بنيتَ دار الفناء، وخربت دار البقاء، وغُرِرْتَ في دار الغرور، لتذلَّ في دار الحبور، ثم خرج وهو يقول: إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه.

وبلغ الحجاج ما قال، فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، فقال: يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون؟! ثم أمر بإحضاره، وهو يحرِّك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج، فقال: يا أبا سعيد أما كان لإمارتي عليك حقٌّ حين قلت ما قلت؟ فقال: يرحمك الله أيها الأمير! إنَّ من خوَّفك حتى تبلغ أمنك، أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف، وما أردت الذي سبق إلى وهمك، والأمران بيدك: العفو والعقوبة، فافعل الأولى بك، وعلى الله فتوكَّل، وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه، واعتذر إليه وأكرمه وحباه.

وفي رواية أخرى: فلما دخل قال له الحجاج: ها هنا، فأجلسه قريباً منه وقال: ما تقول في علي وعثمان؟ قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شرٌّ منك، قال فرعون لموسى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه:٥١-٥٢] عِلْمُ علي وعثمان عند الله.

قال: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد! ودعا بغالية عطر بها لحيته، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال: قلت:

يا عُدَّتي عند كُربتي! ويا صاحبي عند شِدَّتي! ويا وليَّ نعمتي! ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب! ارزقني مودَّته، واصرف عني أذاه ففعل ربي عز وجل [جمهرة خطب العرب، لأحمد زكي صفوت].

فالمؤمن له هيبةٌ كبيرةٌ جداً من اتصاله بالله.

وقد قيل للحسن البصري: بِمَ نِلت هذا المقام؟ قال: باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي.

فعندما يكون العالم مريضَ النَّفس يستغني الناس عن علمه ويحتاج إليهم هو لدنياه... تسقطُ مكانته، وتسقط قيمته... فما نال الحسن البصري هذا المقام إلا باستغنائِه عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمه.

فمن بعض معاني كلمة يُبدئ أنَّ الله يُلقي على هذا المؤمن هيبةً، ويلقي في قلبه نوراً، مما يجعله كريماً عزيزاً.

أما كلمة يعيد ففي اللغة: العَوْدُ هو الرجوع، كالعودة... ومن كلمات السلف الصالح اللهمَّ! ارزقنا إلى بيتك معاداً وعودةً، والعَوْدُ: هو الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه، والمُعيدُ من الرجال العالم بالأمور. ففي الجامعة عندنا مصطلح اسمه المُعيد، وقد كان الطالب المتفوِّق يعيد الدرس على زملائه، فلتفوُّقه استوعب الدرس، فإذا كان هناك طالب ضعيف فيستمع من المعيد إلى الدرس، وهو يعيد الدرس على قُرنائه، فالمعيد هو العالم بالأمور.

والعائدة هي المعروف... اللهمَّ لا تحرمنا عوائد فضلك، فالعائد هو المعروف، أي: يعود نفعه على من فعله، فإذا فعل إنسان معروفاً فيعود عليه الخير... فالعود هو المعروف لأنَّ الإنسان إذا فعل المعروف عاد عليه الخير، والعائدة هي المعروف والصلة.

والمعاد... الآخرة: «اللهُمَّ اصلح لي ديني الذي هو عِصْمَةُ أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي» [مسلم، عن أبي هريرة].

فالمعيد هو الذي يرجع بعد أن انصرف عن الشيء... والمعيد هو العالم بالأمور، والعائدة هي المعروف؛ لأنه يعود على صاحبه بالخير، والمعاد هو الدار الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص:٨٥].

﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ أي: سوف يرجع بك أو يعيدك، وقد قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه:٥٥].

أما المعيد في صفة الله تعالى فهو كما قيل: «هو الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات».

كلُّ الناس هلكى، كلُّ من عليها فان، كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه، فالإنسان مهما علا لا بد من أن يعود إلى التراب، لا بد من دخول القبر، الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمرُ مهما طال فلا بد من نزول القبر.

المعيد هو الذي يعيدنا إلى الموت بعد أن أحيانا، فالموت نهاية كلِّ شيء، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل، هذه هي النهاية والمصير.

قال العلماء: «ثم يعيدهم بعد الموت إلى الحياة»: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾، فهو ينقُلك من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، لو كان الموت نهاية كلِّ حي وهو فناء وانتهى أمر الإنسان بعده لكانت القضية إذاً سهلة جداً، ولكنَّ الموت بداية حياة فقد قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٦﴾ [الفجر:٢٤-٢٦].

قال العلماء أيضاً: المعيد هو الذي يعيد الخلق للحساب... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

هناك عودة، وهناك سؤال، ومحاسبة، وعرض للأعمال، والمعيد هو الذي يجازي كلَّ مخلوقٍ بعمله وقوله، ويحاسبه على نعمه وطوله.

ورأي الإمام الرازي في هذا الموضوع «أنَّ المعيد هو الذي يعيدُ الأشياء بأعيانها»، فهذا الجسم الذي فني إلى ذرّات، فالذرّات نفسها تجتمع ويعاد خلقها من جديد، فلو أنَّ الإنسان أُحرق كما في الهند، وأُلقي رماده في الآفاق، فهذه الذرات يعيدها الله سبحانه وتعالى، لو أنه أُلقي في البحر، أو لو أنه احترق في الجو، فذرات الإنسان التي خلقها الله يعيدها هي هي، وقد استنبط الإمام الرازي هذا من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس:٧٩].

فالذرات نفسها يعيد خلقها... وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾ [فصلت:٢١].

معنى ذلك أنَّ الجلدَ نَفْسٌ تَشهدُ على صاحبها ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، فإذا ارتكب الإنسان معاصي بأعضائه، فهذه الأعضاء نفسها تُجمع ويُعاد خلق الإنسان منها ثانيةً وتشهد عليه.

يروى أنَّ سيدنا داود كان يبكي، فأوحى الله تعالى إليه قال: لم تبكي يا داود؟! إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد أمَّنتك، وإن كان رجاءَ الجنة فقد أعطيتك، وإن كان لحديث الخصم فقد أرضيتك، فزاد داود بالبكاء وقال: إنما أبكي لما فاتني من صفاء ذلك الوقت الذي ولّى، فاردده عليّ. فقال له ربُّه جلَّ جلاله: هيهات يا داود لا سبيل إلى ردِّ ذلك الوقت.

فالوقت لا يعود.. الدنيا ساعة اجعلها طاعة، فمستحيل أن تستعيد الوقت، فالوقت إذا مضى لا يستعاد، لذلك ما مضى فات والمؤمَّل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها.

نصيب المؤمن من معرفته بمن يبدئ ويعيد

من أدب المؤمن مع الله تعالى الذي يبدئ ويعيد أن يُكثر من ترداد ذلك الفعل الإلهي كي يتذكَّر العودة إلى الله عز وجل، فهناك عودة إلى الله.

أحد الأشخاص اتَّفق مع شخص آخر على أن يقرضه ثلاثمئة ألف ويُسجِّل له بستاناً جميلاً جداً رهناً، فلمّا لم يستطع المستقرِض أن يرُدَّ القرض، قال له الآخر: كلُّ إنسان معه حقُّه، كان ثمن البستان مليوناً. فصاحب هذا البستان تألَّم ألماً شديداً لدرجة أنه أصيب بأزمة قلبية وشارف على الموت، فأوصى ابنه قائلاً: يا بني إني إن مِت سِرْ بالجنازة أمام هذا الذي اغتصب مني البستان، وأوقِف الجنازة أمام دكّانه، وادخل إليه وأعطه هذه الرسالة، وبعد موت الرجل وكان بيته بطرف المدينة، فانتقلت الجنازة إلى الطرف الآخر، وسارت إلى جانب دُكّان المغتصِب، وأوقف ابنه الجنازة أمام الناس ودخل إلى هذا المغتصِب وقال له: هذه الرسالة من هذا الميت، قبل أن يموت كتبها لك. ففتحها فقرأ ما كتبه المتوفَّى فيها قائلاً: إنني ذاهبٌ إلى الله، فإذا كنت بطلاً فلا تأتِ إلينا، سوف أُقاضيك هناك.

إذاً لا بد من أن نعود إلى الله وسوف نُحاسب، لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦]. وقد قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وللمزيد من البيان أقول: إنَّ الإنسان إذ عرف أن بدايته من ماءٍ مهين، وأنه خرج من عورةٍ ودخل في عورة ثم خرج من عورة، هذه هي البداية، ثم بعد هذا الخلق سوف يعيده الله إلى الموت، وبعد الموت يعيده الله إلى الحياة، فالبداية أي أصل خلق الإنسان الأول من تراب، وأصل خلقه بالذات من ماء مهين، والنهاية موت وبعد الموت هناك حياة أبدية، فأدب المؤمن مع من يبدئ ويعيد أن يذكر بدايته ونهايته.

لذلك... طوبى لمن ذكر المبتدى والمنتهى... ذكر المبتدى، أي: أنه كان نطفة من ماء مهين، ثم صار طفلاً ضعيفاً، ثم كبر واشتدَّ عوده، ثم بدأ يقول: أنا وأنا، ثم يعود إلى ما كان عليه من الضعف والجهل، ثم يطويه الردى، ثم يعيده الله تارةً أخرى ليحاسبه على كلِّ أعماله... فالله يبدأ الخلق ثم يعيده لتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى، فقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الروم:١١].

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [طه:١٥].

فالله عز وجل يبدئ ويعيد، بدأك بالإحسان إليك حيّاً، وأعادك إلى ما كنت عليه من العدم عند الموت، ثم أعادك من العدم إلى الحياة لتلقىٰ جزاء عملك...

يؤتي الحكمة

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٥١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

من معاني إيتاء الحكمة

الحكمة تَدُلّ على الترجيح، ولا ترجيح بلا مُرجِّح، يعني أنَّ هناك شيئاً يمكن أن يكون في أوضاعٍ كثيرة. وأنت اخترت هذا الوضع المناسب، فهذا العمل اسمه ترجيح؛ رجَّحت هذا المكان على هذا المكان، فهذا الترجيح يحتاج إلى مُرَجِّح، وأوضحُ مثلٍ

مفتاح الكهرباء في الغرف فيمكن أن يوضعَ في أسفل الحائط، ويمكن أن يوضع في أعلى الحائط، أما حينما وُضع في مكانٍ معتدل يتناسبُ مع طول الإنسان وحركة يدِه، فإننا نقول: هذا المكان فيه حكمة أو فيه ترجيح، ولا ترجيح بلا مُرجِّح.

ولعلَّ دليل الحكمة من أكبر الأدلة على وجود الله وعلى عظمته، فمثلاً الطير الصغير الذي في البيضة كيف سيخرج منها؟ في وقتٍ مناسبٍ جداً، وفي مكانٍ مناسب جداً ينمو على منقاره نُتوءٌ مدَبَّب ويثقب به جِدار البيضة، وبعد حينٍ يتلاشى هذا النُّتوء، ويعود مِنقارُه إلى ما كان عليه. ففي الوقت المناسب، وفي المكان المناسب وبالحجم المناسب، وبالشكل المناسب، ظهر هذا النُّتوء ونقول: هذا الترجيح يحتاج إلى مرجِّح، والعقل لا يقبل أنَّ هذا الشيء تمَّ وحدَهُ.

الماء إذا برَّدْناهُ -شأنُهُ كشأنِ أي عنصر- ينكمش حجمُهُ إلى درجة زائد أربعة، وعندها تنعكس المسألة، ولولا هذه الخاصة لما كان على الأرض حياة؛ يتمدَّدُ الماء إذا بلغ درجة زائد أربعة، حكمةٌ مطلقة ولولاها لما قامت حياة، فالحكمة ترجيح؛ ولا ترجيح بلا مرجِّح.

قد يذهب إنسانٌ إلى بلدٍ في أقصى الشمال من الكرة الأرضية وقد تصل الحرارة إلى سبعين تحت الصفر، كلُّ شيءٍ يمكن أن تغطّيه؛ تغطي يديك ورجليك وجهازك التنفسي وترتدي الألبسة الصوفية والمعطف والقُبَّعة؛ فكلُّ شيءٍ يمكن أن تغطيه إلا العين إذا غطَّيتها فقدْتَ القدرة على البصر بحجب العين، والهواء الذي يُلامِسُها في درجة سبعين تحت الصفر، إذاً لا بد من أن يتجمَّد ماء العين ويفقد الإنسان البصر؛ فمن جعل ماء العين لا يتجمَّد؟ هذه حكمةٌ مطلقة، ولولا هذه المادة لَفَقَد كلُّ الذين يعيشون في المناطق الباردة أبْصارهم، فلا ترجيح بلا مُرجِّح، ولا حكمة بلا حكيم.

فالله سبحانَه وتعالى هو الحكيم، فهو تعالى حكمتُهُ مطلقة، أما الإنسان فحكمتُهُ نسبيَّة، وأحياناً يفعلُ فعلاً غير حكيم بسبب ضغط أو إغراء أو بسبب جهل، فإمَّا أنه تعرض لضغط كبير، فتكلَّم كلمةً غير حكيمة، أو وقف موقفاً غير حكيم، أو سلك

طريقاً غير مشروعة، أو خضع لإغراءٍ شديد، فاختلَّ عقْلُهُ وانساقَ مع شهْوَتِهِ، أو أنه يجهل حقيقة هذا الشيء فيرتكب حماقة، فالإنسان إذا بدا لك حكيماً فهو حكيمٌ أحياناً، أمَّا الحكيم مطلقاً فهو الله عز وجل، لأنه منزَّهٌ عن الضغط والإكراه والجهل، فأفعالُهُ تعالى تلابِسُها الحكمة المطلقة.

وهذه الحقيقة أنَّ كل شيءٍ وقع فله حكمة، حتى إنهم قالوا: لكلِّ واقعٍ حكمة؛ فكرة مريحة جداً وبسيطة، وهي أنك لن تعاني أزمة نفسية ولن تعاني حقداً ولا ضيقاً ولا كراهية ولا ندماً، لا تقول: لو أنني فعلتُ كذا وكذا، فهذه الفكرة البسيطة خلاصتها أنَّ كل شيءٍ وقع أراده الله، لأنه لا يليق بالله أن يقع شيءٌ لا يريدُه، وكلُّ ما أرادَهُ الله وقَع، وأفعال الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، وبهذا انتهى النَّدَم والحقد وانتهت كلمة: ليْتَ.

لا تقل: لو أنني فعلتُ كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل، فإنَّ كلمة لو تفتحُ عمل الشيطان. أترى ما يحدث في العالم، هناك شرور ومجاعات وآثام وزلازل وبراكين تنفجر وفيضانات وصقيعٌ لا يُحتمل، وإتلافٌ للمحاصيل وحروبٌ أهلية، فيجب أن تؤمن، وهذا الإيمان يحتاج إلى جهد، أنَّ كل شيءٍ وقع لحكمةٍ بالغةٍ مطلقة، وهذه كلُّها للخير المطلق، ولكنك ترى رؤيةً محدودة أنَّ الشر وقع مختاراً وتتألم ولكنَّ الله يريد من أفعاله كلِّها الخيرَ المطلق.

تصور أنَّ غلاماً يعاقبه أبٌ شديد حازم، وبعد أن عُوقب أكثر من مرة استقام وأقبل على دراسته، ثم أصبح هذا الغلام الطالب في مستقبله من ألمع الشخصيات، بالنظر القريب والقصير هناك قسوة وشر، وبالنظر البعيد هناك خير كثير، فبعد أن ضُبط هذا الغلام ودرس وأخذ شهاداتٍ عليا وشغل مناصب رفيعة وصار دخلُهُ وفيراً -من وجهة نظر دنيوية- فهذا حينها ينعَمُ ببحبوحة ومكانة اجتماعية وبيت مريح ومركبة وزوجة وتبجيل من قِبَل الناس، سيُقبِّل يد أبيه، فعلى المدى القصير قد يبدو لك الشرّ، أما على المدى البعيد فيبدو لك الخير المطلق، لذلك أيُّ إنسان على وجه الأرض

من آدم إلى يوم القيامة حينما يقف بين يدي الله عز وجل يُلخِّص علاقة الله به بكلمةٍ واحدة هي: الحمد لله، قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس:١٠].

أرأيت إلى هذه الفكرة؛ إنها هي الحقيقة وإني بحكم المعاناة والمشاهدة أكاد أقول: إنَّ تسعة أعشار الأمراض الوبيلة أسبابها نفسية؛ ضغط نفسي وقلقٌ وخوفٌ وحيرة وحقد، فإن آمنت بهذه الحقيقة تُشفَ من كلِّ أمراضِك النفسية، ولا ترى إلا أنَّ يد الله تعمل في الخفاء ولا ترى مع الله أحداً وتقول: الله هو كلُّ شيء، وبالتعبير الدارج: ما في إلا الله، واللهُ كبيرٌ، وتتعامل معه وحده، وتُخْلِصُ له، وتَمْحَضُهُ وُدَّك وحُبَّك وطاعتك، وتقدم في سبيله حياتك وشبابك ومالك وعلمك ولسانك وقلمك وخبرتك، وهذا هو الإيمان. فلكلٍّ واقع حكمة، ولكنَّ هذه الرؤية يصعب أن تُنقل بصورتها اللفظية، فالإيمان والسلوك في طريق الإيمان ومجاهدة النفس والهوى ولُزوم مجالس العلم وتلاوة القرآن ومعرفة السنة والاستقامة والعمل الصالح، وفي نهاية هذا المطاف سترى أنَّ يد الله وحدها تعمل في الخفاء، وفي نهاية النهاية ترى أنَّ يد الله فوق أيديهم، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال:١٧].

لذلك لا ألم ولا خوف ولا قلق، والحكمة أن نضع الشيء المناسب في المكان المناسب، في الحجم المناسب، وفي الوقت المناسب، وبالقدر المناسب، وبالأسلوب المناسب، والله هو وحده الحكيم ولا حكيم سواه، وحكمةُ البشر مستنبطةٌ من حكمة الله؛ وحينما فتح النبي ﷺ مكة فماذا قال أبو سفيان؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأحلمك وأكرمك [رواه البيهقي في دلائل النبوة، عن ابن عباس]، إنها كلمة لخَّصت صفات النبي ﷺ الإنسانية، من فم رجل كان بالأمس العدو الألد.

ومن بعد، فإن الله عز وجل يقول: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

أجل إنه سبحانه يقول: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾، الخير الكثير لا بحجم رصيدك المالي، ولا ببيت فخم ولا بزوجة رائعة، ولا بدخْلٍ كبير، ولا بصحةٍ جيدة، إنما الخير الكثير أن تُؤْتى الحكمة لأنك بالحكمة تسْعد، وبالحكْمة تُصلحُ الزوجة السيئة، وبالحُمْق تُفسِد الصالح، وبالحكمة تجلب المال، وبالحمق تبدد المال، وبالحكمة تكسب الأصدقاء، وبالحمق تفرقهم وتخسرهم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾، فالله عز وجل حكيم ويؤتي الحكمة.

بعضهم قال: الحكمة ليست كسبيةً، فهي لا تُكْتسب ولكنها تُؤتى، وبعضهم قال: المؤمن حينما يستقيم على أمر الله ويُخلص له يكافئه بالحكمة، وإني لأستند فيما أقول على قصص من أزواج وزوجات، ومن إخوة وأخوات، ومن شركاء، حمْقٌ ما بعده حُمْق، وانحرافٌ ما بعده انحراف؛ إنسانٌ يدمِّر نفسَهُ بيديه، ويُخرِّب بيته بيديه، ويدمِّر سعادتَهُ بيديه لعدم وجود الحكمة؛ كأن يتفوه بكلمةٍ غير مناسبة، وهذا الكلام مؤلم ويحمل نتائج قاسية، قيل:

إنَّ القلـــــوب إذا تنــــــافر وُدُّهـــــا   مثــــل الزجــــاج كسْــــرُها لا يُجْـــبَرُ

هناك شيءٌ في الأدب يسمى التَّشْطير، هو أنْ يأتي شاعر فيجعل من شطر البيت الشطر الأول ويصوغُ شطراً ثانياً وشطراً ثالثاً ويأتي بالشطر الثاني ليجعله شطراً رابعاً:

إنَّ القلـــــوب إذا تنــــــافرْ وُدُّهـــــا   مثــــل الزجاجـــة كسْــــرُها لا يُجْـــبَرُ

فأخذ أحدهم الشطْرَ الأول من هذا البيت ثم جعل من الشطر الثاني شطراً رابعاً، فقال:

إنَّ القلـــــوب إذا تنــــــافر وُدُّهـــــا   عنــــد الأكــــارم جَبْرُهـــا لا يَعْسُــــرُ
وقُلـــوب أرْذال الأنــــام إذا التـــوت   مثــــل الزجاجـــة كسْــــرُها لا يُجْـــبَرُ

في بعض الأحيان كلمةٌ تُنْهي شركة، وكلمةٌ تُشرِّدُ أسرة، وموقفٌ تخسر فيه عملك، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

أحياناً تجد إنساناً يعمل عملاً مرموقاً، وله مكانة رفيعة، ودَخْل كبير، فيَخون صاحب العمل فيُنهي عمله بسلوك غير حكيم، أو بكلام لا حكمة فيه، ويصبح متشرِّداً في الطرقات، ارتكب حماقة كبيرة، وأرجو من كل أخ أن يصدِّق معي فأنا أُصدِّق الله عز وجل: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾.

في بيتك قد تُؤتى الحكمة وتعيش مع الزوجة عمراً مديداً، تسعدُ بها وتسعد بك، أما بالحمق فتطلّقها وتخسرها وتخسرُك.

أحياناً تجد إنساناً يملك مالاً يُبَدِّدُهُ بأساليب تافهة، ثم يقعد ملوماً محسوراً إذ بدّد ثروته، وأحياناً يغْضب المرء فيطلِّق زوجتَهُ ويتسكَّع على أبواب المُفْتين عسى أن يجدوا له حلاًّ، فالذي تساهَلَ معه منهم يشكُّ في علمه، والذي تشدَّد عليه يشكُّ في رحمتِه، ومن بابٍ إلى باب، ومن مُفْتٍ إلى مُفْتٍ، وكان يُغْنيك ألا تُطلِّق هذه الزوجة وأنْ تبقي عِصْمَتُها بيدك، أما حينما طلَّقْتَها فقد أصبحت عِصمتُها بيدها وأنت لا تدري؛ فالحكمة -كما ورد- علمٌ مطبَّق، والله عز وجل قال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾ [الجاثية:٢٣].

فقد تُحصِّلُ علماً كبيراً ولا تكون حكيماً، أمَّا الحكمة فهي أنْ تستفيد من علمِك، وأن تجعل من علمِك علماً عملياً؛ إذ هناك علم عمليٌّ وآخر نظريٌّ، فأنت حينما تستفيد من علمك تكون حكيماً، فالحكمة حقيقةٌ مطبقةٌ في حيِّز الواقع، والحكمة إصابة الحقِّ، والحقُّ ما طابق الواقع، إذ الضلال أنْ تتوَهَّم شيئاً غير واقعيٍّ، وأنْ تظنَّ شيئاً غير صحيح، والمقياس هو الواقع، فالحكمة أن تكون واقعياً، والإنسان إذا ابتعد عن الواقع وقع في الوهْم وصارت أفكارُهُ وهْماً وظناً وشكاً وغلبة ظنٍّ، أمَّا الحكمة فهي أن تبلغ حد اليقين: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

اسمع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

الحكمة كلُّها أن تشكر الله، لأنَّ الله أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وأنْعم عليك بنعمة الإمداد، وأنْعم عليك بنعمة الهدى والرشاد، فالحكمة أن تشكر الله، والكون مسخَّر تسخير تعريف ومسخَّرٌ تسخير تكريم، فإن آمنت وشكرتَ حققتَ الهدف من وجودِك، أليس الله بأحكم الحاكمين، فحكمة الحكماء مستمدَّةٌ من حكمة الله، يعطي الحكمة أو لا يُعطيها، والدليل أنه إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كلِّ ذي لُبٍّ لُبَّهُ، فهذا أبو لهب لو ذهب إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله لنجا إلى الأبد، ولما أنزل الله فيه، قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ [المسد:١-٥].

فطريق الإرادة لأبي لهبٍ بيد الله عز وجل، ومن أجل أن تعلم أنَّ كلَّ مخلوقٍ أمره بيد الله سبحانه، فانظر حماقة هؤلاء السفهاء، قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة:١٤٢].

فالله يخاطب الناس من أهل مكة واليهود، ويقول: أنتم سفهاء وسوف تقولون هذا الكلام، قال تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾.

حسناً، هؤلاء الذين سُمُّوا سُفهاء؛ لو فكَّروا قليلاً ثم سكتوا، فلو أنهم سكتوا لأبطلوا كلام الله وردُّوه، ولكنَّهم تكلَّموا وقالوا كما أخبرت به الآية، من أجلِ أن تعلَم أنَّ الله بيده كلُّ شيء، وبيده ناصية كلِّ شيءٍ، وإذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كلِّ ذي لُبٍّ

لُبَّهُ. والله عز وجل طليق الإرادة ولا شيءَ يقفُ أمامه سبحانه؛ فهذا السفيه الذي وُصف بأنه سفيه، ولأنه سفيه سيقول كذا وكذا، ولو أنه فكَّر قليلاً وسكت لالغى مصداقية القرآن الكريم ولكن حاشا وكلاّ، إذاً الحكمة أنَّ كل شيءٍ بيد الله، يؤتي الحكمة من يشاء أو يؤتي الضلال من يشاء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾ [محمد:١].

فالكفار أعمالُهم لا تحقِّق أهدافَها، ولا تصل إلى غاياتها؛ فحركة الإنسان الكافر عشوائية، حركتُهُ كبيرة، ولكن عندما يأتيه ملَكُ الموت ليتوفَّاه ويخرجه من الدنيا بعد أن بدأت تنتظم حياته ويعلو شأنُهُ وبعد ما أخذ يزْداد مالُهُ وقد تمكَّن بعملٍ مرموق، ومكانة وأصحاب وأعوان، يقول له ملَكُ الموت: قم مستسلماً واصحبنا، فالحكمة أنْ تأتي أعمالك مطابقةً لأهدافِك، لكنَّ الإنسان أحياناً يُنْجِزُ عملاً كبيراً دون أن يكون له غاية في مرضاة الله، بل تكون غايته سمعةً شخصية، وعلواً في الأرض، لذا يقول ربنا عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان:٢٣].

يقول الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾.

كنتُ قد ذكرتُ من قبل أنَّ الله سبحانه قد يؤتي المال لمن يحبّ ولمن لا يحبُّ، فقد آتاه لمن لا يحب وهو قارون، وقد آتاه لمن يحبُّ وهو سيدُنا عثمان بن عفان ﷺ، فكان من أغنى أغنياء الصحابة فقد جهَّز وحْدَهُ جيش العُسْرة، وهذا عبد الرحمن بن عوفٍ كذلك من أغنى أغنياء الصحابة، فالله أعطى المال لمن يحبُّ ولمن لا يحبُّ، وأعطى الملك لمن يحبُّ وهو سيدُنا سليمان، ولمن لا يحبُّ وهو فرعون، ولكنَّ العلم والحكمة لا يُعْطِيهما إلا لمن يحبُّ، قال تعالى في الحديث عن يوسف ﵇: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٢﴾ [يوسف:٢٢].

فالإنسان إذا تلقى العلم الصحيح وتفقَّه بكتاب الله وقرأ سُنَّة رسول الله ﷺ وسيرَتَهُ، وقف على الحق وعرف موقِعَهُ، ولماذا هو في الدنيا؟ ومن أين أتى؟ وإلى أين سيذهب؟ وما غاية وجودِهِ وماهيَّتُهُ؟ فهذا أوتي الحكمة، فالمؤمن هدفُهُ واضح وهو مطمئنّ، لأنه عرف حقيقة الحياة الدنيا، وعرف حقيقة الكون وحقيقة الإنسان، وجوهرَهُ قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة:٢٥١].

والآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:٢٦٩].

يدعو الإنسان ربَّهُ فيقول: يا رب سدِّدْ قولي ووفِّقْني وألهِمْني الصواب، وما من دعاءٍ أرجو أن تدعو به أحب إليّ من هذا الدعاء: اللهم ألهِمْنا الصواب؛ قد يقف الإنسانُ أياماً مواقفَ نبيلة سليمة، ويتكلَّم الكلمة الصحيحة، ويتحرَّك الحركة المناسبة، ويغْضب في موطن الغضب، ويحلُم في موطن الحلم، ويعطي في موطن العطاء، ويُمسِك عندما ينبغي أن يُمْسِك، فهذه المواقف المتنوعة إذا كانت متناسبةً مع عِلَلِها وأسبابها يشعر براحة؛ فماذا يقابِل الحكمة؟ الحُمق، فالحكمة يتْبَعُها راحة، أما الحمق فيتبعُهُ ندم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾.

ولقد عرف كلُّ مؤمنٍ وسمع بدُعاء الصالحين: «اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم»، فبعض الناس يفكِّر ويُفكر، ويفكِّر ويَحْسب ويجمع ويطْرح ويقسِّم، ثم يرتكب حماقةً تدمِّرُهُ باختياره، لأنه ركن إلى ذاته واطمأن إليها.

فاعلم علم اليقين أنه: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾، فإذا دخل الإنسان المسجد قد لا يجد مقْعداً ولا يتوقَّع راحة ولا استضافة، ولكن ما الذي يعطيه الله في المسجد عند سماعه خطبةً أو درساً؟ الحكمة، تجد أنك إذا دخلت المسجد

تقول: اللهم افتح لي أبواب رحمتِك؛ تجد نفسك بعد حين وبعد المثابرة على لزوم المساجد أنك في بيتكَ حكيم، وتجد نفسك في تجارتك موفَّقاً وتعْقِد صفقة معقولة، وبالمقابل تجد من يعرض عن مجالس العلم وتلقِّي أسباب الحكمة، يعقد صفقة يخسر بها وتهْوي به ويدمَّر بتدبيره، فالإنسان حين يكون مع الله فالله معه، والحقيقة أنت أحدُ شخصين: «شخصٌ يُلْهِمُه ربه سبحانه صلاحه وخيره، لأنه انقاد لربه، وشخصٌ يوسوسُ له شيطان ويأخذ بناصيته الخاطئة»، فالشيطان يدُلُّك على الشر وعلى المعصية، ويُحبِّب لك الدنيا، ويلقي بينك وبين الآخرين البغضاء ويُزيِّن لك الحرام، قد تجد أشخاصاً كثيرين عندهم زوجات من الدرجة الأولى، ومع ذلك يلهثون وراء سقط النساء ويسقطون في مستنقعات الزنا، لأنَّ الشيطان يزيِّن الرذيلة والفجور بعد أن اختارها لنفسه ويُزَهِّدُه بزوجتِه، فهذا حُمْق ويدمِّر نفسَه بنفسه، يزهد بالطاهر والحلال والنقيِّ الذي لا شائبة فيه، ويلهث وراء الحرام، والدمار والعار، كلُّ هذا دليل على عدم وجود الحكمة التي يسلك مسالكها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

تجد الإنسان يتسرَّع دون تحقُّق، فإذا به يقعُ في شر عملِه، وقد يحكم حُكْماً سريعاً على بعض أعماله فيندم على ما فعل، وقد يكون ردُّه أكثر مما ينبغي فيُفجِّر الموضوع؛ أراد أن يصلح فأفْسَد، وأن يُرَمِّم فدمَّر.

وبعد، فيا أيها المؤمن كن حكيماً، ومن علامة الحكمة فيك أنَّك لا تندم على فعل أو قول، والندم يُرافِق الحمق، وعدم الحكمة، وفقد الحكمة يعْني أنك مقطوعٌ عن الحكيم، ولا يوجد لك اتصال بربك، إذ لو كان هناك إقبال واتصال لآتاك الله من الحكمة، فالله هو الحكيم، وأيُّ عبْدٍ اتَّصل به يشتقُّ لنفسه من حكمته، الربيع بن خُثيم رضي الله عنه سُرق بعض مالِهِ فماذا قال؟ قال: اللهم إن كان غنيّاً فاغفر له، وإن كان فقيراً فأغنه. وهذا قول حكيم، يرجو من دعائه هذا العوض من الله، كما ينمُّ عن صفاء القلب والطّويّة.

إني أعْرِف إنساناً فَصَل موظفاً عنده عن العمل وانتقم منه انتقاماً شديداً، بل أدَّى به الأمر إلى قتْلِهِ من أجل قضْية تافهة؛ غضبٌ شديد حمله على ارتكاب جريمة قتل، وهذه الجريمة أوْدَت به إلى السجن ثلاثين عاماً، أما لو كان حكيماً لقال: قدَّر الله وما شاء فعل، والله يعوِّضني، ولرأى أن كلَّ ذلك من حكمة أرادَها الله، فلعله أكل مالاً حراماً من قبل، فالله تعالى عاقبَهُ وانتهى الأمر به إلى السجن ثلاثين عاماً، فالشيطان هو الذي يدفعه إلى الحركات العشوائية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم:٨٣].

حركة عشوائية وطائشة ومؤذية وهدفُها الإيقاع بين الناس، ذكرتُ مرةً قصة فريدة: كانت امرأةٌ تعمل بالقضاء، وكانت ملمَّة بالقوانين، وكان لها بيتٌ تملكه شركةً مع أخيها، وكان معها وثيقة بملكية كامل البيت، فتوهَّمت أن بإمكانها أن تأخذ منه البيت بطريقة ذكية جداً وبأسلوب يحتاج إلى خبرة، والقصة طويلة جداً واستطاعت بمكرها أن تلقي به في الطريق هو وأولاده وزوجتُهُ، وأن تستولي على ملكية البيت وحدها، عندها أصيبت بمرضٍ خبيثٍ في أمعائها وانتهى بها الأمر إلى الموت العاجل، فكان أخوها الوارث الوحيد لها، فعاد إليه البيت، واستحقَّت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ من الذي دفعها إلى هذا العمل؟ فقدانها الحكمة، فافترسها الشيطان إذ أخرجت أخاها الذي أعطاها نصف ثمن البيت تماماً، ولكن ما خطر في باله أنْ يأخذ منها إيصالاً لاطمئنانه إلى علاقة الأخوة؛ آلاف القصص من هذا النوع.

فالإنسان وهو بعيدٌ عن الله تعالى أحْمق ويرتكب الحماقةَ تلو الحماقة، فإذا به يُدمَّر بسوء تصرفاته، فالخلاصة إذا كنت مع الله فأنت في ظلِّ الله ورعايته وحمايته وترْبيته؛ تجد شخصاً حياتُهُ متواضعة، ولكنه حكيم، وشخصاً آخر حياته مترفة، ولكنه موزع النفس مبدَّد الذهن، ألا ترى أشخاصاً جمعوا أموالاً طائلة ثم كُشف أمرهم فإذا هم في السجن، فالقضية هي قضية توفيق من الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

فالإنسان إذا خرج من بيته فليقل:

«بِسْمِ الله، رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَضِلَّ أَوْ أُضِلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ» [رواه الأربعة عن أم سلمة].

فقوله حكمة وصواب.

تحدثُ معك أمور فتقول بعدها ما انتبهت، لكن الله ألهمني وصحوتُ من غفلتي، الفكرة التي أريد أن أنبه إليها: أنْ تقف في الوقت المناسب وأن تراجع الأمر وأن تتريَّث وألا تحكم عشوائياً فكُنْ مع الحكيم تغْدُ حكيماً وكُنْ مع العليم تغْدُ عليماً وكُنْ مع الرحيم تغْدُ رحيماً، فكلُّ إنسان يرتكب حماقة يكون وقتها غافلاً، يعني أنه وقتَ ارتكابِه لها كان مقطوعاً عن الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران:٨١].

الحكمة تُؤتَى تفضُّلاً من الله الحكيم، والعلماء قالوا: «الكتاب هو القرآن، والحكمة هي سُنَّة النبي ﷺ».

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

أيها المؤمن اطْلُبْ من الله عز وجل كلَّ يومٍ أنْ يُلْهِمَكَ الحكمة وألا تقع في شرِّ عملِك، وأنْ تفعل الشيء الصواب وأن يسدد مسعاك، والحكمة ضالَّةُ المؤمن، والحقيقة أنَّ الإنسان إذا افْتقَر إلى الله ألهَمَهُ الحكمة، فإذا اعْتَدَّ برأْيِهِ تخَلَّى عنه فوقع في الشرّ،

ولكنك إنْ تسْتَلْهِم الله يؤتِك الحكمة، وإنْ تنْقَطِع عن الله ينفردْ بك الشيطان ويوسوس لك ثم يرديك.

بربِّكم هؤلاء المجرمون يوم قتلوا ضحيتهم أما فكَّروا في المصير؟ أربعة ذهبوا إلى صائغ في بعض الأبنية في دمشق وقيَّدوه وأخذوا منه ثلاثة عشر كيلو ذهباً، وبعد أسبوع أُعْدِموا في قرْيَتِهم جميعاً، هل من المعقول أن يخسر الإنسان نفْسه من أجل كمية من الذهب تبقى لديه سبعة أيام؟ لذلك فالمُجرم غبي، طبعاً صعبٌ أن ترتكب جريمة، فالقانون يرصدك ويلاحقك، ثم إن ربك لبالمرصاد يجزي شرَّ الجزاء.

أعْرف رجلاً هوايتُهُ أن يمشي في الطرق المزدحمة ويُمتِّع عينه بالحسناوات، فأُصيب بمرض ارتخاء الجفون، فلا يستطيع أن يرى إنساناً إلا إذا أمسك جفنه بيده، أين الحكمة؟ هل تصدقون، فمن الحكيم؟ الذي يطيع أمْر الله عز جل.

أَطِعْ أمْرنا نرْفع لك حُجْبَنا ... فإنا منَحْنا الرضا من أحَبَّنا
ولُذْ بِحِمانا واحْتَمِ بِجنابِنا ... لِنَحْميك مما فيه أشْرار خلْقِنا
وعن ذِكْرنا لا يشْغلَنَّك شاغِلٌ ... وأخْلِص لنا تلْقَ المَسَرَّة والهنا

اسْمعْ قصص الناس تَرَ العجب؛ أزواج متباغضون، وأعمال منحرفة وخصومات، ففي البيوت مشكلات لا يعلمُها إلا الله، ونفور وعصبية لأنه مقطوع عن الحكيم، فكلامُهُ قاسٍ وردود فعله عنيفةٌ جداً، فلا حبٌّ هناك ولا وِئام ولا تسامُح ولا سُرور، تجد بيتاً يحوي كلَّ شيء إلا الحبَّ، فهو بذلك خاوٍ من كلِّ شيء؛ فالإنسان بالحكمة يسعد ومن دون الحكمة يشقى، سمعتُ أن أحد العلماء ألَّف حَوْل هذه الآية كتاباً من دفَّتِه إلى دفَّته: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾.

وهناك زوجاتٌ بالحكمة أصْبحن أودّ وأرحم زوجات، كأنهن بالود والرحمة أمهات، وهناك زوجات بالحُمق أصبحن أسوأ زوجات كأنهن ثعابين، كلُّ هذا من

الزوج؛ فهذا كلَّ يوم يقسو على زوجته ويغلظ لها القول، وليله ونهاره وراء عيوبِها ليحطّ من شأنها ويُحطِّمها حتى تصل إلى أن تجابهه وتردَّ عليه ردّاً عنيفاً، فيدمِّر الوُدّ الذي بينه وبينها، أمَّا المؤمن فيحمد الله على كلِّ شيء، فلن تجد إنساناً له كمال مطلق، أمَّا الحكمة فإنها تجعل النقص كمالاً، والحُمقُ يجعل الكمالَ نقْصاً، فانتبه؛ اتصالُك بالله يُعطيك الحكمة، وذِكْرك اللهَ عز وجل يُعطيك الحكمة، وتلاوة القرآن تعطيك الحكمة، والحكمة أن تسْعد في الدنيا والآخرة، والسعادة أن تكون مع الحكيم، وأنت تحتاج إلى الحكمة كلَّ ساعة، بل كلَّ دقيقة، وبلا حكمة يشقى الإنسان ويَردى.

اللهم يا ذا الجلال والإكرام آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

اللهم ألهمنا الصواب والحكمة في أقوالنا وأعمالنا وارْضَ عنا يا كريم.

بهذا نكون قد أنْهَينا الحديث حول هذا الفعل الإلهي وهو إيتاء الحكمة، والله الموفِّق، كما انتهينا من مجمل البحث الذي وفق الله إليه، وهو دراسة أسماء الله الحسنى، وبعض صفاته وأفعاله الفضلى كما مرَّ بكم، ونضرع إلى المولى سبحانه بالنفع والقبول.

وصلى الله على محمد الرسول وعلى آله وصحبه وسلم.

بحمد الله تم

فهرس